



سعيد الأفغاني

استواق العرب

في الجاهلية والإسلام

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

جميع الحقوق محفوظة المؤلف

الطبعة الثالثة ١٩٧٤ م — ١٣٩٤ هـ

مقدمة الطبعة الثانية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أقدم الطبعة الثانية من كتابي (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام)
منقحة مزبداً فيها فوائد عزيزة غزيرة ، آملاً أن يكون لي نصيب
- ولو ضئيلاً - في سد فجوة من الفجوات في تاريخنا الحبيب . والحق
أن الطبعة الأولى كأنها لم تكن إذ لم يطبع للبيع إلا ثلاثمائة نسخة
استنفدت دمشق حينئذ كلها تقريباً .

ووددت لو استطعت الإشراف على هذه الطبعة ، ولا أظن الدار
التي ستنشر الكتاب إلا بإذلة جهدها في أن تفضل هذه الطبعة سابقتها
صحة وجمالاً .

ولا يعني - في هذه المناسبة - إلا شكر العلماء والادباء من العرب
والمستشرقين الذين استقبلوا الطبعة الأولى من الكتاب استقبالاً ما كنت
أطمع ببعضه ، حامداً لهم عنايتهم ببحرته وثناءهم على صاحبه ، مقدراً
حسن ظنهم واقتراحاتهم المشكورة أحسن تقدير ؛ وأخص بالذكر
صديقي العلامة المرحوم المستشرق سالم الكرنكوي (فريتز كرنكو) فقد
لقيت من نبلة في خدمة العلم ما أتمنى أن نتحلى به جميعاً .

هذا وقد أقيمت المقدمة على حالها وإن رغب إليّ بعض المستشرقين
في حذفها لأنها تفتح العيون على حملة منظمة علينا ، متعددة الميادين ، ولهم هم
أنفسهم دور ناجح في أحد ميادينها ؛ أبقيتها لأنها تؤرخ نواحي اجتماعية

واقتصادية وسياسية في حياة الشام في فترة من الفترات ، وتشير الى
ظاهرة روحية قلقة سادت البلد إبان قيام (سوق دمشق ومعرضها
عام ١٩٣٦ م) ، ثم هي في الوقت نفسه تاريخ (لظروف)
تأليف الكتاب .

والله أسأل أن يجعلنا أبداً مفيدين مستفيدين ، ويزقنا
الاخلاص والصدق .

سعيد الوائلي

دمشق ١٣٧٩ هـ
١٩٦٠ م

بين يدي الكتاب

سبق لمدينة دمشق ، أن أقامت سنة ١٩٢٧ م معرضاً للثمار والفواكه افتتح يوم الاثنين ثاني عشر تشرين الثاني ، دام خمسة أيام واشترك فيه (١٥٠٠) عارض من مختلف بقاع الشام (سورية) ، وكان أثره في نهضة الزراعة وانتعاشها مباركاً محموداً : علّم الزراع ما لم يكونوا يعلمون ، وحمل الى الناس ما تنتج أرض الوطن في مختلف البقاع من ثمار تتشابه في النوع وتتنافس في الصفة ، فأغنى الناس بعض الإغناء عن رحلة زراعية واسعة في البلاد السورية ، ووفر عليهم زمناً ومشقة وأموالاً ، وخطا في سبيل تعليم الجمهور خطوة ميسرة العاقبة . ورأى فيه الزارعون من بعنى بهم ويريد لهم الخير واطراد الرقي ، وتسابق فيه العارضون وفاز المعتمي بثماره منهم بجوائز المعرض ، وزاره من الرجال والنساء والأطفال ما يزيد عددهم على الاحد عشر ألفاً^(١).

ثم أقامت معرضاً ثانياً للصناعات الشرقية في المجمع العلمي العربي (المدونة العادلية في باب البريد) افتتح يوم الثامن من آذار سنة ١٩٢٨ م ، فخصصت الردهة الكبرى للآثار الشرقية الحديثة ، ولم يسعف الزمن القصير أن تشترك فيه مدن الشام فاقصر على دمشق ، وكانت ماعرض فيه (٦٢٧) من القطع المنوعة من د السجاد والنحاس والاختشاب والأسلحة والمخطوطات والجلود والصور والأقمشة وكل ما هو

(١) انظر التقرير الذي رفعه رئيس لجنة إدارة المعرض الى وزير الزراعة والتجارة يومئذ السيد نصوح البخاري .

من القنون الجميلة . ، و « كان الاقبال على معرض الصناعات فوق ما كان يرجى وذلك لتعطش الجمهور لمثل هذه المظاهر الفنية والصناعية واهتمامه بالنهضة الاقتصادية . وقد زار المعرض نيف واربعون ألفاً في خلال ثمانية الايام (٨ - ١٥ حزيران) التي ظلت ابوابه مفتحة فيها ، منهم ثلاثة عشر ألف سيدة . ، و « كانت نتائج المعرض مرضية محسوسة ، شعر بها من عرضوا مصنوعاتهم في القاعتين الخاصتين بالنفائس والاعلاق النفيسة ^(١) . »

والمعرض الشامي الثالث كان للصناعات الوطنية ، اقيم في صرح الجامعة السورية ، في شهر آب سنة ١٩٢٩ وعرض فيه مصنوعات المناسج على اختلافها والمصابغ والمطابع والمطاحن والمزاييت والمصان عدا النفائس الشامية من القطع الخشبية والنحاسية والمصوغات ، هذا الى ما اشتهرت به دمشق من عمل (السكاكر) والمربيات والزجاج . الخ وكان الاقبال على هذا المعرض أكثر من سابقه لشموله أكثر صناعات الشام واشتراك مدن سورية الشمالية . وقد تجلّت فيه مواهب العرب في سورية واستعدادهم للاسهام في الصناعات العالمية . وقوي الأمل في أحفاد من أقاموا بأيديهم وفكرهم وجهودهم ، المجد الصناعي لقرطبة وبغداد ودمشق ومصر ، يوم لم تكن صناعة إلا صناعتنا ولا حضارة إلا ماتنعم به الانسانية على يدنا وبمسعانا .

وفي ربيع هذا العام (١٩٣٦ م) قامت الاستعدادات على قدم وساق لإنشاء معرض عام يمثل ذكاء العربي وتقدمه في جميع المناحي . وقد وافق هذا التأهب كلياً من الزمان وحرّياً من العدو ، وقرأ

(١) انظر التقرير الخامس بأعمال الجمع العلمي العربي سنة ١٩٢٨ ص ٣٨

عاماً ومضية شاملة ، فكان الناس مشغولين بذوات أنفسهم مما سواها ،
فالسبأ شحيحة ما تبض بقطرة ، والارض مجدبة ما تهتز عن خضرة ،
والموارد فاضبة لا تسعف ، وأجزاء البلاد يُزجى فيها السموم وتثبت بينها
العقارب ، حتى خبطتها فتنة عمياء تنكّر فيها الساحلي للداخلي ، ونجهم
العربي للعربي ، رغم الدم الصارخ في عروقها من الفرقة ، الداعي لها
الى الإلفة والاتحاد . وغدّى هذا الشر أناس أقيسوا لهدوا الناس الى
الخير والاخوة والمحبة والسلام ، فكانوا دعاة للشر وعمالاً على الإفساد
والتفريق والشقاء . وجعلوا من الدين الذي أنزله الله ليزيد الاواصر
قوة والوشائج لحمة ، ويفيض على القربى والرحم محبة ورحمة ، وتعاوناً
وعطفاً ... جعلوا من هذا الدين وسائل سافلة تستغل سذاجة العامي
الغفل ، وقوه عليه السم بالدم ، ليسعى الى حتفه بظلفه ويقتل نفسه
وأخاه معاً .

بهذا اشتغل الناس يومئذ وحق لهم الشغل والتفكير في هذه القطيعة
المجرمة ، إذ متى غاش رأس بلا جسم وهل استغنى قلب عن ورید
وشريان ، وأين شرع الله للجارين من جنس واحد أن يعملأ على
شقائهما معاً ، ويسعيا الى التعس السعي الحثيث ، ويزجا بأعقابهما وذراعيهما
من بعدهما في العذاب الاليم والانقراض المحتم . ثم يُعملان في أبدانها
سلاحاً دسه العدو في أيديهما وهو يتربص بكليهما الشر لبسود دارهما
وحده لا شريك له ^(١) .

في غمرة هذه النزوات الطائشة ، وفي شدة مقاومة المقيد الذي شعر
أنه إنما يساق الى الموت وهو أشد ما يكون تعشقاً للحياة ونمساكاً

(١) أما الآن في سنة ١٩٦٠ فقد أزال الله الأجنبي فزال بزواله أكثر ما بذر من اسباب
القطيعة وعاش الإخوان كل في داره جيراناً متحابين .

محبالها ، قام « معرض دمشق وسوقها » وأعلن في أقطار الشرق موعد افتتاحه ! فاعجب إن كنت عابياً لهذه الامة الكريمة التي تنبض عروقها قوة غريبة وحيوية عنيفة ، إنها لم تشغلها مصيبة عن واجب : فما أهاب بها الداعي حتى هبت هبة واحدة تنظم معرضها وتمده بكل ما في بقاع الوطن من نخفة فريدة في بابها . وزحفت صناعات الشام تتمثل في المعرض للعالمين ، وازدهى هذا المعرض بعقربة الوطن تتجلى في الفكر الخصب واليد الصانع .

* * *

افتتح المعرض مساء الاحد الحادي والثلاثين من حزيران سنة ١٩٣٦ م ، في مدرسة التجهيز الجديدة ، حيث أجمل بقعة في دمشق وأنزهها وأحفلها بآثار العرب في القديم والحديث : فصروح الجامعة السورية الحديثة وبناء دار الآثار ونزل « خوام » عن يمين بردى .. الى جانب القباب الاثرية والمآذن الشاهقة ، تلك تقفك على نشاط العربي ابن العصر العشرين وهذه تذكرك بعنفوان مجده في القديم .

ومن غريب الاتفاق أن تقوم معارض دمشق الثلاثة ، في المجمع العلمي العربي (كان) ، والجامعة السورية ومدرسة التجهيز : أكبر المعاهد العلمية وأعودها بالخير على البلاد ، لتثير في الناس أثرين مزدوجين ، يرتبطان أشد الارتباط ، ولا ينفكان مرتبطين أبداً او يفنيا معاً : عبقرية الفكر وعقربة اليد . لا تقوم حضارة على علم وحده ولا على صناعة وحدها ، ولا بد من الاثنين معاً . وقد فهمنا هذه الظاهرة وأخذنا في العمل لتحقيقها ، وقطعنا في هذا أسواطاً نسأل الله أن يراها بعنايته حتى نبلغ بها الغاية .

* * *

وهناك اتفاق آخر فطن له كثيرون ، وعجبوا له العجب كله وهو افتتاح المعرض في ليلة ذكرى المولد النبوي ، في الليلة التي يستعيد فيها المسلمون ذكرى ما قدموا للانسانية من نظم وحضارة وعدل وسعادة ، في الليلة التي ولد في مثلها قبل أربعة عشر قرناً ، خير طفل حملته الارض ، وكان له يد ومنة على كل من نعم بسعادة وشمل برحة وتمتع بعدل واغتبط بعرفان .

افتتح معرض دمشق وسوقها في مساء الليلة التي يقول فيها المسلم والعربي غير المسلم: كان منا هادٍ أفاض الرحمة على الانسان والحيوان والجماد ... فتفائل الناس خيراً وأيقنوا أنهم لا يد بادئون تاريخهم من جديد وقد ولد ليلة المولد هذا المعرض ، وهو فاتحة مباركة في تاريخ بعثنا الحديث إن شاء الله .

فإننا كما شرعنا نصل حلقات السلسلة التي انقطعت ، بجهادنا للحرية والحق ، والعدل والنور ، افتتحنا ليلتنا هذه بوصول حلقة مجدنا الصناعي والتجاري . وإن الانسانية تنتظر على أحر من الجمر ، وبفارغ الصبر ، الشعب الذي نعمت في ظلاله ليتبوا مكانه من جديد ويقوم برسائله في هذا العالم الذي ملأ اليوم رذيلة وعسفاً ومادية . وإن انتعاش الشعب العربي انتعاش للخير والانسانية ، ونصرته نصره للعدل والعرمان ، وما كانت الانسانية لتنسى الذين كانت على عهدهم حقائق ملموسة فأصبحت اليوم طلاءً ودهاناً ، بل الانسانية اليوم - إذا دققنا في حقيقة أعمال من يدعون حمايتها - شقاء باسم السعادة ، وظلم باسم الرحمة ، ووحشية باسم الحضارة ، ولصوصية باسم الحق ، ودناءة وحطة وإماتة ضمير وخذلان خلق وبهيمية ... باسم التمدن ..

كنت في هذا الجو من الغبطة والذكرى والتأثر ، لما عرضت في ذهني حلقات تاريخنا وأين انقطعت كل حلقة ومتى عهدنا بوصلها . فكان أول ما جال في خاطري وأنا في معرض دمشق وسوقها : أسواق العرب في الجاهلية والاسلام ، وكيف كانت تزخر بالناس من تجار وصناع ، وأدباء وشعراء وخطباء ، وساسة وأشراف ...

عجبت لهذه الذكرى وقد أعاد هذا المعرض لنا أسواقنا - مع مراعاة الفارق بين الزمانين - وذكرت أن الجمع العالمي بدمشق - وكان إذ ذاك اسماً على مسمى - سيقوم بمهرجان للمتبني في آخر أسبوع من تموز ، وقد اختار لهذا المهرجان مكان المعرض وزمانه ، لثم لنا صورة عن أسواق العرب ومحافلهم فيها . فكملت بهذا أداة هذه السوق العربية الكبرى بما سيلقى فيها من أدب وشعر وعلم ، وبمن سيؤمها من العلماء والادباء من المشرق والمغرب : عرباً وأجانب ومستشرقين . وأصبح من كان يتمنى أن ينعم بمראى عكاظ في الجاهلية يستطيع أن يشهد عكاظ العرب في القرن العشرين ، فينظر كيف انقلب الزمن وكما قطعت الحضارة بين العكاظين من أسواط .

ولعل القارئ أحسّ بما قدمت مقدار الحاجة الى بحث يعرض لأسواق العرب وما كانت عليه في الجاهلية والاسلام ، وما قامت به من عمل في خير العرب ولغتهم ، ليقف على شأنها في تاريخنا ويستطيع أن يفاضل بين رسالتها قديماً ورسالة المعارض حديثاً . وما زالت هذه الاسواق تقتعد الذروة من اهتمام الأمم مذكاة اليونان وأولمبياهم وأعيادهم . وقد رغب إليّ من أَرْضِي رأيه أن أسد هذه الثغرة في المكتبة العربية فعكفت على أمّات المصادر - وهي في موضوعنا هذا جسد شحيحة - أنقب فيها وأفلها لاخلص منها بكل مايفيدني في بحثي حتى تمت لي مادة

هذا الكتاب الذي تنحصر بحوثه بين عهد الجاهلية والقرن الثاني للهجرة .
ولعل الله ييسر لي في المستقبل أن أصل هذا البحث عصرأ فعصرأ في
أمصار العرب حتى عصرنا الحاضر .

ومن مارس التنقيب في مصادرها العربية ، القديمة منها خاصة ، واطلع
على ماترخر به من كنوز مبعثرة هنا وهناك ، لاتفجعها جامعة ما ،
عرف مقدار العنت والنصب اللذين يتعرض لهما الباحث ، ولا سيما في
موضوع كهذا لم يعالج بعد . وأنا أعني القارئ من وصف مألقت
من عناء فما أريد أن أمن عليه وحسي أن أكون في وجداني قد أبلغت
نفسي عذرها .

وقد مهدت للكلام علي الاسواق ببجوت رأيها لازمة ، وثيقة
العلاقة بموضوعي كيبوع الجاهلية ورباها وأسببت في الكلام على قریش
لأنهم في الحقيقة هم عنوان الفريق التاجر من العرب وحرصت كل الحرص
أن أنقل القارئ إلى جو تلك الاسواق فيراها كما هي .

سيكون في هذه البجوت أدب جم وتاريخ كثير كما فيها صناعة
وتجارة ، وستعرض فيها عادات العرب في أسواقها ومجالسها الادبية
وبلاغتها النثرية والشعرية ، حتى النحو سيكون له بعض النصيب لان
إحدى الاسواق كانت تقصد من أجل مادة يستعين بها النحو في تنظيم
قواعده وتبويب فصوله .

وبعض هذه الحوادث والاخبار والاشعار التي سأعرضها - وإن كان
مظنة أنه مصنوع - قد اجتهد صانعه أن يقلد فيحسن التقليد ويحاكي
الاصل فيحكم الحكاية ، فإن شككنا في نسبة الخبر لم نشك أبداً فيما يدل عليه
أو يستخلص منه . وذكرنا من هذه الاحداث هنات جوزت لنفسي
نقلها في هذا الكتاب مع نصريحها بما يحتشم منه ، لأنها لاتتم الصورة

إلا بها ولأني أحرص على أن يتمثل القارىء حالة الاسواق تمثلاً صادقاً
صحيحاً كاملاً على قدر الامكان .

وقد عنيت بشرح ما يشكل من غريب أو معنى مغلق ، لأكون
قد بلغت جهدي واستفرغت وسعي في الاجتهاد لأن يكون هذا العمل
أقرب من كمال وأبعد من نقص . وأنا أشكر لمن أطلعني على عيب
أو نبهني لإصلاحه ، فما يزال الانسان بحاجة الى من ينهيه ويصلح عمله .
والله المستعان ومنه الرضى والمنوبة .

غرة ربيع الثاني سنة ١٣٥٥ هـ و ٢ حزيران سنة ١٩٣٦ م .

سعيد الرفاعي

الباب الأول

شؤون العرب التجارية

بين الجاهلية والإسلام

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تجارة العرب

لبلاذ العرب موقع جغرافي متوسط ، بين بلاد أعظم الدول وأقدم الحضارات . فإلى شمالها الشرقي بلاد فارس وإلى شمالها الغربي بلاد الروم ومصر ، وإلى غربها الجنوبي وراء البحر بلاد الحبشة وفي جنوبها البحر الهندي الذي يفصلها عن بلاد الهند .

ولا نكون إلى الغلو إذا قلنا إن معظم تجارات العالم منذ القديم حتى القرون الوسطى هي بين هذه البلاد التي عددنا . فالدولتان العظيمتان اللتان تنازعتا النفوذ والسيادة في العالم ، وهما فارس والروم ، كانتا على علاقات تجارية وسياسية مع بلاد العرب في الشمال والجنوب . وقل نحواً من ذلك في علاقة الحبشة والهند مع اليمن وعمان والبحرين ، وإن كانت علاقة أضيق حدوداً .

، كان لاهو اصلاات التجارية في جزيرة العرب طريقان أحدهما شرقي يصل عمان بالعراق وينقل بضائع اليمن والهند وفارس برأثم يجوز غرب العراق إلى البادية حتى ينتهي به المطاف في اسواق الشام ،

يمر التجار فيه على أسواق اليمن والعراق وتدمر وسورية ويبيعون في كل قطر ما لا يكون فيه ويأخذون منه إلى غيره ما يروج فيه .
والطريق الثاني وهو الأهم غربي يصل اليمن بالشام مجتازاً بلاد اليمن والحجاز ناقلاً أيضاً بضائع اليمن والحبشة والهند إلى الشام وبضائع الشام إلى اليمن حيث تصدر إلى الحبشة وإلى الهند في البحر .

وقد أطمع هذا الموقع الجغرافي لبلاد العرب كثيراً من الفاتحين فغزاهم الاسكندر فارتد عنها في غير طائل ، وطمع فيها قديماً ملوك الفرس وبابل ونيوى ومصر . والغريب أنها احتفظت بمكانتها هذه حتى العصر الأخير إذ بسط سلطانهم شرقي الجزيرة وغربها فلكوا « عدن » ميناء اليمن الطبيعي ^(١) حيث ترسو السفن من الحبشة ومن الهند وملكوا العقبة ^(٢) « أيلة » محط رحال القوافل العربية في القديم وأول الثغور الرومانية التي يحملها تجار العرب ، ففازت لإنجلترا بمناطق نفوذ على هذين الخطين التجاريين ضمناً لطريق الهند وتجارتهما .

كان من المعقول أن يمارس كثير من العرب التجارة رجالاً

(١) وبه يسمى البحر فيقال بحر عدن - انظر طبقات الامم اصاعد: ص ٧١

(٢) كان ذلك قبل أن يستقل شرق الاردن باسم المملكة الاردنية الهاشمية

ونساء ، وخاصة الذين تقع بلادهم قريبة من إحدى هاتين الطريقين ،
ومن لم يتاجر منهم أفاد من التجارة بالواسطة فعمل في هذه القوافل إما
دليلاً وإما سائقاً وإما منتظماً في جملة حماتها الذين يؤجرون أنفسهم
وسلاحهم ودوابهم فيها .

ولم يبعد اسطرابون حين قال : « العرب تجار وسماصة »
و « قوم تجارة وبيع وشراء ولذلك لم يكونوا أمة حرب لا بالبر
ولا بالبحر »^(١)

وقد شغلت دول العرب القديمة كتدمر وسبأ والمعينيين ،
المراكز الممتازة في تجارة الشرق حتى ذكرتهم التوراة ووصفت
ثروتهم وتجارتهن . وحمل أهل تدمر في القديم إلى مصر وجنوب أوربة
صادرات بلاد العرب والعراق والهند وكانت النفائس التي يحملها
التدمريون من بلاد الشرق أمثني ما يتغالي به الملوك القياصرة .

توسط تدمر بين الدولتين الفارسية والرومانية ، بين العراق
والشام وجزيرة العرب جعلها محطة القوافل جميعاً بين هذه الاقطار
منذ أقدم العصور ، فازدهرت تجارتها وعظم غناها واشتهرت أسواقها

(١) انظر مجلة المجمع العلمي العراقي ٢٦٤/٢

حتى أصبحت « قبلة التجار من الهند والفرس (وجزيرة العرب)
والعراق وسورية وفلسطين ومصر وأوربة ...

وكانت روما التي خضع لنيروها أغلب العالم القديم تهاب قبائل
تدمر وتتودد اليها وتقدم لها الهدايا وتوفد اليها الوفود ... وعرفت
تدمر كيف تستثمر في ظروف كثيرة منافسة الدولة الفارسية والدولة
الرومانية لمصلحتها التجارية ،^(١)

ولما ازدهرت الدولة المعينية في اليمن تعاطى أهلها التجارة
وساعدتهم عليها امتداد نفوذهم حتى شواطئ البحر المتوسط ومواني
خليج العجم .

أما سبأ فليس مكان غناها وتجارها بالمجهول فقد ذكرت التوراة
أن ملكة سبأ « قدمت الى سليمان (١٢٠) وزنة ذهب وأطيباً كثيرة
جداً وحجارة كريمة »^(٢) وحسبك هذا دليلاً على وفرة مالها وخيراتها .
والسبئيون قديماً أغنى العرب ثروة وأوسعهم تجارة ، يحملون ما يأتيهم
من بضائع الحبشة والهند إلى مصر والشام والعراق فبسطوا بذلك

(١) انظر (تاريخ اللغات السامية) لإسرائيل ولفنسون ص ١٢٧ ، ١٢٨

(٢) انظر سفر الملوك الاول من العهد القديم : الإصحاح العاشر

نقوذهم التجاري واستأثروا بالتجارة بين تلك الاقطار المذكورة .

جاء في تاريخ العرب الأدبي (١) (نيكلسون) (٢) :

« قال مولر : قامت السفن منذ زمن بعيد تتمخر عباب المياه بين
مواني بلاد العرب الشرقية والهند ، محملة بالبضائع وكانت منتجاتها
الأخيرة وخاصة الطيب والبخور والحيوانات النادرة (كالقردة
والطواويس) تنقل الى ساحل عمان ، ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد
كانت لهم دراية بالخليج الفارسي حيث كانوا ييممون شطر مصر
يبيعون فراغتها وأمراءها بضائعهم ، وقد كانت صعوبة الملاحة في
البحر الأحمر سبباً في تفضيل الطريق البري للتجارة بين اليمن
وسورية ، وكانت القوافل تقوم من « شبت » في حضرموت وتذهب
الى مأرب عاصمة سبأ ، ثم تتجه شمالاً الى مكرّبة (مكة فيما بعد)
وتظل في طريقها من بتراحتى غزة المطلة على البحر الأبيض المتوسط ،
وظل رخاء السبئيين قائماً حتى أخذت التجارة الهندية تهجر البر وتسلك
عبر البحر على طول شواطئ حضرموت وخلال مضيق باب المندب .
وكانت نتيجة هذا التغير - الذي يظهر أنه حدث في القرن الاول

(١) ترجمة حسن حبشي في العدد (١٧٥) من مجلة الرسالة

للعيلاد - أن أخذت قوتهم تتضعضع شيئاً فشيئاً ،
وحل محل هؤلاء ، الحميريون الذين جعلوا عرب الحجاز تحت
سيطرتهم فاستخدموهم في نقل تجارتهم إلى أن تخلص الحجازيون منهم
وصاروا هم نقلة التجارة في الجزيرة قبيل البعثة .

قام اليمينيون في القديم إذاً بنقل المتاجرين بلاد العرب والبلاد
المجاورة وظل ذلك دأبهم على اختلاف دولهم في الأزمان التي تقدمت
القرن السادس الميلادي ، فاستأثروا بتجارة الجزيرة مع غيرها من
الممالك ، يحملون التمر والزيب والأدم والبخور والحجارة الكريمة
والمنسوجات من مواطنها ثم يستبدلون بها بضائع أخرى ، مع
ما يصنعون هم أنفسهم من الأطياب والعطور التي يتخذونها في بلادهم
ويبيعونها في أسواق العالم القديم : آسية وإفريقية وأوربة . فكانوا
حيناً غير قصير مشرفين على تجارة العالم كله .

وقد نشأت مع الزمن وسط هذه الطريق التي كثيراً ما سلكوها
قبل الميلاد ، محطتان تجاريتان عظيمتان هما مكة والمدينة ^(١) . وعظم

(١) وقبل هذا الزمن ازدهرت تباء وأيلة (العقبة) وبلغ شمالي الحجاز
فكانت محط القوافل الكبرى ومراكز ممتازة للتجارات وبيوت المال ، منها
يقسوق العالم الروماني والبيرواني معظم ما يحتاج إليه .

أمرهما وصار أهلها يشاركون في الاتجار قبائل اليمن . فلما كابت
القرن السادس انتقلت التجارة من أيدي اليمنيين للتدريج ، الى قريش
القبيلة المكية التي ارتفع أمرها وقويت ونشطت وبدأت تحل محل
الأولين في الاستئثار بتجارة جزيرة العرب ، ولا سيما عند اضطراب
الأمن وتعذر المرور على الأحباش والأنباط ، وكان وقوع الحروب
والأزمات والمنافسات بين فارس والروم من أعظم العوامل في نشأة
التجارة المكية وازدهارها . إلا ما كان من تجارة فارس ، فإنها بقيت
في أيدي عرب الحيرة وهم يمانون .

كانت أقطار العرب غير متساوية في الخصائص والمرافق ، فبينما
نجد نجداً أرضاً قاحلة رملية لازراعة لأهلها ، نجد في اليمن مزارع
خصيبة تفيض بالخير الواسع . ونجد بعض مدن الحجاز كمكة تشبه نجداً
في جذبها وبعضاً آخر فيه مزارع ونخيل كالمدينة والطائف وان لم
تكونا بدرجة اليمن ، قال الألوسي : « وأما أهل اليمن وعمان
والبحرين وهجر فكانت تجاراتهم كثيرة ومعاشهم وافرة ، لما في
بلادهم من الخصب والرخاء والذخائر المتنوعة والمعادن الجيدة وغير
ذلك من أسباب الثروة والغنى . وأما أهل نجد فكانوا دون غيرهم في
الثروة والتجارة لما ان الغالب على أرضهم الرمال فكانت بلادهم دون

بلاد سائر العرب في رفاهية العيش ورواج التجارة . « على أن لطيفه
ومنازلها أواسط نجد شهرة في الاتجار شمالي جزيرة العرب هذا عدا
أخلاقاً من أمم شتى تتسرب تجارهم الى الجزيرة ، وأكثر هؤلاء هم
الأنباط فقد بقوا حتى بعد ظهور الاسلام يجلبون الزيت من الشام
الى المدينة .

ولا بد لنا من التنبيه على حدة : الى العنصرين التجاريين اللذين
عملوا في بلاد العرب وهما الأنباط واليهود ، فقد كان الأولون
يختلفون بين بلاد الشام والحجاز والعراق في الجاهلية . وكان أكثر
ما يحملون من بضائع على ما علمت الزيت والدرمك « دقيق الحواري^(١) »
يحملونها من الشام الى الحجاز والى العراق ويرجعون من هذين القطرين
بالأدم والتمر وغيرهما من الحاصلات ، فكانوا يشاركون القوافل
العربية في تجارتها وقيمون لأنفسهم أسواقاً في البلاد العربية ذاتها ؛
فابن سعد يذكر أن هاشماً في بعض أسفاره الى المدينة « نزل
بسوق النبط فصادف سوقاً تقوم بها في السنة يحشدون لها .^(٢) » ولما

(١) الحواري : لباب الدقيق وكل ما حوّر أي بيّض من طعام .

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٤٥ ، وانظر شرح المواهب ج ٣ ص ٢٣

كانت الفتوحات والغزوات قام الأنباط التجار بمهمة نقل الأخبار بين الشام والحجاز (١) .

وأما اليهود فقد كانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد كأبي رافع الخيري الذي أرسل بضاعته بوساطة القوافل إلى الشام واستورد منها الأقمشة المختلفة . ويمكن أن يقال إن تجارة البلح والشعير والقمح كانت خاصة بهم في شمال الحجاز (٢) .

لكن شأن اليهود فاق شأن الأنباط لاستيطانهم في جزيرة العرب فاستفحل أمرهم وزاحموا السكان الأصليين على مرافقهم وكانت لهم خبرة في الزراعة والتجارة وتنمية المال فاستغنوا وبنوا لأنفسهم القرى والمزارع والحصون ، وأشهر مراكزهم العمة في المدينة وخيبر .

ومما تجدر ملاحظته أنهم بعد أن شاركهم في مغائهم التجارية

(١) ومن هؤلاء الأنباط التجار علم الرسول بتجمع الروم على الحدود فأخذ أمته وأخفى جهته في الغزوة المشهورة غزوة تبوك - انظر شرح الزرقاني للمواهب ٦٣/٣

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٨

أهل يثرب وخاف اليهود هذه المزاحمة وكانوا عاجزين عن التغلب على
اليثريين قوة وغنوة ، لجؤوا الى الايقاع بين الحيين الأوس والخزرج
فلما وقعت العداوة واتصلت الحروب جعل اليهود يضرمون نارها
كلما خمدت ، فشغلوا بعضاً ببعض وانصرفوا هم الى تجارتهم وإنماء
ثروتهم . فلما هاجر المسلمون الى المدينة وأسلم أهلها ، بغى اليهود
الفوائل لهم وصاروا يحرضون عليهم المشركين من قبائل العرب
وينقضون عهودهم للنبي ، ويطعنون المسلمين ، من خلفهم ، إزاء ذلك
رأى النبي ضرورة التخلص منهم فأجلى بني قينقاع ثم بني النضير
فحطوا بأذرعات من أرض الشام ثم تخلص من بني قريظة ^(١) أيضاً ،
فخلت المدينة وماحولها من جماعاتهم وتحولت تجارتها الى أيدي
أهلها من العرب .

لا بدع في أن تكون التجارة من أول أسباب المعاش للحجازيين
فحكفوا عليها وتمادحوا بكسب المال وأخذوا يضربون في الأرض
يبتغون الرزق من هذه المهنة ، فعرفوا قبل الاسلام بكثير ، كثيراً
من مدن الشام كبصرى وغزة وأيلة والمشارف ، ومدن العراق

(١) انظر أسباب جلاء هذه القبائل اليهودية في كتب السيرة النبوية .

واليمن وحتى مصر فقد رووا أن نفراً من بني مالك أجمعوا على الوفود إلى المقوقس وأهدوا له هدايا^(١) وذكروا أن ابن جدعان أتى مصر ببضاعة فباعها ورجع إلى عكاظ .

ولم يحاول انتزاع تجارتهم هذه منهم أحد، إلا ما ذكرنا من أمر الحبشة التي أرادت الاستيلاء على مكة نفسها ، المركز التجاري العظيم في جزيرة العرب . وقدّر بعضهم ما يشتريه العالم الروماني من طيوب بلاد العرب والفرس والصين بقيمة مئة مليون من الدراهم ... وكانت صيدون (صيدا) من أشهر الأسواق العطرية^(٢) .

« ووصل المكيون قبيل الاسلام — عندما كان العداء بين الفرس والروم بالغاً منتهاه — إلى درجة عظيمة في التجارة ، وكان على تجارة مكة اعتماد الروم في كثير من شؤونهم ، حتى فيما يترفعون به — كالحرير — وحتى استظهر بعض مؤرخي الإفرنج أنه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية والتجسس على أحوال العرب ، كذلك كان فيها أحايث ينظرون في مصالح قومهم التجارية^(٣) .

(١) طبقات ابن سعد

(٢) مجلة المشرق (السنة ٣٥ ص ٣٢٤)

(٣) فجر الاسلام ص ١٥

واشتهر كل قطر بما يصنع أو يصدر من متاع ، فالسيوف والبرود لليمن قال الأصمعي : « أربعة قدماء الدنيا ولا تكون إلا في اليمن : الروس والكنندرو والخطر^(١) والعقيق ، وقالوا « برود اليمن وربط الشام وأردية مصر^(٢) »

ولعل ما ذكره الثعالبي من غنى الحجاز في الاسلام ، صحيح الى حد بعيد فيما كان عليه من قبل ، قال^(٣) : « وكان يحمل من مكة والمدينة والحجاز كل عام الى السلطان من العنبر^(٤) ثمانون رطلاً ومن المتاع أربعة آلاف ثوب ومن الزيب ثلاثمائة راحلة ، وكان من أعجب ما يأتي النجاشي من مكة الأدم^(٥) »

(١) الكندر : غرب من الملك نافع لقطع البلغم جداً « القاموس » - أما الخطر فنبات يختضب به .

(٢) غار القلوب ، ص ، ٤٢٤ - هذا وقد يجد الباحث في مطاوي الاخبار كثيراً من الاشارات العارضة لصنوف البضائع والحاصلات التي عرف بها كل قطر من مثل قول ابن عساكر في ترجمة طلحة : « روى ابن سعد أن رسول الله ﷺ لما ارتحل الى المدينة لقيه طلحة جائياً من الشام في غير ، فكسا رسول الله وأبا بكر من ثياب الشام ، وخبره أن من بالمدينة من المسلمين استبطؤوه .. الخ - تهذيب ابن عساكر ٧٣/٧

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٢٦

(٤) مدح الاعشى سلامة ذافاش فأعطاه كرسياً مدبوغة بماء عذراً ، فباعها الاعشى بثلاثمائة ناقة حمراء - الاغانى ٩/١٢٥ طبعة دار الكتب .

(٥) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٠٣

وبذكر آخرون أن مكة أصبحت أكبر سوق للرقيق^(١)
هذا وهناك أيضاً بلدان اختصت بضرب من العروض أو
الصناعة فتقصد لما عرفت به كالطائف فإنه يحمل إليها الأدم فيدبغ
فيها ، قال الهمداني : « الطائف مدينة قديمة جاهلية وهي بلد الدباغ ،
يدبغ بها الألب الطائفية المعروفة . »^(٢) ثم يصدر عنها إلى الحبشة
وغيرها ، وكهجر والبحرين حيث التمر الجيد المنقطع النظير ، وكالشم
ومشارفها حيث يحمل الزيت والزيب والخمر وغيرها .

ومما ضمن استمرار الحركة التجارية الداخلية والخارجية في جزيرة
العرب ، اختلاف أقطارها هذا الاختلاف في المحصول الصاد
والوارد وما أحسن قول الهمداني في ذلك :

« ولولا أن الله عز وجل خص بلطفه كل بلد من البلدان وأعطى
كل إقليم من الأقاليم بشيء منه غيرهم ، لبطلت التجارات وذهبت
الصناعات ، ولما تقرب أحد ولا سافر رجل ولتركوا التهادي وذهب
الشراء والبيع والاخذ والعطاء . إلا أن الله أعطى كل صقع في
كل حين نوعاً من الخيرات ومنع الآخرين ليسافر هذا إلى بلد هذا .

(١) مجلة المشرق : السنة ٣٥ ص ٨٣ فما بعد

(٢) الأكليل ج ٨ ص ١٢٠

ويستمع قوم بأمّعة قوم ليعتدل القسم وينتظم التدبير . قال الله عز وجل : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا » ^(٢) ، وقال الله تعالى : « وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا » ^(١) اهـ

★ ★ ★

بما يجب أن يتف عليه النظر والتأمل إشارات عارضة في صدد جدل القرآن الكريم لمشركي مكة ، فإن التأمل ليجد فيها دلالات بعيدة على عظم ما شغلت أمور التجارة من أفكارهم وخواطرهم ، وذلك عند مثل قول الله : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ^(٣) ، فالمفسرون يذكرون في سبب نزول الآية أن المشركين قالوا : « لم لا يوحى إليه ربه أثمان السلع فنشتريها حين ترخص ونبيعها حين تغلو فتزداد أموالنا .. »

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣٢

(٢) سورة السجدة ، الآية ١٠ . كتاب البلدان « ليدن » ص ٢٥١

(٣) سورة الاعراف ، الآية ١٨٨ وانظر الكلام عليها في : لباب النقول

في امصاب النزول للسيوطي وتفسير الخازن وغيرها .

هذا ولم يخفف الإسلام كثيراً من شغف العرب بالتجارة^(١) فقد استمروا فيه على ما كانوا عليه في الجاهلية ، وإذا استثنينا فترة الفتوح التي شغلهم كانت أحداثهم التجارية في الإسلام امتداداً لأحداثهم في الجاهلية مع مراعاة الظروف التي تغيرت كل التغير وشغل القرشيين بالجهاد فكان منهم عمال ومنهم قواد ومنهم قضاة الخ ... وخير ما يدلنا على بقاء ولوع القوم بالتجارة آية الجمعة :

كان المسلمون يجhezون العير إلى الشام - كما في الجاهلية - فذهب بأموالهم ومتاعهم فباع هناك ثم تحمل إلى الحجاز فتأتي المدينة ، وكانوا يستقبلونها بالطبل والتصفيق فرحاً بها ، فذكر المفسرون أن دحية بن خليفة الكلبي رجع مرة بتجارة زيت وطعام من الشام والذي ﷺ يخطب يوم الجمعة على منبر مسجد المدينة ، فاستقبلها الناس كهعادتهم

(١) جاء في الفائق للزمخشري : « قال قيس بن أبي غرزة : كنا نسمي السامرة على عهد رسول الله ﷺ ، فأنا ونحن بالبيع ، فسمنا باسم هو أحسن فقال : « يا معشر التجار » فاستمعنا إليه فقال : « إن هذا البيع يحضره الحلف والكذب فشوبوه بالصدقة » اهـ

فلعل (السامرة) كانت تطلق على صنف من مزاويل بعض أعمال التجارة الصغيرة كما تطلق لهذا هذا ، ولكن الرسول كان من خلقه أن يخاطب الناس بما يحبون .

بألفرح والطبول والتصفيق ، وخشي المصلون أن يسبقوا الى العير
فيفوتهم الربح فتركوا الرسول يخطب وبادروا اليها في البقيع ولم يبق
مع الرسول إلا اثنا عشر رجلاً فأُنزل الله تعالى في ذلك :

« وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوَاً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ
قَائِمًا » . (١)

وفي القرآن الكريم إشارة الى فاصل تاريخي في حياة مكة
التجارية ، وذلك حين نزل قول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا
الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ
هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ
شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » . (٢)

فلما حرم دخول مكة على المشركين سنة تسع للهجرة خشي
الناس الفقر بسبب انقطاع تجارة المشركين عنهم في المواسم ، فوعدهم
الله بغنى عن غير طريق التجارة ، فكان العوض - على ما ذكر المفسرون -
في المغانم والفتوح العاجلة .

(١) سورة الجمعة ، الآية ١١

(٢) سورة التوبة ٩ الآية ٢٩

كان لابد من أن تدخل أحوال العرب التجارية في طور جديد فاهتم الاسلام بأمر تجارتها وشرع لهم فيها ما يحتاجون إليه ، وطفح الحديث الشريف بأحكام البيع والشراء والاحتكار والديون والربا الخ ... وعني الخلفاء بعد الرسول عناية خاصة بالتجارة بعد أن هدأت مشاغل الفتوح أيام ابي بكر وعمر وعثمان ، ولناحظ أن فترة الفتوح نفسها لم تكن لتخلو من الاتجار حتى من عمال الخليفة أنفسهم ، وهذا خير ما يفسر لنا حرص القوم على حرفتهم ، واشتد عمر على عماله فلم يقبل منهم الاشتغال بالتجارة أبداً وصار يؤاخذ كل من فشا لهم غنى في قومهم فيدقق عليهم فإن اعتذروا بتجارة تجروها فربحوا منها صادرهم ولم يلق لعذرهم بالاً ، وكأنه يقول لهم: بهتكم عمالاً ولم أبهتكم تجاراً .

ومن حسن الاتفاق أن الخلفاء الثلاثة الأولين كانوا تجاراً ، فأبو بكر وعثمان كانا بزازين ، وعمر تجر في الجاهلية واستغنى في غزة ، وكان مبرطشاً [يكتري للناس الإبل والحميز يأخذ عليه جُعلاً ^(١)] أما علي فلم نعرف أنه تجر وقد ظهر الإسلام وهو صبي ومع هذا فقد

(١) انظر مادة برطش في (تاج العروس)

كان على علم من التجارة وأحوالها لأنها مهنة قومه جميعاً ولما ولي الخلافة لم يكن يجمل خطر التجارة وقيمتها . ومن الطريف حقاً أن ننقل بهذه المناسبة مرسوماً أصدره إلى عامله الأشر في التجار والصناع فإنه يدل على إحاطته بأسرار التجار وأخلاقهم ويعلمنا من جهة ثانية منزلة هذه الطبقة بين بقية الطبقات وما كان يعلق عليها من مهام ، قال من كلام له للأشتر :

ثم استوصِ بالتجار وذوي الصناعات وأوصِ بهم خيراً ،
المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق بيده ، فإنهم مواد المنافع
وأسباب المرافق وجلايها من المباع والمطارح ، في برك وبجرك ،
وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها .
فإنهم سلّم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته . وتفقد أمورهم
بحضرتك وفي حواشي بلادك ، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً
فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات وذلك
باب مضرّة للعامة وعيب على الولاية ، فامنع من الاحتكار فإن
رسول الله ﷺ منع منه . وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين
عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف

حُكْرَةٌ بعد نهيك إياه فنكل به وعاقبه من غير إصراف^(١) .

* * *

ولنا أن نستأنس بشيء آخر له خطره في الدلالة على ما شغلت
التجارة من حياة العرب وأفكارهم واهتمامهم ، وذلك هو اللغة
والأشعار والأمثال فإنها تكشف لنا الى حد بعيد ما كان عليه القوم
من عادات وأحوال : وأول ما نلاحظ في هذا الباب غنى اللغة
بالألفاظ التي تتعلق بالسفر وما إليها من حط وترحال ونزول على
الماء ووصف لدواب السفر وضروب سيرها ولسنا مبالغين اذا قلنا
إن أكثر القصائد في الجاهلية والإسلام يفتتحها صاحبها بذكر رحلته
وما لاقى فيها هو وراحلته من التعب والشقاء والضيق والعطش
والجوع ، عدا ما هنالك من ألفاظ كثيرة تتعلق بالبيع والشراء والصفقة
الراجعة والخاسرة . ولما كانت الخلقة ، لم يجد العرب لفظاً يدلون به
على بذل الطاعة للخليقة غير المبايعة^(٢) فاشتقوا لهذه الحال المستجدة

(١) شرح نهج البلاغة : لابن أبي الحديد ج ٤ ص ١٣٩

(٢) اتباعاً للقرآن الكريم حين عبر بهذه الكلمة التجارية عن معاهدة الصحابة

رسول الله يوم الحديبية على الثبات وعدم الفرار بقوله : « إن الذين يبايعونك =

كلمة من كلمات التجارة التي كانت الشغل الشاغل لهم . ونظرة واحدة الى مادة « باع » مثلاً في اللسان أو التاج توضح لنا المواضع التي استعيرت لها هذه الكلمة لتشبه أحوالاً مختلفة بحال من حالات البيع والشراء فقالوا مثلاً :

« بايعه بالخلافة ، وأخذ منه البيعة ، وباعه من السلطان اذا سعى به إليه ... الخ .

وكذلك اذا نظرنا الى مادتي « سام » و « سوق » وأمثال قولهم : نفقت السوق إذا راجت ، وانحسرت اذا كسدت . وبعته ناجزاً بناجز وبدأً ببدأ أفاظ أخرى سيمر بعضها بك حين الكلام على بيوع الجاهلية .

وهذا القاملي قد عقد في أماليه فصلاً في « ما يقال في وصف الرجل لا يملك شيئاً ^(١) » من مثل قولهم : ماله سبَد ولا لبَد ، ومطلباً

= لما يبايعون الله .. ، سورة الفتح ١٠/٤٨ وسميت البيعة ببيعة الرضوان وهناك أيضاً ببيعة النساء : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا ... فبايعنهن واستغفر لمن الله . » سورة الممتحنة ١٢/٦٠

آخر فيما يقال « لمن يصلح المال على يديه ^(١) » كقولهم : هو ترعيّة مال ، محجّن مال .. الخ . واقرأ ان شئت الفصل الذي كتبه في « دعاء العرب ^(٢) » فستجد جملاً كثيرة في حرمان من يدعون عليه من ضروب المال .

أما الأمثال التي تتعلق بأمورهم التجارية وأحوالهم فيها فكثيرة وإليك طائفة منها تمثل لنا شيئاً من تجاربهم وأحوالهم في أسفارهم :
عند الصباح يحمد القوم السرى - لا تدرك الراحة إلا بالتعب -
قتل أرضاً عالمها وقتلت أرض جاهلها - أن ترد الماء بماء أكيس -
لا ير حل رحلك من ليس معك - إن يدم أظلك فقد نقب ^(٣) خفي - إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ^(٤) .. الخ .

وأكثر من هذا ما أرسلوه في المال نفسه وفي السعي للرزق وفي الربح والخسارة والبيع والشراء فإنهم يستعبرون ألفاظها لكثير من أحوالهم كما في هذه الأمثلة :

الحمد مغنم والذم مغرم - خير مالك ما نفعتك - لم يضع من مالك

(١) ج ٢ ص ٣٢٢ (٢) أمالي القاضي - النوادر ص ٧٥٠٥٥

(٣) الأطل : ما نحت منسم البعير ، وأخفاقه قوائمه ، والمعنى : أشكو من مثل ما تشكو .

(٤) الذي يجد في سيره حتى ينقطع أخيراً عن أصحابه في السفر ، الظهر : الدابة

ما وعظك - خير المال عين ساهرة لعين نائمة - من العجز تُنجت الفاقة -
كلب طواف خير من أسد رابض - حظ جزيل بين شذقي ضيغم -
افتح صدرك تعلم عَجْرُك^(١) - لا ترسل الساق الا ممسكاً ساقاً - كمستبضع
التمر إلى هجر - ما عنده خير ولا مَيِّز - سواء هو والعُدْم - البضاعة
تيسر الحاجة ومن اشترى فقد اشتوى - إن الجواد عينه فراره - أعطاه
اللقاء خير الوفاء - أحشفاً وسوء كيلة - أخسر صفقة من شيخ مهو^(٢) -
صفقة لم يشهد لها حاطب الخ^(٣) .

أما الحث على السفر في طلب المال فقد استفاض في أشعارهم
جاهليين وإسلاميين ولست بحاجة إلى أن أشير إلى ما قالوا في فوائد
المال من حكم وما يصون المال من حسب ويجلب من هبة فأمره
معروف ؛ وما أكثر ما قالوا في هذا الموضوع من مثل قول عروة
ابن الورد :

(١) العَجْرَة : العقدة وشبهها ، والعَجْر : العيوب

(٢) هو من عبد القيس اشترى عار الفسوة من إبادي (وكانت إباد تعبر

به) يردن ف ضرب بصفقة المثل وسيأتيك خبرها في أحداث عكاظ .

(٣) حاطب بن أبي بلتعة كان حازماً فظناً في أمور البيع ؛ فباع بعض

أهله في غيبته ببيعة عُين فيها ، ف ضرب هذا المثل لكل أمر يُبرم دون

حضور ماهر فيه - انظر مجمع الأمثال للميداني ٢٦٦/١

ذريني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقير
وقوله :

دعيني أطوف في البلاد لعلي أفيد غنى فيه لذي الحق محمل
وقول الآخرين :

سأعمل نص العيس حتى يكفني غنى المال يوماً أو غنى الحدثان ،
سأكسب مالاً أو أموت ببلدة يقل بها قطر الدموع على قبري ،
ومن يك مثلي ذا عيال ومقترأ من المال يطرح نفسه كل مطرح ،
فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا الخ
ويذكر المشتغلون باللغات القديمة السامية وغيرها قضية الكلمات
الأجنبية الأصل في اللغة العربية ، وقد أداهم بحشهم الى ان اللغة
الفارسية والحبشية والآرامية « كانت لغات العلائق التجارية أيضاً
فإن تجار مكة مثلاً كانوا يتجرون مع الآراميين في دمشق ، ومع
الفرس في الحيرة والمدائن ، ومع سبأ وحمير في اليمن ، وقوافل هذه
الأقوام كانت تتجاز جزيرة العرب من جهة الى أخرى ^(١) » ويعدد

(١) ص ١٤٢ من سلسلة محاضرات (التطور النعوي للغة العربية) ألقاها
سنة ١٩٢٩ بالجامعة المصرية الأستاذ (برجستراسر) أستاذ اللغات السامية بجامعة
ميونخ بألمانيا .

هؤلاء الباحثون هذه الكلمات فإذا في أولها كلمات تجارية وهي أسماء البضائع التي يجلبها التجار من بلاد الفرس من مثل : « الصنيج والصولجان والفيل والجاموس والمسك وخصوصاً أنواع النسائج كالديباج والاستبرق والإبريسم والطيلسان .. الخ »^(١) .

ولا ريب في ان اختلاط القوافل والتجار العرب منذ الزمن الاقدم بعرب الشام وغيرهم سرب الى اللغة العربية كثيراً من الكلمات اليونانية التجارية والحضارية ، حتى أتى عهد الجاهلية وكانت هذه الكلمات قد تعربت وصقلها الاستعمال الطويل ، وقد عد أحد الباحثين عشرات منها لا يظن لأول نظرة عجمتها مثل :

أفليد (مفتاح) وإقليم وإكسير وبرج وبيطار وبوص (حرير أبيض) وترف وجزية ودروم ودكان ودقمس ودينار وزبرجد وزنار وسرق (شقة حرير) وسفود وسفين وسندس وسير (قدة جلد) وسيمياء وطاروس وفرصة وفص وفندق وقارب وقالب وقرَبوس وقرنفل وقصدير وِلس (حبل السفينة) وققمم وقميص وقنب وقنينة وكركي وكوب وكورة وكيس ولص ومرجان ومصطبة ومنجنيق ومنديل ونافورة وفاموس ونقرس ونوتقي وياقوت ويانسون (آلنوت)^(٢) .

(١) المصدر السابق ص ١٤٣

(٢) سره هذه الكلمات بهذا الترتيب المعجمي بشدي جوزي ، انظر بحثه بعنوان (بعض اصطلاحات يونانية في اللغة العربية) في مجلة مجمع اللغة العربية ٣/ ٣٣٠

بل مالنا لا نعتمد إلى القرآن الكريم نفسه وفيه على ذلك أوضح الأدلة : يقرب لهم المعاني بما تفيض به حياتهم ويضرب لهم الأمثال على الضلالة والهدى والمؤمنين والكافرين من التجارة نفسها، فهو يقول في المؤمنين المطيعين الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة : إِنَّهُمْ « يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ » ^(١) ، ويشبه الذين شغلهم الضلالة عن الهدى بالخاسر في تجارته فيقول :

« أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ » ^(٢) ، « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ » ^(٣) ، « بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ » ^(٤) .

ومدح آخرين سعوا في مرضاة الله فقال : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ » ^(٥) ، وقال : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا »

(١) سورة فاطر ٢٥/٢٩ (٢) سورة البقرة ٢/١٦

(٣) سورة البقرة ٢/٨٦ (٤) سورة البقرة ٢/٩٠

(٥) سورة البقرة ٢/٢١٧

بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(١)»

ولأن التجارة والبيع أهم ما يشغل العرب لم يذكر الله غيرهما من المشاغل حين أثنى على أناس لا يغفلون عن ذكره فقال : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ^(٢) » .

وقال في تأنيب الذين اشتغلوا بالتجارة عن الصلاة : وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا^(٣) .

ولما أراد تشويق قوم الى الايمان قال :

« ... هَلْ أَدْلُكُمُ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ

الْأَلَمِ : تَوْمَنُونَ بِاللَّهِ ...^(٤) »

وكثيراً ما تكرر كلمات التجارة والربح والخسران في القرآن .

وأحسب أن هذا القدر كاف في بيان الحيز الذي شغلته التجارة

من حياة العرب في جاهليتهم واسلامهم حتى ان صعصعة بن صوحان

لم يذكر للعرب من الحرف غيرها . جاء في أمالي القالي : « قال معاوية

لصعصعة بن صوحان : « صف لي الناس » فقال : « خلق الناس

(١) سورة التوبة ١١٢/٩ (٢) سورة النور ٣٧/٢٤

(٣) سورة الجمعة ١١/٦٢ (٤) سورة الصف ١١٠/٦١

أخياراً : فطائفة للعبادة ، وطائفة للتجارة ، وطائفة خطباء ، وطائفة للباس والنجدة ؛ ورجرجة بين ذلك يكثرون الماء ويغلوون السعر ويضيقون الطريق ^(١) .

ولعلك تتساءل بعد هذا قائلا : إن التجارة تستلزم إلماماً بقيود وحسابات والعرب أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب فكيف كان ذلك ؟ والجواب ان هذا الحكم على العرب حكم على مجموعهم لا على جميعهم ^(٢) :

(١) ج ١ ص ٢٥٧ والاضيف الاغلاط . والرجرجة شرار الناس وذلهم
(٢) ومع هذا فقد كان العرب وتجارهم خاصة نقلة ثقافة تاريخية سياسية ،
جاء في طبقات الامم لصاعد (ص ٦٩) : قال أبو محمد الهمداني : ليس يوصل
الى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب ومنهم ؛ وذلك ان من سكن بمكة
من العماليق وجرحم وآل السبيدع بن هونة وخزاعة أساطوا بعلم العرب العاربة
والفراعين العاتية وأخبار اهل الكتاب . وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون
أخبار الناس ، وكذلك من سكن الحيرة وجاوروا الاعاجم من عهد أسعد
أبي كرب وبختنصر حروا على الاعاجم وأخبارهم وأيام حمير ومسيرها في
البلاد ، وعنه صار أكثر مارواه عبيد بن شربة ومحمد بن السائب الكلبي والهيثم
ابن عدي ، وكذلك من وقع بالشام من مشايخ غسان نخيوش بأخبار الروم
وبني اسرائيل واليونانيين ، ومن وقع بالبحرين من تنوخ وإبادفنه أتت أخبار
طسم وجديس ، ومن وقع من ولد نصر من الازد بعمان فعنه أتى كثير من
أخبار السند والهند وشي . من اخبار فارس . ومن وقع بجبلي طيء فعنه أتت
أخبار آل أذينة والجرامقة ، ومن سكن باليمن فإنه علم أخبار الامم جميعاً : =

فمنهم من كان يقرأ ويكتب ويحسب، وقد تعلم القرشيون الكتابة منذ القديم في الحيرة والأنبار، وكذلك فعل أهل الطائف. وسترى في أحداث عكاظ أن عمرو بن الشريد دعا فيها بصحيفة وكتب وسجل على نفسه صكاً أشبه بسند التملك (طابو) الذي نألفه اليوم. كان هناك إذن صحف وكتاب وصكوك عند العرب وعند اليهود؛ بل إنا لنجد في آيات سورة البقرة الأخيرة ما يجعلنا نذهب إلى معرفة العرب بتقييد المعاملات التجارية، وليس من المعقول أن يخاطبهم الله بشيء لا يألونه من الإماء والكتابة بالعدل وإشهاد الشهود في قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ» الخ. (١)

= لأنه كان في دار مملكة حمير وفي ظل الملوك السبابة إلى الشرق والغرب والجنوب والشمال. ولم يكن ملك منهم يغزو إلا عرف البلاد وأهلها. هـ ا هـ .
وإذا تجاوزت عن جانب المبالغة في هذا الكلام بقي لك أن العرب لم تقتصر فائدتهم في رحالهم على الاتجار، بل كانوا يستفيدون من رقي أهل الحضارات المجاورة ويحملون عنهم آثاراً من تقدمهم وثقافتهم.

وفوق هذا كله كان لهؤلاء العرب ذوي المملكة التجارية الراقية اهتمام بما حولهم من الاقطار التي يتاجرون فيها ومراقبة لما يجري هناك من أحداث ، دفعهم إلى ذلك طبيعة التجارة وما تتطلب من درس وإلمام بالأسواق وأمنها وأحوال المسيطرين على شعوبها ، وأنت تعرف ذلك من الحرب التي كانت بين الفرس والروم في مشارف الشام قبل الهجرة بست سنين وكيف كان مشركو مكة فرحين بانتصار الفرس إذ كانوا مثلهم غير ذوي كتاب ، وقد شتموا بهزيمة الروم إذ كانوا كالمسلمين أتباع كتاب سماوي ، وقد سجل القرآن الكريم هذه الظاهرة ظاهرة اهتمام المكين بما يجري حولهم من شؤون الفرس والروم في الآية الكريمة أول سورة الروم :

« غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ ، اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بَنَصَرَ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ »
وأدنى الارض : بصرى وأذرعات وهما سوقان من أسواق العرب .

والتجار منذ القديم نقلة ثقافة من حيث لا يشعرون^(١) فيجب

(١) ذكروا : أن قصص لافونتين نقلت إلى أوروبا على ألسنة التجار والمسافرين . انظر (مجلة الرسالة : السنة الخامسة ص ٤٣٠)

أن يحسب حسابهم فيما يكون بين الشعوب من تمازج وتفاعل ، وليس العرب يبدع بين الشعوب ، فقد أفادوا من اتجارهم واختلاطهم بالرومان والفرس وخضعوا لما يخضع له غيرهم من آثار الاختلاط وكثرة العلائق حتى إننا لنرى أسماء رومانية ^(٢) وفارسية تخللت لغتهم . ولنا أن نجد انتشار النصرانية في الشام والمجوسية في العراق واليمن أثراً من آثار التجارة فقد ذكروا ان « تنصر العباد بالحيرة لكثرة ترددهم الى بلاد الروم للتجارة » ^(٣) .

وستعلم بعد قليل أن العرب وقرشاً خاصة أحسنوا العلائق مع دولتي فارس والروم إذ كانت تجاراتهم الى بلاد تحت سيطرة هاتين الدولتين أو نفوذهما ، فالشام ومصر ولايتان رومانيتان ، والحبشة على على علائق خاصة بالرومان . والعراق واليمن تحت سيطرة الفرس ، والعرب تتاجر صيفاً الى مصر والشام والعراق وشتاء الى اليمن والحبشة . هذا مجمل ما أردت أن أعرض له من بيان اهتمام العرب في التجارة

(٢) في كتاب (أمثال الضبي وأسرار الحكماء - طبع الجوائب) ما يفيد

أن (دختوس) من أسماء العرب انظر ص ٦

(٣) تاريخ ملوك الحيرة للأعظمي ص ١٤٠

ولم أقصد فيه إلى شيء من التطويل لأن الكتاب ليس في تاريخ تجارة العرب وإنما هو في أسواقها والتجارة أحدمواضيع الاسواق ، وحسبها هذه الإلمامة الموجزة نمهد بها قبل الشروع في الموضوع لتتم لنا الصورة التي نريد أن يتمثلها القارئ مستوفاة في غير نقص ولا زيادة .

بيوع الجاهلية

ألف العرب في جاهليتهم أنماطاً خاصة من البيع يتخذونها في أسواقهم ، وهي في جملتها مما يثير استغرابنا ودهشتنا لأن أكثرها مما يُغبن فيه البائع أو المبتاع . وتصور لنا تلك البيوع ما كان عليه تفكير فريق منهم . ولا بد من التنبيه إلى أنها لم تكن تتخذ في جميع الأسواق ، بل منها ما تمتاز به سوق من سوق وجماعة من جماعة ، وإليك ما عثرت عليه من بيوعهم :

١ - الرمي بالحصاة (أو الفاء الحجارة) :

ذكروا لهذا البيع صوراً كثيرة تجري في سوق دومة الجندل منها :

١ - أن يقول أحد المتبايعين للآخر : « ارم هذه الحصاة ، فعلى

أي ثوب وقعت فهو لك بدرهم .^(١) »

٢ - أن يقول البائع : اذا رميت هذا الثوب بالحصاة فهو مبيع

« منك بكذا . فيجعل الرمي بالحصاة نفسه بيعاً .^(٢) » أو يعترض

القطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول « أي شاة أصابتهافي لك بكذا .

(١) بلوغ الأرب للأوسي . (٢) شرح مسلم ٣٥٥/٦

٣ - أن يقول : « بعثك من السلع ماتقع عليه حصاتك » أو
« بعثك من الأرض الى حيث تنتهي حصاتك ^(١) »

٤ - أن يقبض المشتري على كف من حصى ويقول : « لي
بعدد ماخرج في القبضة من الشيء المبيع ^(٢) ».

٥ - أن يبيعه ساعة ويقبض على كف من حصى ويقول : « لي
بكل حصاة درهم ^(٣) » .

٦ - أن يقول للمشتري : « بعثك على أنك بالخيار إلى أن أربي
بهذه الحصاة فإذا نبذتها وجب البيع ^(٤) » .

٧ - « أن يجتمع نفر منهم على السلعة يساومون بها صاحبها
فأيهم رضي ألقى حجره .

وربما اتفق في السلعة الرهط فلا يجدون بداً من أن يشتركو
وهم كارهون ، وربما (اتفقوا) ^(١) فألقوا الحجارة جميعاً (اذا كانوا
عدداً على أمرينهم ^(٢)) فيؤكسون صاحب السلعة اذا تظاهروا عليه .

(١) لسان العرب و تاج المردس . (٢) بلوغ الأرب

(٣) المصدر السابق وشرح مسلم

(٤) الزيادة عن كتاب الخبر لمحمد بن حبيب ص ٢٦٤ وقد طبع سنة

١٩٤٢ بعد صدور الطبعة الاولى لكتابنا هذا بست سنين . ولا شك أن
المرزوقي قد نقل عبارته .

انفرد بهذه الصورة الأخيرة المرزوقي في كتابه « الأزمنة
والأمكنة » (٢ : ١٦٢) نقلاً عن محمد بن حبيب فيما أظن ، وسمّاها
إلقاء الحجارة بدلاً من رمي الحصاة ونص على شيوعها في سوق
دومة الجندل .

أقرب هذه الصور الى الرضى أن يكون رمي الحصاة إيذاناً
بوجوب البيع وانقطاع الخيار . أما بقية الصور فهي من بيع الفَرَرِ
وهي إلى القمار أقرب وبه أشبه ، وقد عد الاسلام هذه البيوع فاسدة
كلها لما فيها من الجهالة والضرر بالبائع او المشتري .

٢ - المنازعة :

ولهم في هذا النوع من البيوع ثلاث صور :

١ - أن تقول : « انبذ إلي الثوب او أنبذه اليك وقد وجب البيع
بكذا وكذا » ^(١) فيكون النبذ إيذاناً بالبيع وقطعاً للخيار .

٢ - أن يرمي الرجل الى الرجل بثوبه وينبذ الآخر اليه ثوبه ولم
ينظر واحد منهما إلى ثوب صاحبه فيكون ذلك بيعهم عن غير نظر
ولا تراض ^(٢)

(١) القاموس المحيط : مادة (نبذ) (٢) شرح مسلم ٣٥٦/٦

٣ - نبذ الحصة وقد تقدم

يقال في هذا البيع ما قيل في رمي الحصة وقد نهى الاسلام عنه وأبطله .

٣ - الملامسة :

وهي على أوجه ثلاثة :

١ - أن يأتي البائع بثوب مطوي ، أو في ظلمة فيامسه المستام فيقول له صاحب الثوب : « بعته بكذا بشرط أن يقوم المسك مقام نظرك ولا خيار لك إذا رأيته . » ^(١) فلا يقاب المشتري الثوب لاللاً ولا نهاراً .

٢ - أن يجعل المتبايعان اللبس نفسه بمعاً بغير صيغة ، كما تقدم في المنابذة ورمي الحصة .

٣ - أن يجعل اللبس شرطاً في قطع خيار المجلس وغيره .

وقد ألحق الاسلام هذه الصور بسابقتها وأبطلها ونهى عنها فقد جاء في صحيح مسلم : « نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين : الملامسة والمنابذة ^(٢) » .

(١) المصدر السابق

(٢) وانظر أيضاً تيسير الوصول ١ / ٦٢ ، ٦٣

وذكر الألوسي مع الملامسة الإيما والهمهمة (وهي الكلام الخفي وكل كلام معه مجح) وعلل اتخاذهم لها بخوف الحلف والكذب . وهو طريف في الأقوال غريب .

ثم اطلعنا في كتاب المحبر لمحمد بن حبيب على هذا النص في الكلام على سوق المشقر :

« وكان بيعهم فيها الملامسة والهمهمة : أما الملامسة [فهي] الإيما : يومئذ بعضهم الى بعض فيتبايعون ولا يتكلمون حتى يتراضوا إيما ، وأما الهمهمة فكيلا يحلف أحدهم على كذب إن زعم المشتري أنه قد بدا له ^(١) .

٤ - المعاومة :

أو يبيع السنين وهو أن يبيع ثمر الشجرة عامين أو ثلاثة أو أكثر . وقد أبطله الاسلام لأنه من الغرر فهو بيع معدوم ومجهول وغير مقدور على تسليمه وغير مملوك ^(٢) .

٥ - المزانة :

هي بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر كيلاً . وكذلك

(١) المحبر ص ٢٦٥ (طبعة حيدر آباد ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢)

(٢) شرح مسلم ٦ / ٣٦٨

ثم يبيع على شجر بثمر كيلاً وقد روى صاحب القاموس : « أنه كل جزاف لا يعلم كيله ولا عدده ولا وزنه يبيع بمسمى من مكيل وموزون ومعدود ، أو يبيع معلوم بمجهول من جنسه ، أو يبيع مجهول بمجهول من جنسه ، أو هي بيع المغابنة في الجنس الذي لا يجوز فيه الغبن . » اهـ . والمزابنة المدافعة وسمي هذا البيع مزابنة لأن أحد المتبايعين إذا ندم زين صاحبة عما عقد عليه . وسبيله في نهي الإسلام عنه سبيل ما تقدمه لما فيه من الغرر ^(١) .

٦ - المحاقلة :

هي في الزرع على نحو المزابنة في التمر فيباع الزرع القائم بالحلب كيلاً . وقد نهى الرسول عن المحاقلة كما نهى عن المزابنة ^(٢) .

٧ - المخابرة :

وهي - وإن كانت بالزراعة ألصق لأنها معاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها من الزرع كالثلث ونحوه من الأجزاء المعلومه - تتعلق بموضوعنا لأن أحد أعلام العربية فسرها تفسيراً يجعلها بهذا الباب أشبه . جاء في شرح مسلم للنووي : قيل إن المخابرة مشتقة من الخُبرة وهي النصيب وقيل أبو عبيدة : هي النصيب من سمك أو لحم

(١) وانظر تفسير الوصول ٥٨/١

يقال : تخبروا خبراً إذا اشتروا شاة فذبحوها وتقاسموا لحمها . وقال ابن الأعرابي : هي مأخوذة من (خير) لأن أول هذه المعاملة كان فيها اهـ . والذي يظهر أن ابن الأعرابي يشير إلى المزارعة لا إلى الاشتراك بالشاة الذي فسر المخابرة به أبو عبيدة ، لأن لأهل خير أرضين وعلماً بالزراعة .

٨ - جبل الحبله :

كان يبعاً يتبايعه أهل الجاهلية : كان الرجل منهم يبتاع الجزور إلى أن تُنتج الناقة وأحياناً إلى أن تُنتج التي في بطنها فإذا نُتجت حملها . فالحبل الأول يراد به ما في بطن النوق من الحمل ، والثاني حبل الذي في بطون النوق .

فنهى رسول الله ﷺ عن هذا البيع . « وإنما نهى عنه لمعنيين : (أحدهما) أنه غرورٌ وبيع شيء لم يخلق بعد ، وهو أن يبيع ما سوف يحمله الجنين الذي في بطن الناقة على تقدير أن تكون أمشي فهو يبيع نتاج النتاج . (والثاني) : أن يبيعه إلى أجل ينتج فيه الحمل الذي في بطن الناقة وهو أجل مجهول ولا يصح ، ^(١) والحبله بالتحريك جمع حابل .

(١) انظر شرح مسلم ٦ / ٣٥٩ ، وللنهاية لابن الأثير : مادة (حبل)

٩ - التصرية :

كان من عادة بعض العرب إذا أراد بيع شاة أو ناقة امتنع من حلبها أياماً فيحتفل الثلبن في ضرعها فيعظم . فإذا كان ذلك منها عرضها للبيع فيظن المشتري أن كثرة لبنها واحتفال ضرعها عادة مستمرة لها فلا يلبث أن يتبين خطأه بعد شرائها . والتصرية الجمع ، يقال صرّى الماء في الحوض إذا جمعه . جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ « لاتصروا الإبل والغنم ، فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها ، فإن رضيها أمسكها وإن سخطها ردّها وصاعاً من تمر .^(١) »

١٠ - السرار :

لم أجد هذا الضرب من البيع في جميع المصادر التي بيدي ، لم يذكره أحد غير محمد بن حبيب بقوله : « وكان يبيعهم بهسا (أي بعكاز) السرار ، فإذا وجب البيع وعند التاجر ألف رجل ممن يريد الشراء ولا يريد له الشركة في الربح .^(٢) »

وقد رجعت في هذه الكلمة إلى المعاجم التي في يدي وهي :

(١) شرح مسلم ٦ : ٣٦٠ ، البخاري (ليدن) ٣٤ كتاب البيوع رقم ٢٧

(٢) انظر كتاب الهجر ص ٢٦٧ . وقد عزوانه في الطبعة الاولى الى

المرزوقي ولم يكن طبع كتاب الهجر ، فلما طبع تبين ان المرزوقي نقل عبارته ولم يعزها .

الصباح ، تاج العروس (شرح القاموس) ، لسان العرب ،
المجمل لابن فارس (نسخة مخطوطة كاملة في المكتبة الظاهرية)
الجمهرة لابن دريد ، الفائق ، أساس البلاغة ، النهاية لابن الأثير ،
المصباح ، فلم أجد أحداً تعرض لهذا الضرب من البيوع ثم تحريت
في شروح الحديث وكتب الفقه مظنة أن أجد فيها تعرضاً له في صدد
كلامهم عن البيوع الفاسدة أو المنهي عنها فلم أظفر . إلا ما وجدت في
كتاب (المغرب في ترتيب المغرب) للمطرزي ، وعنه نقل صاحب
محيط المحيط ^(١) .

قال المطرزي :

« وفي المنتقى : يبيع السرار ان تقول : أخرج يدي ويدك ،
فإن أخرجت خاتمي قبلك فهو يبيع بكذا ، وإن أخرجت خاتمك قبلي
فبكذا ، فإن أخرجاً معاً أو لم يخرجاً جميعاً عاداً في الإخراج ؟ » ^(٢) .

(١) لم أطلع في الطبعة الأولى إلا على محيط المحيط ، والفضل في تنبيهي إلى
كتاب المطرزي الأدب (بويج) من بيروت فقد تفضل وكتب لي به .
(٢) أرسل إلى الأستاذ كرنكو المستشرق المعروف عقب صدور الطبعة
الأولى يقول : ولأرجع إلى بيع السرار في عكاظ وأظن أن أمر البيع والشراء
كان سراً لاجتماع القبائل التي بينهم عداوات ودماء في هذه السوق . وعلى هذا
تدل قصة طريف العنبري التي ذكرتها وقد كانوا يتلشون عند حضور السوق
مخافة أن يراهم عدوهم وهذا رأيي والله أعلم - أما زال النص على
صورة هذا النوع من البيع يعوزنا ، أما التلم الذي ألمع إليه المستشرق الفقيه فلا
علاقة له بنوع هذا البيع .

١١ - النافز :

وهو البيع العام المعروف لجميع الناس بادين وحاضرين ، وذلك إذا كانت المبادلة يبدأ بيد وقالوا : يبع السوق ناجزاً بناجز أي حاضراً بحاضر .

١٢ - الجس :

نص عليه محمد بن حبيب في كتابه المحبر (ص ٢٦٦) فقال في الكلام على سوق صنعاء : « وكان يبيعهم بها الجس جس الأيدي » ولعله نوع من يبيع الملامسة المتقدم .

* * *

جرى العرب في جاهليتهم على ما علمت من أنواع البيع التي تعرض أحد المتبايعين للغش والضرر بلا مسوغ ، فلما أكرمهم الله بالاسلام رفع عنهم ضيم الجاهلية ونهاهم عن بيع الغرر بجميع صوره وأشكاله ليكون لكل من المتبايعين محض الاختيار فلا يتم بيع إلا إذا كان واضحاً معلوماً للمتبايعين ، وبالرضى الكامل . ولقد تباع بالاسلام معاملات الجاهليين فأبطل كل ما فيه غش وضرر كما في بيع حبيل الحبلة وفي التصرية . وشرع لهم في التجارة والبيوع ما ضمن خير الناس جميعاً بانعمهم ومشتريهم ورفع عنهم الحيف الذي كان يحيق بهم مما اعتادوه في جاهليتهم .

لم يقتصر الجاهليون في تجارتهم على ما قدمنا من بيع فاسدة وعادات ضارة . فلم الى ذلك مساوىء لا تقل قبجاً عما تقدمها : فمنها النجش وهو ان تواطىء رجلاً اذا اراد بيعاً أن تمدحـه ، أو أن يريد الانسان أن يبيع بياعة فتساومه بها بـشـمـن كثير لينظر إليك ناظر فيقع فيها وكذلك في الاشياء كلها ^(١) .

ومن عاداتهم المكس وهي دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في أسواق الجاهلية ويقال للعشّار أيضاً صاحب المكس . والمكس لغة النقص ، والمماكسة في البيع انتقاص الثمن وانحطاطه ^(٢) .

ولعل ذلك يكون بعد الاتفاق على ثمن معين قال الشاعر :
أني كل أسواق العراق إتاوةً وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
وظاهر أن المقصود بالمكس أشبه بالضرائب التي تجبها حكومات اليوم على البضائع .

وقد امتد تحكم تجار العرب إلى القوت الضروري فكانوا يحتكرونها على الفقراء فيتلقون الركبـان ويشترون منهم الطعام وربما باعوه في مكانه قبل أن يبلغ السوق وقبل أن ينقلوه . ومنهم من كان يشتري ويبيع لحساب أهل البادية فيلحق بهؤلاء الضرر البالغ لجهلهم أمور التجارة ولأنهم في كل حال مغلوبون على أمرهم ، بعيدون عما

(١) ، (٢) المخصص والقاموس .

يباع ويشترى لهم ، ولعلمهم إن حضروا البيع رفعوا عن أنفسهم بعض الحيف . فلما كان الاسلام نهى عن جميع هذه المفاسد جملة فقد جاء في صحيح البخاري ^(١) : قال رسول الله ﷺ :

« لا تَلْقُوا الرِّكْبَانَ ، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ ، ولا تَنَاجَشُوا ، ولا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ ، ^(٢) ولا تُبْصَرُوا الْغَنَمَ . ومن ابتاعها فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها ، إن رضىها أمسكها وإن سخطها ردها وصاعاً من تمر . » وقد فسر ابن عباس قوله (لا يبيع حاضر لباد) بقوله : لا يكن له سمساراً .

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « من اشترى طعاماً فلا يبعه حتى يستوفيه ويقبضه » قال ابن عمر : « وكنا نشترى الطهائم من الركباني جزافاً (أي بلا كيل ولا وزن ولا تقدير) فنهانا رسول الله ﷺ أن نبيعه حتى ننقله من مكانه . »

ثم شرع لهم السهولة في المعاملة والتيسير في البيع كما في حديث : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما . »

وهناك مبيعات خاصة لأهل الجاهلية حرمتها الاسلام وحرمت

(١) طبع ليدن ٣٤ كتاب البيوع ٢٧

(٢) للحديث زيادة من رواية جابر : دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض

ثمنها ، أهمها الخمر ، فسيأتي ان الخمر من اهم ما كان يتجر به العرب وقد
اشتهرت مدن معينة في الجاهلية بخمرها الطيب اللذيذ ، ولا مندوحة
عن ذكر غزوة وأذرعات وأندرين وهجر والحيرة .. وغيرهن من
البلدان التي تحمل خمرها قوافل العرب التجارية وقد قال الشاعر :

إذا ذقت فاهاً قلت طعم مُدَامَةٍ

مُعْتَقَةٍ مِمَّا يَجِيءُ بِهِ التَّجَرُّ^(١)

وهي مورد تجاري عظيم لم يكن يستغني عنه العرب ؛ فلما حرم
الله على المسلمين الخمر حرم أيضاً ثمنها حسماً للداء ، فلا يجوز بيعها
ولا شراؤها كما نهى عن ثمن بقية المحرمات فقي صحيح البخاري :
« نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن . »
و « أن رسول الله ﷺ حرم بيع الخمر والميتة والخنزير
والأصنام^(٢) » وعن عائشة قالت : « لما نزلت آخر البقرة قرأهن النبي
في المسجد ثم حرم التجارة في الخمر . »

لكن التجارة الممقوطة جداً ، التي يصم عارها بعض أهل الجاهلية هي
البغاء : كانوا يؤجرون إماءهم للرجال ويأخذون هم ما يكتسب
لهم جواريتهم من هذا الكسب المرذول . واستمرت هذه العادة حتى

جاء الاسلام وكانت الهجرة . ذكر المفسرون أن لعبد الله بن أبي بن سلول جارتين يقال لهما مُسَيِّكَة ومُعَاذَة ، وكان يكرههما على الزنى لضريبة يأخذها منهما (وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية) . فلما جاء الاسلام قالت مُعَاذَة لمسيكة : « إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين : فإن يك خيراً فقد استكثرنا منه ، وإن يك شراً فقد آن لنا أن ندعه . » لكن عبد الله هذا قال لهما : « ارجعا فازنيا . » فقالتا : « والله لا نفعل ، قد جاء الاسلام وحرّم الزنى . » فأتى رسول الله ﷺ وشكّتا إليه أمرهما فأَنْزَلَ اللهُ هذه الآية :

« وَلَا تَكْرِهُوا قِتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنِ ارْدُنَ تَحْصَنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(١) . »

ربا الجاهلية

لست هنا بصدد بيان الربا وأنواعه ومضاره على التجارة وال عمران والأخلاق ، وما يعقب من خراب البيوت وتقويض الأسر وفقدان الثروة والشقاء والدمار ، فذلك معروف أمره ، مستوفى شرحه في مظاننه من كتب الحديث والتفاسير ، عدا ما يعاين الناس في حياتهم من شروعه على المرابين أنفسهم قبل غيرهم ، فحوادثه نشاهدها في كل يوم بالعشرات . وإنما أريد الإشارة الى ما استفاض منه في الجاهلية حتى أتى الاسلام فاجتثه من جذوره .

يرجح أن الذي أشاع الربا في جزيرة العرب هم اليهود الطارئون عليها ، الذين اتخذوا من بعض قراها ومدنها مستعمرات عاجلوا فيها الزراعة فأصابوا منها الغنى ولم يكن لعرب الحجاز فيها كبير نصيب . فكان العربي إذا أعوزته المال اقترض ورهن عند دائنه درعه أو ثيابه أو سلاحه ، وأحياناً تشتد به الحاجة ويشتط الدائن فيرهن ولده .

إلا أن الربا لم يقتصر على اليهود ، بل مازال ينتشر في مكة والطائف وخيبر ووادي القرى ويثرب حتى ألفه الناس وصاروا يأخذون به ويعطون .

اشتهرت الطائف برباها ولعل هذه الشهرة كانت لمكان اليهود منها فقد جاء في فتوح البلدان للبلاذري (ص ٥٦) أنه « كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا بها للتجارة فوضعت عليهم الجزية ... »

ويذكر المفسرون « أن أربعة أخوة من ثقيف كانوا يداينون بني المغيرة بن عبد الله بن عمير بن عوف الثقفي ، وكانوا يرايون ، فلما ظهر النبي ﷺ على الطائف أسلم هؤلاء الإخوة بنو عمرو الثقفي وطلبوا رباهم من بني المغيرة . فقال بنو المغيرة : « والله مانعطي الربا في الاسلام وقد وضعه الله عن المؤمنين . » فاختصموا الى عتاب بن أسيد وكان عامل رسول الله ﷺ على مكة فكتب الى النبي بقضية الفريقين وكان ذلك مالا عظيماً فأنزل الله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ... »^(١) هذا وقد كانت ثقيف صالحت النبي ﷺ على أن مالهم من ربا على الناس وما كان للناس عليهم من ربا فهو موضوع ، وثقيف هم أهل الطائف . ولم تقتصر علائق أهل مكة مع أهل الطائف على المراهبة والتجارة بل كان لأهل مكة أملاك بالطائف يصلحونها ويستغلونها فقد « كان

للعباس أرض بالطائف وكان الزبيب يحمل منها فينبذ بالسقاية للحاج
وكانت لعامة قریش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها...
وصارت أرض الطائف مخالفاً من مخاليف مكة^(١) »

وكان بالمدينة - وفيها كثير من اليهود - ربا منتشر، وعرف من
مرايها من أصبح ذا غنى فاحش :

جاء في خزائن الأدب : « كان أحيحة بن الجلاح كثير المال
شحيحاً عليه ، يبيع بيع الربا بالمدينة ، حتى كاد يحيط بأموالهم ؛ وكان
له تسع وتسعون بئراً كلها ينضح عليها وكان له .. الخ^(٢) »

ومن مراجعة كتاب الصلح الذي كتبه رسول الله ﷺ لأهل
نجران نعلم أن غير اليهود لهم نصيب يحملونه من أمر الربا هذا ، فقد
شرط عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به « ومن أكل منهم ربا من
ذي قبل فذمتي منه بريئة . » ولعل نصارى نجران كانوا قد بلغوا من
التعامل به مبلغاً صعب عليهم فيه تنفيذ هذا الشرط ، لما تأصل فيهم من
اعتياده ، حتى استفحل أمره فيهم أيام خلافة عمر بن الخطاب وشاعت
لهم أموال أفادوها منه وخف عمر العاقبة فأجلاهم^(٣)

(١) البلاذري ج ١ ص ٥٦ (٢) خزائن الأدب ٣/٣٣٧ (المطبعة السلفية)

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ١/٦٦

تسرب الربا إلى أهل مكة وتعاملوا به وعُرف رجال منهم من
أهل الشرف والرئاسة بتعاطيه كالعباس بن عبد المطلب وخالد بن
الوليد وعثمان بن عفان^(١) وغيرهم . ومتى انتشرت عادة قبيحة ستر
فشوها قبحها فلم يترفع عنها أحد ، وكانت الضرورة والحاجة شر
معوان على تعاطيه وبذلك انحصر الغنى في طائفة معينة وعم الفقر
من عداهم .

بالغ اليهود في هذا الميدان شوطاً لم يلحقهم فيه لاحق قط ، لما
تركز فيهم من الثراء وما حذقوا من حسن التأني في تسمير أموالهم ،
واستغلال الفقر والسذاجة في العرب ، فاعتقدوا الأرضين وبنسوا
الحصون ثم دأبوا في جمع المال وتنميته وإدائته حتى كثرت الرهائن
عندهم واشتطوا في طلبها واقتنوا في تنويعها اقتنائاً شائناً ، فصاروا
يرتهنون الأولاد ويطلبون النساء أيضاً ولا يرعون في سبيل المادة حلفاً
ولا آصرة : جاء في سيرة ابن هشام (٣٤١ : ٢) أن أبا نائلة سلك بن
سلامة أتى أحد أشراف اليهود وأغنيائهم ، كعب بن الأشرف وكان
أخاه من الرضاة فقال له : « إني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك
ونوثق لك وتحسن في ذلك . » فقال كعب : « أترهنوني نساءكم ! »

(١) انظر تفسير الحازن عند قوله « وذروا ما بقي من الربا » من سورة البقرة

قال : « كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم ؟ »
قال كعب « أترهنوني أبناءكم ؟ » قال : « لقد أردت أن تفضحننا ، إن
معي أصحاباً لي على مثل رأيي وقد أردت أن آتيك بهم فتييعهم وتحسن
في ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه الوفاء . »

يريد أبو نائلة بقوله : « على مثل رأيي » : تضايقهم من مجيء
الرسول والمسلمين ومزاحمتهم في بلدهم (المدينة) على العيش ، فلينظر
امرؤ كيف لم يشفع شيء عند كعب في سبيل المادية ، لا مشايعة القوم
له (ظاهراً) في هواه وعداوته لرسول الله ، ولا أخوة الرضاة ،
لا شيء إلا المال والربح ، المال وحده هو معبود اليهود منذ خلقوا إلى
يوم يبعثون .

هذا الغلو من اليهود في الربا وتعاطيه منذ القديم هو السبب في
تشنيع القرآن الكريم لفعاليتهم وتعنيفهم عليها حين يقول :
فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ
لَهُمْ وَبَصَدُّهُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخَذَهُمُ الرُّبَا وَقَدْ
نُهِوا عَنْهُ وَأُكْلِيمُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ^(١) .

أتى الإسلام وطعمة كثير من الجاهليين وما كلهم من الربا فامتنع قسم منهم من الاتجار لأن الربح قد حصل لهم بأخف مؤونة وأيسر مشقة : فلا أسفار ولا تعرض لأخطار ولا جهد ولا سعي . وكف أكثرهم بطبيعة الحال عن الإقراض بلا فائدة واعتاد المدين إعطاء الربا راضياً ، غير واجد فيه غبناً ولا شناعة وقال كثير منهم : « سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير . » هونوا بذلك على أنفسهم ورأوا البيع والربا سواء في الزيادة حتي أكذبهم الله وعنفهم أشد تعنيف بقوله : « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا أَلَا يَتَّقُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا^(١) » ولما حرّم الإسلام الربا جملة واحدة كان لابد من تشريع حاسم للعلاقات التي سبقت اسلام المتعاملين به والتي كانت لا يخلو من الارتباط بها من كان يتعاطى التجارة وغيرها من شؤون الكسب ووقف الناس إزاء مشكلة جديدة : هل يمضون عقودهم على ما عقدوا قبل الاسلام إذا حل الأجل أم يتقيدون بتعاليمه فيملون ما كان منها فاسداً حسب هذه التعاليم ؟ وإذا كان الامر الثاني فلا بد حينئذ من

نخبن - في زعمهم - يلحق الدائن . وقد عرضت قضية من هذا الشكل
فتزل الوحي بالحل القاطع :

ذكر الطبري في تفسيره : أن العباس ورجلاً من بني المغيرة (لعله
خالد بن الوليد المصرح به في تفسير الخازن) كانا شريكين في
الجنادية ، سلفاً في الربا إلى أناس من ثقيف وهم بنو عمرو بن عمير
فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا . وذكر الخازن أن عثمان
ابن عفان والعباس بن عميد المطلب كانا أسلفاً في التمر فلما كان وقت
الجُذْذ قال صاحب التمر لهما : « إني أنتم أخذتما حقكما لم يبق لي
ما يكفي عيالي ، فهل لكما أن تأخذا النصف وتؤخرا النصف وأضعف
لكما ؟ » ففعلا ، فلما حل الأجل طلبا منه الزيادة فباغ ذلك رسول الله
ﷺ فنهاهما .

وسواء أكانت الحادثة الأولى أم الثانية سبباً في نزول الآية ، إن
من المعقول أن تتعدد الحوادث على هذا النسق لتفشي المعاملات فيما
سبق على الربا ، وحلول الآجال أجلاً بعد أجل ، وتخير الدائن
والمدين معاً بين إمضاء التعاقد السابق للتحريم ، والاذعان والكف عما
نهى الله عنه ؛ أي كان فقد نزل قول الله فاصلاً في هذه المسائل
وأشباهاها بهذا التشريع الحاسم الذي لا هوادة فيه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ^(١) » .

فسمع العباس وخالد وشبان وغيرهم وأطاعوا وأخذوا رؤوس أموالهم . وكتب رسول الله يجيب عتاًباً عاملة على مكة بهذه الآية وقال له في آخرها : « إِنْ رَضُوا وَإِلَّا فَاذْنَهُمْ بِحَرْبٍ » . ^(٢)

هذا ما كان من الربا في الجاهلية عامة : يبيع الرجل البيع الى أجل مسمى فاذا حل الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء ، زاده وانخر عنه . إلا أن هناك رباً خاصاً كان من أثقل الأعباء على المحصرين وهو ربا الأضعاف الذي أشار القرآن الكريم إليه بقوله : « لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً .. الآية ^(٣) » وذلك أن الرجل منهم في الجاهلية يكون له على الرجل مال إلى أجل ، فإذا حل الأجل وكان الذي عليه الدين ضائعاً لا يجد ما يؤدي به دينه قال صاحب المال : « زدني في المسال حتى أزيدك في الأجل » . فيقول الآخر : « آخر عني دينك وأزيدك على مالك كذا » . فيفعلان ويكون الدين

(١) سورة البقرة ٢/٢٧٨، ٢٧٩ (٢) انظر تفسير الطبري .

(٣) سورة آل عمران ٣/١٣٠

مئة فيصير الى قابل مئتين مثلاً ، وربما حل الأجل الثاني والذي عليه الدين في إعساره ذاك ، لم يتخلص منه ، فيؤجله الدائن أجلاً ثالثاً ، ويزيد المال عليه وربما فعلوا ذلك مراراً حتى تصير المئة بعد سنين مئات .
وذكر ابن حجر في الزواج ما يفيد أن ربا الجاهلية كان الإنساء فيه بالشهور ، وعلى ذلك يسهل علينا إدراك هذا التضعيف فيه قال : « وربما النسبئة الذي كان مشهوراً في الجاهلية ، لأن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره إلى أجل ، على أن يأخذ منه كل شهر قدراً معيناً ورأس المال باق بحاله ، فإذا حل الأجل طالب برأس ماله ، فإن تعذر عليه الأداء زاده في الحق والأجل . »

ذلك تضعيفهم في العَيْنِ (النقود) ، وأما تضعيفهم في السن فقي الابل وقد شرحوا ذلك بما يأتي :

« إنما كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السن : يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول : (تقضيني أو تزيدني) فإذا كان عنده شيء يقضيه قضي وإلا حوَّله إلى السن التي فوق ذلك : إن كانت ابنة مخاض (وهي التي دخلت في السنة الثانية) يجعلها ابنة لبون (وهي التي دخلت في الثالثة) في السنة التالية ، ثم حقة (وهي التي أتت عليها الرابعة) ثم جذعة (وهي التي أتت عليها الخامسة) ثم رباعياً ثم هكذا .. الى فوق . »

بدأت العلائق التي نشأت عن تعامل الجاهلية تضمحل بقاياها مع الزمن . وقد تشدد الاسلام بما يرتبط منها بالربا تشدداً حازماً ، وورد فيها من الوعيد والتهديد ما لا مجال لبسطه هنا . وكان خاتمها ماجهر به رسول الله ﷺ في حجة الوداع ، في خطبته البليغة المأثورة التي كانت فاصلة بين آثار الجاهلية وعهد جديد ، والتي بين فيها أهم الأمور الجسام التي يريد من أمته التمسك بها . وكان في طليعتها دون شك ، الربا فقال فيه :

« ألا وإن كل ربا الجاهلية موضوع كله ، وأول ربا أبدى به ربا عمي العباس بن عبد المطلب « لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ »^(١) .

المحلون والمحرمون والحمس

كان العرب يعظمون أمكنة خاصة وشهوراً معينة ، لا يسهفون فيها دماً ، ولا يتجاوز بعضهم على بعض حتى يزيلوا المكان الحرام ، أو ينقضي الشهر الحرام .

وكان من بعد النظر أن جعلوا أكبر أسواقهم يقام في الأشهر الحرم ، فكانت سوق حُباشة وسوق صُحار في رجب ، وحضرموت في ذي القعدة ، وعكاظ ومجنة وذو المجاز في ذي القعدة وذو الحجة ، ومعلوم أن الأشهر الحرم أربعة : رجباً وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، تضع فيهن العرب سلاحها فلو لقي المرء قاتل أيه ما وسعه التعرض له بسوء ، حتى إن تلقيهم رجب بالأصم ، كان لأنه لا ينادى فيه : (يا صباحاه) ^(١) ولا (يا فلان) ؛ فينقطع فيه صوت الأسلحة . وكان من أعظم العار أن يتعدى المرء حدود الشهر الحرام والبلد الحرام . ولهذا سمى العرب حروب قريش وهوازن في عكاظ بحروب الفجار لفجورهم باقتالهم في الشهر الحرام .

ولما ترصدت سرية عبد الله بن جهش عير قريش وكانت تحمل زيباً وأدماً وتجارة من تجارتهم فيها عمرو بن الحضرمي ، بنخلة بين مكة والطائف ، وظفرت بالعير وقتلت ابن الحضرمي بعد أن هاب قوم الإقدام على القتل لأنهم كانوا في آخر يوم من رجب ، وأقبلوا على رسول الله ﷺ بالعير وبأسيرين ، امتنع رسول الله ﷺ عن أخذ الخمس وقال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ^(١) . « وسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا .

وأيقنت قريش أنها وقعت على ما تعيب به محمداً وأصحابه عند العرب عامة لما اتهموا من حرمة الشهر فجعلت تشيع قولها : « قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال . » وأكثروا من ذلك لما فيه من تهيج العرب وتغيير قلوبها على صاحب الدعوة وتشويرها له في صورة المستحل الذي لا يرعى حرمة للشهر المحرم كما لم يرع من قبل حرمة آلهتهم . وتناست قريش ما كانت صنعت مع النبي وأصحابه من إيذاء وتعنيف حتى اضطروهم إلى الهجرة إلى الحبشة ثم

(١) سيرة ابن هشام ١٩٤/٢ .

الى المدينة . ثم تناست ما عاملت به المستضعفين من المسلمين من إقامة في الهاجرة تصهرهم الشمس ، ومن إلقاء الصخور عليهم ، وتهاافتهم على هؤلاء ضرباً وإيلاماً حتى يفتنهم عن دينهم . ثم تنويعهم أساليب العذاب لهم ولأهلهم . فلما أشفق المسلمون من صنيع سرية عبد الله ابن جحش واستطالة السنة قرش فيهم أنزل الله هذه الآية :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ... الآية ^(١) . »

وقال عبد الله بن جحش يرد على قرش :

تعدون قتلاً في الحرام عظيمة	وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد	وكفر به ، والله راء وشاهد ،
وإخراجكم من مسجد الله أهله	لئلا يرى لله في البيت ساجد
فإننا وإن عيرتمونا بقتله	وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقيناً من ابن الحضرمي رماحنا	بنخلة لما أوقد الحرب وإقد
دماً وابن عبد الله عثمان بيننا	ينازعه غل من القد عاند ^(٢)

(١) سورة البقرة ٢١٧/٢

(٢) ذكر ابن هشام أنها تنسب أيضاً لأبي بكر ، ومها يقل في نسبها =

قال المرزوقي : « كانت هذه الاسواق منها ما يقوم في الأشهر الحرم ولا يقوم في غيرها ، ومنها ما لا يقوم في الأشهر الحرم ويقوم في غيرها ، لكنه لا يصل إليها أحد إلا بخفير ولا يرجع إلا بخفير . » ولا يخفى أن الأمن من أوكد الأسباب في انتظام أمور التجارة ، فلولا ما أخرج بائع بضاعة ، ولا تظاهر مشترٍ بملك نقود . ومن هنا كان لقريش تلك الزعامة التجارية لأنها تسكن الحرم حيث الأمن والسلم ، وحيث لا تحدث أحداً نفسه بالبغي والعُدوان . فكانت تجارات العرب أروج ما تكون حيث يستتب الأمن وتعم الثقة . رعاية هذه الحرم على ما تقدم ليست مطردة على إطلاقها ، بل هي كذلك في الأعم الأغلب ، إذ إن هناك قبائل معدودة لا تعرف لهذه المحرمات حقاً ، فكانت تسفك الدم ولو في الشهر الحرام أو البلد الحرام . علمت قريش أمر هذه القبائل فكانت تسلك في طريقها على القبائل التي تحفظ لها حرمتها وإذا وردت على من لا يرعاها تخمّرت بخفير . ونحن مدينون للمرزوقي الذي له الفضل بإطلاعنا على ما لقريش من منزلة سامية في نفوس قبائل العرب وخاصة الذين يكونون على

= فإن فيما الجواب الطبيعي الذي لا يعقل إلا أنهم أجابوا به قريشاً .
واقف : هو ابن عبد الله التميمي الذي رمى ابن الحضرمي فقتله ؛ وعثمان ابن عبد الله : أحد الأسيرين ؛ والغل : ما يشد على العنق . والقدر : السير من جلد .

طريقها ، كما علمنا منه القبائل التي لا تجتاز بها قريش إلا متخففة .
كانت قريش في خروجه من مكة قاصدة دومة الجندل إذا أخذت
على الحزن لا تتغفر بأحد من العرب حتى ترجع . وذلك أن مضر
عامتهم لا تتعرض لتجار قريش ولا يتهجمهم حليف لمضري ، مع
تعظيمهم لقريش ومكانهم من البيت . وكانت مضر تقول : قد قضت
عنا قريش مذمة ما أورثنا أبونا إسماعيل من الدين . وكانوا إذا خرجوا
من الحزن أو على الحزن وردوا مياه كلب ، وكانت كلب حلفاء بني
تميم . فإذا سفلوا عن ذلك أخذوا في بني أسد . حتى يخرجوا على طي
فتعطيهم وتدلمهم على ما أرادوا لأن طيأ حلفاء بني أسد . فإذا أخذوا
طريق العراق تخفروا ببني عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة فيجيز
لهم ذلك ربيعة كلها .

هذا هو نظر أغلب العرب إلى قريش : تعظيم لهم واحترام ،
لمكانهم من البيت ولأنهم سددته والقائمون بأمر الحاج أيام الحج .
أذعنتم لهم بذلك العرب وعرفوا لهم حقوقهم لأنهم قوام الدين الذي
دان به العرب قبل الإسلام وهم لهم تبع . وقد استغل القرشيون هذه
المكانة القدسية ، فاضربوا في جزيرة العرب شمالاً وجنوباً متاجرين
لا يعرض لهم ولا لأموالهم أحد .

وكانوا بطبيعة الأمر مسيطرين على الاسواق الثلاث الكبرى التي تقوم قريباً من مكة وهي عكاظ ومجنة وذو المجاز . وفيها يجتمع أكبر حفل من بلاد العرب من جميع أطرافها لوقوع هذه الأسواق في أيام الحج وقريباً من أمكنته .

ويظهر أن قريشاً لم تكن بما لها من نفوذ في قبائل العرب بل أرادت أن تصبغ نفسها صبغة تمتاز بها منهم في الدين نفسه ، كأنهم طبقة خاصة تتمتع بحقوق ليس لغيرهم أن يتمتع بها ، ودمت من وراء ذلك إلى أن تمكن هيبتها في نفوس الأعراب الغفل . أقصد بذلك ما يعرف في كتب السير بحديث (الحمس) :

مادة (حمس) في اللغة تفيد الشدة والصلاة في الدين والقتال . تلقت قريش بالحمس هي وأحلافها من كنانة ، وخزاعة ، وجديلة ، وكلاب وكعب وعامر بنو ربيعة بن عامر بن صعصعة ^(١) . ومن تبعهم في الجاهلية ، وخلاصة هذا الحديث في بدعتهم تلك أنهم قالوا فيما بينهم -

« نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاية البيت وقطان مكة ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له

(١) العمدة ٢/ ١٨٨ . راجع عمدة : « كتاب الحمس من قريش » - الفهرست لابن النديم ص ٨٠ . وانظر تعدادهم أيضاً في (المهر) لمحمد بن حبيب ص ١٧٨

العرب مثل ما تعرف لنا . فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم فإنكم إن فعلتم ذلك استخف العرب بجرمتكم وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم . « فأجمعوا على هذا الرأي وتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها كما يفعل سائر العرب . وهم مع إقرارهم أن الوقوف بعرفة من مشاعر الحج ودين إبراهيم ، ومع أنهم يأمرون العرب عامة بالوقوف والإفاضة ، ابتدعوا لأنفسهم البقاء في الحرم واعتذروا لذلك بقولهم : « نحن أهل الحرم فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرم ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحس . » « فـ لا نفيض إلا من الحرم ، نحن قطين الله فلا نخرج من حرمه » ^(١) وجعلوا لأنفسهم حق تمييز غيرهم بما ميزوا به أنفسهم . ثم ترقوا في الامتياز فحرموا على أنفسهم اتقاط الأقط وسَلَّ ^(٢) السمن ماداً واحراً ، كما حرموا الاستظلال بغير بيوت الأدم ' محرمين ، وكما حرموا على أنفسهم أن يدخلوا بيتاً ماداموا محرمين . ثم حظروا على غيرهم الأكل من غير طعام الحرم ، فمن جاء بطعم من غير الحرم ، وكان - جاً أو معتمراً حرم عليه الأكل منه . ولم يقتصر تحكيمهم بغيرهم على هذا ،

(١) تبسير الوصول ٣٠٥/١ ، والناظين : الجيران

(٢) سَلَّ السمن طبعه وعالجه ، أو الأقط : شيء يتخذ من الخيض الغنمي

وأقط الطعام : عمله به . « القاموس »

بل تعداه إلى الثياب فحجروا على كل إنسان من غيرهم الطواف بالبيت .
أول ما يقدمون إلا بثياب الحمس ، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا عراة
ومن طاف في غير ثياب الحمس حرمت عليه بعد الطواف فألقاها ولم
يُنتفع بها قط ^(١) .

وكانت العرب إذا أحرمت لم تدخل البيوت من أبوابها وإنما
تنقب في ظهورها نقباً فتدخل منه وتخرج ويزعمون أن ذلك من البر ،
إلا الحمس فإنهم امتازوا من بين سائر العرب بدخول البيوت من
أبوابها وهم محرمون ، وجروا على ذلك حتى في الإسلام وكانوا
يستنكرون من غير الحمس أن يدخل أحديته محرماً من بابه ،
فيذكرون أنه « بينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه
وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري فقلوا يا رسول الله إن قطبة رجل
فاجر وإنه خرج بعك من الباب !! » فقال له : « ما حملك على ما فعلت ؟ »
قال : « رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت » قال : « إني رجل أحمي » قال
له : « فإن دينك » ^(٢) ورووا مثل هذا الحادث لصحابي اسمه رفاعه
فلما خرج مع النبي من الباب قالوا « يا رسول الله نافق رفاعه » ^(٣)

(١) انظر تفصيلاً أوفى من هذا في (المحبر) لمحمد بن حبيب ص ١٨٠

(٢) انظر لباب النقول في أسباب النزول

استغلوا سداجة من حولهم من الأعراب لينفردوا بالحرمة والتقدّيس فيأمنوا بعدها على تجارتهم ويستفيدوا من هذا التمويه ثراء وبسطة عيش . فلما جاء الاسلام دكت الامتيازات كلها جملة واحدة ونزل قول الله لقريش :

« ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » ^(١) كما نزل قوله تعالى في نسخ إتيان البيوت من ظهورها : « وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى ، وَاتُّوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا » ^(٢) فشعائر الدين بعد هذه الآية يذعن لها الناس جميعاً بلا تمييز .

واستوى في الحج القرشي وغيره بعد أن كانت قريش تنفرد دون جميع الحجاج إذا خرجوا من مكة يوم التروية وترووا من الماء ، فنزل الخمس أطراف الحرم من يَمرة يوم عرفة ، وتنزل الحيلة عرفة . وقد أجمع أصحاب السير أن رسول الله ﷺ وقف مع الناس بعرفة في سنته التي دعا فيها قبل الهجرة ولم يقف مع الخمس في طرف الحرم . فكان هذا مما جلب نظر الناس ، وروى ابن هشام عن جبير ^(٣) بن

(١) سورة البقرة ١٩٩/٢

(٢) سورة البقرة ١٨٩/٢ وانظر المصدر السابق

(٣) كان جبير هذا من أصحاب التجارات المشهورين ، ولما انقضت بيعة =

«مطعم أنه قال : « أضللت بعيراً في يوم عرفة » فخرجت أقصه وأتبعه بعرفة إذ أبصرت محمداً بعرفة ! فقلت : هذا من الحس ، فما يتفقه هاهنا؟! فعجبت له ^(١) . »

تزيّد قريش في دينها أو في ابتداعها على الأصح ، علمهم بعض الاستيلاء ، وازال الدين - كما عليه الوطنية في أياها - بتلى بمسكر المرتكبين والمحتالين ورواد المنافع . فكان إذا أحدث أحد العرب حدثاً وخاف على نفسه وجد في حرمة الشهر وحرمة الحرم خير معاذ يعتصم به من أن يناله القصاص . والظاهر أن أمثال هذه الحوادث تكررت حتى حلت من حياة العرب الاجتماعية محل العادات المستحكمة فقد ذكر الأزرقي أنه كان « من سننهم أن الرجل يحدث الحدث : يقتل الرجل أو يُلطمه أو يضربه فيربط لحياء من لحياء ^(٢) الحرم قلادة في رقبة ويقول : « أنا ضرورة . » فيقال : « دعوا الضرورة بجهله وإن رمى بجمعه ^(٣) في رحله . » فلا يعرض له أحد . فقال النبي

= العقبة وعرفت قريش أمرها وأرسلت تمعقب اليثوبيين ، ووقع في قبضتها سعد ابن عباد ، أجاره جبير بن مطعم والحارث بن أمية ، إذ كانت سعد يجير لها قوافلها التجارية كلما مرت بالمدينة .

(١) انظر ج ٢ ص ١٩٤ (٢) اللحياء ما على العود من قشر، بالمد والقصر لغة .

(٣) الجعر ما يبس من العذرة

ﷺ « لا ضرورة في الاسلام ، وإنه من أحدث حدثاً أخذ
بحدثه . » ^(١) اهـ

إذا أضفت هذه التزييدات الى ما في نفوس العرب من نفرة
للخضوع حتى للدين ، استطعت أن تستسيغ وجود قبائل تستهين
بالحرمات وتتجاهل مكان قریش فتراها كغيرها من سائر العرب
دماء وأموالا ، بل تذهب أبعد من ذلك فلا ترعى حرمة شهر ولا
أيام حج . ومن هنا تخوف الناس بعض التخوف من ورود الأسواق
عزلاً ، ولو كانت مواسمها في الأشهر الحرم . فإن كنت علمت أن
عكاظ ومجنة وذا المجاز ، الأسواق الكبرى للعرب تقام في الأشهر
الحرم فاعلم أن الأمن فيها هو أكثر حالها والاغلب من أيامها وأن
ما وقع فيها من أحداث استحلّت فيها حرمتها ، صادر بمن لا يرى لها
حرمة وهم أقلية قلما يقيم المؤرخون لها حساباً .

انقسم العرب إزاء حرمة هذه الأسواق أقساماً ثلاثة :

١ - فأما قسم فقد استحلوا المظالم فيها في أشهر الحج ، ففعلوا
المناكر وأحلوا الحرام وفتكوا وسرقوا ولم يحفظوا للمكان ولا
لشهر ولا لقریش حرمة ما ، فسموا [المحلين] لما استحلوا من الحرم

وهم قبائل من أسد وطىء وبكر بن عبد مناة وقوم من بني عامر بن صعصعة^(١) وأناس من خثعم وقضاعة . وغير هؤلاء أيضاً : ذؤبان وصعاليك وخلعاء ، ممن نفاهم قومهم وتبرؤوا منهم .

٢ - وأما القسم الثاني فأقوام حفظت للمكان قدسه وللشهر حرمة وللقوام على البيت منزلتهم ، فكفت عن الفتك والسرقة وسائر المظالم وأنكرت على المحلين استخفافهم ، ونصبت أنفسهم لنصرة المظلوم وحقن الدماء ومنع الأذى فسموا بـ [الذادة المحرمين] وهم أغلب العرب .

٣ - والقسم الثالث « أهل هوى شرعه لهم صلصل بن أوس من بني عمرو بن تميم ، فإنه أحل قتال المحلين^(٢) » فيلبسون سلاحهم ليدفعوا عن الناس أذى المحلين من الفريق الاول . وكان في هؤلاء أيضاً قبائل من طىء وخثعم ، وناس من بني أسد بن خزيمه .

أما سائر العرب ممن لم نعد ، فهم في صف المحرمين : يضعون أسلحتهم في الأشهر الحرم و « كان الرجل إذا خرج من بيته حاجاً أو داجاً (والداج التاجر في الأشهر الحرم) أهدى وأحرم ثم قلد

(١) انظر كتاب الأزمنة والأمكنة ١٦٦/٢

(٢) الأزمنة والأمكنة ١٦٦/٢

وأشعر^(١) فيكون ذلك أماناً له في المحلين . وكان الداج إذا انفرد
وخشي على نفسه ولم يجد هدياً ، قلّد نفسه بقلادة من شعر أو وبر ،
وأشعر نفسه بصوفة فيأمن بها . وإذا صدر من مكة تقلد من لحاء شجر
الحرم . وكان الداج وغيره إذا أمّ البيت وليس له علم بذلك ولا هو
في سماء الحرم أخذ المحلون مامعه . وكانت العرب جميعاً تنزع أسنتها في
الأشهر الحرم ، غير المحلين والذين يقاتلونهم ، فإنهم كانوا يقاتلونهم حتى
في الأشهر الحرم .^(٢)

خير تلك الطوائف الطائفة الثالثة التي نعتها المرزوقي بأنها أهل
هوى : إذ لا يكفي أن يكون الانسان محرماً ما يرعى ذمام الشهر
والمكان ، كافئاً أداه عن غيره وهو ينظر إلى المحلين يسفكون الدم
الحرام وينهبون المال الحرام . ليس من البر أن يترك هؤلاء واتهاكهم
بل البر كل البر أن يكون المرء محرماً ما ثم مدافعاً عن المحرمين شر
هؤلاء المعتدين . وبذلك تستأصل شأفتهم ويحسم ضرهم . أما كف

(١) أهدي ساق الهدى وهو ما يهدي إلى الحرم من النعم . وأحرم دخل
بالج . وقلّد : من تقليد الهدى وهو أن يعلق بعنق البعير قطعة من جلد ليعلم
أنه هدي فيكف الناس عنه . وأشعر البدنة (الناقة) إشعاراً حزناً سنامها
حتى يسيل منه الدم فيعلم أنها هدي .

(٢) الأزمئة والأمكنة ١٦٦/٢

اليَد والاقْتِصَار عليه بينا العين تنظر مكان المستيحيين ومدى أذاهم في
الآمنين البريثين ، فإنه إن لم يكن إثماً لم يكن براً وإن دان به أكثر
العرب، ولعل خير ما يمثل هؤلاء كلمة الزبير بن عبد المطلب أحد الحُصن
وكان شاعراً خطيباً سيداً جواداً :

ولولا الحُصن لم يلبس رجال ثياب أعزّة حتى يموتوا
ثيابهم شِمَال أو عِباء بها دنس كما دنس الحميت^(١)
ولكننا خلقنا إذ خلقنا لنا الحِجرات والمسك الفتيّة
ويقطع نخوة الختال عنا رُقاق الحد ضربته صموت
بكف مجرب لا عيب فيه إذا لقي الكريمة يستميت^(١)
بقي أمر ، وهو أي الحرمتين العرب أكثر رعاية لها : أشهر أم
الحرم ؟ فإن المرء يحب أن يعرف الواقع ليستطيع أن يتمم فكرته
عن مفاضلتهم بين الحرمتين . ومن يتتبع ما وراء الحوادث يعرف أن
العرب أرعى لحرمة الحرم منها لحرمة الشهر ، ولنا على ذلك أدلة :

١ - منها أن حرمة الحرم لا تكلفهم إلا رعاية مكان محدود مدة
إقامتهم فيه فهي ميسورة لهم وقل أن حفظ التاريخ انتهاكاً لحرمة

(١) ص ٧٢ رسائل الجاحظ (جمع السندوي) ، الحميت : الزق الصغير ،

وعاء السن مُتَن بالرُب - القاموس

الحرم . وليس كذلك حرمة الشهر فإن أمد رعايتها طويل جداً وهو ثلث السنة فيجب عليهم أن يكفوا عن الاعتداء مدة أربعة أشهر في أي بقعة كانوا وهو قيد صعب على طبيعة العربي النفور من القيود .

٢ — كثير من القبائل انتهكت حرمة الشهر ولم تجرؤ على انتهاك حرمة الحرم على حين أن ثأرها وشرفها — وأنت تعلم قيمتها عندهم — كانوا يتقاضونها غرض النظر عن حرمة الحرم . كان من هؤلاء القبائل قريش نفسها . فسيمر بك في حرب الفجار التي كانت بين قريش وأحلافها من جهة وهوازن وقيس وأحلافهما من جهة أخرى ، أن القوم اقتتلوا بعكاظ في الشهر الحرام فاستووا جميعاً في انتهاك حرمة مع أن قريشاً هي القيمة على دين العرب بحكم مكانها من البيت . إلا أن قريشاً لما انسلت من عكاظ حين أتاها نبأ اعتداء أحد أحلافها على هوازني ، خوفاً من هوازن التي كانت متكاثرة في السوق ، علمت هوازن بالأمر فاتبعت قريشاً فاقتلوا حتى جاء الليل ودخلت قريش الحرم فأمسكت عنهم هوازن رعاية لحرمة . فهم جميعاً يرون للحرم من الرعاية مالا يرون للشهر .

٣ — للعرب أساطير تقص العقاب الشديد الذي نزل بمن لم يبال

حق الحرم ، وليس لهم في قوتها أساطير تعاقب من انتهك حرمة الشهر . وقرأ إن شئت حديث إساف ونائلة^(١) اللذين مسخا صنمين لأنهما لم يحفظا البيت حرمة ، وقرأ إن شئت الأحداث التي تروى سيرة ابن هشام (١ : ١٨ فما بعد) في ذلك والأشعار ، وكلها متضافرة في بيان تعظيم حرمة البيت والعقاب الشديد الذي حل بمن أراد انتهاكها .
٤ — أمر النسيء وهو تلاعب محض بالتقاليد التي تخص الشهر ، ولم يؤثر لهم مثله ولا قريب منه فيما يخص الحرم . جاء في أمالي القاضي :
[أنهم كانوا إذا صدروا عن منى قام رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة فقال : « أنا الذي لا أعاب ولا يرد لي قضاء . » فيقولون له : « أنسنا شهراً » أي آخر عنا حرمة الحرم فاجعلها في صفر .
وذلك أنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر (ذو القعدة وذو الحجة والحرم) لا تمكنهم الإغارة فيها . لأن معاشهم كان من الإغارة : فيحل لهم (نعيم بن ثعلبة) المحرم ويحرم عليهم (بدلاً منه)

(١) في كتاب الأصنام للكلبي : أن إساف ورجل من جرم يقال له إساف ابن يعلى ، ونائلة بنت زيد من جرم وكانت يتعشقا في أرض اليمن ، فحببا فدخلتا الكعبة ، فوجدتا غفلة من الناس وخلوة من البيت ، ففجرا بها فيه ، فسفها . فأصبحا فوجدوهما ممسوخين فوضعهما ليتعظ بهما الناس . فلما طال مكنتهما وعبدت الأصنام عبدا معها . اهـ . ثم صارت قريش تنهر عندهما النسائك

صَفْرًا ، فإذا كان في السنة المقبلة حَرَمَ عليهم المحرَّم وأحل لهم صَفْرًا ،
فقال الله عز وجل : « إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ، يُضِلُّ بِهِ
الَّذِينَ كَفَرُوا يَحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْاِطُّوا عِدَّةَ
مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ .. الآية (١) »

وقال الشاعر :

أَلَسْنَا النَّاسِئِينَ عَلَى مَعْدٍ شُهُورَ الْحِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامًا [٢]
هذا وقد وقر في نفوس العرب « أن مكة لا تقر فيها بغياً ولا
ظلمًا ، لا يبغى فيها أحد إلا أخرجته ولا يريد لها ملك يستحل حرمتها
إلا هلك مكانه (٣) . » وذهب الزرقاني إلى أنها سميت (بكه) لأنها تبك
(تدق) أعناق الجبابرة .

فللحرم في صدورهم رهبة لا يدانيه فيها غيره .
رأيت أن اسم الحرم الذي تضاف إليه قريش ، كان خير حارس
لتجارتها وعيرها . تسير بفضل أمته مطمئنة ، تتمتع بالرعاية والحرمة
إلى اليمن وإلى العراق وإلى الشام .
وقد ذكر النيسابوري في تفسيره (عند الكلام على الإبلان)

(١) سورة التوبة ٣٨/٩

(٢) ١: ٤ طبع دار الكتب المصرية وانظر مروج الذهب للمسعودي ٣٩٧/١

(٣) شرح المواهب (للزرقاني) ٩٢/١

أن أشراف مكة لما كانوا يرتحلون للتجارة في الشتاء والصيف كانوا
« يأتون لأنفسهم ولأهل بلادهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب .
وإن ملوك النواحي كانوا يعظمونهم ويقولون : هؤلاء جيران بيت
الله وقطان حرمه ؛ فلا يجترى عليهم أحد . » وظاهر أن المقصود
بملوك النواحي أمراء العرب في اليمن والعراق والشام . فإن هؤلاء
هم الذين يعظمون البيت ؛ لا يقصر وكسرى .

هذا مكان قريش من العرب في الأعم الأغلب ، ولا حكم للنادر .
ولو لم يكن ذلك مستتباً لقريش ما كان هناك من معنى لسعي هاشم في
طرق أبواب الأسواق الخارجية يفتحها لقيله ، بينما تجارته المحلية غير
آمنة . فهو وإخوته ما شرعوا بمفاوضاتهم التجارية مع دول الرومان
والفرس واليمن والحبشة إلا وقد فرغوا من الاطمئنان إلى الطرق
الموصلة إلى هذه الممالك .

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الثاني

أحداث قریش التجارية

- | | |
|----------------|-----------------|
| ج - مرب الفجار | ا - قریش التجار |
| د - ملف الفضول | ب - اهل قریش |

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أُسْكِنَهُ اللهُ الفردوس
www.moswarat.com

قريش التجار

- ١ -

في سبب تسمية هذه القبيلة قريشاً أقوال مبثوثة في كتب السيرة والأدب تبلغ العشرين عدداً . أما القرش في اللغة فهو الجمع وإليك زبدة هذه الأقوال :

١ - سمو قريشاً لتجمعهم إلى الحرم بعد تفرقهم في البلاد ، وذلك حين غلب على مكة^(١) قصي بن كلاب الذي سمي مجعاً لذلك ، وقال فيه الشاعر :

أبوكم قصي كان يدعى مجعاً به جمع الله القبائل من فهر

٢ - أو لأنهم كانوا أهل تجارة وتكسب وضرب في البلاد ابتغاء الرزق ، يتقرشون البياعات فيشترونها ولم يكونوا أهل زرع

(١) اكبر محطة تجارية داخل جزيرة العرب قبل الإسلام ، لوقوعها وسط إحدى الطريقين التجاريين الكبيرين للجزيرة كما مر بك أول هذا الكتاب ، ثم لإتصالها بنجد والعراق ثم الفرس بطرق للقوافل ، ومينائها جدة يصلها بالبحر الأحمر وإن كانت رحلات قريش البحرية هي إلى الحبشة فقط عن طريق اليمن .

وضرع : من قولهم فلان يتقرش المال أي يجمعه .

٣ - أو لأنهم كانوا يفتشون الحاج فيسدون خطتها : فمن كان محتاجاً أغنوه ومن كان عارياً كسوه ، ومن كان معدماً واسوه ، ومن كان طريداً آووه ، ومن كان خائفاً حموه ، ومن كان ضالاً هدوه الخ ..
٤ - أو لأن أباعم النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً فقالوا : تقرش .

٥ - أو لأنه جاء إلى قومه فقالوا : كأنه جمل قریش أي شديد .

٦ - أو لأن قصياً كان يقال له القرشي .

٧ - أو سميت القبيلة بمصغر العرش وهي دابة بحرية تخافها دواب البحر كلها ^(١) .

٨ - أو سميت بقریش بن یخلد بن غالب بن فهر وكان

(١) نسبو هذا القول إلى ابن عباس . جاء في خزنة الأدب ١ : ١٨٩ (السلفية) :

(سأل عمرو بن العاص عبد الله بن عباس : بم سميت قریش ؟ قال : « بداية

في البحر تسمى قریشاً ، لا تدع دابة إلا أكلتها ، فدواب البحر كلها تخافها . » قال المشمرخ بن عمرو الحميري :

وقریش هي التي تسكن البع - ر بها سميت قریش قریشاً) اهـ

وكان هذا البيت تعريف لغوي منظوم كما تنظم المتن ، وزاد آخرون بعده :

قال المشمرخ بن عمرو الحميري :

تأكل القث والسين ولا تترك فيه لذي جناحين ريشا

هكذا في البلاد شئت قریش يأكلون البلاد أكلاً كمشا .

انظر حواشي الكشف للزنجشيري عند الكلام على سورة « لإبلان قریش »

صاحب غيرهم أو دليلها ، فكانوا يقولون : قدمت غير قریش ،
خرجت غير قریش^(١) .

فهذه ثمانية وجوه في هذا الاسم . وكل وجه منها معه شفيح من
معنى أو مناسبة ، ينفذ به إلى القبول .

إلا أن منها جميعاً قولين يظفران على التمحيص ؛ أما الأول فهو
أنه أطلق على النضر بن كنانة ، فكل من كان من ولده فهو قرشي ، ومن
لم يكن من ولده فليس بقرشي . وهناك مذهب آخر له شأنه من حيث
رواته الثقات ، يرمي إلى أن هذا اللقب أطلق على حفيده « فهر بن مالك
ابن النضر » نقله صاحب المصباح عن السهيلي وشارح القاموس عن ابن
الكابي وقال : « إنه مرجع في هذا الشأن . » ، وذُكر أيضاً في سيرة
ابن هشام . ونحن إذا دققنا في صيغة الرواية عند ابن هشام وصاحب
المصباح وجدناها مبنية للمجهول : « ويقال .. » وبهذا نعلم أن الراويين
ضعفها فكفينا بذلك المؤونة^(٢) . وقول الشاعر :

(١) انظر مادة قریش في القاموس وشرحه تاج العروس ، وفي لسان العرب
وخزانة الأدب ١ : ١٨٩ (السلفية) .

(٢) ومع ذلك فقد قال في العقد الفريد (٢ : ٢٠٣) : « إنما جمع قصي
إلى مكة بني فهر بن مالك ، فجاء قریش كلها فهر بن مالك ، فما دونه قریش
وما فوقه عرب . »

وجاء في خزانة الأدب ١ : ١٩٠ : « قال عبد الملك بن مروان : سمعت
أن قصياً كان يقال له القرشي ، لم يسم قرشي قبله . »

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا به جمع الله القبائل من فهر^(١)
المتقدم الذكر لا يمنع أن يكون ولد النضر جميعاً من قريش والنص
على فهر لا يخرج إخوته وأولاد عمه من القرشية .

ولا بد من التنبيه هنا على حجة قوية ولعلها قاطعة ، جاءت في
سيرة ابن هشام وهي كفيلة بالفوز بطمأنينة الباحث ، فقد ذكر بيتاً
لجرير في مدح هشام بن عبد الملك يعني فيه برة بنت مر أخت تميم بن
مر وهي أم النضر هذا ، وذلك قوله :

فما الأم التي ولدت قريشاً بمقرقة النجار ولا عقيم
وما قرم بأنجب من أيكم وما خال بأكرم من تميم^(٢)
وجرير من تميم .

وأما الثاني ففي بيان السبب في هذه التسمية وأي التفاسير هو الأرجح :
يستبعد الذين أن تكون دابة البحر هي التي أوحى هذا الاسم
ولو روي هذا القول عن ابن عباس : لبعد العرب حول مكة عن
البحر وجهلهم حيوانه ففي هذا الشرح تكلف ظاهر كالذي في اشتقاقه
من الجمل القریش . والذي لا يجد المرء غيره مذهباً يرتضيه هو أن

(١) البيت لحذافة بن غانم العدوي انظر طبعة لجنة التأليف لا عقد الفريد ٣/٣١٢

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٩٠ ، والإقراف : أن تكون الأم عربية
والأب غير عربي ، والقرم : السيد والفعل .

تكون (قريش) من القرش بمعنى الجمع ، لما كانوا يتعاطون من التجارة وجمع^(١) المال إذ كانوا معروفين بذلك عند العرب عامة . ذكر ابن هشام أن القرش: التجارة والاكتساب ، وأن القروش (أيضاً) التجارة والاكتساب وأتى على ذلك بشاهد من كلام العرب . لكن الجاحظ أزال اللبس في ذلك وأحسن الإيضاح حين قال في صدد كلامه عنهم :

« وبالتجارة كانوا يعرفون ، ولذلك قالت كاهنة اليمن : « لله در الديار ، لقريش التجار » وليس فوقهم قرشي . كقولهم هاشمي وزهري وتيمي لأنه لم يكن لهم أب يسمى قريشاً فينتسبون إليه ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقرش .^(٢) »

وقد تقدم الدليل آنفاً على أن النضر هو قريش ولا داعي لتسميته بذلك إلا معنى التجارة والكسب .

وقريش في الأصل طبقتان : قريش البطاح وقريش الظواهر^(٣)

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ١ / ٣٦٩ حيث يقول : « وأخذت قريش الأيلاف من الملوك .. وتقرشت ، والتقرش : الجمع ، ومنه قول ابن حازمة البشكري :
إخوة قرشوا الذنوب علينا في حديث من دهرنا وقديم . »

(٢) رسائل الجاحظ ص ١٥٦

(٣) عده المسعودي في قريش البطاح : بني عبد مناف وبني عبد الدار وبني =

أما قريش البطاح فهم الذين نزلوا بطحاء مكة وبطنها وهم سادة القرشيين ، فيهم بنو هاشم وبنو أمية ومنازلهم الشعب بين أخشي مكة^(١) وهم صُباة قريش وصميمها وساداتها وأغنياؤها ، اختطوا منازلهم في البطحاء ونزلوها .

وأما قريش الظواهر فهم الذين لم تسعهم الأباطح فنزلوا أعلى مكة خارج الشعب ، فانتشروا حولها في ظواهرها وهم دون أولئك شرفاً وغنىً وشأناً . قال في لسان العرب : « وقريش البطاح أكرم وأشرف من قريش الظواهر . » واستشهد لذلك بقول الشاعر^(٢)

فلو شهدتني من قريش عصابة قريش البطاح لا قريش الظواهر
ويقول الفرزدق في مباحاته جريراً :

تنح عن البطحاء إن قديمها لنا ، والجبال الراسيات الفوارع^(٣)

= عبد العزى ، وبني زهرة وبني مخزوم وبني تيم بن مرة وبني جمح وبني سهم وبني عدي وبني عتيك بن عامر بن لؤي .

وعد في قريش الظواهر : بني محارب والحارث بن فهر ، وبني الأدرم بن غالب بن فهر وبني هيص بن عامر بن لؤي ، - الصفحة السابقة ، والعمدة ١٨٤/٢ والمجهر ص ١٦٧

(١) أخشبا مكة جبلاها : أبو قيس والذي يقابله

(٢) هو ذكوان مولى عبد الدار يقوله للضحاك بن قيس الفهري . انظر

مروج الذهب للمسعودي ٣٦٩/١

(٣) شرح شواهد المغني ص ٣

وقول الكميّ :

فحلّت معتلج البطاح وحلّ غيرك بالظواهر^(١)
وهناك قرشيون استوطنوا الطائف وغيرها حيث اتخذوا
الأموال والمزارع فلم ينسبوا إلى ظواهر ولا إلى بطاح . روى صاحب
تاج العروس أن « في قریش من ليس بأبطحية ولا ظاهرية . »

* * *

أول بانٍ لمجد قریش وموطد لنفوذها هو قصي بن كلاب ، إذ
استنقذ أمر مكة وولاية البيت من جرهم وخزاعة بعد حرب
شديدة وجمع أشتات قومه فأنزلهم حول الحرم وملك أمرهم فكان
أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكا أطاع له به قومه . فكانت إليه
الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله وقطع

(١) انظر لسان العرب وتاج العروس مادتي : بطح ، ظهر .

والكميت يخاطب هنا هشام بن عبد الملك ، وقبل هذا البيت :

بابن العقائل للعقا	تل والجحاجة الاخبار
إن الخلافة والإلا	ف برغم ذي حسد وواغر
دلفا من الشرف التلي	د إليك بالفد الموافر

فحلّت ...

مكة رباعاً بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها .. فسمته قريش مُجمِعاً لما جمع من أمرها وتيمنت بأمره فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش ولا يتشاورون في أمر نزل بهم ولا يعتقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره الخ ..^(١)

فأنت ترى أن قصياً مكن دعائم قريش ونظم أمورهم ثم جعل من داره التي اتخذها لنفسه وجعل بابها إلى الكعبة مجلس شورى لقريش ودار حكومة معاً وسماها دار الندوة . وكانت قريش بعده لا تقضي أمراً إلا فيها ، فيها ينظمون غيرهم إلى الشام أو اليمن فلا تخرج غير إلا منها ولا يقدمون إلا نزلوا فيها ، ويتفاوضون في أمر تجارتهم وحريرهم وسلمهم . وفيها كان معظم المؤامرات التي اتتمروا بالنبي وأصحابه في بدء الدعوة ، وكانت لهم محكمة يلجأ إليها المتخاصمون ويقضي فيها شيوخهم المقدمون . ولا ريب أن أمور التجارة القرشية بعد الذي صنع قصي لهم اطرء تقدمها وازدهارها فالتسعت ونمت . وأراد قصي تثبيت هيبة قريش في نفوس العرب فقرر عليهم

خرجاً يخرجونه في كل موسم من أموالهم ، فإذا كان الحج قال قصي :
« يا معشر قريش : إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وإن
الحجاج ضيف الله وأهله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة
فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم ، فكانوا
يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه فيصنعه طعاماً
للناس أيام منى فياً كله من لم يكن له سعة ولا زاد^(١) من الحجاج
وأهل مكة . وهذه هي الرفادة .

امتدت أيام قصي حتى كبر فعهد إلى ولده عبد الدار باللواء
والسقاية والرفادة ، لأنه لم يشرف في حياته وكان بكره ، فقد بطأ
به عمله عن أن يلحق بأخيه عبد مناف الذي بلغ في الشرف والسيادة
شأواً بعيداً ، فخص قصي عبد الدار بذلك جبراً له حتى يلحق بأخيه .
ثم تنازع على الشرف بنو عبد الدار وبنو عبد مناف وتحزب لكل
من الفريقين أقوام وأفضى النزاع إلى الاستعداد للحرب ، وتعاهد عند
الكعبة بنو عبد الدار وحلفاءهم على النصرة فسموا الأحلاف ،
وتعاقد بنو عبد مناف وغمسوا أيديهم في جفنة مملوءة طيباً فسموا
المطيئين ، ثم كان سعي بين الفريقين انفرج عن صلح بينهما على أن

يكون لبني عبد مناف السقاية والرفادة وأن يكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار . فتحاجز الناس على ذلك حتى أتى الاسلام وهم عليه .

ازدهر مجد قريش التجاري وبلغ أوجهه في الحقيقة ، بهاشم بن عبد مناف ، لأن تجارة قريش قبله لم تكن تعدو مكة « وإنما كان يقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب . » ^(١) حتى جاء هاشم ففتح في وجوههم ما فتح . كانت هاشم دون إخوته الرفادة والسقاية فقام بأمرهما إذ كان أخوه عبد شمس رجلاً سفّاراً مقلداً ذا عيال . وهاشم موسر طماح بعيد النظر ، وقد ضرب القرشيون على عهدده في الأرض أكثروا الأسفار التجارية . ومن الغريب ان أولاد عبد مناف كلهم حليفو أسفار طوحتهم الغربة فمات كل بناحية : أما هاشم فمات بغزة من أرض الشام فسميت به غزة هاشم ، وأما أخوه المطلب فمات بردمان من أرض اليمن ، وأما أخوه نوفل فمات بسلمان من أرض العراق ، وعبد شمس مات بمكة .

اضطلع هاشم بأعباء الأمور وأكثر من الأسفار وهو أول من

عقد المعاهدات التجارية لقريش (كما سيأتي قريباً عند الكلام على الإيلاف) فتممّ الأموال وارتفع له ذكر نابه بين قومه واستفاضت له مكارم سار بها الركبان ^(١) قال ابن سعد :

« كان اسم هاشم عمراً فأصابت قريشاً سنوات ذهبن بالأموال فخرج هاشم الى الشام فأمر بخبز كثير فخبز له فحمله في الغرائر ^(٢) على الإبل حتى وافى مكة فهشم ذلك الخبز يعني كسره وثرده ونحر تلك الإبل ثم أمر الطهارة فطبخوا . ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة . فكان ذلك أول الحيا بعد السنة التي أصابتهم فسمي بذلك هاشماً وقال ابن الزبير في ذلك :

عمر و العلي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف
وقال وهب بن عبد قصي في ذلك :

تحمل هاشم ما ضاق عنه	وأعيا أن يقوم به ابن يرض
أتاهم بالغرائر متأفات	من أرض الشام بالبر النقيض
وأوسع أهل مكة من هشم	وشاب الخبز باللحم الغريض
فظل القوم بين مكالات	من الشيزاء حائر هايفيض ^(٣) اه

(١) الطبقات لابن سعد ج ١ ص ٤٣ طبعه ليدن

(٢) ، (٣) الطبقات ١ : ٤٤ ، الغرائر جمع غرارة وهي : الجوارق

(العدل) . متأفات : ممتلئات الغريض : الطري . والشيزاء بمدود شيزى : وهو الخشب الاسود يعمل منه القصاع . والحائر : الودك (الدهن) .

والظاهر ان هاشماً لقي مجداً وعزاً ومكانة لم يحظ ببعضها أحد ،
فأثار بذلك حسد الأقران له لما انقطعوا دون بلوغ شأوه وأورثوا
هذا الحسد أبناءهم من بعدهم ، ولم يشفع لهاشم ما قدم لقومه من
خير وما رفع لهم من ذكر وما وطد لهم من تجارات ؛ فإن ابن سعد
يروي لنا بعد ما تقدم من صنع هاشم ، اول ما زرع الشر بين بني أمية
وبني هاشم قال : « فحسد هاشماً أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ،
وكان ذا مال فتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه ، فشمت به
ناس من قريش فغضب ونال من هاشم ودعاه الى المنافرة ، فكره
هاشم ذلك لسنة وقدره ، فلم تدعه قريش وأحفظوه . فقال لأمية :
فإني أنافرك على خمسين ناقة سود الحديق تنحرها ببطن مكة ، والجللاء
عن مكة عشر سنين ؛ فرضي أمية بذلك وجعلها بينهما الكاهن
الخنزاعي . فنفر هاشماً عليه ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من
حضره وخرج أمية الى الشام فأقام بها عشر سنين فكانت هذه اول
عداوة وقعت بين هاشم وأميه . » ^(١)

جري بنو قصي على سنة أبيهم في إطعام الحاج إلا أن هاشماً

امتاز منهم جميعاً فسار بهذه السنة الى شوط بعيد لم يبلغه احد قبله ولا بعده ، ولا غرو فقد كان من الغنى بالمكان المشهور وأسعفه في التجارة حظ قلما أتيج لغيره . وعلى يده وأيدي إخوته فتحت لقريش أسواق في بلاد الروم وفارس والحبشة ، فصنع للحاج مالم يصنعه أحد . ونحن عارضون لك من ذلك ما وصفه ابن ابي الحديد ومنبهوك خاصة على شرف هاشم وكمال مروءته في حرصه على ألا يطعم الحاج إلا ما حل كسبه :

كان يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره الى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشاً فيقول : « يامعشر قريش أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوهاً وأعظمها أحلاماً وأوسطها أنساباً وأقربها أرحاماً ، يامعشر قريش أنتم جيران بيت الله أكرمكم بولايته وخصبكم بجواره دون بني إسماعيل ، وحفظ منكم أحسن ما حفظ منكم جاره من جاره فأكرموا ضيفه وزوار بيته فإنهم يأتونكم شعناً غبراً من كل بلد : فورب هذه البنية ، لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتكموه ألا وإني مخرج من طيب مالي وحلاله مالم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام فواضعه ، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل . وأسألكم بجرمة هذا البيت ألا يخرج منكم رجل من ماله

لكرامة زوار بيت الله ومعوتهم إلا طيباً لم يؤخذ ظالماً ولم يقطع فيه رحم ولم يغتصب ، فكانت قريش تخرج من صفو أموالها ما تحتمله أحوالها وتأتي به الى هاشم فيضعه في دار الندوة لضيفة الحاج ^(١) . اهـ .

والمرء - وإن حدثته نفسه فيما روى ابن ابي الحديد - موقن أن هاشماً في الغاية من النبل والشرف وتحري الطيب من المنكاسب . كان إذا جمع الأموال من قريش يأمر بجياض ^(٢) من آدم فنجعل في موضع زمزم ثم يستقى فيها الماء من آبار مكة فيشربه الحاج وكان يطعمهم أول ما يطعم ، قبل التروية يوم ، بمكة وبمى وجمع ^(٣) وعرفة . وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر ويجعل لهم الماء فيسقون بمى - والماء يومئذ قليل - في حياض من الأدم الى ان يصدروا من منى فتقطع الضيافة ويتفرق الناس لبلادهم .

لم تكن أمور قريش وخدمة الحجيج لتصرف هاشماً عن تجاراته وأسفاره بل كان بين هذا وذاك يقود قوافل قريش الى الشام وقد تزوج قبيل وفاته في إحدى هذه الرحلات . والفضل لابن سعد في وقوفنا على بعض تفاصيل للغير التي خرج بها هاشم ، كما له الفضل في

(١) شرح نهج البلاغة ٣ : ٤٥٤

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١ : ٤٥ (٣) المزدلفة

معرفتنا بممارسة المرأة العربية للتجارة ومشاركة الرجال في الجاهلية بالخروج الى الاسواق والاتجار فيها قال :

« خرج هاشم في غير لقريش ، فيها تجارات . وكان طريقهم على المدينة ، فنزلوا بسوق النبط فصادفوا سوقاً تقوم بها في السنة يحشدون لها . فباعوا واشتروا ونظروا الى امرأة على موضع مشرف من السوق ، فرأى امرأة تأمر بما يشتري ويباع لها ، فرأى امرأة حازمة جلدة ، مع جمال . فسأل هاشم عنها : أأيم هي أم ذات زوج ؟ فقليل له : « أيم كانت تحت أحيحة بن الجلاح فولدت له عمراً ومعبداً ، ثم فارقتها . » وكانت لاتنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، فإذا كرهت رجلاً فارقت . وهي سلمى بنت عمرو بن زيد بن لييد بن خدّاش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار . فخطبها هاشم فعرفت شرفه ونسبه ، فزوجته نفسها ودخل بها وصنع طعاماً ودعا من هناك من اصحاب العير الذين كانوا معه وكانوا أربعين رجلاً من قريش فيهم رجال من بني عبد مناف ومخزوم وسهم ، ودعا من الخزرج رجالاً وأقام بأصحابه أياماً . وعلقت [منه] سلمى بعبد المطلب فولدته وفي رأسه شيدة فسمي شيدة . وخرج هاشم في أصحابه الى الشام حتى بلغ غزة فاشتكى فأقاموا عليه حتى مات فدفنوه بغزة

ورجعوا بتركته الى ولده .^(١)

ذكر ياقوت أن قبر هاشم بغزة حيث مات ، وأنها لذلك يقال لها
غزة هاشم وروى لمطروود الخزاعي في رثائه :

مات الندى في الشام لما أن ثوى فيه بغزة هاشم لا يبعد
قال ياقوت : « مات هاشم بغزة وعمره خمس وعشرون سنة
وذلك الثبت وقيل عشرون . » وفي النفس من هذا التقدير شيء لأن
ما حفلت به حياة هاشم وما تم لقومه على يديه ينذر أن يكمل لابن
خمس وعشرين .

قام بأمر قريش بعد هاشم أخوه الأصغر المطلب بن عبد مناف
وكان ذا شرف في قومه وفضل وكانت قريش إنما تسميه الفيض
لسماحته^(٢) وفضله وقد ضم إليه ابن أخيه شيبه بن هاشم في أحد
أسفاره فدخل به مكة مردفاً إياه على بعيره فظنت قريش انه غلامه
فقالوا : عبد المطلب ، فقال المطلب : ويحكم انه شيبه ابن أخي : هاشم ،
قدمت به من المدينة . ولما خرج المطلب في رحلة له الى اليمن مات
بردمان ، وكان آخر من مات من بني عبد مناف : نوفل الذي تقدم
أنه مات بسلمان من أرض العراق ، فذكرهم مطروود بن كعب الخزاعي
في رثائه فقال :

(١) الطبقات ١ : ٤٥ (٢) ابن هشام ١ : ١٢٨

أربعة كلهم سيد أبناء سادات لسادات
ميت برد مات وميت بسا مان وميت بين غزات^(١) .. الخ
ثم انتهت السقاية والرفادة من بعده إلى عبد المطلب بن هاشم
فأدار أمور قومه وأهم ما صنع لهم حفر بئر زمزم . وقد كان في قريش
ذاهية ومكانة .

وفي أيامه هددت مكة وتعرضت مكاتها التجارية للهبط ،
إذ قصدوها أبرهة « يريد بلا شك الاستيلاء على مكة ومفاتيح
تجارها^(٢) » ، فاعتصمت قريش في شعف الجبال وفي الشعاب خوفاً من معرفة
الجيش وأخذ عبد المطلب بحلقة باب الكعبة مع نفر من قريش يستعدي رب
البيت على الأحباش بما لا غرض لنا بذكره هنا ، إلا أننا لا نرى مندوحة

(١) ومن الغريب الطريف أنه أصاب أولاد العباس بن عبد المطلب
ما أصاب إخوة هاشم هؤلاء حتى قالوا : أبعد قبور إخوة على الأرض قبور
أولاد العباس : فعبد الله بن عباس الحبر دفن في الطائف ، والفضل بن عباس
رديف رسول الله ﷺ مات في طاعون عمواس بالشام أيام عمر ، وعبيد الله بن
عباس الجراء مات بالمدينة ، ونثم بن عباس شبيه النبي ﷺ مات بسمرقند زمن
معاوية ، وعبد الرحمن بن عباس قتل بإفريقية زمن عمر . اهـ ملخصاً عن النوادر
للقالبي ص ١٩٧

(٢) تاريخ العرب الادبي للاستاذ رينولد نيكلسون ترجمة محمد حسن

حبشي في الرسالة عدد ١٨٩ : ٦٤

عن التعرض للتقدمة التي قدم بها أنيس (سائس فيل أبرهة) ، عبد المطلب إلى أبرهة إذ قال له : « أيها الملك ! هذا سيد قریش بيابك يستأذن عليك وهو صاحب غير مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال . ^(١) » وكان أبرهة أخذ لعبد المطلب مئتي بعير أصابها خارج مكة فأتاه يستردها . وإذا كان مئتا بعير مما يملك مثل عبد المطلب وأضفت إلى ذلك ما يذكروا الرواة من أن عبد المطلب أمهر امرأته ، فاطمة بنت عمرو دئة ناقة ومئة رطل من الذهب ^(٢) ، وهو لم يشتهر بكثرة الأسفار كما اشتهر غيره من القرشيين ، أمكنك أن تتصور الغنى الذي تتمتع به هذا البطن من العرب .

وعبد المطلب هذا هو الذي رأس وفد قریش الذي ذهب إلى سيف بن ذي يزن ليهنئه بالملك وبالظفر . وقد لقي الوفد ورئيسه خاصة من إجلال الملك وإكرامه ما تجد تفصيله في العقد الفريد (١٧٥:١)

(١) المصدر السابق . هذا وقد كان أبرهة بنى بيتاً مقدساً باليمن ليصرف الناس عن قصد الكعبة والحج إليها ، فلما رأى اليمنيين وسائر العرب لا تنصرف عن الحج إلى مكة والطواف بكعبتها غاظه ذلك وعزم على هدمها . والحافز له على ذلك - فيما أرى - تجاري قبل كل شيء . إذ في إقامة الحج في اليمن ونقل أسواق العرب الكبرى إليها ما يجلب الحياة والانتعاش والنشاط للحركة الاقتصادية باليمن ، وذلك بالطبع يستتبع عمرانها وتقدمها وغناها .

(٢) إنسان الميرون ٤٨/١

فارجع إليه ثمة ، وكان قبيل ذلك قد وفد الى معد يكرب حين ملك على اليمن^(١) . وينسب إلى عبد المطلب هذه الآيات يذكر فيها حرمة البيت ويعرض لجيش أبرهة :

نحن آل الله في ذمته لم نزل فيها على عهد قدم
إن للبيت لرباً مانعاً من يرد فيه يا ثم يُخترم
لم نزل لله فينا حرمة يدفع الله بها عنا النقم^(٢)
ثم أفضى الأمر من بعده إلى أصغر أولاده العباس بن عبد المطلب
ورسول الله ﷺ يومئذ ابن ثمانين سنين . وبقي الأمر في يده حتى
جاء الاسلام .

ومن تمام الوصف أن نختصر هنا عن العقد الفريد توزيع
(الوظائف الرسمية) على بطون قريش ، في هذه الجمهورية التجارية في
مكة ، التي شبهها « لادنس » بجمهورية البندقية وقرطاجة ، لسيطرة
المالين من أرباب التجارة وأصحاب رؤوس الأموال^(٣) :

(١) مروج الذهب ١٠/٢

(٢) هذا وقد جاء في فهرست ابن النديم ص ٧ « أنه كان في خزانة المأمون
كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد آدم ، فيه ذكر حق عبد المطلب
ابن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري من أهل وذل ؟ صنعاء ،
عليه ألف درهم كميلاً بالحديدة ، ومنى دعاه بها أجابه ؛ شهد الله والمكان . »

(٣) مجلة المشرق سنة ١٩٢٦ ص ٥٣٩

قال ابن عبد ربه ^(١)

« من انتهى إليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالإسلام
عشرة رهط من عشرة أبطن ، وهم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار
وأسد نيم ومخزوم وعدي وجُمح وسهم :

١ - فكان من هاشم : العباس بن عبد المطلب : يسقي الحبيج
في الجاهلية وبقي له ذلك في الاسلام .

٢ - ومن بني أمية : أبو سفيان بن حرب : كانت عنده العقاب
زاية قريش ، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حيت الحرب ، فإذا
اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وإن لم يجتمعوا على أحد
رأسوا صاحبها فقدموه .

٣ - ومن بني نوفل : الحارث بن عامر وكانت إليه الرفادة .

٤ - ومن بني عبد الدار : عثمان بن طلحة كان إليه اللواء والسدانة
مع الحجابة والندوة .

٥ - ومن بني أسد : يزيد بن زمعة بن الأسود ، وكانت إليه
المشورة . وذلك أن قريشاً لا تجتمع على أمر حتى يعرضوه عليه فإن
وافقهم والاهم عليه ، وإلا تخير وكانوا له أعوانا .

(١) المقدم القريب ٣/٣١٣ فما بعد (مطبعة لجنة التأليف ١٣٧٢ هـ)

٦- ومن بني تيم : أبو بكر الصديق . وكانت إليه في الجاهلية الأُشناق وهي الديات والمغرم . فكان اذا احتمل شيئاً من الدماء فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه .

٧- ومن بني مخزوم : خالد بن الوليد ، وكانت إليه القبة والأعنة ، فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجدهون إليها ما يجزون به الجيش ، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب .

٨- ومن بني عدي : عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة في الجاهلية . وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم حي لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به .

٩- ومن بني جُمح : صفوان بن أمية وكانت إليه الأيسار وهي الأُزلام يستقسم لهم بها إذا أرادوا أمراً من أمورهم العامة .

١٠- ومن بني سهم : الحارث بن قيس وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التي سموها لآلهتهم .

فهذه مكارم قريش التي كانت في الجاهلية وهي السقاية والعمارة^(١) والعقاب والرفادة والسدانة والحجابة والندوة واللواء والمشورة

(١) مبشرها ابن عبد ربه بعد أسطر .

والأشناق والقبه والأعنة والسفارة والأيسار والحكومة والأموال المحجرة ، الى هؤلاء العشرة من هذه البطون العشرة على حال ما كانت في أوليتهم ، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر .

وجاء الاسلام فوصل لهم ذلك . فكانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر في بني هاشم . والعمارة هي ألا يتكلم أحد في المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع صوته ، فكان العباس ينهاهم عن ذلك . وأما حلوان النفر : فإن العرب لم تكن تملك عليها في الجاهلية أحداً فإن كان حرب أقرعوا بين أهل الرياسة فن خرجت عليه القرعة أحضره صغيراً كان أو كبيراً ؛ فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بني هاشم فخرج سهم العباس وهو صغير فأجلسوه على المجن . »

* * *

- ٢ -

هذا أمر سراة قريش ورؤسائهم فأما عامتهم فقد أخذوا يشغلون مركزاً ممتازاً بين قبائل العرب ساعدهم على بلوغه مقامهم في مكة حيث البيت والحرم ، إذ كانوا يقومون بسدانه البيت وما يحتاج إليه من خدمة وعناية . فكانت العرب تعرف لقريش شرفها ومكاتها وغناها كما تعرف لها زعامتها الدينية وسيطرتها على مكة وإدارتها ،

« ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميها : أهل الله ^(١) . » ،
وأبلغ تعبير عما بلغته قريش في نفوس العرب من منزلة في الجملة قول
رسول الله ﷺ فيما بعد : « الناس تبع لقريش في الخير والشر » ^(٢)

والقرشيون من بين عامة سكان الحجاز أغنياء مهرة في أمور
التجارة لا يكاد يعرف لكثير منهم عمل غير الاتجار « ومن لم يكن
من قريش تاجراً فليس بشيء » ، فكانوا ينظمون غيرهم في الشتاء الى
اليمن حيث يتبايعون سلع الهند والحبشة المستفيضة هناك فيحملونها إلى
الحجاز ، وعيراً في الصيف إذ يرحلون بما حملوا من الحبشة والهند وما
عندهم ايضاً من محصول بلادهم كالتمر والأدم ، إلى الشام فيفرغون
في أسواقها : غزة وبصرى وغيرهما ، ما في أحماهم ويأخذون بدلاً
منها ما في الشام مما لا يكون بالهند ولا بالحبشة .

وكانوا يسIRON قوافل عظيمة معها حامياتها وأدواتها ومعهم
الأدلاء يسIRON بين أيديهم . أما الحاميات فأكثر ما تكون من بني
غفار ومن إليم ، ممن يتقاضون على مرافقة العير وحمايتها جعلاً من
قريش ، هذا عدا عبدان قريش ومواليها وأحلافها .

اختلاط القرشيين بالروم والفرس والحبشان بسبب التجارة

(١) الصاهي ص ٢٣ (٢) تفسير الوصول ٣٠٤/٣

جعلهم يتميزون من سائر العرب بميزات أفادوها من هذا الاختلاط ،
 فتعلم فريق منهم الكتابة من الحيرة ونشروها لما رجعوا إلى بلادهم
 فكان في مكة والطائف عدد يسير يحسنون الكتابة ^(١) ويذكرون
 أنه كان لبشر أخى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل صحبة
 بحرب بن أمية التاجر القرشي الكبير « لتجارته عندهم في بلاد العراق
 فتعلم حرب منه الكتابة ثم سافر معه بشر إلى مكة فتزوج الصبياء بنت
 حرب ، فتعلم منه جماعة من أهل مكة فهذا كثر من يكتب بمكة من
 قريش قبل الاسلام . ولذلك قال رجل كندي من أهل دومة الجندل
 بمن على قريش بذلك :

لأتجحدوا نعاء (بشر) عليكم	فقد كان ميمون النقيبة أزهر
أناكم بخط الجزم حتى حفظتم	من المال ما قد كان شتى مبعثرا
وأقتسم ما كان بالمال مهمل	وطا منتم ما كان منه منفرا
فأجريت الأقلام عوداً وبدأة	وضاهيت كتاب كسر وقيصرا
وأغنيت عن مسند الحى حمير	وما زبرت في الصحف أقيال حمير ^(٢)

(١) انظر بلوغ الأرب ٣ : ٣٦٨ وما بعدها . ولما دون عمر الديوان أمر
 عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش
 فكشروا ديوان الجند ، فلولا التجارة ما كان لقريش هؤلاء الكتاب المخضرمون .
 (٢) انظر الزهر للسيوطي (النوع الثاني والاربعون ٣٤٦/٢ طبعة
 على الخليلي) الأولى

ومهما يكن فقد كان أكثر كتاب الوحي لرسول الله ﷺ منهم
ومن هنا كان القرشيون أقرب العرب من علم وثقافة وتهذيب ،
لمخالطتهم هؤلاء الأجانب المتحضرين وقبسهم شيئاً من تعاملهم في بيوتهم
وأنظمتهم في تجارتهم حسبما كانوا يرون في الأسواق التي كانوا يحيطون
رحالهم فيها . وهذه الأسواق وإن لم تكن في الدرجة الأولى
بين أسواق الرومان ، ولا كان أهلها سابقين في مضمار الحضارة كثيراً ،
لم تخل من آثار بعيدة في التحضر استفاد منها تجار مكة شيئاً يعتد به
في السياسة والاقتصاد .

بل لقد تأثروا برحلاتهم هذه ببعض المعتقدات أيضاً فقد ذكروا
أن عبادة الاصنام طارئة على أهل مكة من الشام ، وإن عمرو بن لحي
- فيما زعموا - أول من نشر عبادة الاصنام حول الكعبة حين حمل
معه صنماً من اصنام وجدها في جنوب الشام فنصبه في الكعبة ^(١) .

وفشت في جماعة من قريش زندقة حتى قال صاعد : « كانت الزندقة
في قريش أخذوها عن أهل الحيرة » ^(٢)

فأنت ترى أن هذه الرحلات أثرت حتى في معتقدات العرب

(١) انظر مثلاً : مروج الذهب للمسعودي ٣٦٧/١

(٢) طبقات الامم لصاعد ص ٦٧

ومن القريب المألوف أن يحمل الرحالون من البلاد التي ينزلونها شيئاً من طرائقها في العبادات والدين والأخلاق والعروض والأزياء يتحدثون عنه إذا ردتهم أسفارهم إلى بلادهم ، فيُعجبون منه ذويهم وجيرتهم بمن لم يكن له بتلك البلاد عهد ، وما أكثر ما يحاول الانسان تقليد من يملأ عينه .

أفادت قريش من هذه الرحلات وهذا الاختلاط بالأمم التي سبقتهم ، كثيراً من اللباقة والكياسة إلى ما عرفت به من الفصاحة المشهود لهم بها ، حتى إن العرب كانت تعرض شعرها على قريش . وعرض علقمة الفحل عليهم شعره فوصفوه بِسِمَطِ الدهر^(١) ، وثقفت ألواناً من الدهاء والاحتيال ، لا يحسنها إلا من رسخت قدمه في التجارة وأسبابها وضروب تعاطيها ، حتى إذا دار الزمان وقضي للعرب أن تكون لهم دولة ذات سياسة داخلية وخارجية ، كان أقطاب هذه الدولة وأركانها أولئك التجار الذين يعرفون كيف يتأثرون للأهـور ويتلطفون لمواجهة الصعاب وتذليل العقبات وحل المشكلات من أمثال : أبي بكر وعمر وعثمان وأبي سفيان ومعاوية وعمر بن العاص وزيد والمغيرة ، وتلك الطبقة الممتازة من أكابر التجار^(٢) في الجاهلية

(١) الاغانى ١١٢/٢١

(٢) من المهم أن نلاحظ هنا أن أكثر تجار قريش أمويون ، وقد طال -

و كبار أهل الحل والعقد في الإسلام .

ومتى رميت برجل ذي ذكاء ومواهب ، في قطر تجاري كالشام
أو العراق (قبل الإسلام) فاختلط بالتجار ، وقاسى محيطاً غير محيطه ،
تفتحت تلك المواهب ، وانجلى عن نبوغ كبير ما كان لينكشف
لو جهد صاحبه في محيطه الضيق ، بين شعاف مكة وبطاحها . إن شئت
فانظر إلى هذا الاحتيال المضاعف الذي أتاه المغيرة بن شعبة وضحك
به على كل خمار في الحيرة (إن كان ليعجز عن أقل منه أقطاب فضائح
« ستافسكي » رغم ما يجهزهم به العصر العشرون من وسائل وعدد .)
ولعل في هذه القصة التي سأوردها لك بياناً شافياً لهذا الدهاء التجاري
الذي تمرست به قریش وامتازت به من العرب قاطبة :
قال المغيرة بن شعبة :

« أول ما عرفني به العرب من الدهاء والحزم ، أني كنت في
ركب من قومي ، في طريق لنا إلى الحيرة فقالوا لي : « قد اشتينا
الشراب وما معنا إلا درهم زائف . » فقلت : « هاتوه وهاهموا زقين . »
فقالوا : « وما يكفيك لدرهم زائف زق واحد ! » قلت : « أعطوني
ما طلبت وخلصكم ذم . » ففعلوا وهم يهزؤون من قولي .

= ترددهم ولبثهم في الشام ، فاطلموا على أصول السياسة والحكم ، وكان نجاحهم
فيما بعد من ثمة .

فصبت في أحد الزقين شيئاً من ماء ثم جئت إلى خمار فقلت له :
« كل لي ملء هذا الزق . » ففلاؤه . فأخرجت الدرهم الزائف فأعطيته
إياه . فقال : « إن ثمن هذا الزق عشرون درهماً جياداً ، وهذا درهم
زائف ! » فقلت : « أنا رجل بدوي وظننت أن هذا يصلح كما ترى ،
فإن صلح وإلا فخذ شرابك . » فاكتال مني ما كاله وبقي في زقي من
الشراب بقدر ما كان فيه من الماء ، فأفرغته في الزق الآخر وحملتها
على ظهري وخرجت ، فصبت في الزق الأول ماء ودخلت إلى خمار
آخر فقلت : « إني أريد ملء هذا الزق خمرأً فانظر إلى ما معي منه ،
فإن كان عندك مثله فأعطني . » فنظر إليه (وإنما أردت ألا يستريب بي
إذا رددت الخمر عليه) فلما رآه قال : « عندي أجود منه . » قلت :
« هات » فأخرج إليّ شراباً فاكتلته في الزق الذي فيه الماء ثم دفعت
إليه الدرهم الزائف ، فقال لي مثل قول صاحبه فقلت : « خذ خمرك »
فأخذ ما كالي وهو يرى أنني خلطته بالشراب الذي أريته إياه . وخرجت
فجعلته مع الخمر الأول .

ثم لم أزل أفعل ذلك بكل خمار في الحيرة حتى ملأت زقي الأول
وبعض الآخر . ثم رجعت إلى أصحابي فوضعت الزقين بين أيديهم
ورددت درهمهم .

فقالوا : « ويحك ! أي شيء صنعت ؟ » فحدثهم فجعلوا يعجبون
وشاع لي الذكر في العرب بالدهاء حتى اليوم^(١) ،

هذا احتيال لا يخترعه إلا عقل تاجر ماهر ، لم يجرفه وأسرارها
وبالغش وضروبه ، أحسنه قريش وشركاؤها كما أحسن ضرباً آخر
من اللباقة وحسن التأني مع الدول المجاورة التي تاجروا في بلادها ،
فكانوا بهذه الكياسة ، ينجون من عقاب المخالفات التي يرتكبونها
وعواقب المغامرات التي يقتحمونها . ولما أرادت قريش أن تفتح لها
أسواق فارس ولم تكن ترتادها كما ترتاد أسواق الشام ، كان لا بد في
سبيل الوصول إلى ذلك من مغامرات ومخاطرة وتعرض للأذى وكانت
الحاجة تخلق لها مغامرين أذكىاء منها أو من شركائها يصلون برفقتهم
ودعائهم إلى ما يريدون مع السلامة والغنيمة . ونحن ذاكرون لك هنا
شاهداً ، مهما يكن حظ التزيد فيه فإن ما يخلص منه بعد الامتحان
صالح لأن يعطيك صورة صحيحة عن فطنة القوم في أمور التجارة
والاحتيال لها والجرأة فيها :

ذكر الرواة أن أبا سفيان خرج في جماعة من قريش يريدون
العراق بتجارة ، فلما ساروا ثلاثاً جمعهم أبو سفيان فقال لهم : « إنامن

مسيرنا هذا لعل خطر ، ما قدومنا على ملك جبار لم يأذن لنا في القدوم عليه ، وليست بلاده لنا بمتجر ؟ ولكن أيكم يذهب بالغير فإن أصيب فنحن براء من دمه وإن غنم فله نصف الربح ؟ »

فقال غيلان بن سلامة : « دعوني إذا فأنا لها . » فدخل الوادي فجعل يطوفه ويضرب فروع الشجر ويقول :

ولو رأي أبو غيلان إذ حسرت عني الأمور إلى أمر له طبق
لقال رغب ورهب يجمعان معاً حب الحياة وهول النفس والشفق
إما بقيت على مجد ومكرمة أو أسوة لك فيمن يهلك الورق

ثم خرج في العير ، وكان أبيض طويلاً جعداً ضخماً فلما قدم بلاد كسرى تخلّق ولبس ثوبين أصفرين وشهر أمره وجلس بياب كسرى حتى أذن له ، فدخل عليه فخرج إليه الترجمان وقال له : « يقول لك الملك : ما أدخلك بلادني بغير إذني ؟ » فقال : « قل له : لست من أهل

عداوة لك ، ولا أتيك جاسوساً لضد من أصدادك ، إنما جئت بتجارة تستمتع بها ، فإن أردتها فهي لك وإن لم تردها وأذنت لي بذلك رددتها . »

فتكلم كسرى فاعلم سمع صوته غيلان سجد ، فقال الترجمان : « يقول لك الملك لم سجدت ؟ » فقال : « سمعت صوتاً عالياً حيث لا ينبغي

لأحد أن يعلو صوته إجلالاً للملك ، فعلمت أنه لم يقدم على رفع

الصوت هناك غير الملك فسجدت إعظاماً له . « فاستحسن كسرى ما فعل وأمر له بمرققة توضع تحته ، فلما أتى بها رأى عليها صورة الملك فوضعها على رأسه ، فاستجله كسرى واستحمقه وقال للترجمان : « قل له إنما بعثنا بهذه لتجلس عليها . » قال : « قد علمت ، ولكني لما أتيت بها رأيت عليها صورة الملك ، فلم يكن حق صورته على مثلي أن أجلس عليها ، ولكن كان حقها التعظيم ، فوضعتها على رأسي لأنه أشرف أعضائي وأكرمها عليّ . » فاستحسن فعله جداً ثم قال له : « ألك ولد ؟ » قال : « نعم » قال : « فأيهم أحب إليك ؟ » قال : « الصغير حتى يكبر والمريض حتى يبرأ والغائب حتى يؤوب » فقال كسرى : « زه ، ما أدخلك عليّ وذلك على هذا القول والفعل إلا حظك ، فهذا فعل الحكماء وكلامهم ، وأنت من قوم جفاة لا حكمة فيهم ، فما غذاؤك ؟ » قال : « خبز البر » قال : « هذا العقل من البر لا من اللبن والتمر . » ثم اشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها وكساه [وبعث معه من الفرس من بني له أطمأ بالطائف فكان أول أطم بني بها ^(١)] . فهذا نمط مما بلغ إليه القوم .

(١) انظر الاغانى ١٢ : ٤٦ وافيلاان هذا شأن في العرب ، فمحمد بن حبيب في (المهر ص ١٣٥) وتبعه المرزوقي في الأزمنة والأمكنة [٢٧٤ : ٢]
عده من حكام قبس وذكر أن له ثلاثة أيام : يوم ينشد الناس بشعره ويوم =

حتى الأجيال التي انقطعت عن التجارة من القرشين كانت
ألفاظ التجارة وحساباتها أسرع إلى أفكارهم وعلى ألسنتهم حين التعبير ،
فهذا إسماعيل بن علي بن العباس يقول لطلحة بن عمر بن عبد الله :
« أنت أتجر الناس ! » فيقول طلحة : « والله ما عاجلت تجارة قط ! »
فيجيبه « بلى حين تزوجت فاطمة بنت القاسم بأربعين ألفاً فولدت لك
إبراهيم ورملة ، فزوجت رملة بمئة ألف دينار فربحت ستين ألفاً
وإبراهيم » في خبر طريف^(٢)

* * *

مكانة قريش من العرب وقيامها على الدين كلفاها مغارم كانت
تؤديها عن طيب نفس ، ويتعاون أفراد هذا الحي على الإنفاق في كل
ما يعود على مكة والبيت وأهله بالفخر والتكرمة . ولنا على ذلك
دليلان مشهوران هما خير ما يمثل لنا تضامن هذا الحي في المكارم ،
وما يتكلف من بذل وخدمة في سبيل تقوية منزلته من نفوس العرب
وفي سبيل تعظيم حرمة البيت وأهله وحفظ قدسيته في قلوب القبائل كافة :

= يحكم بين الناس ويوم يقعد للناس فيه فيزار وينظر إلى سرره وجهاله . فلا تعجب
بعد هذا إن حدثتك نفسك بتزيد أضيف إلى أخباره .

(٢) انظر في كتاب (أخبار النساء) لابن قيم الجوزية ص ٧٣ [مطبعة التقديم
العلمية بصر سنة ١٣١٩ هـ]

أما الاول فالرفادة التي كانت من مناقب قريش خاصة ، مما تفاخر به أحياء العرب قاطبة وهي - كما ذكرنا في موضع آخر - « شي » تترافد به قريش في الجاهلية تخرج فيما بينها ما لا تشتري به للحاج طعاماً وزيباً ، ولعل في هذا الامر شيئاً وراء إكرام حجاج البيت الحرام ، وما إلى ذلك من أمور تتصل بشعائر وعقائد تمت إلى الدين ، وهذا الشيء هو إغراء العرب بمحج تلك الاسواق التجارية والاقبال عليها حتى تغص بالبائعين والشارين ، فتأمن قريش على أرباحها وتكفل من ذلك رواج تجارتها التي هي قوام أمورها في الحياة . فالغرض الحقيقي - فيما يبدو لي - تجاري أكثر منه دينياً . ولا يفسر ذلك أحسن تفسير إلا الحوادث التي رافقت البعثة ، وما لاقى رسول الله ﷺ أول أمره من الألاقي والأذى . وما كانت قريش - وهي ماهي حصافة عقول - لتعمى عن نور الإسلام لولا أنها خافت على زعائها التجارية والدينية أن يدكها الإسلام ويذهب ربحها ، وانما تسلطت قريش على نفوس العرب السذج بتلك الخرافات التي جعلت من أصنام الكعبة آلهة مقدسة لُفَّقَ حولها أباطيل وقصص اتخذت مع الزمن شكل العقائد ، وجعلت من قريش قوَّاماً على هذا الدين الذي دانتته العرب في الجاهلية .

وأما الأمر الثاني فما كانت تتشارك فيه من كسوة الكعبة جاء في (أخبار مكة للأزرقي ص ١٧٤) :

« إن الكعبة كانت تكسى في الجاهلية كسى شتى ، كانت البدنة تُجَلَّلُ بالخبرة والبرود والأكسية ، وغير ذلك من عصب اليمن ، وكان هذا يهدى للكعبة سوى جلال البدن ، هدايا من كسى شتى خزيرٌ وحيرة وأنماط تعلق فتكسى فيه الكعبة ويجعل ما بقي في خزانة الكعبة . فاذا بلي منها شيء أخلف عليها مكانه ثوب آخر ، ولا ينزع مما عليها شيء من ذلك ، وكان يهدي إليها خلوق ومجمر ، وكانت تطيب بذلك في بطنها ومن خارجها . »

ويظهر أن الحرص على شرف هذه الكسوة كان بالغاً ، وكان مما تباهي به قريش سائر العرب حتى كان في الأفراد من اشرب للاستثمار بهذه المكرمة وحده بلا شريك ، ففي ص ١٧٥ من الكتاب المذكور : كانت قريش في الجاهلية ترافد في كسوة الكعبة فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها من عهد قصي بن كلاب حتى نشأ أبو ربيعة ابن المغيرة بن عمرو بن عبد الله بن مخزوم ، وكان يختلف إلى اليمن يتجر بها ، فأثرى في المال فقال لقريش :

« أنا أكسو وحدي الكعبة سنة ، وجميع قريش سنة . » فكان يفعل ذلك حتى مات : يأتي بالخبرة الجيدة من الجند (أحدى قرى

اليمن ومن أسواق العرب) فيكسوها الكعبة فسمته قريش (العدل)
لأنه عدل فعله بفعل قريش كلها ، فسموه الى اليوم العدل ويقال لولده
بنو العدل . »

والحق أن الامر لم يقتصر على هذه (المكارم الرسمية) من
الرفادة وكسوة الكعبة وما إليها ، بل كان ذلك من أخلاق قريش
الملازمة لهم في حلهم وترحالهم فـ « لم يكن أحد يتزود مع قريش في
سفر ، وكانوا يطعمون كل من يصحبهم » وعرف ثلاثة نفر منهم لمباغتتهم
في هذه الخصلة : (أزواد الركب) وهم مسافر بن أبي عمرو بن أمية
وزمعة بن الاسود ، وأبو أمية بن المغيرة . ^(١)

لم تنج قريش من السنة العرب ، ولم تخل من نفس عليها مكانها
أو حقد عليها استئثارها بالغنى من أفناء العرب الذين يقدمون مكة
فيعانون من تجارتها عنتاً وإرهاقاً ، عدا مايسامون من الهزء أحياناً
ومن أداء الربا المضاعف لهؤلاء . وكان اشتغال التجار بتجارتهم
وانكبابهم على شؤونها قد صرفهم بعض الصرف عن معالجة شؤون
الحرب كما يعالجها أمثالهم من غير التجار . ولاحظ ابن سلام ان الذي

(١) الاغاني ٩/٩٤ (طبعة دار الكتب) ، وانظر في هذه الصفحة
الحاشية المنقولة عن كتاب (مايعول عليه في المضاف اليه) .

قلل شعر قريش عدم اشتغالها بالحروب « فلم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عُمان وأهل الطائف ^(١) » وعُمان والطائف أيضاً بلدان تجاريان . ولما أرادت أن تباهي الانصار ولم يكن لها أيام ولا أشعار جعلت « تزيد في أشعارها ^(٢) » . عرف بعض العرب ذلك من أمرها والبدو يحقرون التجارة بطبعهم ككل الأمم التي تعيش من الغزو والسلب ، فصاروا يهينونهم بها ، وطار لهم أشعار في ذلك ، منها ما يحقر التجارة نفسها ، ومنها ما يقصد الى قريش مباشرة ، وانظر إن شئت قول القائل يريد مكة :

ولا مرتع للعين أو متقنص ولكن تجرأ والتجارة تحقر
وقول ابن الزبيري :

ألهى قصياً عن المجد الاساطير
وقولها : رحلت غير أتت غير

ومن هنا كانت استهانة بعض العرب بقريش وعدم الهيبة منها لانكبابها على التجارة وشغلها عن الحروب من دون سائر العرب ، عرف ذلك من امرهم القاصي والداني ، جاء في تاريخ الطبري عند كلامه على فتوح سعد بن أبي وقاص قائد الجيوش الاسلامية في العراق ما يأتي :

(١) طبقات الشعراء ص ١٠٢ . (٢) ص ٩٨ المصدر نفسه .

« سأل النعمان بن قبيصة الطائي ، وكان على مرابطة كسرى عن سعد بن أبي وقاص فقيل له : « رجل من قریش » فقال : « أما إذا كان قرشياً فليس بشيء » ، والله لأجاهدنه القتال ، إنما قریش عبيد من غلب ، والله ما يمينعون خفيراً ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير^(١) ، إلا أنه لما عانى من شدة بأسهم ما عاناه علم أن في جلود أولئك التجار مغاوير حرب ومناويد حق^(٢) .

كان لهؤلاء القرشيين معارف في بلدان الشام واليمن وفارس وكانت قریش تنظم وفوداً تفد على ملوك النواحي ، ونحن نعلم أن عمرو بن العاص كان يعرف مصر وغزة والشام تمام المعرفة ويعزى نجاحه في فتح مصر إلى عوامل منها إجادته معرفته بها . ولما كان أمام غزة دخل على حاكمها بصفة موفد وعرفه الحاكم وأمر حاجبه سرّاً بقتله لولا أن نبهه عربي نصراني كان يعرف عمرّاً في الجاهلية حين كان يتاجر والقصة مشهورة . وعرف من القرشيين تجار كبار ذوو أسفار بعيدة

(١) تاريخ الطبري ١ : ٢٣٥٠ (طبع ليدن) .

(٢) لبس غريباً أن يحقر بعض العرب حينذاك التجارة ، ولما الغريب أن تستمر هذه النعمة في النفوس حتى القرن الرابع الهجري وقد تبدلت الأرض غير الأرض فيقول شاعر مثل المتنبي في رثاء اخت سيف الدولة .
ولا من في جنازتها تجار يكون وداعها نقض النعال

كثيرة ، فأبو سفيان كان « تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش إلى أرض العجم ^(١) » ولعل أول غير طرقت بلاد فارس العير التي كان هو صاحبها ، والتي دخل بها غيلان مخاطرأ كما تقدم . ثم كانت له عودات إلى فارس ، ودخل وافداً مرة على كسرى وأهدى إليه « خيلاً وأدماً فقبل الخيل ورد الأدم » قال أبو سفيان : « أدخلت على كسرى فكأن وجهه وجهان من عظمه . فألقى إليّ نخدة كانت عنده فقلت : واجوعاه ! هذه حظي من كسرى بن هرمز ؟ » فخرجت من عنده فما أمر على أحد من حشمه إلا أعظمها حتى دفعتها إلى خازن له فأخذها وأعطاها ثمانمائة إناء من فضة وذهب ^(٢) .

وكان يخرج إلى اليمن أيضاً ويتصل بطبقات أهلها وأخبار يهودها كما يتصل غيره فيعلمون من الأخبار والسياسة ما لا يعلمه غيرهم ، وقرأ في الأغاني كيف يشرح لك الحرب بين هرقل وفارس وكيف انتصر هرقل ، وكيف خرج من حمص ليصلي بيت المقدس شكراً لله . وهو حديث طويل مستوفى في كتب السيرة هو والحوار الذي دار بين هرقل وأبي سفيان في شأن بعثة النبي ﷺ ، ولا بأس في أن نقل هنا أول هذا الحديث لعلاقته بموضوعنا قال أبو سفيان :

« كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله ﷺ قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا . فلما كانت الهدنة [هدنة الحديبية]

(١) الأغاني ٦ : ٣٤٣ دار الكتب . (٢) العقد الفريد ١ / ١٧٤ .

بيننا وبين رسول الله ﷺ ، خرجت في نفر من قريش إلى الشام ،
وكان وجه متجرتا منه غزة ؛ فقد منها حين ظهر هرقل على من كان
بأرضه من الفرس .. الخ^(١) »

واقراً أيضاً ما كان بينه وبين العباس وحبر من أحبار اليهود في
متجرهم باليمن (الأغاني ٦ : ٣٤٩) فستعرف من كل ذلك أن هؤلاء
التجار كانوا على اتصال بما كان يجري في زمنهم من أحداث سياسية ،
شديد الاهتمام بذلك لما يعود على علائقهم بالبلدان وعلى تجارتهم .
وكانوا ينقلون إلى بلادهم بعض ما يجدون في متاجرهم الخارجية من
طرف وغرائب ، ولعلمهم استفسادوا من بعض الأنظمة
الاجتماعية التي وجدوا عليها الروم أو فارس . بل ما يدرينا أن دار
الندوة نفسها اقتباس مغير مصغر ، عن مجامع الروم الدينية والمدنية
فقد كان مجلساً منظماً « لتشاور قريش وعقد الألوية في حروبهم .
ولا ينكح رجل من قريش إلا فيها ولا يعقد لواء الحرب لهم ولا
لغيرهم إلا فيها ، ولا يعذر غلام إلا فيها^(٢) ولا تدرع جارية من

(١) الأغاني ٦ : ٣٤٥ [دار الكتب]

(٢) مدنية العرب في الجاهلية والاسلام - محمد رشدي : ص ٥٨ ويعذر

قريش إلا فيها يشق عليها درعها ثم تدرع وينطلق بها إلى أهلها ولا تخرج غير من قريش إلا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها. وهذا عبد الله ابن جدعان أتى العرب بطعام لا عهد لهم به : وفد على كسرى فأطعمه الفالودج فسأل عن صنعه وحمل معه غلاماً يحسن له عمله ، فصار يطعم أهل مكة منه . وهو من سراة مكة وأجوادهم وأحد أغنيائهم الكبار و« وضع الموائد بالأبطح إلى باب المسجد ثم نادى مناديه : ألا من أراد الفالودج فليحضر ، فحضر الناس^(١) » وقال فيه أمية بن أبي الصلت بصف طعامه هذا :

له دأع بمكة مشمعل^٢ وآخر فوق دارته ينادي
إلى رُدُح من الشيزي^٣ ملاء^٤ لباب البر^٥ يلبك بالشهاد^(٦)

(١) ، (٢) الاغاني ٨ : ٣٣٠ شمل القوم في الطلب إذا بادروا فيه وتفرقوا ، ورُدُح جميع رَداح وهي الجفنة العظيمة . والشيزي . خشب أسود تتخذ منه القصاع .

جاء في الأمالي ٣ : ٣٨ : قال أمية بن أبي الصلت : أتيت نجران فدخلت على عبد المدان بن الديان ، فاذا به على سريره ، وكان وجهه قمر ، وبنوه حوله كأنهم الكواكب ، فدعا بالطعام فأتي بالفالودج فأكلت طعاماً عجيباً ثم انصرفت وأنا أقول :

ولقد رأيت القائلين وفعلهم	فرأيت أكرمهم بني الديان
ورأيت من عبد المدان خلانقاً	فضل الأنام بين عبد مدان
البر ^٥ يلبك بالشهاد طعامه	لا ما يعلننا بنو جدعان

=

ومن كان يواصل أسفاره في التجارة أبو طالب والعباس عما
النبي ﷺ وقد أخرج أبو طالب ابن أخيه محمد ﷺ مرتين إلى الشام في
تجارة : مرة وهو فتى لا تتجاوز سنه الخامسة عشرة ومرة وهو شاب
في سن الخامسة والعشرين .

وقد تجر أبو بكر إلى الشام وتجر عمر إلى غزة وفيها استغنى في
الجاهلية على ما قال ابن حوقل^(١) ، واستمر عمر مشغلاً بالتجارة في
الإسلام وأسف على اشتغاله هذا إذ حرم من علم كثير ، وجعل في
خلافته مسألة في الاستئذان فلما رويت له عبر عن أسفه بقوله : « أخفى
عليّ [هذا] من أمر رسول الله ؟ ألهاني الصفق بالأسواق ، يعني
الخروج إلى التجارة^(٢) .

وقلّ أن تجد قرشياً ذا شأن في الجاهلية والإسلام إلا كان

= قبل بلغ ذلك عبد الله بن جدعان ، فوجه إلى اليمن من جاءه بمن يعمل الفالودج
بالعسل ، فكان أول من أدخله مكة ففي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت :
« له داع ... البيتين »

ولعل الفالودج الذي كان صنعه الغلام الفارسي بمكة لعبد الله بن جدعان لم
يكن لذيقاً في فم الشاعر أمية كما كان فالودج نجران .

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ص ١١٣ طبع ليدن .

(٢) الأدب المفرد للبخاري ، الباب ٤٩٢ ص ٢٧٤ [المطبعة السلفية

سنة ١٣٧٥ هـ]

تاجراً^(١) واستفاض لهم غنى عريض وثروة واسعة حتى كثر منهم الأجواد وغزرت عطاياهم وقصدهم العفاة وأصحاب الحاجات وكان من ذلك ما نقرؤه من أخبار جودهم الكثيرة في العقد الفريد والأغاني وغيرهما من الأمهات .

ولم تكن النساء القرشيات لتقصر عن الرجال في هذا المدى بل كان منهن من اتسعت ثروتها من التجارة حتى فاقت كثيراً من الرجال . ولعل السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين خير مثال تقدمه على ذلك ؛ فقد كانت من أكبر تجار قريش وأكثرهم مالاً وأوفرهم غنى ، وكانت في حسب ومقام رفيع في قومها ؛ مع مزايا في أخلاقها طيبة . كانت تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم . ترسل بأموالها إلى الشام وإلى عكاظ وحباشة وغيرهما من أسواق العرب . وكثيراً ما كانت ترجع هذه الأموال بربح وافر . وذكروا أن غير

(١) وفي كتب الأدب تقع على مكاسب كثير منهم ، وفيهم من صاروا أعلام الإسلام فيما بعد ، فابن قتيبة في كتابه المعارف يذكر أن أبا سفيان كان يبيع الزيت والأدم ، وأمّية بن خلف يبيع البرم ، وعقبة بن أبي معيط كان خماراً ، وأبو طالب كان يبيع العطر وربما باع البز ، وأبو بكر وعثمان بن عفان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف كانوا يبيعون البز . . المعارف ص ٢٤٧

خديجة كعامة غير قریش^(١) . ولما بلغها عن محمد بن عبد الله ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه عرضت عليه أن يخرج إلى الشام ، ولعل الحقيقة ما ذكره الزرقاني شارح المواهب من أن الرسول نفسه استشرف للسفر بمال خديجة فقد ذكر :

[أن أبا طالب قال له : « يا بن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكورة وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ؛ وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها ويصيرون منافع ، فلو جئتها لفضلناك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك . » فقال محمد : « لعلها ترسل إلي في ذلك . » فقال أبو طالب : « إني أخاف أن تولي غيرك . »]

وبلغ خديجة ما كان من محاورتها فقالت لمن بلغها : « ما علمت أنه يريد هذا . » ثم أرسلت إليه وقالت له : « دعاني إلى البعثة إليك ما يبلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك . » فذكر ذلك لعمه فقال : « إن هذا لوزق ساقه الله إليك » وكان عمره صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة خمساً وعشرين سنة . « وخرج رسول الله إلى سوق بصرى فباع سلعته

(١) شرح المواهب ١ : ١٩٨ وابن سعد ٩/٨

التي أخرج واشترى غيرها وقدم بها فربحت ضعف ما كانت تربح..»^(١)
كانت قریش تنظم كل سنة عيراً بتجارة إلى الشام ، وكانت هذه
القوافل تزيد شأنها عاماً فعاماً .

ولما بلغ أذى قریش من المسلمين ما بلغ ، حتى اضطر هؤلاء إلى
الهجرة إلى الحبشة^(٢) ، ثم الهجرة الكبرى إلى المدينة^(٣) ، واعتزل المسلمون
وقووا ... كان أول أمر ينتصفون به لأنفسهم ، ويحملون أعداءهم
من قریش بسببه على الكف من كيدهم وأذاهم لمن في بلدهم من
ضعفة المسلمين ، هو التعرض لتجارتهن وإن جارينا مصطلح عصرنا
قلنا : أن يضربوا على قریش حصاراً اقتصادياً ، لعلمهم أن ذلك أبعث
على الرعب وأبلغ في النكاية بهم وأفتك ما تكون الحرب في العدو

(١) طبقات ابن سعد ٩/٨

(٢) ولما خصوا الحبشة بالهجرة لكثرة ترددهم عليها في الجاهلية للتجارة ،
وليناسهم من ملكها عدلاً ورعاية ، والأصفهاني يذكر لنا في صدد كلامه على
خروج عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص - وكانا تاجرين - إلى أرض الحبشة
قوله : « وكانت أرض الحبشة لقریش متجراً ووجهاً » - الاغانى ٥٦/٩ (طبعة
دار الكتب) .

(٣) خافت قریش على مكانتها وتجارتهما فوضعت جائزة كبيرة لمن يأتيها
بالنبي ، حتى اضطر النبي وصاحبه إلى الاختفاء في الغار .. وهذا من أعمالهم
(الدولة) التي أفادوها من مخالطتهم شعوباً خاضعة لحكومات مختلفة .

حين توهى (اقتصادياته) ، فأرسل الرسول ﷺ سرية عليها عبد الله بن جحش أمير ، لتعرض لعير قريش ، وكانت راجعة من الشام فترصدوها بموضع بين مكة والطائف يعرف بنخلة ، وكان في العير العلاء بن الحضرمي ، فلما موت بهم حملوا على من فيها واحتجزوا الأموال وكانت زيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش . فقتل من حامية القافلة من قتل ، وأسر من أسر وقوى الله المسلمين بما غنموا من عدوهم الذي أخرجهم من ديارهم وأبنائهم ، وبلغ الخبر قريشاً فكانت الأذية منهم بالغة .

وكان السبب في استدراج المسلمين قريشاً إلى المعركة الحاسمة بين الإسلام والشرك في بدر الكبرى تجارياً أيضاً : فإن قريشاً أقبلت لها عير من الشام عليها أبو سفيان في ثلاثين راكباً ، وكان فيها معظم أموالهم ، قدّر لها المؤرخون بخمسين ألف دينار ، وقالوا : « لم يبق قريش ولا قرشية له مثقال إلا بعث به في العير . وبلغ النبي ﷺ خبرها فتجهز ليتعرض لها ، ولكن أبا سفيان أخذ على الساحل فنجابها بعد أن أرسل إليهم نذيراً ضمضم بن عمرو الغفاري يستنفرهم إلى العير . فجدع هذا أنف بعيره وحول رحله وشق قميصه من قبل ومن دُبُر وصرخ في أهل مكة : إن محمداً مع أصحابه قد عرض لعير قريش ،

يا معشر قريش ! اللطيفة اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، ما أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث ... فتمضوا وقالوا : « أیظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي ، كلا والله ، ليعلمن غير ذلك . » وخرجوا ألفاً بين فارس وراجل ، كل من قدر على النهوض نهض ومن لم يستطع أرسل بماله وسلاحه من يقوم مقامه . وكان كل ذي خطر إما في العير مع أبي سفيان ، وإما في النفير إلى بدر ، وصاروا بعد ذلك إذا استصغروا أحداً قالوا : « لا في العير ولا في النفير » فأرسلوها مثلاً في الناس .

ثم نجت العير ، والتقى الجمعان في بدر الكبرى وكان من أمرهم ما يعلم الجميع . وقرر كبراء قريش أن ترصد أرباح العير للتجهيز لغزو محمد ثاراً لقتلى بدر .

وظفق الرسول عليه السلام بيث سراياه ، وأشفقت قريش من ذلك إذ تعطل تجاراتهم إذا لم تكن الطريق آمنة ، وطريقهم المسلوكة المعبدة هي الطريق المساحلة إلى الشام وإلى اليمن ، وقد أصبحت غير مأمونة بعد أن صارت كتائب المسلمين ترصد قوافل التجارة المكية ، وأشفق أيضاً القبائل المقيمة على هذا الطريق حول المدينة إلى مكة إذ بانقطاع هذا الطريق التجاري موت لهم . وأي كان فقد فكرت قريش

في تغيير الطريق وسلوك طريق نجد فالعراق لبعده عن منطقة الحصار الذي ضربه المسلمون على تجارة مكة ، وقد قال صفوان بن أمية يوماً في أحد منتديات قريش : « إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعوه ودخل عامتهم معه فما ندري أين نسكن . وإننا أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء . » فأشير على قريش أن تسلك طريق العراق ، فخرجت عيرهم مثقلة بالعروض والفضة ، وبلغ أمرها النبي فأرسل زيد بن حارثة في سرية اعترضت العير عند (القردة) أحد مياه نجد فغنم العير وأسر الدليل . كان هذا الحصار الاقتصادي الذي أحكمه الرسول أهم الممهدات لفتح مكة فيما بعد إذ أضعف من قوة قريش الاقتصادية . وإنما قريش بتجارته وأموالها ، فإذا فقدت مكاتبها التجارية فقد هوى شأنها بين العرب ، ولذلك عادت تفكر في رفع هذا الحصار عنها في محاولات لم تنته بالنجاح . ولعل أشد ما أحمى قريشاً في موقفها من الرسول وصحبه في مفاوضات الحديبية خوفاً أن تفقد مكة ما عرفت به من حرمة وأمن إذا اقتحمها عليهم محمد ﷺ عنوة ، فلا تعود العرب تقصدها للتجارة

فتعطل أسواقها وتخسر قریش أرباحها و ثراءها . فلذلك حالوا بكل ما يستطيعون دون وقوع قتال ودون دخول المسلمين لها عامهم ذاك ، إبقاء على مصالحهم التجارية والأدبية بين العرب .

* * *

وليس يصور لنا ذلك الغنى المستفيض إلا الأخبار التي أثرت عن كبار القرشيين في الجاهلية والإسلام ، ولا بأس في ذكر عبد الله بن جدعان مثلاً في ذلك :

فقد تقدم أنه كان يبسط الموائد في مكة يطعم الناس الفالودج وله جفنة عظيمة يأكل منها الفارس على فرسه ، وفي الحديث : « كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكة عمي ^(١) » ورويت له أخبار أشبه بما يروى عن الملوك فقد كان يتخذ القيان يغنيه ثم يهبهن لمادحه ، وكان يقضي عن الناس ديونهم ، وله شاعر هو أمية بن أبي الصلت ، وكان يلقب بحاسي الذهب ، وما أجد حاجة إلى التنبيه على بطلان خرافة الكنز التي ذكروها تعليلاً لوجود كل هذا الغنى عنده ، فليس من كسب له ولا لقومه سوى التجارة ، وما عرفنا أن رمال الجزيرة مما تبطن الكنوز .

وأصحاب السير يقدمون لنا حساباً نستطيع أن نعتمد عليه هنا

(١) صكة عمي : حين اشتداد الهجرة .

في معرفة أرباحهم التجارية^(١) لنقدر نحن بعد ذلك الأمد الذي بلغوه في الثروة قالوا : إن قریشاً لما رجعوا من هزيمة بدر إلى مكة ، وقد أصيب أصحاب القلب ورجع أبو سفيان بعيره (سالمه) مشى جماعة من أشرف قریش ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم وأبناءؤهم يوم بدر فقالوا ، « يا معشر قریش : إن محمداً وترككم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربته » يعنون عير أبي سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة ، والعير - كما تقدم من عادتهم - تنزل أول ما تنزل في دار الندوة حتى يتفق أصحابها على إخراجها للبيع ، فاستمر القرشيون وشركاؤهم أن ينفقوا ربح هذه العير على تجهيز جيش يحاربون به محمداً ﷺ ، وكانت ألف بعير موقرة بما قيمته خمسون ألف دينار ، وكانوا يرجحون بكل دينار ديناراً - على ما نقل الزرقاني - فيكون ما أنفق على هذا الجيش خمسين ألف دينار ، أو - على رواية المقل - خمسة وعشرين ألف دينار . وهو على كل حال مبلغ ضخم جداً ، وكان عدد من استأجرهم أبو سفيان

(١) كانت هذه التجارة التي تبعت بها مكة والطائف جميعاً ، والتي كانت تجيء إلى مكة من بلاد الجنوب ، تجارة واسعة النطاق ، حتى لقد كانت بعض القوافل تسير في ألفي بعير ، حمولتها تزيد على خمسين ألف دينار . وكانت صادرات مكة السنوية على ما قدرها المستشرق (سبنجر) توازي مئتين وخمسين ألفاً من الدنانير أي نحو مئة وستين ألف جنيه ذهباً - حياة محمد ص ٢٤٠

من الأحايش فقط ألفين . وفي هذا الحادث نزل قول الله عز وجل :
 « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ،
 فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ . » ^(١)

وخلق بمن كانت أرباحهم بهذا المقدار أن يثروا في المدة الوجيزة
 الثراء الكبير . ونحن نعرف أن رسول الله ﷺ أخذ من العباس
 الفداء يوم بدر فكان مقداره عشرين أوقية من ذهب ، وأن عثمان
 بن عفان وحده جهز جيش العسرة (في غزوة تبوك) ألف بعير
 بأحلاسها وأفتابها في سبيل الله ، ولما أقحط الناس أيام أبي بكر وأتت
 غير لعثمان خاصة جعلها جميعاً في سبيل الله . ولما كانت الفتوحات زاد
 غناه بما لا يقدر حتى إن ابن سعد صاحب الطبقات ليروي (٣ : ٥٣)
 أنه « كان له عند خازنه يوم قتل (٢٠٠٠٠٠٠ : ٣٠٠) درهم و (١٥٠)
 ألف دينار فاتتهبت وذهبت وترك ألف بعير بالربذة ، وترك صدقات
 كان تصدق بها بيراديس وخير ووادي القرى قيمة مئتي ألف دينار »
 وليس ما يروى في تقدير ثروة عبد الرحمن بن عوف بالقليل فقد
 ذكر ابن سعد ^(٢) عنه أنه : « قدم المدينة فأخى رسول الله ﷺ
 بينه وبين سعد بن الربيع الانصاري ، فقال له سعد : أخي أنا أكثر

أهل المدينة مالا فانظر شطر مالي فخذنه ، ونحني امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك . « فقال عبد الرحمن : « بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلوني على السوق .. » فاشترى وباع فربح فجاء بشيء من أقط وسمين ، ثم لبث ماشاء الله ان يلبث فجاء وعليه ردع (لطح وأثر طيب) من زعفران فقال له رسول الله ﷺ « مهيم » فقال : « يا رسول الله تزوجت امرأة » قال : « فما أصدقها ؟ » قال : « وزن نواة من ذهب . » قال : « أولم ولو بشاة . » فقال عبد الرحمن : « فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً . » وحسبك هذا دليلاً على مهارتهم في الاتجار وخبرتهم بطرق الكسب . أما تركته فكانت « ألف بهير وثلاثة آلاف شاة ومئة فرس ترعى بالبقيع ... وكان فيما ترك ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه . وترك أربع نسوة ، فأخرجت امرأة من ثمنها بثمانين ألفاً^(١) وقد باع مرة أرضاً له بأربعين ألف دينار ، فتصدق بها كلها ، وتصدق مرة بسبعائة جمل بأحماها قدمت من الشام ، وأعان في سبيل الله بخمسمائة فرس عربية^(٢) » « وأوصى في السبيل بخمسين ألف دينار^(٣) »

(١) طبقات ابن سعد ٩٦/٣ والمجل أن يكون بين الجلد والاهم ماء من العمل

(٢) تهذيب التهذيب للذهبي (٣) طبقات ابن سعد ٩٦/٣ .

« وكان الزبير بن العوام كثير المتاجر والاموال قليل : كان له
الف مملوك يؤدون الخراج فربما تصدق بذلك في مجلسه ، وقد خلف
أملاً كثيراً بيعت بنحو أربعين ألف ألف درهم ^(١) .

« وأرسل سعد بن أبي وقاص الى مروان ، بركة عين ماله خمسة
آلاف درهم ، وترك يوم مات (٢٥٠٠٠٠) درهم ^(٢) ، ومهما تسقط
من هذه الارقام مما تقدر انهم كسبوه من غنائم الحرب فسيبقى لك
بعد ذلك مقادير واموال طائلة .

فهذا دون شك غنى واسع ، ودنيا عريضة ، وتوفيق عجيب
أتى هؤلاء التجار ، وإن كلمة عبد الرحمن بن عوف « لو رفعت
حجراً لرجوت إن أصيب تحته ذهباً » لتشرح لك مدى التوفيق
التجاري الذي أحرزوه بما أتقنوا من هذه المهنة ، وما تفتنوا في
أساليبها وطرقها .

وأظن هذا القدر كافياً في الدلالة على مبلغ اهتمام قريش بالتجارة
حتى صاروا يعيرون بذلك ^(٣) ، حين جعلوها دينهم ومعاشهم

(١) تهذيب التهذيب (٢) الطبقات ٩٦/٣

(٣) قال زيد بن صوحان لمعاوية : « كم تكثروا علينا بالإمرة وبقرش ، فما
زالت العرب تأكل من قوائم سيوفها وقريش تجار !! » - العواصم من القواصم
لأبي بكر بن العربي ص ١٢٠ (طبع السلفية)

وهجيرا هم في مجالسهم وأسماهم ، الكبير منهم والصغير والرجل والمرأة سواء ، كل يسهم في العير بما يستطيع ، وله من الربح على قدر ماله . كانوا يذهبون راحلين الى اليمن أو الى الشام أو إلى العراق حتى جعلوا لانفسهم محطات ومنازل خاصة بأصحابها على طول الطريق ^(١) ، كل أسرة ترسل من أفرادها من استطاع ، ولا يكادون يعرفون في العرب بعمل غير التجارة وما اليها من معاملات * .

(١) جاء في تفسير الطبري : « لما نزلت آية الاستئذان في البيوت قال ابو بكر « يا رسول الله ، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام ولهم بيوت معلومة على الطريق : فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكك ؟ » فنزل : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ » . سورة النور ٢٤ الآيتان ٢٨ ، ٢٩

(*) أضاف الزمن على تاريخ قريش هذا ثوباً من التقديس لمكان النبوة منهم ، فكان كثير من علماء المسلمين ومتكلميهم يسبقون على قريش ألواناً من الاجلال والتعظيم لما تكنه قلوبهم لنفر النبي ﷺ ، وصرنا نسمع كثيراً من مثل قول الشاعر :

فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم إذ هم قريش وإذا ما مثلهم بشر
ومثل قول أبي تمام :

تلكم قريش لم تكن آباؤها تنفو ولا أحلامها تنقسم
حتى إذا بعث النبي محمد فيهم غدت مشعراؤهم تتضرم
عزبت عقولهم وما من معشر إلا وهم منهم ألب وأحزم =

ونختم هذا الفصل برأي لأحد سادات قريش في الجاهلية

- ومن الخير للقارىء أن يطلع على هذه النظرة ليكون إمامه محيطاً شاملاً ، وليرى فيما سندرجه له امتداداً لنظرة عرب الجاهلية الى قريش النظرة الدينية التي أسهبنا في وصفها ، وإليك اقوالاً لرجال ثلاثة مختلفين ، تمثل في الجملة آراء الناس حتى المئة الرابعة للهجرة ، أما من بعدهم فتبع لهم في ذلك :

١ - قال العتيبي : شهدت مجلس عمرو بن عتبة وفيه ناس من القرشيين فتشاجروا في موارد و تجادوا ، فلما قاموا من عنده أقبل علينا فقال : « إن لقريش درجاً تولق عنها أقدام الرجال ، وافعالاً تخضع لها رقاب الأموال وغايات تقصر عنها الجياد المنسوبة ، وألسنة تكل عنها الشفار المشحودة ، ولو احتفلت الدنيا ما ترينت الا بهم ، ولو كانت لهم ضاقت بسعة أخلاقهم . (العقد الفريد ٢ : ٢٠٨) .

٢ - قال الجاحظ : قد علم الناس كيف كرم قريش وسفاؤها ، وكيف عقولها ودعاؤها ، وكيف رأيا وذكائها ، وكيف سياستها وتديريها ، وكيف إيجازها وتحبيرها ، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم ، وحدة أذهانها إذا كلّ الحديد ، وكيف صبرها عند اللقاء ، وثباتها في الأواء ، وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر ، وكيف جودها إذا حب المال ، وكيف ذكرها لأحاديث غد ، وقلة صدودها عن جهة القصد ، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه ، وكيف وصفها له ، ودعاؤها اليه ، وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأعرافها ، وكيف وصلوا قديمهم بمجديهم ، وطريفهم بتليدهم ، وكيف أشبه علانيتهم مرهم ، وقولهم فعلهم ، وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بعد غوره . وهل غفلته إلا في وزن صدق ظنه ، وهل ظنه إلا كيقين غيره .

بل قد علم الناس كيف جمالها وقوامها ، وكيف نماؤها وبهاؤها ، وكيف سرورها ونجابتها ، وكيف بيانها وجهارتها ، وكيف تفكيرها وبداهتها . =

والاسلام حكيم بن حزام و كان واسع الغنى فاحش الثراء ، تصدق

= فالعرب كالبدين وقريش روحها ، وقريش روح وبقو هاشم سرها ولبها ،
وموضع غاية الدين والدنيا منها ، وهاشم صاحب الارض وزينة الدنيا ، وحيي
العالم ، والسنام الأضخم والسكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل
عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمفرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن
الفهم ، ونبوع العلم ، وثهران ذو الهضاب في الحلم ، والسيف الحسام في العزم ،
مع الأناة والحزم ، والصفح بعد المقدرة . وهم الأنف المقدم والسنام الأكرم ،
وكالماء الذي لا ينجمه شيء ، وكالشس التي لا تخفى بكل مكان ، وكالذهب
لا يعرف بالنقصان ، وكالنجم للبحر ان ، والبارد للظمآن ، ومنهم الثقلان والأطبيان
والسبطان ، وأسد الله ، وذو الجناحين ، وذو قورنيها ، وسيد الوادي ، وساقى
الحبيج ، وحليم البطحاء ، والبحر والخبز ، والأنصار أنصارهم ، والمهاجر من
هاجر اليهم أو معهم ، والصدیق من صدقهم والفراروق من فرق بين الحق
والباطل [منهم] ، والحواري حواريهم ، وذو الشهادتين لأنه شهدهم ، ولا خيرا ولا
لهم اوفيههم او معهم او يضاف اليهم . وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول
رب العالمين ، وإمام الأولين والآخرين ، ونجيب المرسلين ، وخاتم النبيين ،
الذي لم يتم لنبى نبوة إلا بعد التصديق به ، والبشارة بمجيئه ، الذي عم برسالته
ما بين الحافقين ، وأظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون . « زهر
الآداب ١ : ٩٤ .

وقال أيضاً : « وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفيه من
عباده ، والمؤمن على وجه من أهل بيت التجارة ، وهي معولهم وعليها
معتبدهم ، وهي صناعة سلفهم وسيرة خلفهم ، ولقد بلغتك بسائهم ووصفت
لك جلالهم ، ونعتت لك أحلامهم ، وتقدر لك سخاؤهم وضيافتهم ، وبذلهم =

بغيره الخاصة غير مرة وأعتق المئات من العبيد في عرفة ، وتصدق بدور و أموال عظام ، هذا الثري القرشي أحب أن يتصل لقريش هذا المجد التجاري ، فلما شاور عمر الصحابة في فرض العطاء لقريش وافقوه إلا حكيم بن حزام فقال له : « يا أمير المؤمنين إن قريشاً أهل تجارة ومتى فرضت لهم عطاء تركوا تجارتهم ، فيأتي بعدك من يجبس عنهم العطاء فتكون قد خرجت من أيديهم . » ^(١)

= ومواساتهم .. ، رسائل الجاحظ ، الرسالة السادسة في مدح التجار وذم عمل السلطان .

٣ - قال الثعالبي يعدد مناقب قريش أهل الله : « ومنها ثبات جودهم وجزالة عطايهم ، واحتمالهم المؤث الغلاظ في أموالهم المكتسبة من التجارة ، ومعلوم أن البخل والنظر في الطفيف مقرون بالتجارة التي هي صناعاتهم ، والتجار هم أصحاب التربيع والتكسب والتدنيق ، وكان في اتصال جودهم العالي على الأجواد ، من قوم لا كسب لهم إلا من التجارة عجب من العجب ، وأعجب من ذلك أنهم من بين جميع العرب دانوا بالتمسك والتشدد في الدين ، فتركوا الغزو كراهة للسي واستحلل الأموال ، فلما زهدوا في المفصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة ، فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم والنجاشي بالحبشة ، والمقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء ، فكانوا مع طول ترك الغزو وإذا غزوا كالأسود على برائثها ، مع الرأي الاصيل ، والبصيرة الناقدة ... »
نار القلوب للثعالبي ص ٩

ب - ايلاف قریش

« لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ ، رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ .
فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ
مِنْ خَوْفٍ » .

إيلاف قریش ، [وإذا شئنا التعبير بلغة عصرنا قلنا المعاهدات
التجارية]^(١) مستفيض الشهرة في كتب السير والتاريخ والأدب .

(١) اطلعنا بعد صدور طبعتنا الاولى باثنتين وعشرين سنة على بحث مفيد
بعنوان (الايلاف او المعونات غير المشروطة) نشره الاستاذ طاهر القاسمي
أحد العلماء من نقباء المحامين في الشام (مجلة الجمع العلمي العربي ١ نيسان ١٩٥٩)
فعلق على تعبيرنا عن الايلاف بالمعاهدات التجارية بما يلي :

« ما من شك في أن الغرض من الايلاف تجاري .. ولكنه لا يمكن ان
يسمى بالمعاهدات التجارية » لأن هذه تقتضي اتفاقاً على تبادل السلع وطريقة
دفع قيمتها أو مكوسها (جماركها) أو غير ذلك . أما أمان الطريق بغير
حلف ، فلا يمكن ان يسمى بلغة العصر الا (المساعدات غير المشروطة -
Aides inconditionnés) . وليس في يدنا ولا يده ما يجزم بأنه لم يكن هناك
اتفاق على تبادل السلع ، بل المعروف العكس فالتجارة العربية كانت تنقل
الى بلاد العرب من الشام (وهي مشمولة بالحكم الروماني) القمح والزيت وما
إلخ ، وتجلب اليها من بضائع الهند والحبشة والجزيرة ما مر بك تفصيله أول هذا =

وقد أخبر به القرآن الكريم . وهو أبرز حادث في تاريخ العرب
التجاري قبيل الإسلام .

وفي تحديد معنى الإيلاف مذاهب ، منها :

- ١ - أنه الدأب ، فسر به بذلك ابن سعد صاحب الطبقات . ومنها :
- ٢ - أنه ربح مخصوص جعله هاشم لرؤساء القبائل فيحمل لهم متاعاً مع متاعه ويسوق إليهم إبلاً مع إبله ، ليكفيهم مؤونة الأسفار ويكفي قريشاً الأعداء^(١) . ومنها :
- ٣ - أنه العهد وشبه الاجازة والخفارة^(٢) قاله صاحب الفاموس .

= الباب والباب قبله . ولا يمكننا لذلك قبول التسمية (بالمساعدات غير المشروطة) لأنه سير بك اشتراط القرشيين على انفسهم بلسان هاشم جلب البضائع اللازمة لبلاد قيصر وأن يضمنوا له ان تباع عنده أرخص ويكفوه حملاتها .
هذا وشع المصادر بالتفاصيل من جهة وضرورة التسامح في المصطلحات من جهة اخرى يجعلان من غير المعقول المطالبة بالشروط الحديثة للمصطلحات القديمة حين نطلقها على أحداث كانت قبل خمسة عشر قرناً ، اذ لكل جيل اعتباراته الخاصة المتغيرة على الزمن من اطلاق الى تقييد ، ومن تعميم الى دقة في الشروط والتفاصيل والتخصيص . ونقص شيء من هذا لا يسلب المصطلح معناه .

(١) ثمار القلوب ص ٨٩

(٢) وفسره السعودي بالامن ، ثم أودف بقوله : ورحلت قريش حين أخذها الإيلاف من الملوك الى الشام والحبشة واليمن والعراق . - مروج الذهب ١ / ٣٦٩ ومحمد بن هبيب فسر في كتابه (الهجر) بأنه العهد ص ١٦٣

ومن التفصيل الذي سنسوقه لك تعرف أن المعاني الثلاثة تجتمع في الإيلاف معاً .

ذكر الثعالبي أن قريشاً كانت لا تتاجر إلا مع من ورد عليها مكة في المواسم وبذي الحجاز وسوق عكاظ في الأشهر الحرم ، لا تبرح دارها ولا تتجاوز حرمها ، للتحمس في دينهم والحب لحرمهم والإلف لبيتهم ، ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم . وكانوا بوادٍ غير ذي زرع كما حكى الله عن إبراهيم حين قال :

« رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ يَثِيبِكَ الْمُحَرَّمِ ^(١) . »

فكان أول من خرج إلى الشام ووفد إلى الملوك ، وأبعد في السفر ، ومراً بالأعداء وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله ، هاشم ابن عبد مناف وكانت له رحلتان : في الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم من أرض الحبشة ، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم .

وأبي رواة الأخبار إلا أن يجعلوا لهاتين الرحلتين بدءاً يكون لهما كالسبب والعلة فرووا عن ابن عباس :

(١) غار القلوب ص ٨٩ - والآية هي السابعة والثلاثون من سورة إبراهيم

« أن السبب في هاتين الرحلتين هو أن قريشاً إذا أصاب واحداً منهم مخمصة ، خرج وعياله إلى موضع ، وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا ؛ إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف وكان سيد قومه وكان له ابن يقال له أسد ، وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه ، فشكا إليه الضر والجماعة . فدخل أسد على أمه يبكي ، فأرسلت إلى أولئك بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياماً . ثم أتى ترب أسد مرة أخرى وشكا إليه الجوع . فقام هاشم خطيباً في قريش فقال :

« إنكم أجذبتم جدباً تقلون فيه وتذلون . وأنتم أهل حرم الله وأشرف ولد آدم ، والناس لكم تبع . » قالوا : « نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف . »

فجمع هاشم كل بني أب على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم . فجاء الاسلام وهم على ذلك ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش . وهذا معنى قول شاعرهم فيهم :
والخاطون فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافي^(١)

(١) بلوغ الأرب ٣ : ٣٦٨ ، والكافي الغني . وفي هاشم وصنيعه يقول خاله الحارث بن حنش السلمي :

إن أخي هاشماً ليس أخاً واحداً الآخذ الإيلاف ، والقائم للقاعد
انظر رسائل الجاحظ جمع السندوي ص ٧١ (المطبعة الرحمانية سنة ١٣٥٢ هـ) و (المحبر) لابن حبيب ص ١٦٢

وكان هاشم يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل ورؤساء العشائر
 الحاصلتين : « إحداهما أن ذوء بان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب
 الغارات وطلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم ،
 والحصلة الأخرى أن أناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة
 ولا للشهر الحرام قدراً كبنى طي وخثعم وقضاعة . وسائر العرب يحجون
 البيت ويدينون بالحرمة له ... فكان الإيلاف صلاحاً للفريقين إذ كان
 المقيم راجعاً والمسافر محفوظاً فأخسبت قريش وأتاه خير الشام واليمن
 والحبشة وحسنت حالها وطاب عيشها . »

وقول الله : « أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ . »
 يعني الضيق الذي كان فيه أهل مكة قبل أن يأخذ هاشم لهم الإيلاف ،
 والخوف الذي كانوا عليه ممن يميرون به من القبائل والأعداء وهم
 مغتربون ومعهم الأموال وهو قوله عز ذكره : تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ
 النَّاسُ^(١) ، يعني في تلك الأسفار ولم يرد ذلك وهم مقيمون في حرمهم
 وأمنهم لأن الله يقول : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
 وَأَمْنًا^(٢) » مع قوله : « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا^(٣) » وقوله : « أَوْ لَمْ
 يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ^(٤) . »

(١) سورة الانفال ٨ الآية ٢٦ (٢) سورة البقرة ٢ الآية ١٢٥

(٣) سورة آل عمران ٣ الآية ٩٧ (٤) سورة العنكبوت ٢٩ الآية ٦٧

ويعلق عدد من المفسرين مطلع السورة (لإيلاف) بسورة الفيل التي قبلها ويكون تسلسل الكلام عندهم « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ لإيلاف قریش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » والمعنى أنه أهلك أصحاب الفيل « الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيتهيبوهم زيادة تهاب ويحترموهم فضل احترام حتى ينظم لهم الأمن في رحلتهم فلا يجترأ عليهم أحد ولا يتعرض لهم ، والشاس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم »^(١)

هذا وقد عم مطرود الحزاعي بني عبد مناف بذكر الإيلاف لان جميعهم قد فعل ذلك فقال :

يا أيها الرجل المحول رحله	هلا حلت بآل عبد مناف
المنعمين إذا النجوم تغيرت	والظاعنين لرحلة الإيلاف ^(٢)
سفرين سنهما له ولقومه	سفر الشتاء وسفرة الأضياف

(١) الزخشي في الكشف ، ويؤكد تعليق (لإيلاف) ب (فجعلهم) بأن السورتين في مصحف أبي سورة واحدة بلا فصل ، وأن هرقرأهما في الركعة الثانية من صلاة المغرب .

(٢) لهذا البيت روايات ، والتي هنا من سيرة ابن هشام . وانظر (المحبر) لمحمد

ابن حبيب ص ١٦٤ فقيه :

هبلتك أمك لو حلت إليهم	ضمنوك من جوع ومن تطواف
الآخذون العهد من آفاقها	والراحلون برحلة الإيلاف
وبقابلون الريح كل عشية	حتى تغيب الشمس في الرجاف

ومر بك تعداد الكميت مآثر أجداد هشام بن عبد الملك فذكر
منها الإيلاف ص ٩٧

وفي اختصاص قريش بالإيلاف دون غيرهم من العرب قال الشاعر
وهو يردّ على بني أسد ما يدّعون أنه من قرابة قريش :

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلفٌ وليس لكم إلاف
أولئك أو منوا خوفاً وجوعاً وقد جاعت بنو أسد وخافوا. ١٥٥

وهناك قول بتفسير الإيلاف غير صحيح جاء في شرح ابن أبي
الحديد وهو قوله : « إن هاشماً جعل على رؤساء القبائل ضرائب
يؤدونها إليه ليحمي بها مكة » والأمر على العكس فالمستفيد من
الإيلاف مادة هم رؤساء القبائل ، ومكة لم يؤثر أن اعتدى على حرمتها
أحد من العرب فبلغ منها .

وقد آن أن نذكر الإيلافات أو المعاهدات التجارية التي عقدها
هاشم وإخوته المطلب وعبد شمس ونوفل مع العرب والروم والحبشة
وفارس ، فأخرجوا بذلك تجارة قريش من طابعها المحلي وأقبحا المحصور
إلى الآفاق الأجنبية ، فصارت لقريش العلاقات الخارجية مع الدول
المعروفة حينئذ وأثرت هذه العلاقات في حالاتها الاجتماعية أثراً بعيداً
نحن متعرضون له بعد قليل .

ومتى عرفنا ما أسدى أولاد عبد مناف لقريش وللعرب من أياد
تبييناً مدى الصدق في قوله ابن عباس :

« والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ الإيلاف وأجاز لهم
الغير لهاشم ، والله ما شدت قريش رحلاً ولا حبلاً بسفر ولا أناخت
بعيراً لحضر إلا بهاشم . »

ونحن فيما سنعرض عليك من حديث ، عيال على القالي الذي
انفرد دون غيره من أصحاب الأمانات بتفصيل تلك الأحلاف ، ولا بد
من تنبيهك إلى أن العرب كثيراً ما تسمي عامل الشام قيصر وهو المراد
في حديث القالي ، ولعل عامل أنقرة هو المراد أيضاً من قيصر أنقرة
فيما روى ابن سعد في طبقاته إذ قال :

« كان اسم هاشم عمراً وكان صاحب إيلاف قريش . وإيلاف
قريش : دأب قريش ، وكان أول من سن الرحلتين لقريش ، ترحل
إحدهما في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشي فيكرمه ويحبوه ،
ورحلته في الصيف إلى الشام إلى غزة وربما بلغ (أنقرة) فيدخل على
قيصر فيكرمه ويحبوه ^(١) . »

ولا ينبغي أن تستغرب ما تقرأ في رواية القالي من اهتمام قيصر

بهـاشم فإن الروم كانوا يهتمون بمن ينزل ارضهم من العرب الغرباء وليس من المعقول ان يكون أمرهم هملأً فالغالب أن هناك موظفين وعيوناً من العرب أو ممن يعرفون العربية يوافون العامل بأخبار الطرأء والتجار الأجانب قال ابو علي القالي (١) :

« كانت قریش تجاراً ، وكانت تجارتهم لاتعدو مكة ، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى :

١- ركب هاشم بن عبد مناف الى الشام فنزل بقيصر ، فكان يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ويجمع من حوله فيأكلون . وكان هاشم من أجل الناس وأتمهم ، فذكر ذلك لقيصر فقيل له : « هاهنا رجل من قریش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم . » وإنما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتدم بالخبز . فدعا به قيصر ، فلما رآه وكلمه أعجب به ، فكان يبعث إليه في كل يوم فيدخل عليه ويحادثه . فلما رأى نفسه تمكن عنده قال له : « أيها الملك إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت ان تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندهم فهو

أرخص عليكم . » فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم . فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مرّ بجي من أحياء العرب أخذ من أشرافهم إيلافاً - والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف ، وإنما هو أمان الطريق - على أن قریشاً تحمل إليهم بضائع فيكفونهم حملانها ويؤدون إليهم رؤوس أموالهم وربحهم ، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يجوزهم ويوفّيه إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب حتى أوردتهم الشام وأحلهم قراها . ومات في ذلك السفر بغزة .

ب - وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن فأخذ من ملوكهم عهداً لمن تجر إليهم من قریش ، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم . وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف وكان يسمى الفيض وهلك بردمان من اليمن .

ج - وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة ، فأخذ إيلافاً لفعل هاشم والمطلب وملك عبد شمس بمكة قبره بالحجون .

د - وخرج نوفل بن عبد مناف وكان أصغر ولد أبيه فأخذ عهداً من كسرى لتجار قریش وإيلافاً ممن مرّ به من العرب . ثم قدم

مكة ورجع الى العراق فمات بسلمان .

واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية و كثر أموالها . فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة في الجاهلية والاسلام . اهـ «
يمتاز هذا الخبر مما تقدمه بالدقة فقد عرفنا أن صاحب القاموس ومحمد بن حبيب فسرا الايلاف بالعهد . وما يتبادر الى الذهن من ذلك حقوق متقابلة وحلف دائم فقصر الايلاف هنا على أمان الطريق فقط . وخرجنا من رواية القالي بأربع معاهدات تجارية ، إلا أن الفكر ليستشرف لمعرفة نصوص هذه المعاهدات ويتوقع تفصيلاً أكثر . أما الكتاب الذي أشار القالي الى ان يقصر كتبه لهاشم فإننا لم نجد له ذكراً بعد موت هاشم ، فيما بين أيدينا من المصادر . وهو - ان صح وقوعه - من الخطر بمكان ، بل هو مما يجب أن يعرض عليه بنو هاشم بالنواجذ ففيه لهم فخر كبير وهم الحريصون على قيد كل صغيرة وكبيرة مما يدخل في باب المفاخرة فمن العجيب سكوت الأخباريين عن ذكره في المناسبات التي كثيراً ما تعرض .

وهؤلاء (هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل) هم أصحاب الايلاف « الذين رفع الله بهم قريشاً ونعش فقراءها ... وكل كان رئيس من يخرج معه من يتجر في وجهه ... فهؤلاء سادة قريش

وناعشوهم^(١) .

لقد انتقلت أحوال قريش التجارية بهاشم وأخوته من طور الى طور ، فبعد ان كانت قاصرة على مكة يقدم عليهم فيها التجار الأعاجم فيشترون منهم سلعهم ، خلصوا من تحكم الأجانب ومارسوا هم انفسهم التجارة الخارجية بعد أن أمنوا الطريق وعقدوا المحالفات فعظمت ثرواتهم وفاض غناهم وأصبح معظم اتجار الجزيرة مع الأمم المجاورة حكرة لهم ، وقد اعترفت قريش لأولاد عبد مناف بفضلهم وجميل صنيعهم لقومهم فسموهم (المجبرين^(٢)) إذ بهؤلاء النفرا لاربعة جبرت قريش وتبجحت في الخير والغنى والمقام .

ويزيد ابن سعد في طبقاته ، فيذكر لنا شيئاً مما في عهد قيصر ، ويذكر أيضاً كتاباً آخر أرسله قيصر الى النجاشي يوصيه بهم ولم يشر إلى شيء من مضمون هذا الكتاب قال^(٣) : « كان هاشم رجلاً شريفاً وهو الذي أخذ الحلف لقريش من قيصر لأن تختلف آمنة . وأما من على الطريق (يعني قوافل العرب) فألفهم على أن تحمل قريش بضائعهم ولا كراء على أهل الطريق . فكتب له قيصر كتاباً وكتب الى النجاشي ان يدخل قريشاً أرضه . »

(١) محمد بن حبيب في كتاب المحبر ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) وسمرهم أيضاً اقداح النصار لشرف أحسابهم وفضل مساعيمهم . - انظر

(٣) الطبقات ١/٤٥

الاسلام والحضارة العربية ص ١١٦

وفي شرح نهج البلاغة (٣ : ٤٥٨) أن هاشماً سأل قيصر أن يأذن لقريش في القدوم عليه بالمتاجر وان يكتب لهم كتب الأمان فيما بينهم وبينه ففعل . والعموض الذي في الرواية المتقدمة يكتنف هذه أيضاً فليس فيها صيغة هذا الأمان ولا شروطه .

ومهما يكن من شيء إلى هؤلاء الاخوة الاربعة ، يرجع الفضل كله في تسمير تجارة قريش ^(١) وبنائها على أسس قوية حتى اتسعت فصارت شبه دولة بعد ان كانت موضعية لا تعدو الأسواق القريبة من مكة . فهم في الحقيقة أبطال قريش ورجالها في الاقتصاد وهم دعائمها التجارية التي قامت تلك الثروة العريضة بمساعيمهم وكفayaاتهم ، وليس بقليل أن تفتح أربع ممالك أسواقها لقوافل قريش وتجاراتها . وما أنا إلى الغلو إذا زعمت أن فضل هذه الأحلاف امتد حتى زمن الاسلام ، وأن المسلمين الأولين ما اختيرت لهم الحبشة مهاجراً إلا لاعتمادهم الرحلة إليها متاجرين ، وإلا لمعرفةهم بها وبأهلها لكثرة اريادهم

(١) ومن حولها أيضاً من التجار غير القرشيين الذين غربوا في الارض للتجارة بعد ان مهدت لهم قريش السبيل ، فكتب السيرة مثلاً تذكر لنا أن مشركي مكة أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي سفيراً الى الرسول في مفاوضات الحديبية وأن من قوله لقريش لما عاد « يا معشر قريش ، اني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه ، وإني والله مارأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في اصحابه .. الخ » .

إياها وحمدهم مقامهم فيها وحسن ما يلقون من معاملة طيبة .
في الخبر بعد ، إشارة إلى كرم هاشم وكثرة إنفاقه على إخوانه ،
وأن أفعاله نمت على أصله وسيادته وشرفه ، كما فيه تصريح بأسلوب
الروم وأسلوب العرب في أكل اللحم والمرق وكيف عجب الروم
من الثريد لأنه طراز لم يألوه .

* * *

ذكروا أن اللام في قوله تعالى أول السورة : « لإيلاف قريش »
للتعجب فالمعنى : اعجبوا لإيلاف قريش ، وآخرون علقوها ومجرورها
بالفعل فقالوا إن المعنى : فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم^(١) . فجعلوا
الفاء في الفعل زائدة لتحسين اللفظ وتقوية المعنى كما في قوله تعالى :
« وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » وجعلوا « إيلاف » الثانية توكيداً للأولى .

وقد اتن الله عليهم بإيمان خوفهم من الغارات والحروب والقتال
وغير ذلك من الأمور التي يخافها كل عربي غيرهم حتى إن الرجل منهم
ليصاب في حي من أحياء العرب فإذا قال : أنا حرمي (أي من أهل الحرم)
أطلقوه وكفوا عن ماله إكراماً له .

وقد أمّن الله أهل مكة من خوف آخر هو جيش أبرهة أصحاب

(١) والوجه ما تقدم لك ص ١٥٢ من تعليق (لإيلاف) بقوله (فجعلكم
كعصف ما كول) فارجع إليه .

الليل حين ردهم الله عن مكة والبيت بعد أن اعتصم أهلها بالشعاف والمضاب . ومن عليهم حين أقذهم من جوع السنين التي أصابهم قحطها من قبل . فذكر ابن عباس وعكرمة^(١) أن الله أمرهم في هذه السورة بالاقامة بمكة لعبادة رب هذا البيت . إذ كفاهم مؤوته رحلتهم بعد أن كانوا لا يكادون يرتاحون في صيف ولا شتاء .

لخص صاحب القاموس ما تقدم حين عرض لتفسير الإيلاف فقال :

« والإيلاف في التنزيل (العهد) وشبه الاجازة بالحفارة وأول من أخذه هاشم من ملك الشام ، وتأويله أنهم كانوا سكان الحرم ، آمنين في امتيارهم وتنقلاتهم شتاءً وصيفاً والناس يتخطفون من حولهم ، فإذا عرض لهم عارض قالوا : « نحن أهل حرم الله ، فلا يتعرض لهم أحد ... » وكان هاشم يؤلف إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس . وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بجبال (عمود) هؤلاء الاخوة ، فلا يتعرض لهم . وكان كل أخ منهم أخذ جبلاً من ملك ناحية سفره . أما ناله . »

(١) راجع أقوال المفسرين في ذلك .

ج - حرب الفجار

أفردت هذا البحث وإن كان حقه أن يذكر في أحداث سوق عكاظ ، لخطره وبعد أثره ولأن هذا الفجار كان في حقيقته نزاعاً على النفوذ التجاري والأدبي ، بين قريش وأحلافها وبين هوازن القبيلة المعروفة بعددها وبطشها .

وقعت هذه الحرب وكان بود قريش ألا تقع ، لميلها إلى السلم الضروري لتجارتها وكانت تنجح إلى السلم في كثير من أمورها وخاصة مع قبيلة هوازن التي لها القوة والمنعة حول عكاظ . فإن قريشاً ترهب جانبها وتجتنب ما يعكر الصفو بينها وبين هوازن حرصاً على سلامة الموسم وعلى تجارتها فيه . يدلنا على ذلك أن عبيد الله بن جدعان كان طرد مئة ناقة لكلاب بن ربيعة فأرسل كلاب إلى قريش : « إن سفيهم أغار علي وطردي مئة ناقة ، فليس لكم أن تشهدوا عكاظ ولي عليكم ترة . » وكانت عكاظ في وسط أرض قيس بن عيلان . قال ابن جدعان : « وإن قريشاً اتهمرت بقتلي ، لثلا أجني عليهم الجرائر فيطلبون بسبي

وهم تجار لا يستغنون عن بلد .^(١)

وهذا صريح في إشفاق قریش من كل ما يعكر أمن تجارتها وقد أذعنت للتهديد حتى كادت تسلم أحد أفرادها ، وهو شيء لا تسمح به العرب أبداً حتى تفنى عن آخرها . وبهذا عرفوا ، وما كانت قریش لتخرج على ذلك لولا الضرورة الملحة ولولا أنها تهدد موردها الوحيد وهو التجارة .

أيام الفجار أربعة . وإنما نريد هنا الكلام على الفجار الآخر أي الرابع لأنه هو الذي أدى إلى الحروب ، وهو الذي كان سببه التزاحم على الكسب والتجارة . أما بقية الأيام فستمر بها عند الكلام على عكاظ . وقد سميت بالفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم وهي الشهور التي تعظمها العرب وتحرم فيها القتل والقتال فيما بينها . فلما خرج المتحاربون فيها على شريعة العرب كانوا فاجرين^(٢) بذلك . وأيامها خمسة تفرقت على أربع سنين . وهانحن أولاء نأتي عليها بالتفصيل الممكن معتمدين فيه على الأغاني وبلوغ الأرب وعلى العقد الفريد خاصة .

(١) الأكليل للهمداني ٨ : ١٨٤

(٢) يلاحظ الجاحظ بحق - أن قریشاً لم تفجر وإنما فجر الذين حاربهم -

رسائل الجاحظ (جمع السندوي) ص ٧٤

سنة

من الصعب تعيين سنة هذه الحروب لما ورد فيها من تضارب الروايات ، فقد أجمعت المصادر على أن رسول الله ﷺ حضرها بنفسه ، ثم افترقت فرقتين : فابن هشام ومن تابعه يجعلون سن الرسول لما حضرها أربع عشرة سنة ، ومنهم صاحب العقد الفريد الذي يروي في ذلك حديثاً هذا نصه : « كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة . » وابن إسحاق ومن تابعه - ومنهم صاحب القاموس والأصفهاني وابن سعد - جعل سنة حينئذٍ عشرين سنة . وهناك غموض آخر اشترك فيه الفريقان معاً وهو أن أيام الفجار الآخر تفرقت على أربع سنين ، ففي أيهن كان عمره أربع عشرة أو عشرين ؟ وأنا لم أمتد بعد إلى الحق الذي لا حق غيره في هذه الروايات . ونبله ﷺ على أعمامه فسر بوجهين : أما صاحب العقد الفريد فقال : أنبل بمعنى أناولهم النبل وهو خلاف ماذهب إليه ابن هشام في سيرته من أن معناه أنه كان يرد عنهم نبل عدوهم . إلا أن تعدية الفعل بـ (على) ترجح التفسير الأول فقد جاء في القاموس : نبل عليه : لقط له النبل . وروي الحديث (في مادة فجر) - وكذلك رواه ابن سعد - على هذه الصيغة : « كنت أنبل على عمومي يوم الفجار ، ورميت فيه بأسهم ، وما أحب

أني لم أكن فعلت . »

فإن يكن رسول الله ﷺ قد حضر الأيام جميعها وكانت سنة أول ما هاجت خمس عشرة سنة - على إحدى روايتي ابن هشام - أمكن التوفيق بين الروايات على وجه التقريب فتكون الحرب قد وضعت أوزارها وقد أشرفت سنة على العشرين . فكان يلتقط السهام في أولها ويرمي بنفسه في آخرها . فعلى الرواية الأولى تكون الحرب قد وقعت قبل البعثة بخمسة وعشرين عاما وتوافق سنة (٥٨٥) للميلاد المسيحي .

سبب الحرب :

من عادة النعمان بن المنذر ملك الحيرة أنه يرسل كل عام إلى سوق عكاظ لطيمة (وهي الجمال تحمل المسك والطيب) بجوار رجل شريف من أشرف العرب ، يحميها له حتى تصل إلى السوق فتباع فيها ويشترى له بثمانها أدم من أدم الطائف .

ولا يقوم عادة بعبء حمايتها إلا رجل منيع ، لقومه عدد وعزة . وكان الذي يجيرها في الغالب سيد مضر ^(١) .

فلما جهز النعمان اللطيمة لهذا العام (٥٨٥ م) قال : « من يجيرها ؟ »

وكان بحضرته أناس من أشراف القبائل ، فانبرى له البرأض بن قيس الضمري وكان فتاكاً يضرب بفتكه المثل فقال : « أنا أجيرها على بني كنانة . » فقال النعمان : « ما أريد إلا رجلاً يجيرها على أهل نجد وتهامة . » فقام عروة الرحال أحد أشراف هوازن وكبرائهم فقال : « أكلب خليع يجيرها لك ؟ أبيت اللعن ، أنا أجيرها لك على أهل الشيخ والقيصوم ، يريد عامة العرب . فحقدها عليه البرأض وقال : « أعلى بني كنانة تجيرها يا عروة ؟ » قال : « نعم وعلى الناس كلهم . » فحمي البرأض إذ غدها استهانة به واستخفافاً بقومه ، وأضرها في نفسه غدرة شنعاء .

دفع النعمان اللطيمة إلى عروة فخرج بها . فتبعه البرأض وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه شيئاً لأنه منيع بين قومه من غطفان ، حتى إذا بلغوا (فذك) نزل عروة في أرض يقال لها « أواره » فشرب الخمر وغنته قينة ثم قام فنام .

اغتم الفرصة البرأض ، وانسل إليه في خبائه ، فلما رآه عروة ناشده واعتذر إليه وقال : « كانت مني زلة » فلم يفد الاعتذار شيئاً ولم يخفف مما يضطرم في صدر البرأض من الحقد ، فانقضَّ على عروة فقتله وخرج يرتجز ويقول :

قد كانت الفعلة مني ضلّة
هلاً على غيري جعلت الزلّة
فسوف أعلو بالحسام القلّة

ثم أنشد :

وداهية يُهاال الناس منها شددت لها بني بكر ضلوعي
قدمت بها بيوت بني كلاب وأرضعت الموالي بالضروع
جمعت له يديّ بنصل سيف فخبرتم كالجذع الصريع^(١)

واستاق اللطيمة إلى خيبر ، وبعث رسولاً مستعجلاً إلى حرب
ابن أمية يخبره أنه قتل عروة فليحذر قيساً^(٢) ، فتبعه رجلان من غطفان
يريدان قتله ، فكان هو أول من لقيهما فعرف ما قصدا إليه فنوى
التعجيل بهما فقال لهما : « من الرجلان ؟ » قالوا : « من غطفان وغني » قال
البراض : « ماشأن غطفان وغني بهذه البلدة ؟ » قالوا : « ومن أنت ؟ »
قال : « من أهل خيبر » قالوا : « ألك علم بالبراض ؟ » قال : « دخل
علينا طريداً خليعاً فلم يؤوه أحد بخيبر ولا أدخله بيتاً . » قالوا : « فأين

(١) أرضعت الموالي بالضروع : ألحقت الموالي بمنزلتهم من اللاؤم ورضاع
الضروع وأظهرت فساتنهم ، وهذا كما يقال لثيم راضع أي يرضع اللاؤم من
ثدي أمه . والقلة من كل شيء : أعلاه .

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام لزيدان ١ : ٢٤١

يكون ؟ » قال : « فهل لكما به طاقة إن دلتكما عليه ؟ » قالا : « نعم »
قال : « فانزولا ، فنزلا ففعلنا راحلتيهما . قال البرأض : « فأيكما أجراً
عليه وأمضى مقدماً وأحد سيفاً ؟ » قال الغطفاني : « أنا » قال : « فانطلق
أدلك عليه ويحفظ صاحبك راحلتيكما . » ففعل .

وانطلق البرأض يمشي بين يدي الغطفاني حتى انتهى إلى خربة في
جانب خير ، خارجة عن البيوت فقال البرأض : « هو في هذه
الخربة وإليها يأوي . فأنظرني حتى أنظر : أئتم هو أم لا ؟ » فوقف له
الرجل ودخل البرأض ثم خرج إليه وقال : « هونائم في البيت الأقصى
خلف هذا الجدار عن يمينك إذا دخلت . فهل عندك سيف فيه صرامة ؟ »
قال : « نعم » قال : « أرني سيفك أنظر إليه أصارم هو ؟ » فأعطاه
إياه ، فهزه البرأض ثم ضربه به فقتله . ووضع السيف خلف الباب .
وأقبل على الغنوي فقال : « ما وراءك ؟ » قال البرأض : « لم أر
أجنب من صاحبك ، تركته قائماً في الباب الذي فيه الرجل . والرجل
نائم . لا يتقدم إليه ولا يتأخر عنه . » قال الغنوي : « يا لهفاه ! لو كان
أحد ينظر راحلتينا . » قال البرأض : « هما علي إن ذهبتا . » فانطلق
الغنوي والبرأض خلفه حتى إذا جاوز الغنوي باب الخربة أخذ
البرأض السيف من خلف الباب ثم ضربه به حتى قتله . وأخذ سلاحيهما

وراحلتيهما ثم انطلق .

بوم نخلة :

بلغ قريشاً خبر البرأض وقتله عروة وفزعوا أن تعلم بذلك
هو ازن فتدھمھم وكانوا في عكاظ في الشهر الحرام فخلصوا نجياً (واتفق
رايهم أن يخاطبوا عامر بن مالك سيد قيس بذلك فأتوه وأخبروه فأجاز
مالك بين الناس وأعلم قومه ما قيل له وأوشكوا أن يصطلحوا) .
لكن فريقاً منهم خافوا أن يكون قومهم بمكة في ضيق فانسلوا من
عكاظ وهو ازن لا تشعربھم وتوجهوا نحو مكة وجاء أن ينصروا
إخوانهم إن كان حزبهم أمراً .

وكان من عادة العرب إذا وفدت على عكاظ أن تدفع أسلحتها
إلى عبد الله بن جدعان ، و كان هذا سيداً حكيماً ثرياً من المال ،
فتبقى عنده أسلحة الناس حتى يفرغوا من أسواقهم وحجهم فيردها
عليهم إذا ظعنوا . فلما كان من أمر البرأض ما كان قال حرب بن أمية
لابن جدعان : « احتبس قبلك سلاح هو ازن . » فقال عبد الله :
« أبالقدر تأمرني يا حرب ؟ فوالله لو أعلم أنه لا يبقى فيها سيف إلا
ضربت به ولا رمح إلا طعنت به ما أمسكت منها شيئاً . ولكن لكم
مئة درع ومئة رمح ومئة سيف تستعينون بها . » ثم صاح ابن جدعان

في الناس : « من كان له قبلي سلاح فليأت وليأخذه . » فأخذ الناس أسلحتهم .

وبعث ابن جدعان وحرب بن أمية وهشام والوليد ابنا المغيرة إلى أبي براء سيد قيس : « إنه قد كان بعد خروجنا حرب وقد خفنا تفاقم الأمر فلا تنكروا خروجنا . » وساروا راجعين إلى مكة^(١) . فلما كان آخر النهار بلغ أبا البراء قتل البراض عروة فقال : « خدعني حرب وابن جدعان . » وركب فيمن حضر عكاظ من هوازن في إثر القوم فأدركوهم في نخلة قبيل الحرم ، فناوشوهم شيئاً من القتال يسيراً حتى جاء الليل ودخلت قريش الحرم فأمسكت هوازن عنهم ونادوهم : يامعشر قريش ! إنا نعاهد الله ألا نبطل دم عروة الرجال أبداً أو نقتل به عظيماً منكم ، وميعادنا وإياكم هذه الليالي من العام المقبل . » ونادى رجل من بني عامر :

لقد وعدنا قريشاً وهي كارهة بأن تجيء إلى ضرب رعايل^(٢)
فقال حرب بن أمية لأبي سفيان ابنه : قل لهم : « ان موعدكم قابل في هذا اليوم . »

وتعرف هذه الواقعة بيوم نخلة وقد تعطلت السوق فلم تقم تلك

(١) الاغاني ٧٦/١٩ (٢) ثوب رعايل : ممزق بال .

السنة . فقال خدّاش بن زهير يذكر قريشاً بها ويعيرهم ، وكانت
العرب تسمى قريشاً (سَخِينَة) لأكلها السخينة وهي طعام رقيق يتخذ
من دقيق :

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على (سَخِينَة) لولا الليل والحرم
إذ يتقينا هشام بالوليد ولو أنا ثقفنا هشاماً شالت الخدم
لما رأوا خيلنا تزجي أوائلها آساد غيل حمى أشبالها الأجم
ولوا شللاً وعُظم الخيل لاحقة كما تخب الى أعطانها النعم^(١)
بين الأراك وبين المرج تبطحهم زرق الأسته في أطرافها السهم
فإن سمعتم بجيش سالك شرفاً و بطن مرفأخفوا الجرس واكتنموا
وهذا غاية في التغير وفي وصف شدة الحرب حتى صار الأخ
يفتدي نفسه بأخيه .

يوم سَمَظَة :

سَمَظَة^(٢) موضع في عكاظ نزلته كنانة بعد عام من يوم نخلة حسبما

(١) الخدم جمع خدمة وهي حلقة القوم حيث يجتمعون ، عُظُم الخيل :
معظمها . تخب : تسرع . والاعطان : مبارك الإبل حول الماء ، أو هي
كالأوطان للناس . شللاً : خفافاً سراعاً وانظر طبقات فحول الشعراء ص ١٢١
(٢) اثبتها ياقوت في معجم البلدان بالطاء وذكر أن الأزهرى نقلها بالظاء
قلت : وهو المشهور المتداول في كتب اللغة .

اتعدواهم وهوازن . فاحتشدت كنانة ، قريشها وعبد منافها
والأحابيش^(١) ومن لحق بهم ، وسلح يومئذ عبد الله بن جدعان مئة
كمي بأداة كاملة سوى من سلح من قومه . وعلى إحدى مجنبتى كنانة
عبد الله بن جدعان ، وعلى الثانية كريض بن ربيعة ، وأمر الجميع إلى
حرب بن أمية الذي كان في القلب . أما هوازن وأحلافها فأمرها إلى
مسعود بن معتب الثقفي . واعتزل فريق من الحسين فلم يشهدوا الحرب .
ثم تناهض الناس وزحف بعضهم إلى بعض ، فكانت الدائرة
أول النهار لكنانة على هوازن ، حتى إذا كانت آخر النهار تداعت
هوازن وصابرت ، فانقضت كنانة واستحرق القتلى فيهم ، فقتل منهم
تحت رايهم مئة رجل ، ولم يقتل من قريش يومئذ أحد يذكر ، وذلك
قول خدش بن زهير :

فأبلغ ان عرضت بنا هشاماً وعبد الله أبلغ والوليدا
أونك ان يكن في الناس خير فإن لديهم حسباً وجودا

(١) الاحابيش حلفاء قريش وهم - على ما قال ابن قتيبة - بنو المصطلق ،
والحياء بن سعد بن عمرو ، وبنو الهون بن خزيمية : اجتمعوا أسفل جبل بمكة
اسمه (حبشي) فتعالفوا بالله انا ليد على غيرنا ما سجا ليل وأوضح نهار وما
وما حبشي . وقيل : سموا بذلك لاجتماعهم والتحشيش التجميع . العمدة ١٨٥/٢
والقاموس مادة (حبش) .

هم خير المعاشر من قريش وأوراهم إذا قدحت زنودا
 بأنا يوم (شمطة) قد أقننا عمود الدين إن له عمودا
 فجاءوا عارضاً برِداً وجئنا كما أضرمت في الغاب الوقودا
 فعاقننا الحكمة وعانقونا عراك النمر واجهت الأسودا
 ونادوا: يا عمرو لا تفروا فقلنا: لا فرار ولا صدودا
 فولوا نضرب الهامات منهم بما انتهكوا المحارم والحدودا^(١)
 فلم أر مثلهم هزموا وقلوا ولا نديارنا سنقنا مذودا

يوم البصرة :

عاد الأحياء المذكورون من هؤلاء وأوائك فالتقوا من قابل في
 اليوم الثالث من أيام عكاظ بالعبلاء الى جنب عكاظ فاقتلوا على التبعئة
 التي تقدمت .

فكان هذا اليوم أيضاً لهوازن على قريش وكنانة . فأصابت
 قريش وقتل أحد صناديدها العوام بن خويلد ، والد الزبير بن العوام
 حواري رسول الله ﷺ ، قتله مرة بن معتب الثقفي ، فقال في ذلك

(١) انظر خزانة الادب ، وطبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٣ (في طبعة دار
 المعارف : ص ١٧٩) . أبلغ بحذف نون التأكيد الخفيفة وإبقاء فتحة البناء على
 آخر فعل الأمر . والزيادة : الدفاع ، والعنق : المقبلون بجماعهم

رجل من ثقيف يفتخر بقتله لما له من الخطر :

منا الذي ترك العوآم مجندلاً تنتابه الطير لحماً بين أحجار

وفي هذا يقول شاعر هذه الحروب من هو أزن . خدّاش بن زهير :

ألم يبلغكم أنا جدعنا لدى العبلاء خندف بالقياد

فقدتكم ولحظكم إلينا بيطن عكاظ كالإين الغداد^(١)

ضر بناهم بيطن عكاظ حتى تولّوا طالعين من النجاد
ويقول :

ألم يبلغك ما لقيت قریش وحي بني كنانة إذ أبـيروا

دهمنـاهم بأرعن مكفر فظل لنا بعقوتهم زئير^(٢)

* * *

يوم سرب^(٣) :

ثم التقوا على رأس الحول في اليوم الثالث من عكاظ أيضاً شرب ،

وشرب من عكاظ . ولم يكن بين الفريقين يوم أعظم منه ، صدقوا

(١) هذا البيت في كتاب (الامتاع والمؤانسة ١ / ٢٢١) وهو في لسان

العرب : (عدمتكم ونظرتكم إلينا ..) - الغداد : جمع غادة ! أي ناقة ذات غدة

(٢) أبـيروا : أهلكوا . العقوة ماحول الدار ، المحلة .

(٣) ضبطه ياقوت في معجم البلدان فبفتح فكسر نقلاً عن أبي بكر بن نصر

فأما التي في شعر ابن مقبل فبفتح فسكون .

فيه الحملة ، وصبروا حفاظاً وحمية ، وقد أبلت فيه قريش بلاء حسناً .
وكان الذي أحماهم أن هو ازن عليهم يومين ذهبت بفخرهما . فحافظت
قريش وكنانة وصابت بنو مخزوم وبنو بكر ، وقيد ثلاثة شجعان
من قريش وأشرافها أنفسهم وقلوا : « لا يبرح منا رجل مكانه حتى يموت
أو نظفر » وهم أبو سفيان وحرب ابنا أمية ، وأبو سفيان بن حرب
والد معاوية فسموا (العنابسة) من يومئذ . وكان على الفريقين
رؤساؤهم السابقون ، واستمر القتال بهذه الشدة حتى انهزمت هوازن
وقيس كلها رغم عددها وعدتها ، إلا بني نصر فإنهم صبروا مع ثقيف ،
وذلك لأن عكاظ بلدهم ، لهم فيه نخل وأموال إلا أنهم لم يغنوا شيئاً
ثم انهزموا أيضاً وقتلت هوازن يومئذ قتلاً ذريعاً . وذهبت بفخر
هذا اليوم كله كنانة وقريش ، فارتفعت أصوات شعرائهم تخلد هذا
النصر المؤزر ، وما لها لا تفعل ، وقد لقيت خزيّاً كبيراً من شعراء
هوازن ، وما شأن شاعر تفقده أمة يوم الحاجة ، وأي غناء لشاعر
لا قوم له ، فقال أمية بن أسكر الكناني :

ألا سائل هوازن يوم لا قوا فوارس من كنانة معانينا
لدى شرب وقد جاشوا وجشنا فأوعب في النفير بنو أيننا^(١)

وقال :

قومي اللذو بعكاظ طيروا شررا من روس، قومك ضرباً بالمصاقل^(١)
وقال جذل الطعان :

جاءت هوازن أرسالاً وإخوتها بنو سُلَيْم فهابوا الموت وانصرفوا
فاستقبلوا بضراب فض جمعهم مثل الحريق فما عاجوا ولا عصفوا
وقال عبد الله بن الزبيري شاعر قريش (والمشركون فيما بعد) :

ألا لله قوم و لدت أخت بني سهم
هشام وأبو عبيد مناف مدره الخصم
وذو الرمحين أشباك من القوة والحزم
فهذان يذودان وذان من كذب يرمي^(٢)

(١) اللذو : لغة في الذين . والمصاقل : السيوف .

(٢) وتمة هذه الأبيات :

أسود تزدهي الأقرا ن متاعون للهضم
وهم يوم عكاظ منعوا الناس من الهزم
وهم من ولدوا أشبوا بسر الحب الضخم
فلئن أحلف وبيت الله لا أحلف على إثم
لما من إخوة بين قصور الشام والردم
بأزكى من بني ربيعة أو أوزن في الحلم

أبو عبد مناف الفاكه بن المغيرة . وربيعة هذه التي عناها هي أم بني المغيرة
وهي بنت سعيد بن سعد بن سهم ، ولدت من المغيرة هشاماً وأبا ربيعة والفاكه =

يوم المذبحة :

وهو آخر أيامهم . ثم التقوا على رأس الحول بالحريرة وهي
حريرة إلى جنب عكاظ مما يلي مهب جنوبها ، وعلى كل قوم رؤساؤهم

- وذو الرحين هو أبو ربيعة بن المغيرة لقب به لقتاله في هذه الحرب برحين .
وأشباك : حسبك . والمذبذبة : زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم . تردهم
الأقوان : تسنخف بهم . وأشبى فلان : اذا ولد له ولد كبش . والرهـم مكان
بمكة يضاف إلى بني جمح ، وقرية بالبحرين .

هذا وقد اختلف في قائل هذه الابيات ، ف قيل : ابن الزبيري . وقيل :
هم ابن أبي ربيعة حفيد ذي الرحين ، وقد كشف الاصفهاني عن حقيقتها بخبره
الطريف المشهور قال : قال أبو نهشل : جئت أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث
ابن هشام الوارد ذكره في الابيات ، قصده أطلب منه مغرمًا فقال : يا خال
هذه اربعة آلاف درهم وأنشد هذه الابيات الاربعة (الاولى) وقل سمعت
حسان ينشدها رسول الله ﷺ . فقلت : أعوذ بالله أن أكذب على الله ورسوله ،
ولكن إن شئت أن أقول : سمعت عائشة تنشدها فعلت . فقال : « لا ، إلا
أن تقول : سمعت حسان ينشدها رسول الله ﷺ ورسول الله جالس . » فأبى
عليّ وأبيت عليه ، فأقمنا لذلك لانتكلم عدة ليل ، فأرسل إليّ فقال : قل أبياتاً
تمدح بها هشاماً - يعني جده ابن المغيرة - وبني أمية . فقلت : « سمع لي . »
فسامهم وقال : « اجعلها في عكاظ واجعلها لأبيك . » فقلت : « ألا الله ...
الابيـات : » ثم جئت فقلت : « هذه قالها أبي » فقال : « لا ، ولكن قل : قالها
ابن الزبيري . » قال : فمضى إلى الان منسوبة في كتب الناس إلى ابن الزبيري .
وقيل : من لعمر ابن أبي ربيعة ، والله أعلم .

السابقون . فاقتتلوا قتالاً شديداً كان شؤماً على قريش وأحلافها ، قتل فيه من كنانة ثمانية نفر ، وقتل أبو سفيان بن أمية أخو حرب جد معاوية . وكان يوماً لهوازن فخره ونصره . فلعلع صوت شاعر هو وزن بهذه الصاعقة المجلجلة :

إني من النفر المحمرّ أعينهم أهل السوام وأهل الصخر واللوب^(١)
الطاعنين نحور الخيل مقبلة من كل سمراء لم تغلب ، ومغلوب
وقد بلوتم فأبلاكم بلاؤهم يوم الحريرة ضرباً غير مكذوب
لاقتهم منهم أساد ملحمة ليسوا بدارعة عوج العراقيب
فالآن إن تقبلوا نأخذ نحوركم وإن تباهوا فإني غير مغلوب
وقال الحارث بن كلدة الثقفي :

تركت الفارس البذّاخ منهم تمجّ عروقه علقاً عبيطاً
دعست بنانه بالرمح حتى سمعت لمسته فيه أطيّطاً
لقد أرديت قومك يابن صخر وقد جشمتهم أمراً شطيّطاً
وكم أسامت منكم من كمي جريحاً قد سمعت له غطيّطاً^(٢)

(١) اللوب : جمع لابة وهي الحرّة .

(٢) البعير البذّاخ : الهدّار المخرج لشقشقه . والبذخ في الأصل الكبير

والعلوّ . العلق العبيط : الدم المتجمد . دعس : طعن . الاطيّط : صوت

الغطيّط للبعير : هديره ، ولذائمه : صوته .

ثم كان الرجل منهم بعد ذلك يلقي الرجل ، والرجلان يلقى
الرجلين فيقتل بعضهم بعضاً . فلي ابن محمية بن عبد الله الديلي زهير بن
ربيعة أبا خراش فقال زهير : « إني حرام جئت معتمراً . » فقال له :
« ما تلقى طوال الدهر إلا قلت : أنا معتمر » ثم قتله .

انقضت هذه الأيام الخمسة في أربع سنين . ثم تداعى الفريقان
إلى السلم على أن يذروا الفضل في الدماء والأموال ويتعاهدوا
على الصلح .

عقدوا على ذلك المواثيق وبقيت هذه الأحداث للذكرى والفخر ،
يتمجد كل شاعر قوم بما فعل قومه ، ويتغنى بما كان لهم من محامد .
وانظر إن شئت أن ترى آثار ذكرها في مثل قول عبد الله بن الزبعرى السهمي :
وإن قصياً أهل عز ونجدة وأهل فعال لا يرام قديمها
هم منعوا يومي عكاظ نساءنا كما منع الشول الهجان قرومها^(١)
أو قول بعضهم :

نحن كننا الملوكة من آل نجد وحماة الذمار عند الذمار

(١) الشول : النوق التي آتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف
لبنها ، الواحدة سائلة . والهجان : الإبل الكرام . والقروم : الفحول - بلوغ
الأرب ٣ / ٨٤

ومنعنا (الحجون) من كل حي ومنعنا الفجار يوم الفجار

وقول خدّاش بن زهير :

فلا توعديني بالفجار فإنه أحل يبطحاء (الحجون) المخازيا^(١)

أو قول عاتكة بنت عبد المطلب تخلد نصر قومها في هذه

المقطوعة الرائعة :

سائل بنا في قومنا وليكف من شرّ سماعه

قيساً وما جمعوا لنا في مجمع باق شناعه

فيه السنور والقنا والكبش ملتمع قناعه

بعكاظ يعشي الناظري ن - إذا هم لمحو - شعاعه

فيه قتلنا ما لكأ قسراً وأسلمه رباعه

ومجدلاً غادرنه بالقاع تنهسه ضباعه

هكذا كانت تجارة العراق في عكاظ وما يفيده من يجيرها من

أرباح مادية ومعنوية هو وقبيلته ، سبياً مغريباً في هذه الحروب . وأي

بدع في هذا فإننا ما نزال إلى اليوم نرى أكثر الحروب في حقيقةها

تطاحناً على النفوذ الاقتصادي وتكاد أحداث القرن العشرين كلها

تكون حول التنافس التجاري إن لم يكن بصورة جلية فمن وراء الستار.

د - حلف الفضول

ما نظر القرشيون إلى حلف ولا عهد ، نظرهم إلى حلف الفضول فهو يظفر منهم برعاية مقدسة وتبجيل وشرف قلما كان بعضه لحلف آخر .

هو حلف تجاري بمقدماته ونتائجها ، حفظ سمعة قريش وصان ازدهار أسواق مكة ، وأسدل عليها ستاراً من الإنصاف والأمن وحماية الضعيف بعد أن كاد الأمن فيها يتعرض للخطر ، وكادت حوادث الاعتداء على حقوق الضعفاء تزداد حتى أوشكت أن تزعزع ثقة الأعراب وتجار النواحي بأسواق مكة .

ولم تنحصر ثمرته فيما سبق الإسلام بل استمرت فيه وازدادت تأييداً وقوة ومنعة ، أثنى عليه صاحب الرسالة ﷺ واعتز به ، ولما هتف الهااتف به بعد نحو ثمانين سنة من عقده^(١) استجاب الناس له كأن عهدهم به أمس ، فكان جديداً لم تُخلق جدته تلك السنوات الثمانون التي تمخضت عن أعظم الحوادث الكبار : ظهور الشريعة

(١) سيأتي تفصيل هذا بعد قليل .

الإسلامية ، وفتوح العرب وانقراض فارس وانكاش الروم . أهاب الداعي بأصحابه (وقد مات أكثرهم) فهب أبناؤهم متحفزين لنصرته حتى خافت القوة الحاكمة وأذعن والي المدينة ، ورد الحق إلى صاحبه . ولقد بلغ من شرفه واقتعاده تلك المكانة في نفوس الناس أن استشرف خليفة عظيم كعبد الملك بن مروان ليعده الناس ممن دخل فيه ، فلما لم يظفر بذلك نددت منه حسرة غير خفية .

* * *

كان يهبط مكة من همل الأعراب وسُذَّاجهم ، وضعفاء المتكسبين وأرباب السلع أخلاط كثيرة ، وهم لا ناصر لهم يحميهم ولا منعة فيهم ، يؤمون أسواق مكة موقنين بأن أمن الحرم يسعهم جميعاً . فلم يكونوا يتوقعون أن أحداً تحدّثه نفسه بتكدير صفائه . لكن الواقع انكشف عن أنه لم تكن مكة لتخلو من أناس ، بطرين ، يستهينون بالضعيف ولا يعفّون عن هضمه وسلبه . وكان يحدث حينئذ ما يحدث دائماً في كل زمان ، من استغلال السذاجة في هؤلاء الغرباء : تارة بغبنهم في الثمن وتارة بمظلمهم بالديون وآونة بغشهم وأخرى بالاستهتار بهم . وكانت تنشر هذه الحوادث حتى تصل إلى أسماع أشراف مكة فينكرونها في أنفسهم . إلا أنها - في الظاهر - تعددت حتى لم يعد يصح السكوت عليها ، وحتى خشي على البلد أن يفشوله ذكر سيء

فسعى الأشراف بعضهم إلى بعض وعقدوا الحلف وأكدوه ونصبوا أنفسهم لحمايته .

أما السبب المباشر لعقد هذه الحلف فما ذكروا^(١) من أن رجلاً من زبيد من أهل اليمن باع سلعة من العاص بن وائل السهمي (وهو قرشي) فظلمه بالثمن فأوفى على جبل أبي قبيس رافعاً عقيرته وقريش في أنديتها ، فذكر ظلامته في شعر له وهو :

يا آل فهر المظلوم بضاعته بطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجز والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمه ولا حرام لثوب الفاجر الغدر^(٢)

فتداعت لذلك قريش واجتمعت إليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد العزى فدخلوا دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه وتعاهدوا بالله : ليكونن مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه . فلا يجدون بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته . اهـ

(١) سيرة ابن هشام ١ : ١٢٥

(٢) رواية الجاحظ لهذا البيت في رسائله (جمع السندري ص ٧٢)

إن الحرام لمن تمت حرامته ولا حرام لثوبي لابس الغدر

وزاد الجاحظ : « وفي الناس في المعاش والتساهم بالمال »^(١) وكان من أسرعهم تلبية له الزبير بن العوام^(٢).

شهد هذا الحلف رسول الله ﷺ وهو فتى فلما أكرمه الله بالرسالة حمد أثره وكان به جذلان مغتبطاً حتى روى عنه قوله :

« لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به خمير النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت » ، « لا يزيده الإسلام إلا شدة » .

وكان هذا الحلف منصرف قريش من حروب الفجار لعشرين سنة من عام الفيل فتكون سن رسول الله حينئذ عشرين سنة^(٣) .

وذكروا في سبب تسميته حلف الفضول ، أنه أشبه حلفاً وقع لثلاثة من جرهم كل واحد منهم يقال له الفضل . وأقرب من هذا

(١) المصدر السابق وانظر تفصيلاً عنه في الأغاني ٦٣/١٦ - ٦٨

(٢) ذكر الجاحظ أنه لما سمع أبيات الزبيدي حمي وحلف ليعقدن حلفاً بينه وبين بطون من قريش يمنعون القوي من ظلم الضعيف ، والقاطن من عنف الغريب ثم قال :

حلفت ليعقدن حلفاً عليهم	وإن كنا جميعاً أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا	يُعزّ به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنا	أباة الضم نخجر كل عار

: الصفحة السابقة وانظر : مروج الذهب ١٦٨/٢ هذا وفي الشعر صناعة .

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١ : ٨٢

المذهب إلى الواقع ما ذكره صاحب القاموس من أن سبب تسميته بذلك لأنهم تحالفوا ألا يتركوا عند أحد فضلاً يظلمه أحداً إلا أخذوه له منه .

وهذا هو الصحيح لوضوحه وقربه ولأن ثمرة الحلف كله هي رد الفضول لأهلها .

ومن يتدبر الأسباب التي تكلفها الرواة فجعلوها كمقدمات لعقده ويمحصها يجد أن الداعي الأول له حرص قريش على سمعة بلدهم التجارية أن تشمل بين العرب فتزعزع ثقتهم بقريش وبلدهم . وليس يظفر من كل تلك الأسباب المذكورة بالقبول إلا ما تقدم فإن الحوادث وحالة مكة وأمور قريش يومذاك تؤيده كل التأيد . ومن البعيد أن يعقد مثل هذا الحلف من أجل ظلامة الزبيدي هذا . من غير أن تتكرر الحوادث المشابهة لها حتى تقام الأمر وألف رجال كثيرون إتيان المظالم .

عظمت قريش أمر حلف الفضول واهتمت به كل الاهتمام ولم ينقطع أمره بالإسلام بل ظل مستمراً أقوى ما كان قط وحسبك قول النبي ﷺ : « ولو أدعى به في الإسلام لأجبت . »

ثم كان يدعو بهذا الحلف كل مظلوم : دافع أبي بن خلف الجمحي بارقياً عن ثمن سلعته فتظلم هذا قائلاً :

أياخذني في بطن مكة ظالماً
وتناديت قومي صارخاً لتجيبني
ويأبى لكم حلف الفضول ظلامي
بنى جمع والحق يؤخذ بالغصب^(١)
فأخذ له بنو هاشم ثمن سلعته .

ورأى نبيه بن الحجاج (قتل) بنت التاجر الحثمي وكانت
حسنة باهرة ، فكابر التاجر على ابنته حين رأى جمالها فتظلم الى ذوي
الحلف فانتزعوا ابنته من نبيه الذي قال في ذلك :

إنني والذي يحجج له شمت إياد وهللوا تهليلاً
وخشيت الفضول حين أتوني قد أراي ولا أخاف الفضولا
لبراء مني قتيلة يا للناس هل يبتغون إلا القتولا^(٢)
وذكر الجاحظ أن بني هاشم وحلفاءهم انتزعوا الظلامات من
رجال كثيرين وأنه « لم يكن يظلم بمكة إلا رجال أقوياء ولهم العدد

(١) الأغاني ٦٧/١٦ ورسائل الجاحظ ص ٧٣

(٢) رسائل الجاحظ (جمع السندوي) ص ٧٣ وذكر فيها قوله أيضاً :

حي البخيلة إذ نأت	منا على عداواتها
لا بالفراق تنيلنا	شيثاً ولا بلفاقنا
حلت بمكة حلة	في مشيا ووطائنا
لولا الفضول وأنه	لا أمن من عداواتها
لدنوت من أبياتها	ولطفت حول خباياها

والعارضة^(١)

ويحلو لي هنا أن أبين للقارىء امتداد هذا الحلف التجاري في حياة المسلمين وتمسكهم به ، فابن هشام يروي : أن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان كان والياً على المدينة ، ولأه عليها عمه معاوية . وكان بين الوليد والحسين بن علي منازعة في مال كان بينهما بذي المروة . وكان الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه يومئذ ، فقال الحسين : « أحلف بالله لتتصفني من حقي أولاً خذن سيفي ، ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ ، ثم لأدعون بحاف الفضول .. » وكان عبد الله بن الزبير حاضراً مجلسهما هذا فغضب للحسين وقال يتهدد الوليد : وأنا أحلف بالله ، لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً . »

وبلغ هذا الخبر المسور بن مخرمة بن نوفل فقال مثل ما قال ابن الزبير ، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمي فقال مثل ذلك . فلما بلغ كل هذا الوليد بن عتبة خاف مغبتها وأنصف الحسين من حقه^(٢) .

فأنت ترى كيف كان القوم سراعاً إلى تنفيذ هذا الحلف وكيف

(١) المصدر نفسه . (٢) انظر سيرة ابن هشام ١ : ١٢٦

تهيؤوا لنصرتهم وللإستجابة لمن دعا به وهو أثر غير قليل . وأي معاهدة تمضي فتبقى لها مثل هذه القوة بعد أكثر من سبعين سنة من عقدها ! بل لقد تحمس لها الصحابة أشد التحمس وكان اندفاعهم لصيانتها أقوى مما تقدم ، لقد تحفزوا للقيام بوجه خليفة ذي سلطان قاهر ، وكادت تكون فتنة لولا أن أذعن معاوية كما أذعن واليه ابن عتبة ، ومن الخير أن أنقل لك صورة هذا الاندفاع لتعرف مدى بلوغها من قلوب القوم : جاء في شرح نهج البلاغة (٣ : ٤٦٤) ما يأتي :

« كان بين الحسين ومعاوية كلام في أرض للحسين ، فقال له الحسين : اختر مني واحدة من ثلاث خصال : إما أن تشتري مني حقي ، وإما أن ترده عليّ ، أو تجعل بيني وبينك ابن عمرو وابن الزبير حكماً ، وإلا فالرابعة وهي الصيْلَم^(١) . قال معاوية : وما هي ؟ قال : « أهتف بحلف الفضول ... » ثم قام فخرج وهو مغضب ، فر بعبد الله بن الزبير فأخبره فقال عبد الله : والله لئن هتفت به وأنا مضطجع لأقعدنّ ، أو قاعد لأقومنّ ، أو قائم لأمشينّ ، أو ماش لأسعينّ ، ثم لتنفذنّ روحي مع روحك أو لينصفنك ... »

فبلغت معاوية فقال : « لا حاجة لنا بالصيْلَم . » ثم أرسل إليه :

(١) الداهية والأمر العظيم

« أن ابعث فانتقد مالك فقد ابتعنا منك . »

ومما لا شك فيه أن موقف غير ابن الزبير لو استفحل الأمر سيكون مثل موقفه ، ومعاوية أدهى من أن يؤلب عليه من لم ينفض يده بعد من تألفهم ، ومن لا تزال السيوف التي حاربوه بها على عواتقهم ، لما ينقض على إغمداتها كبير زمن وما هي بحاجة لتشر إلى كبير أمر ...

وقد عرض ابن الزبير بحلف الفضول مرة أخرى يهدد معاوية ، فقد تحدثا عن الحسين بن علي فقال ابن الزبير : « أما والله إني وإياه ليدن عليك بحلف الفضول » فقال معاوية : « من أنت ! لا أعرض لك وحلف الفضول .. والله ما كنت فيها إلا كالرهينة تشخن معنا وتردى هزبلاً »^(١)

وانظر هذه الحسرة الخفية من يعسوب الأمويين عبد الملك بن مروان ، على أن أمية لم تدخل الحلف ، وتأمل كيف أراد بصورة غير مباشرة أحد سراة بني نوفل ، على أن يتملقه فيشهد له بدخول أمية ونوفل فيها ، وكيف لم يستطع هذا إلا أن يجهر له بالحق لقرب العهد بأصحاب الفضول ، ولأن الذين يعرفونها ويعرفون عاقدتها لم يموتوا بعد ، قال ابن هشام :

(١) الأغاني ١٧٣/٩ (طبعة دار الكتب)

« كان محمد بن جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف
من أعلم قريش ، فدخل على عبد الملك بن مروان حين قتل ابن الزبير ،
 واجتمع الناس على عبد الملك ، فلما دخل عليه قال له : « يا أبا سعيد :
 ألم نكن نحن وأنتم (يعني بني عبد شمس بن عبد مناف وبني نوفل بن
عبد مناف) في حلف الفضول ؟ » قال محمد : « أنت أعلم ! .. » قال
عبد الملك : « لتخبرني يا أبا سعيد بالحق من ذلك . » فقال :
« لا والله ، لقد خرجنا نحن وأنتم منه . » قال : « صدقت . »

* * *

كانت قريش إذا ذات مشاكل تجارية فقامت لها هذه الحلف
مقام المحاكم التجارية والقوة التنفيذية معاً ، فكان سلطانها مهيباً في
النفوس ، وكانت خير وازع لمن تحدّثه نفسه بظلم وإن تمتع بالسلطان ،
وكانت أحسن ضامن لحقوق الضعفاء ممن عدموا المنعة والنصير .

الباب الثالث

أسواق العرب

أ - في الجاهلية

ب - في الإسلام

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أسواق العرب

أنشأ العرب — ومركزهم التجاري ما قدمنا — أسواقاً لهم .
يتبايعون فيها .

ولعل هذه الكلمة — كما ذكر ابن سيده — اشتقت من سوق الناس .
بضائعهم إليها ، ولا يستدعي وجودها في اللغات السامية أن تكون .
كلمة السوق العربية مأخوذة منها ، فلعل الواقع هو العكس . وليس
من لزوم في هذا الاستقصاء المتكلف ما دامت هذه . أخيراً من
أم واحدة .

فمن هذه الأسواق ما كان يقتصر على ما يجاوره من القرى وما
ينزل بساحه من القبائل كسوق هجر وحجر اليمامة والشحر وغيرها ،
ومنها ما كان عاماً تفد إليه الناس من أطراف الجزيرة كلها كعكاظ .
ولكل مدينة بطبيعة الحال أسواق وإنما المقصود هنا الأسواق الموسمية
منها ، التي لها أيام معينة تقوم فيها ويؤمنها الناس . فإذا كان لإحدى
هذه الأسواق موقع جغرافي ذو بال ، كأن تكون على ساحل البحر

مثل سوق عدن وصنعاء وعمان .. كان شأنها ممتازاً من بقية الأسواق التي في قلب الجزيرة كحَجَر أو كحضرموت ، لشيوع الاتجار فيها مع الجيران من هند وحبشة وفارس في الأولى ، واقتصار الثانية على القبائل المتاخمة لها .

فتتميز الأسواق التي على فُرْض البحر بوجود النزال الأجانب وتأثر أصحابها باختلاطهم بهم ولأهـ وما يستتبع ذلك من تغيير في العادات والرقي والصبغة ، فليس من المعقول أن تكون أحوال سوق صنعاء مثلاً مشابهة كل المشابهة الأحوال التي لسوق هجر ، أو التي لسوق الجند^(١) القديمة باليمن ، أو سوق الجُرَيْب وهي خاصة باليمن أيضاً ، يتسوقها في موعدها عشرة آلاف^(٢) أو سوق وادي القري أو سوق (قُرَح)^(٣) الذي هلك فيه قوم عاد فيما يزعمون .

(١) الجند أول مدن اليمن التي على سمت نجدها ، وهي أعظم أقسام اليمن الإدارية الثلاثة على عهد الراشدين اختارها معاذ بن جبل حين ولي اليمن لرسول الله ، واختط فيها مسجده . ونقل ياقوت أن الناس فيما بعد صاروا يحجون الى هذا المسجد ، ولها ماضٍ قديم جداً اليه أشار الشاعر بقوله :
الغدر أهلك عاداً في منازلها والبقي أفنى قروناً دارها الجند
ونص الهمداني في (كتابه صفة جزيرة العرب) على أنها من أسواق العرب القديمة . - انظر الإكليل ٥٧/١٠ وهو أشيا .

(٢) المصدر السابق ص ٨٦ (٣) انظر « قرح » في معجم البلدان ولسان العرب

كان يلي أمر الناس والنظر في شؤونهم التجارية في بعض هذه الأسواق أمراء يعشرون الناس كأ كيدر في دومة الجندل والمنذر بن ساوى في سوق حجر ، وهناك رؤساء يهبطون الأسواق لجمع الإتاوة وأشرف يتوافون بتلك السوق التي هي في الغالب تحت سيطرة أمير من الأمراء ، ليستوفوا نصيبهم من الربح الذي جعله لهم ذلك الأمير ... بل إن بعض الأسواق كانت تقع إلى سلطان دولة أجنبية كسوق المشقر الذي تحكم كسرى بأهله وتجارته ، وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على الأسواق سوقاً فسوقاً .

أما عروض التجارة التي كانت تُحْمَل إلى الأسواق فأكثرها لا يتعدى التمر والزبيب والزيت والسمن والأدم والورس والغالية والبرود وبعض ضروب الحيوان كالماشى والأنعام والحيل حتى القروء أحياناً .

وكانت هجر أشهر البلدان بتمرها ، وعُثْمَان يحمل إليها الورس ويعالج فيها . وكانت لطائم النعمان تسير إلى عكاظ ، ولطائم كسرى إلى المشقر ، تأتي كل سنة فتباع ويشترى بأثمانها الأدم والتمر . وكان يقوم بحمايتها عرب الحيرة ما دامت في مناطق نفوذهم ، فإذا فصلت نحو عكاظ كان لا بد لها من حمام منيع الجانب عزيز القبيلة ليحجزها على عامة

القبائل . وقد استفاد العرب من هذه الحماية فوائد مادية جلّى .

تلك الأسواق في الجزيرة وما إليها كانت تلبية لضرورات محلية اقتضتها معيشة العرب وطبيعة توزيعهم في أراضيهم ، وليست شيئاً مجلوباً حاكوا به غيرهم كما يتكلف بعض المتعرضين لهذا البحث^(١) .

حملت هذه الحركة التجارية كثيراً من ألوان الترف إلى العرب وكان لا عهد لهم بمثلها ، فتغالى أشرافهم بالثياب والبرود والسلاح والطيب . بل إن الرواة ليزكرون أن خمرأ حملت من بصرى وغزة من بلاد الشام إلى سوق مجنة قرب مكة ، ويظهر أن العرب اعتادت استجادة الخمر والافتنان بشربها واستطابتها من معادنها المشهورة كالبلدين المذكورين وأذرعات وأندرين وغيرها ، شاع ذلك في الرجال والنساء . وسيمر بك عند الكلام على عكاظ أن امرأة أرسلها زوجها إلى عكاظ بسمن ومعهما راحلتان فشربت الخمر بثمر السمن فاستطابتها ثم باعت راحلتها فشربت بثمرها ثم رهنّت ابن الرجل وشربت أيضاً^(٢) .

(١) قال أحمد : « ومن غريب ما ورثه العرب عن المحورانيين ونقلوه إلى شبه جزيرتهم أيضاً إقامة الأسواق والجمعيات للعلم والتجارة والمنافرة فكانت أشبه بالجامع العلمية والمعارض العمرانية » - مجلة الجمع العلمي العربي ١٠٠/١
قلت : والظاهر العكس ، فإن المحورانيين عرب نزحوا إلى العراق من شبه الجزيرة فعملوا معهم كثيراً من طرق معاشهم السابقة ومن نظمهم وأعرافهم .
(٢) وأبعد من هذا الخبر في الغرابة والطرافة ما رواه القاضي في أماليه (١: ١٥٠) -

ونحن نعلم أن كثيراً من الشعراء والفتيان كانوا يتمدحون بالإففاق
على الخمر والتردد على أصحاب الحوانيت والجلوس إليهم ، واذكر إن
شئت أبيات عنتره :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم

= قال : استرى أعرابي خمرأ بجزة صوف فغضبت عليه امرأته فأنشأ يقول :

غضبت عليّ لأن شربت بصوف ولئن غضبت لأشربن بخروف
ولئن غضبت لأشربن بنعجة دهاء مألثة الإناه سعوف
ولئن غضبت لأشربن بناقة كوما نامية العظام صفوف
ولئن غضبت لأشربن بواحدى ولأجعلن الصبر منه حليفي

الدهاء : سقراء خفيفة الشقرة إلى سواد . والسعوف : التي لها طبقتان
من الشمع . والكوما : الناقة العظيمة السنام ، وناوية العظام : سميتها .
والصفوف : التي تصف رجلها عند الحلب . والسابع : الفرس .

فيذكر ابن الأنباري - في إحدى رواياته - أن امرأته أسفقت على
رحيدها وخففت من غلوائها وأباحته أن يتلف في الخمر ماشاء الأولدها ، قالت له :

ما إن عتبت لأن شربت بصوفة أو أن تلذ بلقحة وخروف
فاشرب بكل نفيسة أو تيتها وملكتها من تالد وطريف
وارفع بطرفك عن بني فإنه من دونه شغب وجدع أنوف

انظر شرح شواهد المغني ص ٢٠٧ (المطبعة البهية بصر) وفي حاشية
الدسوقي على المغني أن من الايات الاولى :

ولقد شربت الخمر في حانوتها صفراء صافية بأرض الريف
ولقد شهدت الحيل تقرر بالثنا فأجبت صوت الصارخ الملهوف

بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر في الشمال مفدّم
فإذا شربت فإنني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم...^(١)
أو قول الأعشى : « وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني . الخ »

والظاهر أن حب الحمرة تغلغل في نفوس عامة العرب وغمرت
بحوائيتها أسواقهم وعكفوا عليها حتى ما يستطيعون لها تركاً . وإن
الأعشى الشاعر هذا ، أراد أن يقصد النبي ﷺ بالمدينة فيسلم ،
وأشفق مشركو مكة من هذا السلاح أن ينضم للإسلام فصددوه عن
وجهه ذاك ، وكان أقوى عامل في رده ما أخبروه من أن الاسلام يحرم
الحمرة ، ولم يكن بالشاعر قدرة على تركها فصرفه ذلك عن قصده وقفل
راجعاً ، فأدر كته المنية ولم يكتب له الايمان^(٢) . وخير ما نستدل به على
استفاضتها في أسواقهم وإدمانهم لها أن الأخباريين يعدون في الجاهلية

(١) الهواجر جمع هاجرة : وهي حر نصف النهار . والمشوف : الإناء المجاؤ
والمعلم : ما عليه علامة . والأزهر : الأبيض ، ويعني به الأبريق . المفدّم : ما عليه
الفدام وهي المصفاة .

(٢) فكان الظرفاء من الغتيان إذا أرادوا الشراب خرجوا إلى قبره وأدار
الساقى عليهم الكأس وجعل قبر الأعشى أحد الشراب ، فكان إذا بلغه أراق الكأس عليه
يصبون الخمر على قبره إذ قال لما أخبره أبو سفيان بأن محمداً يحرم عليه الخمر :
« أرجع إلى البامة فأشبع من الخمر » - انظر الاغانى ١٢٧/٩

كلها أشخاصاً لا يبلغون العشرين حرّموا على أنفسهم الخمر^(١) فتميزوا

(١) روى القالي في أماليه ، (١ : ٢٠٤) :

« حرّم رجال الخمر في الجاهلية تكرماً وصيانة لأنفسهم ، منهم عامر بن الظرب بن ... بن قيس بن عيلان وقال في ذلك :

سألت لافقي مالميس في بسده ذهابة بعقول القوم والمال
أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى يفرّق ترب القبر أوصالي
مورثة القوم أضفاناً بلا إحسن مزرية بالافقي ذي النجدة الحالي
وحرّم قيس بن عاصم الخمر وقال في ذلك :

لعمرك إن الخمر مادمت شارباً لسالبة مالي ومذهبة عقلي
وتاركني من الضعاف قواهم ومورثني حرب الصديق بلا قبل
وحرّم صفوان بن أمية الكناني الخمر في الجاهلية وقال في ذلك :

رأيت الخمر حالحة وفيها مناقب تفسد الرجل الكريم
فلا والله أشربها حياتي ولا أضفي بها أبداً سقيماً
وحرّم عفيف بن معد يكرب عم الأصم بن قيس الخمر وقال :

وقائلة هلمّ إلى التصابي فقلت عفت عما فعلميني
وودعت القداح وقد أواني بها في الدهر مشغوفاً رهيناً
وحرمت الخمر عـليّ حتى أكون بقعر ملحود دفيناً
وقال أيضاً :

فلا والله لا أفنى وشرباً أفازعهم شراباً ما حيت
أبى لي ذاك آباء كرام وأخوال بعزهم ربيت
وحرّم سويد بن عدي الطائي ثم المعني الخمر وأدرك الإسلام فقال :

تركت الشمر واستبدلت منه إذا داعي منادي الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريك وودعت المدامة والتدامي
وحرمت الخمر وقد أراني بها سداً وإن كانت حراماً اهـ .

بهذا الوصف من سائر العرب ، ولم يكن لتمييزهم هذا من قيمة لولا فشوها في قبائل العرب فشواً قوياً جعلها في حكم الضرورة التي لا مندوحة عنها .

يغشى هذه الأسواق عامة العرب لما تقدم من أن شغل أكثرهم التجارة ومن لم يتاجر قصدوها للكسب والشراء حتى صار غشيان السوق والمشي فيها ، هما والاتجار ألفاظ مترادفة ، ففي البخاري :

« استأذن أبو موسى على عمر فلم يؤذن له فرجع ، ففرغ عمر فقال : « ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس ؟ ائذنوا له . » قيل : « قد

= التبل : النار . وقوله أقسمت بالله أسقيها : يريد لا أسقيها . وكذلك فلا والله أشربها : أي لا أشربها . والمملوحود : القبر . والسدك : المولع بالشيء .

وزيد السيوطي على هؤلاء : عبد المطلب بن هاشم وعبد الله بن جدهمان وشيبة بن ربيعة وورقة بن نوفل . والوليد بن المغيرة وعفيف بن معد يكرب ويقال هو أول من حرّمها وقيل : (أولهم عامر بن الظرب) ، وعباس بن مرداس وأبو بكر وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون وعبد الرحمن بن عوف - شرح شواهد مغني اللبيب ص ٤٤

هذا وقد جاء في الاغانى [٨ : ٣٣٢ دار الكتب] ما يأتي :
« مامات أحد من كبراء قريش في الجاهلية إلا ترك الخمر استحياء بما فيها من الدنس » .

وهذا نص في أن كبراء قريش في الجاهلية كانوا يشربونها جميعاً .

رجع . ، فدعاه فقال (أبو موسى) : « كنا نؤمر بذلك . » فقال عمر : « تأتيني على ذلك بالينة . » فانطلق (أبو موسى) إلى مجلس الأنصار فسألهم فشهد أبو سعيد الخدري ، فقال عمر : « أخني هذا علي من أمر رسول الله ﷺ ؟ ألهاني الصفق في الأسواق . » يعني الخروج إلى التجارة^(١) .

وكان في جملة ما احتج به المشركون على رسول الله ﷺ قولهم : « ... فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك : سل ربك ... فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك عما نراك تبغي ، فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم ، وتلمس المعاش كما تلمس ... الخ^(٢) » وحكى الله عنهم قولهم هذا فقال :

« وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ »^(٣) وقال في المرسلين : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ .. »^(٤) فكفى بالمشي في الأسواق عن التجارة ، ووُصف ﷺ بأنه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخَّاب في الأسواق^(٥) . ولأن العرب لا تحتشد لشيء

(١) صحيح البخاري - طبع ليدن : كتاب البيوع : ٨ (٢) سيرة ابن هشام : ١ : ٢٦٩

(٤) سورة الفرقان ٢٥/٢٠

(٣) سورة الفرقان ٢٥/٧

(٥) البخاري كتاب البيوع (٢٢) . والسخاب : كثير اللفظ والجلبة .

احتشادها في هذه الاسواق ، كان رسول الله ﷺ يقصدها أول دعوته ويعرض نفسه على القبائل في هذه المواسم .

كان أعظم ما يحدو العرب في الجاهلية على قصد تلك الاسواق ما قدمت لك من قيام كثير منها في الأشهر الحرم . ولشيوخ الامن حرمة للشهر ، ولأن مواسم بعض الاسواق كعكاظ ومجنة وذو المجاز تقع في أيام حجبهم وهي أعمر أسواق العرب بمختلف القبائل يأتونها من كل أوب ومعهم خيرات بلادهم وتلك ميزة لا تتمتع بها بلدة غير مكة ولا قوم غير قريش ، وقد امتن الله عليهم بذلك فقال :

« أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ » .^(١)

وقال : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » .^(٢)

وافقت هذه المواسم زمن الحج^(٣) واختلط أمرها بشعائره (فمضى

(١) سورة القصص ٥٧/٢٨ (٢) سورة العنكبوت ٦٧/٢٩

(٣) ما زال الحج الموسم الاكبر للتجارة في الاقطار العربية الكبرى ؛ في أيامه تنشط الحركة التجارية ويكثر البيع والشراء وتستنفد المخازن العريضة بضائعها يستهلكها الحجاج الذين يقصدونها من القاصية أجناساً شتى ، فصينيون وأتراك وبخاريون وفرس وهنود وأفغان وقفقاسيون ومغاربة ... وتمتظم =

وعرقة وعكاظ ومجنة وذو الحجاز مواعيدها مواسم الحج) فإذا انقضىوا من ذي الحجاز ترووا من الماء ونادي بعضهم بعضاً : « ترووا من الماء » لأنه لا ماء بعرقة يومئذ ولا بالمزدلفة ، ولهذا سمي اليوم الثامن من ذي

= منهم الأرباح وتفيض على البلاد عامة سحاب خير وسعة من تنام الى العام . نستوي في ذلك جميع البلدان العربية ، فصر كالشام والعراق كالحجاز لوقوع الاولى على طريق الحاج المغربي ولأن الشام والعراق طريق الحاج المشرقي . ولا تسأل عن البجوبة التي يرتع فيها أهل الحجاز في موسم الحج إذ تنقطر عليه كل تلك الامم ويربح أهله في هذه الايام القلائل معاش سنتهم كلها .

بقي الامر على هذا حتى عهد قريب ، إذ انقطع بحاول الحمة الكبرى ببلاد العرب : فوزعت بين الفرنجة ، وانحجز الحجاج عن ورود هذه الاقطار لأن الحاج المغربي أو المشرقي يمر على دول كثيرة قبل أن يصل الى الحجاز . فإن كان معه فضل من مال استنزفته تلك الدول فلا يصل الى الحجاز إلا ببلغة لا تكاد تكفيه وحده ؛ فيضطر المسكين الى أن يسلم أمره الى الشركات الاجنبية التي نصبها دولها لتمص دم الحجاج وتسلبهم أموالهم وتذيقهم الموت ألواناً . فحزمت بذلك بلادنا من موارد وأرزاق عدا ما خسرت من المنافع الاجتماعية . فمات العراق كما مات الحجاز وماتت الشام منذ نصب هذا المعين . ثم عكف الاجنبي على ما بقي في البلاد من آثاره خير يتمششها ويتعرفها حتى جردت الارض وصوَّح النبت فماتت من قائم ولا حصيد :

أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد

كتبناهذا في الطبعة الاولى سنة ١٩٣٦م أما الآن وقد انقضت خمس وعشرون سنة وأجلى الله العدو عن بلاد الشام ومصر والأمل كبير في تحرر بقية الاقطار فعسى أن يعود للبلاد العربية ازدهارها ورخاؤها ووحدها ، فيضرب في أقطارها حجاج جميع الامم والشعوب آمنين مطمئنين فيعود لها رونقها ونشاطها الاقتصادي .

الحجة يوم التروية . وكانوا في الجاهلية لا يتبايعون في منى ولا في عرفة ، يخصون هذين المكانين بالحج الخالص ، لا يخلطونه ببيع ولا شراء ؛ فلما جاء الاسلام فكانهم تأثموا أن يتجروا في المواسم فأنزل الله تعالى قوله :

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » ^(١)
وزاد ابن عباس في قراءته « في مَوَاسِمِ الْحَجِّ » ، والفضل هو الرزق والكسب والاتجار ، وكذلك كان يتلوها أبي تلاوة ^(٢) .

* * *

والغريب أن هذه الاسواق ، كما يقصدها طالب الربح والشراء ،

(١) سورة البقرة ٢ الآية ١٩٨

(٢) انظر البخاري كتاب البيوع ٥ وكتاب الحج . ومعجم الطبراني الكبير المجلد الثالث وأخبار مكة للأزرقي ص ١٢٠ وتفسير الحازن . نقل في هذا التفسير عن أبي أمامة التيمي قال :

« كنت أكرى في هذا الوجه ، وكان الناس يقولون لي : « إنه ليس لك حج » فقلت ابن عمر فقلت له : « إني رجل أكرى في هذا الوجه وإن أنا ما يقولون لي ليس لك حج » فقال ابن عمر : « أليس تحرم وتلي وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمي الجمار ... ؟ »

فقلت : « بلى » قال : « فإن لك حجاً : جاء رجل الى رسول الله ﷺ فسأله عن مثل الذي سألتني عنه فسكت رسول الله ﷺ حتى نزلت هذه الآية : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » الآية ، فأرسل اليه رسول الله ﷺ وقرأها عليه وقال . « لك حج . » اهـ .

يقصدها طالب الامن والفداء ، فكم أوى اليها من خائف يطلب من
يجيره فيجده ويلجأ إليه ويأمن ، وكم من رجل حمل معه فداء أسيره
فقكه من أسره . وكم من سادات تحملوا ديات ودماء فكانوا سبب الصلح
بين قبيلين كبيرين ، بل إننا لنسمع فيها منادين ينادون ذوي الحاجات
لتقضى حاجاتهم ، كما نرى فيها أمراء ورسل ملوك يقصدونها لأخذ مالهم
على بعض القبائل من إتاوات وغرامات كل سنة فموعدهم بها أيام المواسم .
وإذ أن أكثر هذه الاسواق حولية تقوم أياماً معلومات في كل
عام ، كان من المعقول أن تكون ميداناً لغير البيع والشراء ، كان فيها
تناشد أشعار ، وكان فيها تفاخر وتكاثر ، وتنافر ومقارعة ومعاظمة ..
فيفوز في هذا أقوام ويخسر آخرون ، وتحتفل العرب لها بالاحتفال
اللائق بها . وكان لهم حكام معلومون يفضون المشاكل بين القبائل ^(١) ،
ولهم محكمون يحكم إليهم الناس في مفاخراتهم وأشعارهم ، كما لهم في
هذه الاسواق خطباء .

(١) قال الفيروزبادي : « حكام العرب في الجاهلية : أكرم بن صيفي
وحاجب بن زرارة والافرع بن حابس وربيعه بن مخاشن وخمرة بن خمره لتيم
وعامر بن الظرب ، وغيلان بن سلمة لقيس ، وعبد المطلب وأبو طالب والمعاصي
ابن وائل والملاء بن حارثة لقريش ، وربيعه بن حذار لأسد ، ويعمر الشداخ
وصفوان بن أمية وسلمى بن نوفل لكنانة . اهـ انظر في القاموس وشرحه مادة
(حكم) .

يغشى الناس الاسواق إذا لمآرب شتى ، وغايات متباينة ، فمن طالب قاتل أيه يريد ليعرفه حتى يتربص به السوء فيما بعد ، ومن ملتزم حماية شريف من عدوآله ، ومن باغر زوجاً ، أو مستطيل بعز ومنعة ، أو جالس ليأتيه أتباعه يأتاوة ، ومن عارض سلب قتل لبيعه فيظفر به أهل القتل ، ومن فرسان يتقنعون ، بعضهم حذراً من غدر أهل التارات ، وآخرون يردون مقنعين خوفاً من العين وحذراً على أنفسهم من النساء الجمالهم^(١) ، ومن بغايا ضرب عليهن القباب ، وشبان يتعرضون للمبرقات من النساء إلى آخر ما هناك مما سيمر بك مفصلاً وخاصة عند الكلام على عكاظ .

ولا يقل شأناً عن النشاط التجاري في أسواقنا تلك ، أثر هذا الاختلاط في اللغة والدين والعادات ، فإن قيام قريش عليها الاعوام الطويلة قبل البعثة ، مكنها من أن تتبوأ في اللغة المكان الاعلى ، لأن لغات القبائل عامة يمينها وعمانيها وشاميها وعراقيها ونجديها وتهاميها . تطرق مسامعها على الدوام فتختار منها ما يحسن ، وتنفي ما يقبح . وقامت على هذا الاصطفاء زمناً كافياً حتى خلصت لها هذه اللغة الممتازة ،

(١) عد ابو الفرج الاصفهاني من هؤلاء : وضاح اليمن والمقنع الكندي وأباز بيد الطائي - الاغانى ٣١/٦ طبعة السامي .

وتحيات لينزل بها القرآن الكريم على أفصح وجه وأبلغه وأتمه كلاً
وسلاسة وجمالاً .

وكان الشعراء الذين ينظمون لينشدوا بعكاظ ، يتوخون اللغة
المجمع على فصاحتها ، والتي صار لها من النفوذ والشيوع ما للغات العامة
اليوم ، فكان لهجة قريش هي اللهجة الرسمية بين لهجات الجزيرة كلها
حتى اليمن والحيرة وغسان^(١) .

أما العادات فما أمرها بالذي يحتاج إلى شرح وتبيين ؛ فإن كل
اختلاط بين فريقين لا بد أن ينتهي بأثر في كل منهما ، فاليمني يقبس
شيئاً من أخلاق الحجازي ، والنجدي يحمل ألواناً من عادات العماني
أو الحيري ... وهلم جرا .

وكذلك قل في الدين ، بل إن أثر هذا الاختلاط في الدين أبلغ ،
لقيام الجميع بمناسك واحدة يؤمهم فيها قريش أهل الحرم^(٢) .

(١) لكن هناك أسواقاً على الحدود في شمال الجزيرة كانت مسارب لكثير
من الدخيل والمغرب ، ثم لفساد اللغة حول عهد الفتوح كسوق الابلّة وسوق
الانبار وسوق الحيرة .

(٢) ليست هذه الظاهرة (الجمع بين الأهداف الدينية والتجارية) قاصرة
على أهل الجزيرة ولا على زمن الجاهلية ، بل تكاد تكون سمة عامة في الحضرة
والبدو حتى هذه الأيام : فازدهار القدس في أعياد الميلاد بالزوار والتجار ، ومواسم =

فأعظم آثار الاسواق قبل البعثة هو هذا التوحيد الذي جرى بين القبائل العربية من عامة الاقطار . وأريد أن أنه بصورة خاصة إلى التوحيد اللغوي ، الذي كان للشعراء والحكام فيه على مدى سنين متطاولة أبلغ الأثر ، في انتقاء الالفاظ والأساليب وشيوعها بوساطة الرواة في القبائل ، وإذا شئت أن أختصر ذلك كله بكلمة واحدة قلت : إن نهضة الشعر مدينة للأسواق ، بل مدينة لعكاظ خاصة . عرف لها هذا الامر منذ الجاهلية حتى اليوم .

فلما كان الاسلام ضعف الشعر ، وانصرف العرب إلى الفتوح ، واشتغلوا بالقرآن والسنة وفهم أحكام الشريعة ، فضول أمر عكاظ وخمل ذكرها ، وانقضى عصر الفتوح وليس لعكاظ عشر شأنها

= العبادة والتجارة معاً في الحجاز أيام الحج أشهر من أن يحصى . بل قرأت عن أسواق (غواتجالا) الآن بما يشبه ما كان يجري في أسواق العرب في الجاهلية وقد جعل يوم الاحد فيها هو يوم السوق ويؤمها المنود في ذلك اليوم من الجهات المجاورة حتى مسافة خمسين ميلاً من أجل التجارة والعبادة في وقت واحد ، ويقول المشاهد إن يوماً واحداً تقضيه في هذا المكان حيث تلتقي التجارة والعبادة في صعيد واحد سيكسبك إحساساً وفهماً للتاريخ البشري أكثر مما تجنيه من مطالعة مئة مجلد في علم حياة الانسان ، - من مقال (تقرير عن الفردوس) فيه وصف مسهب لاسواق غواتجالا نشرته مجلة المختار (الترجمة العربية ، عدد ديسمبر ١٩٤٤)

الاول ... حتى إذا أنشئ المربد استمر أمر عكاظ على التناقص ،
وأخذ مربد البصرة يحل مكانها ويتم رسالتها في الادب والشعر ؛ بل
زاد عليها بما استجد الاسلام وحالة العرب الاجتماعية المتحضرة ، من
صنوف في الادب وألوان في المعاش والاجتماع .

وأصبح المربد مرتاداً لعلوم الأدب والنحو واللغة والأخبار
والنوادير ... يأخذون عن أعرابه الذين لم تخالطهم لوثة العجمة ،
ما يجعلون منه مادة علمهم وينبوع ثقافتهم .

ولما رسخت قدم المسلمين في المدينة ، وتمت لهم المدن الكبرى
والعواسم العظيمة المتناهية في الحضارة ؛ أفل نجم هذه الاسواق إذ لم
يعد لها من داع . وكانت لم تزل قائمة في الاسلام وعاشت ما يزيد على
مئتي سنة . فعكاظ التي أنشئت قبل الهجرة بأكثر من سبعين عاماً .
أهملت سنة ١٢٩ للهجرة ، وآخر ما انقرض من الاسواق سوق حباشة .
تركت عام ١٩٧ للهجرة .

وقد آن لنا بعد هذه المقدمة أن نعرض لك معلومات عن أشهر
الاسواق في الجاهلية والاسلام ، متوسعين ما أمكننا التوسع ، في
الكلام على عكاظ في الجاهلية وعلى المربد في الاسلام ، إذ هما أعظم
سوقين قامتا للعرب . في الاولى ترى أحوال الجاهلية من عامة نواحيها

في بيعها وشرائها ودينها واجتماعها وسياساتها وحربها وسلمها ، وفخرها وأدبها ولغتها وشعرها وعاداتها . وقد حرصت على أن أحافظ على عبارة كبار المؤلفين الذين استقيمت هذه المعلومات من كتبهم كالأصفهاني والطبري وابن عبد ربه وابن سعد وابن هشام ... إلا ما رأيت أن الحاجة تضطرني فيه إلى شيء من التعديل يسير ، وفي الثانية ترى كذلك أحوال العرب في الاسلام بالتفصيل المتقدم . واعلم أن حوادث المربد التي سأعرضها عليك يختلف زمن وقوعها بين سنة ست وثلاثين للهجرة وأواخر القرن الثاني الهجري .

لسنا نجد اتفاقاً بين قدامى المؤلفين في عدد هذه الاسواق ولا في تحديد أزمنتها ، فيينا نرى القلقشندي (في صبح الأعشى) يعدها ثمانية (١ / ٤١٠) نرى اليعقوبي في تاريخه (١ / ٣١٣ ، ٣١٤) والبغدادى في خزانته (٤ / ٣٦٠ السلفية) يعدانها عشراً ، ثم يختلفان عليها فيذكر كل منهما بعضاً ويترك بعضاً . وجعلها التوحيدي في (الإمتاع والمؤانسة ١ / ٨٥) إحدى عشرة ، بينما نراها عند المرزوقي تبلغ سبع عشرة سوقاً (الازمنة والامكنة) . ثم يأتي الالوسي فيذكر منها في بلوغ الأرب أربع عشرة .

وأقدم المؤلفين وهو محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٦٨ هـ صاحب

كتاب (المحبر) عدد منها اثنتي عشرة^(١).

أما الهمداني فنحن معه في حيرة لأنه يقول في كتابه صفة جزيرة العرب (ص ١٧٩) : « أسواق العرب القديمة وقد ذكرناها : عدن ، مكة ، الجند ، نجران ، ذو المجاز ، عكاظ ، بدر ، مجنة ، مني ، حبر ، اليمامة ، هجر البحرين ، الروض ، روضة دعيمي ، روضة الاجداد ... الخ ثم يسرد أعلاماً تبلغ الخمسين .

فطالعت الكتاب المطبوع كله فلم أجد للأسواق التي قال إنه ذكرها - ذكراً أبدأ .

ولما رجعت إلى ياقوت في كثير من هذه الاعلام لم أجد لها ذكراً البتة . فأيقنت في نفسي أن في هذه الطبعة تشويشاً فإن عدّه الاسواق ينتهي في السطر الثاني عند قوله (هجر البحرين) ثم يستأنف كلاماً

(١) نشر هذا الكتاب بعد صدور طبعتنا الاولى بسنوات وكان الفضل في اطلاعي على فصل أسواق العرب من كتابه المحبر حين صدور الطبعة الاولى من كتابنا هذا ، لصديقي المستشرق المرحوم (كرنكو) إذ ارسل الي الفصل مصوراً سنة ١٩٣٧ م ففقد مني ثم ارسله اليّ بخطه بعد أن نشره بمطبعة حيدر آباد سنة سنة ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م . ولم يبعد صديقي حين كتب اليّ يقول : « إن أصل هذه الأخبار (يعني أخبار أسواق العرب) كلها باب في كتاب المحبر لمحمد بن حبيب في النسخة الوحيدة المحفوظة في المتحف البريطاني » و « لاشك بأن المرزوقي مرق عباراته منه فزاد أشياء غير مهمة . »

جديداً عن الرياض بادئاً بروضة دعمي ثم ينتقل خلاله إلى المياه ،
وجميع هذه في الكتاب المطبوع ذكرت تحت عنوان (أسواق العرب) ،
وكان على الناشر (المستشرق الاوروي) أن يتنبه إلى تغير البحث
فيفرد كل بحث تحت عنوان خاص ولا يحشرها جميعاً في جريدة الاسواق .
وسنذكر لك في هذا الكتاب الاسواق المهمة التي ترحل إليها
العرب حاذفين منها مالا خطر له وقد بلغنا بها العشرين سوقاً .

نستطيع أن نقسم هذه الاسواق أقساماً ثلاثة :

١ - أسواق خاضعة لنفوذ أجنبي تدار بنظم خاصة وتتضاءل فيها
الصبغة العربية كما نرى في الحيرة وهجر البحرين وعمان وغيرها من
المواطن التي ترين عليها السيطرة الفارسية ، وكما نرى في بصرى وأذرعات
وغزة وأيلة وغيرها مما يدار بالادارة الرومانية . والذي ينظر في هذه
الاسواق عمال عرب يعينهم ولالة الفرس وولالة الرومان وهؤلاء العمال
الذين يتولون السوق هم الذين إليهم أعشار أهلها .

٢ - أسواق أنشأها العرب أنفسهم بحكم الحاجة فصارت مع الزمن
تمثلهم أصدق تمثيل في عاداتهم في البيع والشراء والخصام والدين
والزواج والحقوق ... ولا يشرف عليها إلا سراة أهلها . وهي مرآة
العرب في الجاهلية وبها نستطيع أن نعرف ما كان عليه العرب تقريباً في

معاملتهم وعلاقتهم بعضهم ببعض : وهي في أماكن لا أثر للنفوذ الاجنبي عليها ، وتمثل لهذا القسم بعكاظ . ولا عاشر في هذا القسم فهو منطقة حرة ، والعرب يتبايعون فيه ببذوع خاصة بهم .

٣- أسواق ذات صبغة مختلطة نظراً لموقعها الجغرافي وهي التي تكون على البحر كمدن وصحار ودبي . . وفي هذه يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس ويضؤل فيها الطابع القومي بمقدار ما يقوى شأنها التجاري .

ومن الواجب أن ننبه هنا إلى أن أسواقاً كثيرة كانت ولم يذكرها المؤلفون لأنهم اقتصروا على الاسواق الموسمية التي تكون من العام إلى قابل والتي تقصد من بعيد ، إذ من البديهي أن كل بلدة لها سوق ولها متاع او محصول تختص به ، ومن القريب جداً أن يكون لكل قبيلة أو قبائل متجاورة سوق محلية^(١) تقوم في وقت معين ، فكثيراً ما نجد حول كل ماء سوقاً صغيرة يقيمها الضاريون حوله كما نجد مثل

(١) مثل (بدر) حيث وقعت غزوة بدر الكبرى ، فبدر هذه موسم من مواسم العرب المحلية تقوم السوق قرب ماء هناك . ونحن نجد في كتب السيرة أن أبا سفيان وأعد المسلمين عقب غزوة أحد أن يوافيهم ببدر من العام المقبل ، فلما كان الموعد حضر المسلمون ونكل المشركون وبقي الرسول ينتظرهم ثمانية أيام ، فأقام المسلمون موسماً تجارياً ببدر ورجعوا ثم عادوا إلى المدينة فرحين بانتصارهم إذ خافهم عدوهم فلم يحضر ، وبربح تجارتهم فأصبحوا غانمين مهيين .

ذلك في المحطات الصغرى التي تكون بين البلد والبلد وكما نجد أيضاً في كل مكان يسميه العرب روضة .

وإنما عني العلماء بالأسواق الكبرى العامة ولم يأبهوا لتلك الأسواق الضئيلة بل إنهم أهملوا أسواقاً كبرى تكون في المدن لأنها لا يرسل إليها إلا القليل منهم من صاحب حاجة أو غرض خاص . فنجدهم أغفلوا مثلاً ذكر (دارين) وهي فرضة بالبحرين بها سوق يحمل المسك من الهند إليها . واشتهرت هذه شهرة فائقة بتجارة العطر حتى صار معنى الداري (نسبة إلى دارين) هو العطار نفسه ، وحتى جاء في الحديث : « مثل المجلس الصالح مثل الداري ، إن لم يحذك (يُعْطِك) من عطره علقك من ريحه . » قالوا : « الدراي العطار . » وقال الشاعر :

فلما اجتمعنا في العاللي بيننا ذكي أتى من أهل دارين تاجره
وهناك أمتعة اشتهرت بتجويدها قرى مخصوصة كدِينَه وهي
قرية على شط البحر في المشرق تنسب إليها الرماح فيقال الردينيات
للرماح المصنوعة هناك كما يقال للرماح المصنوعة في الحُط بالبحرين :
(الخطية) .

فلا شك أن مثل هذه الأماكن المشهورة يقصدها تجار هذا الصنف أو الراغبون فيه ، وتقوم له شبه أسواق دائمة إلا أنها غير عامة

وهي قاصرة على ضرب واحد فقط ، فلهذا لم يعباها المؤلفون .
ثم نجدهم أغفلوا مواضع مهمة تقوم فيها أسواق ربما لا تقل شأنًا
عن التي أفردوها بالذكر ، كالطائف وكأسواق العراق وكالسوق التي
يقيمها النبط في المدينة أحياناً . فإننا نعلم أن الطائف مدينة قديمة جاهلية
وهي « بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة » ولأهلها زراعة
وتجارة وغنى ، وربما قاربوا قریشاً في شأنها التجاري . أما العراق
فالظاهر أن للعرب فيها أسواقاً ^(١) يدخلون إليها كما يدخلون إلى التي في الشام
وخصوصاً الحيرة فإن شهرتها في تاريخ العرب وأدبهم تنم عن مكانتها
التجارية . ولقریش رحلات إلى سوق الحيرة وفيها تعلموا الكتابة
ومنها انتشرت في العرب . وصاحبها النعمان يجهز سنوياً لطائمه إلى
عكاظ وإلى اليمن - حتى إننا لنجد في بعض النصوص ما يدل على أن
ضرائب منظمة تستوفي في أسواق العراق مما يباع قال الشاعر :

(١) نرى في المصادر القديمة ذكر أسواق بغداد أيام الفتح الإسلامي ، ولعل
المدينة أنشئت حيث تقام هذه السوق أو بالقرب منها ثم حملت اسم السوق
القديمة (بغداد) . فقد ذكر الطبري في حوادث سنة (٧٦) أن شبيباً الخارجي
أقبل « حتى قطع دجلة عند الكرخ وبعث إلى سوق بغداد فأمنهم ، وذلك اليوم
يوم سوقهم ، وكان بلغه أنهم يخافونه فأحب أن يؤمنهم ، وكان أصحابه يريدون
أن يشتروا من السوق دواب وثياباً وأشياء ليس لهم منها بد . » ثم أخذهم نحو الكوفة ...
الخ - تاريخ الطبري ٧/ ٢٣٠ ، ٢٣١ الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية .

أفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
قال صاحب المخصص^(١) : « المكس انتقاص الثمن في البيعة
ومنه أخذت الماكسة لأنه يستنقصه . » وقيل : « المكس دراهم كانت
تؤخذ من بائع السلع في أسواق الجاهلية . ويقال للعشار صاحب
المكس . » اهـ

أهملوا كل هذا كما أهملوا أسواقاً ثانوية تقام في نجران وبدرومني
وأمثالها كثير لما قدمنا من فقدان الصبغة العامة فيها .
وهذه جرائد بأسماء الأسواق وترتيبها عند كل من المؤلفين
الثانية الذين أشرت اليهم آنفاً^(٢) وكلها تبدأ بسوق دومة الجندل في
ربيع الاول، مع ذكر مواعيتها إن كان لها مواعيت وذكر عاشرها الذي
يجبي الضرائب فيها إن كان لها عاشر .

(١) ١٢ : ١٥٣

(٢) لابن الكلبي : كتاب أسواق العرب - انظر ص ٧٧ من كتابه
« الاصنام » طبع دار الكتب المصرية .

١ - الحبر : لمحمد بن صبيب المتوفى سنة ٢٦٨ هـ

السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١ دومة الجندل	١٥ - ربيع الاول [وتمتد الى آخره]	أكيدر أو قنافة الكاوي
٢ المشقر	جمادى الآخرة كله	بنو عبد الله بن زيد من تيم رهط المنذر بن ساوى
٣ صُحار	١ - ٥ رجب	الجلندي بن المستكبر
٤ دبي	آخر رجب	» » »
٥ الشحر	١٥ شعبان	
٦ عدن	١ - ١٠ رمضان	الأبناء من الفرس
٧ صنعاء	١٥ - ٣٠ رمضان	» » »
٨ رابية حضرموت	١٥ - ٣٠ ذي القعدة	
٩ عكاظ	١٥ - ٣٠ ذي القعدة	
١٠ ذو الحجاز	١ - ٨ ذي الحجة	
١١ نطاة خيبر	١٠ - ٢٠ المحرم	
١٢ حجر اليمامة	١٠ - ٢٠ المحرم	

٢ - البغوي التوفي سنة ٢٧٨ هـ -

السوق	الزمن	الوالي او العاشر
١ دومة الجندل	ربيع الاول	غسان أو كلب
٢ المشقر	جمادى الاولى	تيمم : رهط المنذر بن ساوى
٣ صحار	١ رجب	
٤ دني		الجلندى
٥ الشحر		مهرة
٦ عدن	١ رمضان	
٧ صنعاء	١٥ رمضان	الأبناء
٨ حضرموت		كندة
٩ عكاظ		
١٠ ذو المجاز		

٣- صفوة جزيرة العرب : للمرحوم أبي المنوفى سنة ٣٣٤ هـ

السوق	الزمن	العاشر
١	عدن	
٢	مكة	
٣	الجنند	
٤	نجران	
٥	ذو المجاز	
٦	عكاظ	
٧	بدر	
٨	محنة	
٩	منى	
١٠	حجر اليمامة	
١١	هجر البحرين	

٤ - ارمناغ والمؤانسة (٨٥/١) :

لأبي حيان التوحيدي المتوفى نحو سنة ٥٤٠٠

السوق الزمن الوالي أو العاشر

١ - دومة الجندل ربيع الأول كله أكيذر دومة [أو أحدرؤساء

كلب حين يغلبون على السوق]

٢ - هجر (المشقر) ربيع الآخر المنذر بن ساوى

٣ - دبي (من قرى عمان)

٤ - صُحار (»)

٥ - آدم^(١) (قرب عدن)

والشحر (بين عدن وعمان)

٦ - عدن أبين

٧ - رابية حضرموت

٨ - صنعاء

٩ - عكاظ

١٠ - ذو المجاز

(١) في الأصل : إدم ، وفسرها الناشران الفاضلان نقلاً عن صفة جزيرة

العرب بأنها فلاة قرب عدن ، ولعل ذلك تصحيف .

٥ - المؤرّضة والامكنة : للممزروقي المتوفى سنة ٤٢١ هـ

السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١ دومة الجندل	ربيع الأول	أكيدر (وأحياناً) قنافة الكلابي
٢ المشقر	٣٠ جمادى الآخرة	بنو عبد الله بن زيد: رهط المنذر بن صاوي
٣ صحار	١ رجب	الجلندى
٤ دبي	٣٠ رجب	«
٥ الشحر	١٥ شعبان	
٦ عدن	١ - ١٠ رمضان	الابناء
٧ صنعاء	١٥ - ٣٠	«
٨ حضرموت	١٥ ذي القعدة	
٩ عكاظ	١٥	«
١٠ ذو الحجاز	١ - ٨ ذي الحجة	
١١ مجنة		
١٢ نطاة خير		
١٣ حجر		
١٤ بصرى	بعد الحج	
١٥ دير أيوب	بعد سوق بصرى بـ ٣٠ - ٤٠ ليلة	
١٦ أذرعات		
١٧ الأسقي		

٦ - صبح الـعُشَى : للقلقُسُنري المتوفى سنة ٥٨٢١هـ

السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١ دومة الجندل	١ ربيع الأول	أكيدر أو رؤساء كلب
٢ هجر	ربيع الآخر	المنذر بن ساوى
٣ عمان		
٤ آدم وقرى الشجر		
٥ عدن		
٦ حضرموت		
٧ صنعاء		
٨ عكاظ		

٧ - فهرسة الادب : للبغدادي المتوفى سنة ٥١٠٩٣ هـ
[نقلاً عن صاحب قبائل العرب]

السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١ دومة الجندل	١ - ١٥ ربيع الأول	
٢ المشقر	١ جمادى الآخرة	
٣ صحار	١٠ - ١٥ رجب	
٤ الشحر	١٥ شعبان	
٥ صنعاء	١٥ رمضان	
٦ حضرموت	١٥ من ذي القعدة	
٧ عكاظ	١٥ - ٣٠ »	
٨ ذوالمجاز	١ - ٨ من ذي الحجة	
٩ نطاة خيبر		
١٠ حَجَر	١٠ - ٣٠ المحرم	

٨ - بلوغ العرب : للأندلسي المنوفى سنة ١٣٤٢ هـ

<u>السوق</u>	<u>الزمن</u>	<u>الوالي أو العاشر</u>
١ دومة الجندل	ربيع الأول	
٢ هجر	ربيع الثاني	
٣ عمان	جمادى الاولى	
٤ المشقر	جمادى الثانية	
٥ حباشة	رجب	
٦ صحار	١٠ - ١٥ رجب	
٧ الشحر	شعبان	
٨ عدن	١ - ١٥ رمضان	
٩ صنعاء	١٥ - ٣٠ »	
١٠ عكاظ	١ - ٢٠ من ذي القعدة	
١١ حضرموت	ذوالقعدة	
١٢ مجنة	٢٠ - ٣٠ من ذي القعدة	
١٣ ذو المجاز	الأول من ذي الحجة	

فهذه ست وعشرون سوقاً ، فإذا حذفنا منها خمساً انفر د بها الحمداني وهي : بدر والجند ومكة ومنى ونجران ، واثنين انفر د بإحداهما المرزوقي وهي الأسقى والثانية شاركه فيها التوحيدي وهي سوق آدم ، وأضفنا لها سوقاً مهمة أغفلها كلهم وهي سوق الحيرة وأضفنا كذلك السوق التي أنشئت في الاسلام وهي المربد ، بقي لنا إحدى وعشرون سوقاً سنعرض لها جميعاً بما تقتضيه مكاتها . أما الاسواق الضئيلة الشأن فهي صورة مختصرة عما سنتحدث عنه ، وأما الخطيرة كمكة والمدينة فهي دائمية وليست بموسمية ، وفي ذكر الاسواق المتاخمة لها غني عن التعرض لها .

هذا ولعل السبب في اختلافهم في تاريخ قيام الاسواق أن العرب لم يكونوا يلتزمون كل سنة يوماً معيناً لإقامة السوق ويوماً لتقويضها ، بل يتقدم هذا اليوم في بعض السنين ويتأخر في بعض وقد يهرع أقوام الى السوق قبيل مياعادها وقد يتخلف آخرون بعد انقضاءها اذالم تنته أعمالهم وقد تختلف العادة سنة عن سنة ، فمن هنا كان هذا التفاوت اليسير . ثم قد نص محمد بن حبيب صاحب المحبر وهو اقدم المؤلفين وأدقهم وأنا الى ارقامه اكثر اطمئناناً ، نص على ان سوقين تقومان في زمن واحد وهما سوق الراية بحضرموت وسوق عكاظ ، فيأخذ بعض العرب الى الأولى وبعض آخر الى الثانية ^(١) .

(١) انظر (المحبر) ص ٢٦٧ (مطبعة حيد آباد الدكن سنة ١٩٤٢ م)

جدول عام لأسواق العرب عند المؤلفين الثمانية

الأسواق		(١) المخبر		(٢) تاريخ اليمقوي		(٣) صفة جزيرة العرب		(٤) الامتاع والمؤانسة	
رتبة على حروف الهجاء		محمد بن حبيب - ٢٦٨ - ٢٦٣		بعد ٢٩١ هـ		للهمداني - ٣٣٤ هـ		للتوحيدي نحو ٤٠٠ هـ	
		٢٦٧ - ٢٦٣		٣١٤ - ٣١٣ : ١				٨٥/١	
الزمن	الزمن	الزمن	الزمن	الزمن	الزمن	الزمن	الزمن	الزمن	الزمن
٥	٥	٥	٥	٥	٥	٥	٥	٥	٥
٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧
٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣
١٠	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠
١٢	١٢	١٢	١٢	١٢	١٢	١٢	١٢	١٢	١٢
٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨
٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤
١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
١٠	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠
٥	٥	٥	٥	٥	٥	٥	٥	٥	٥
٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣
٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧
٦	٦	٦	٦	٦	٦	٦	٦	٦	٦
٩	٩	٩	٩	٩	٩	٩	٩	٩	٩
٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢
١١	١١	١١	١١	١١	١١	١١	١١	١١	١١

ملاحظة : الترتيب عند الهمداني اتفاقي لا بحسب الزمن

دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة^(١) .

وقال ياقوت : « كان فيها قديماً حصن مارد ، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل وقريب منها جبلاطي ، وكانت بهذا الحصن بنو كنانة من كلب . »

وكان أكيدر يبعث بمن يتعرض قوافل التجارة الزاهية بين المدينة والشام ويظلم من يمر بهم من الضافطة (الذين يجلبون الميرة والطعام) ثم قوي شرهم حتى شاع أن في عزمهم الدنو من المدينة وكان ذلك في السنة الخامسة للهجرة ، فندب رسول الله ﷺ الناس ، واستخلف على المدينة ، وخرج في ألف من المسلمين يسير الليل ويكن النهار ومعه دليل من بني عذرة حتى بلغوا دومة الجندل ، ففترقوا وألقى الرعب في قلوبهم ، وأخذ من نعمهم وشأنهم ورجع ولم يلق كيداً . والظاهر أن شرهم لم ينقطع عن تجار المدينة حتى اضطر الرسول إلى أن يرسل إليهم سرية عليها عبد الرحمن بن عوف ، وأوصاه حين دفع إليه اللواء بقوله : « خذه^(٢) يابن عوف فاغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، لا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم . » وقال له : « إن استجابوا لك فتزوج بنت ملكهم . »

(١) الطبقات ص ٦١ (٢) سيرة ابن هشام (٣ : ٤٤٣)

سار عبد الرحمن حتى بلغ دومة الجندل فدعا أهلها إلى الاسلام
فأسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو الكلبي وأسلم معه ناس كثير من قومه
وتزوج عبد الرحمن ابنته (تماضر) وبقي على الجزية هو ومن معه .
إلا أن أكيدر صاحب دومة وعاملها لهرقل بقي على تعرضه
للسابلة من تجار المدينة ، ولعل لمكانة سوق دومة الجندل وكثرة التجار
بها وعدم تعريب أحد من المدينة عليها دخلاً في هذا التعرض الذي
لا يبعد أن يكون للمنافسة التجارية أثر فيه غير قليل . وأراد الرسول
إقرار الأمن في تلك الربوع فدعا خالد بن الوليد وبعثه على رأس
سرية إلى أكيدر هذا ، فلما بلغ الركب ضاحية دومة الجندل وجدوا
صاحبها في نفر من قومه يتصيدون فأسروا أكيدر وقتلوا أخاه
ورجعوا إلى المدينة بأسيرهم ، فحقن له رسول الله ﷺ دمه وصالحه
على الجزية ثم خلى سبيله ورجع إلى بلده وقد كتب له رسول الله
ولأهل دومة هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد رسول الله
لأكيدر ولأهل دومة الجندل : إن لنا الضاحية من الضحّل والبور
والمعامي وأغفال الارض والحلقة والسلاح والحافر والحصن ،
ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور ، ولا تعدل سارحتكم ولا

تعد فاردتكم ولا يحظر عليكم النبات ، تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها ، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ، ولكم به الصدق والوفاء شهد الله ومن حضر من المسلمين ^(١) . »

وهذا الصلح تجاري بنتيجته لما ضمن من منافع للمسلمين ، كما هو تجاري بسببه أيضاً إذ لولا تعرض أهل دومة لمن يجتاز بقربهم — من التجار ما اضطر الرسول إلى إرسال سراياه لتأمين الطريق وتأديب أهل العيث والفساد .

وبقي القوم على صلحهم حتى كانت ستة اثنتي عشرة للهجرة ففتحتها

(١) انظر الواقدي وشرح المواهب للزرقاني ٣ : ٣٦٩

الضاحية : البارز من أطراف الأرض . والضحل : الماء القليل . والبور : الأرض التي لم يؤخذ خراجها . والمعامي وأغفال الأرض : ما لا أثر لهم فيها من عمارة أو نحوها . والحلقة : الدروع والسلاح . والحافر : الحيل والبراذين والخمير . والحصن : دومة الجندل . والضامنة : النخل الذي معهم في الحصن . والمعين : الظاهر من الماء الدائم . ولا تعدل سارحتكم : لا تنهني مواشيكم عن الرعي ولا تحشر إلى المصدق (عامل الزكاة) والفاردة : ما لا تجب فيه الصدقة .

هذا وفهب الواقدي وغيره الى أنه أسلم وأن أول الكتاب : و من محمد رسول الله لا كيد رحين أجاب الى الاسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكتافها : إن لنا الضاحية .. الخ)

وإسلامه لم يصح وقد اغتر بهذه الرواية غير واحد وآخرهم صاحب (مجموعة

الوثائق السياسية) إذ أثبت رواية الواقدي الضعيفة ص ١٦٧

خالد عنوة في خلاقة الصديق وظفر العرب بأكيدر خارج دومة
فأمر خالد بقتله^(١). وكان صاحب صلحهم أكيدر ذا شهرة في قبائل
العرب توازي شهرة حصنه دومة الجندل وشهرة حصن المشقر.
والعرب تنظر الى أصحاب الحصون نظرة إعظام وإعجاب بقوتهم،
ولما ذكر لييد فعل بنات الدهر لم يعظ قومه إلا بأصحاب الحصون.
فكان أكيدر دومة هذا أحد من ضربهم مثلاً فقال :

وأعصفن بالدومي من رأس حصنه وأنزلن بالأسباب رب المشقر
يعني بالدومي أكيدراً ، وذكر دومة الجندل يشغل صفحات غير
قليلة من تاريخ المسلمين لأنه فيها التقى الحكمان عمرو بن العاص
وأبو موسى الأشعري وكان منها ما هو معروف .

* * *

تنزل قبائل العرب في الجاهلية هذه السوق في أول يوم من ربيع
الاول للبيع والشراء وكان يبيعهم فيها يبع الحصاة (وقد تقدم في
الكلام على بيوع الجاهلية) .

ويجاور هذه السوق من قبائل العرب قبيلتا كلب وجديلة طيء .
وكانت كلب أكثر العرب قناً فكانوا يفتحون في هذه السوق حوانيت

(١) تاريخ الطبري ١ : ٢٠٦٥

من شَعَرَ يجعلون فيها عبيدهم وإماءهم . وكانوا - على عادة بعض العرب - يكرهون فيها فتياتهم على البغاء ويأخذون لأنفسهم كسب أولئك البغايا من إماءهم . فلما كان الاسلام وحرّم الله هذه العادة القبيحة بقوله تعالى :

« وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ^(١) »
تنزه العرب عن هذه التجارة التي كانوا عليها في الجاهلية وتجاوز الله عما كان منهم قبل الاسلام .

يشرف على هذا الموسم أمراء من العرب وكان رؤساء السوق غالباً إما من كلب وإما من غسان ، أي الحيين غلب خضع له الآخر ، وكان مكس هذه السوق لمن يشرف عليها قال الألوسي :

« كان أكيدر صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم فتقوم سوقهم الى نصف الشهر . وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشرهم ويتولى امرهم يومئذ بعض رؤساء بني كلب فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر . »

فكان إذن بين أكيدر وقبيلة كلب تنافس شديد على الاستيلاء على هذه السوق ومكسها ، فأكيدر يتولى أمرها حيناً ويعشر من بها ،

والكلي حيناً يستأثر بالحكم فيها والاضطلاع بشؤونها . أما الغريب .
حقاً فهو مذكروه المرزوقي من حل لهذا الخلاف والتطاحن بين
الملكين وهو إن صح - وليس ببعيد - يطلعنا على صورة طريفة من
عقلية القوم وعاداتهم قال :

« وكان ملكها (يعني سوق دومة الجندل) بين أكيدر العبادي
من السكون ، وبين قنافة الكلي . وكان غلبة الملكين بأن يتحاجيا !!
فأيها غلب صاحبه بما يلقي عليه تركه والسوق يفعل بها ما يشاء . ولم
يسع فيها أحد من الشام ولا أهل العراق إلا يأذنه ، ولم يشتر فيها ولم يبيع
حتى يبيع الملك كل شيء يريد يبعه مع ما كان إليه من مكسها^(١) . »

فأنت ترى أن الأمر ذو خطر وفوائد كثيرة يستحق هذا
التطاحن عليه .

يدور نشاط هذه السوق حتى منتصف ربيع الاول وتغص بمن
يؤمها من أطراف الشام ومن العراق وسائر الجزيرة . وهي من الأسواق
الكبرى للعرب حتى إنهم ليلقون في سيرهم إليها نصباً كبيراً لوعورة
الطريق والتعرض للأخطار وفقدان الأمن ، ولا يحملهم على ذلك كله

(١) نقل المرزوقي هذا عن كتاب المجر لمحمد بن حبيب ص ٢٦٣ - ٢٦٤

ولم يعز إليه .

أسواق العرب

أ - في الجاهلية

سوق دومة الجندل

دُومة الجندل ويقال (دوماء الجندل) كلاهما بالضم^(١) ، بلديقع في نقطة متوسطة بين الشام والخليج الفارسي والمدينة ، على منتصف الخط الواصل بين العقبة والبصرة تقريبا . بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة لعدم استقامة الطريق بينهما . وهي في غائط من الارض طوله خمسة فراسخ وفيها حصن « مارد » المشهور ، والى غربها عين تشج فتسقي مابه من النخل والزرع ، وكانت خربة . وروى ابن سعد نقلاً عن بعض أهل الحيرة في سبب بنائها : « أن أكيدر صاحبها وإخوته كانوا ينزلون دومة الحيرة ، وكانوا يزورون أخوالهم من كلب فيتغربون عندهم ، فإنهم لمهمهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا بعض حيطانها وكانت مبنية بالجندل ، فأعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها

(١) ونقل الفتاح فيما صاحب النهاية ، وفي الصحاح أن أصحاب اللغة يضمون وأصحاب الحديث يفتحون . هذا ودومة الجندل هي التي تعرف اليوم - على ما نقل لنا - بـ (الجوف) .

إلا ما تغريهم به هذه السوق من ربح وفائدة قال المرزوقي :
كانت قريش تخرج إليها قاصداً من مكة ، فإن أخذت على الحزن
لم تتخفر بأحد من العرب حتى ترجع ... وكانوا اذا خرجوا من
الحزن أو على الحزن وردوا مياه كلب ، وكانت كلب حلفاء بني تميم ؛
فإذا سفلوا عن ذلك أخذوا في بني أسد حتى يخرجوا على طيء فتعطيهم
وتدلهم على ما أرادوا لأن طيئاً حلفاء بني أسد . فإذا أخذوا طريق
العراق تخفروا ببني عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة فتجيز لهم
ذلك ربيعة كلها ^(١) . »

ثم تفتقر حركتها وتأخذ بالاضمحلال حتى آخر الشهر ، إذ يفترق
أهلها وموعدهم إليها من قابل ، شهر ربيع الاول .

(١) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٦١ والمجهر ص ٢٦٤ وفيه بعد قوله (حلفاء
بني أسد) : وكانت مضر تقول : قضت عنا قريش مذمة ما أورتنا إسماعيل من
الدين فإذا أخذوا الخ .. والمرزوقي اقتبس عبارة المجهر كما هو ظاهر .

سوق المشقر

المشقر حصن بالبحرين لعبد القيس وهو قريب من هجر . وأهله
أزد يمانون كما سيأتي في الكلام علي سوق عمان ، جاء في مرصد الاطلاع :
« المشقر حصن بين نجران والبحرين ، يقال إنه من بناء طسم .
وهو على تل عال ، يقابل حصن بني سدوس ، ويقال إنه بناء سليمان ،
وقيل هو حصن بالبحرين لعبد القيس ، يلي حصناً آخر لهم يقال له
الصفاء قبل مدينة هجر ، والمسجد الجامع بالمشقر ؛ وبينهما نهر يجري
الى جانب مدينة محمد بن الغمر يقال له العين . » فالظاهر من هذا
الكلام أن هذا الحصن وثيق البنيان ، ذو خطر ، حتى رفعوا نسبة
بنيائه الى سليمان ، وحتى ضرب به المثل في المنعة والإحكام قال المخبل :

فلئن بنيت لي المشقر في صعب تقصردونه العصم^(١)
لَتُنْقِبَنَّ عني المنية إِنَّكَ اللهُ ليس كعلمه علم
وشهرة الحصن مستفيضة على ألسنة العرب ذكره كثيرون منهم

(١) العَصْم جمع أعصم : وهو من الرعول ما في ذراعيه أو في أحدهما
بياض وسائر أسود أو أحمر .

فمن ذكره الأعشى القائل :

فإن تمنعوا منا المشقر والصفاء فإننا وجدنا الخط جماً نخيلها

وذكره أبو ذؤيب الهذلي في مراثيته لبنيه فقال :

حتى كأني للحوادث مروءة بصفا المشقر كل يوم تُقرع

* * *

تقوم في المشقر سوق للعرب تبتدىء من أول جمادى الآخرة وتستمر الى سابعه فتنفض ويغادرها الناس الى جمادى من قابل ، وينزلها أخلاط من جميع أحياء العرب « وكانت أرضها معجبة لا يراها أحد فيصبر عنها . » فلما صفات هجر وخصبها إذ هي جزء منها ، وقد عال المرزوقي اختلاف قبائل الناس في هذه النواحي بقوله :
« وكانت لا تقدمها لطيمة إلا تخلف منهم بها ناس ، فمن هناك صار بهجر من كل حي من العرب ومن غيرهم ^(١) . »

وكان يبعثهم في هذه السوق بالملامسة والإيحاء والهمهمة خوف الحلف والكذب !! وقد مر بك تفسير هذه البيوع في محله .
كثر ذكر المشقر في كتب الأدب ، فكان امرؤ القيس الشاعر ينزله ، وفيه كانت وقعة من الوقائع المشهورة في أيام العرب : إذ حاصر

(١) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٦٣ .

كسرى بنى تميم فيه ، وأغلق عليهم بابه ، ثم قتل المقاتلة ، وسبى
الذراري بعد أن امتنعوا فيه مدة وذكر صاحب الاغانى ما يستدل
منه على ان كسرى كان له النفوذ على هذه السوق (شأنه في سوق هجر
وعمان) يقيمها متى شاء ويعطلها متى شاء قال :

« أمر كسرى بالطعام فادخر في المشقر ، وقد أصابت بني سعد
سنة شديدة ، والطعام عنهم محبوس ، وكان المشير على كسرى بذلك
هوذة ، وكان له عليهم تارات فقال لكسرى : « أيها الملك ! احبس
الميرة عنهم ، فاذا فعلت ذلك بهم سنة أرسلت معي جنداً من أساورتك
فأقيم لهم السوق فإنهم يأتونها ، فتصديهم عند ذلك خيلك . » ففعل
كسرى وحبس عنهم الأسواق في سنة مجدبة ثم سرح الى هوذة
فأتاه . . . الخ ^(١) .

يقصد هذه السوق العرب وأهل فارس على السواء ويجاررها

(١) ج ١٦ ص ٧٨ والأساورة جمع أسوار وهو : قائد الفرس والجليد الرمي
بالسهام ، والثابت على ظهر الفرس ، والخبر كما في الأغاني ، ١٦ / ٤٥
عن ابن الكلبي :

بعث كسرى إلى عامله باليمن بغير ركاب باذان على الجيش الذي بعثه
كسرى إلى اليمن ، وكانت العير تحمل نبعاً ، فكانت تبذر (تخفر) من المدائن
حتى تدفع إلى النعمان ويبذرهما النعمان بخفراء من بني ربيعة ومضر حتى يدفعها =

من قبائل العرب تميم وعبد القيس . وليس لها ما لغيرها من الأمن

= إلى هوزة بن علي الحنفي فيبذرها حتى يخرجها من أرض بني حنيفة ، ثم تدفع إلى بني سعد وتجعل لهم جمالة فتسير فيها فيدفعونها إلى ممال بأذان باليمن . فلما بعث كسرى بهذه العير قال هوزة للأساورة : « انظروا الذي نجعلونه لبني تميم فأعطوني به فانا أكفيكم أمرهم وأسير فيها معكم حتى تبلفوا مأمنكم » ، فخرج هوزة والأساورة والعير معهم من هجر ، حتى إذا كانوا بنطاع بلغ بني سعد ما صنع هوزة فساروا إليهم وأخذوا ما كان معهم واقتسموه وقتلوا عامة الأساورة وسلبوهم وأسروا هوزة بن علي فاسترى هوزة نفسه بثلاثمائة بعير ، فساروا معه إلى هجر فأخذوا منه فداؤه ففي ذلك يقول شاعر بني سعد :

ومنا رئيس القوم ليلة أدلجوا بهوزة مقرون اليدين إلى النحر
وردنا به نخل الياومة عانياً عليه وثاق القد والحلق السمر

فعمد هوزة عند ذلك إلى الأساورة الذين أطلقهم بنو سعد وكانوا قد سلبوا فكسام وحملهم ثم انطلق معهم إلى كسرى ، وكان هوزة رجلاً جميلاً شجاعاً لبيماً فدخل عليه فقص أمر بني تميم وما صنعوا ... فقال كسرى لهوزة : « أرايت هؤلاء الذين قتلوا أساورتي وأخذوا مالي أبينك وبينهم صلح ؟ » قال هوزة : « ايها الملك : بيني وبينهم حصاء الموت وهم قتلوا أبي . » فقال كسرى : « قد أدركت نارك ، فكيف لي بهم ؟ » قال هوزة : « إن أرضهم لا تطيقها أساورتك وهم يتمتعون بها ، ولكن احبس عنهم الميرة فإذا فعلت ذلك بهم سنة أرسلت معي جنداً من أساورتك فأقيم لهم السوق فإنهم يأتونها فتصيبهم عند ذلك خيلك . » وأمر بالطعام فادخر بالمشقر ومدينة الياومة وقد أصابت الناس سنة شديدة ثم قال : « من دخلها من العرب فأمروه ما شاء » فبلغ ذلك الناس . وكان أعظم من أتاها بنو سعد فنادى منادي الأساورة « لا يدخلها عربي بسلاح . » فأقيم بوابون على باب المشقر فإذا جاء الرجل ليدخل قالوا : « ضع سلاحك وامتر

والحرمة ، وجميع من يقصدها لا يستغني عن خفارة يسير في حمايتها .
(وكان من يؤمها من التجار يتخفرون يقريش لأنها لا تؤتى إلا من بلاد
مضر)^(١) . وملوك هذه السوق الذين يعشرون الناس فيها أناس ، من بني
عبد الله بن زيد رهط المنذر بن ساوى من بني تميم يسرون هنا سيرة
الملوك في دومة الجندل ، وهم خاضعون للملك فارس « يستعملهم عليها
كما يستعمل بني نصر على الحيرة وبني المستكبر على عمان^(٢) » ومن يوافي
هذه السوق من فارس خلق كثير :

ولا تعرض تجارة ولا يقوم بيع حتى تنفق تجارة الملك بتمامها كما
هو الشأن في سوق دومة الجندل ، ولا ريب أن ملوك هذه السوق
ترضع إلى حكومة فارس مما يحصلون عليه بالنصيب الأوفى .

= واخرج من الباب الآخر « فيذهب إلى رأس الأساورة فيقتله .
فيزعمون أن خيبري بن عبادة قال : « يا بني تميم ما بعد السلب إلا القتل
وأرى قوما يدخلون ولا يخرجون . » فانصرف منهم من انصرف من بقيتهم
وقتلوا بعضهم وتركوا بعضاً محتبسین عندهم . اهـ

(١) المجلد ص ٢٦٥ (٢) الصفحة السابقة والازمنة والامكنة ج ٢ ص ١٦٣

سوق هجر

يتناول اسم هجر أرض البحرين عامة ، وهي واليمن وعمان من أخصب بلاد العرب وأكثرها رخاء ، وذكر ياقوت في معجمه أنها قاعدة البحرين . موقع هذه البلدة في جنوب الخليج الفارسي ، وتكون على اتصال دائم ببلاد الهند وفارس ، يجلب إليها مختلف الأصناف ، ولأهلها أسباب آخر للمعاش غير التجارة ، كالغوص على اللؤلؤ ، وهم لا يزالون على ذلك إلى اليوم كسائر سكان البحرين ، والنسبة إليها هجري على القياس وهاجري على غير قياس قال دزيد بن الصمة :

ورُبَّتْ غارة أوضعت فيها كسح الهاجري جريم تمر^(١)

وهجر مشهورة بكثرة وبائها حتى قال عمر بن الخطاب : « عجبت لتاجر هجر وراكب البحر . » يريد أنهما سواء في التعرض للخطر

(١) جرم النخلة قطعها ، والجريم التمر اليابس ، والنوى ورواية اللسان « كسح الخزرجي » وقال : « معناه أي صبيت على أعدائي كصب الخزرجي جريم التمر وهو النوى » وهجر أيضاً قرية من قرى المدينة فذهب إليها القلال الهجرية ، انظر اللسان والتاج وياقوت . وشرح شواهد المغني ص ٦٨ فقد نقل هذا أن هجر بلدتان : هجر البحرين ذات التمر وهجر الحجاز ذات القلال .

وصارت ديار القرامطة فيما بعد ، وقد احتف بها قبائل كثيرة من مضر .
وهي أكثر بلاد العرب تموراً وأطيبها ، وأروج تجارتها التمر ،
به عرفت وبها اشتهر حتى ضرب به المثل فقالوا « كبضع تمر إلى هجر »
كما قالوا : « كجالب الدر إلى البحر » قال أبو عبيد : « هذا من الأمثال
المبتذلة ، ومن قديها : وذلك أن هجر معدن التمر والمستبضع إليه
مخطيء . » ونخلها كثير ملتف غاية في الجودة والطيب . قال الشاعر
يذكر إبلاً خرجت للميرة إلى هجر فرجعت بغير كف ولا طعام :

حُبْسُنْ بَيْنَ رَمْلَةٍ وَقُفٌّ وَبَيْنَ نَخْلِ هَجَرَ الْمُلتَفِّ
ثُمَّتَ أَصْدَرْنَ بَغِيرَ كَفٍّ^(١)

وقد استفاد على ألسنة الناس ذكر تمرها والثناء على جودته
وطيبه ، وملئت كتب الأدب بالإشارة إليه ، فهذا رسول جميل إلى
بثينة يبلغها ما أرسل به فتحفه بتمر من تمر هجر^(٢) .

وذاك أعرابي حضر وليمة لعبد الملك بن مروان عجز الفصحاء
عن وصف ما حوت من الأطيب والألوان فقليل له : « هل رأيت

(١) ياقوت ، والقُفُّ ما ارتفع من الأرض وحجارة غاص بعضها ببعض
لاتخالطها سهولة وهو جبل إلا أنه غير طويل . والكف : بقلة الحمقاء والنعمة .

(٢) الاغانى ٢ : ١٣٨ .

يا أعرابي طعاماً أطيب وأكثر من هذا ؟ ، فقال : « أما أكثر فلا وأما أطيب فنعم .. » وذكر طعاماً فيه تمر هجر^(١) .

(١) ذكر الخبر مفصلاً صاحب الاغانى ٧ / ٥٠ فقال :

صنع عبد الملك بن مروان طعاماً فأكثر وأطاب ودعا اليه الناس فأكلوا فقال بعضهم : « ما أطيب هذا الطعام ، ما نرى أن أحداً رأى أكثر منه ولا أكل أطيب منه . » فقال أعرابي من ناحية القوم : « أما أكثر فلا وأما أطيب فقد والله أكلت أطيب منه . » وطفقوا يضحكون من قوله .

فأسار اليه عبد الملك فأدنى منه ، فقال : « ما أنت بحق فيما تقول إلا أنت تخبرني بما يبين به صدقك » فقال : « نعم يا أمير المؤمنين :

بينما أنا بهجر في ترب أحرر في أقصى حجر ، إذ توفي أبي وترك كلاً وعيلاً وكان له نخل ، فكانت فيه نخلة لم ينظر الناظرون الى مثلها كأن ثمرها أخفاف الرباع ، لم ير قط أغلظ ولا أصلب ولا أصفر نوى ولا أحلى حلاوة منها وكانت تطرقها أتان وحشية قد ألفتها تأوي الليل تحتها فكانت تثبت رجلها في أصلها وترفع يديها وتعطوبه فيها فلا تترك إلا البنذ والمتفرق فأعظمني ذلك ووقع مني كل موقع فأنطلقت بقوسي وأسهمي وأنا أظن أني أرجع من ساعتي فكثت يوماً وليلة لأراها حتى كان السحر فأقبلت فتبهأت لها فرسختها فأصبتها وأجهزت عليها ثم عمدت الى سرتها فافتوتيتها ، ثم عمدت الى حطب جزل فجمعتها الى وضف ثم عمدت الى زندي فقدحت وأضرمت النار في ذلك الحطب وألقيت سرتها فيه وأدركني نوم السبات فلم يوقظني إلا حر الشمس في ظهري فأنطلقت اليها فكشفتها وألقيت ما عليها من قدى أو سواد أو رماد ثم قلبت مثل الملاءة البيضاء ، فألقيت عليها من رطب تلك النخلة المجرعة والمنصفة فسمعت لها أطيماً كنداعي عامر وغطفان ثم أقبلت أتناول الشحمة والاحمة فأضعها بين الترتين وأهوي الى فمي ، فبا أحلف لني ما أكلت طعاماً مثله قط . » فقال له عبد الملك لقد أكلت طعاماً طيباً الخ .

وليس هذا التمر معروفاً عند الأدباء وحدهم ، بل إن ذكره
لأبس مسألة نحوية مشهورة ، فما على الأرض نحوي إلا يعرف لهجر
تمرها ، فقد أتى خلف الأحمر ويحيى اليزيدي أبا المهدى : أعراياً
فصيحاً حجة ، وكانت به عارض فوجداه يصلي فلما التفت قال :
« ما خطبكما ؟ » قالوا : « كيف تقول : ليس الشراب إلا العسل . »
فقال : « فما يصنع سودان هجر ، ما لهم شراب غير هذا التمر ^(١) . »

(١) والفصة على التام ذكرها أبو علي القالي في أماليه ٣ / ٣٩ قال :
حدثنا أبو حاتم قال سمعت الأصمعي يقول : جاء عيسى بن عمر الثقفي ونحن
عند أبي عمرو بن العلاء فقال يا أبا عمرو ، « ما شيء بلغني عنك تجيزه ؟ » قال :
« وما هو ؟ » قال : « بلغني عنك أنك تجيز : ليس الطيب إلا المسك » بالرفع
فقال أبو عمرو : « نعم يا أبا عمرو وأدلى الناس ؛ ليس في الأرض حجازي إلا وهو
ينصب ، وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع ، » ثم قال أبو عمرو : (قم
يا يحيى بعني - اليزيدي - ، وأنت يا خلف - يعني الأحمر - فاذهب إلى أبي المهدى
فإنه لا يرفع ، واذهب إلى المنتجع ولقناه النصب فإنه لا ينصب » .
قال فذهبنا فأتينا أبا المهدى فإذا هو يصلي ، وكان به عارض وإذا هو يقول
« لقد أحساناه عني » ثم قضى صلاته والتفت إلينا وقال : ما خطبكما ؟ قلنا :
« جئناك نسألك عن شيء » ، قال : « هايتا » ، فقلنا : « كيف تقول : ليس
الطيب إلا المسك ؟ » فقال : « أنا مراني بالكذب على كبرة سني ؟ فأين الجادي
وأي كذا ؟ وأين بنة الإبل الصادرة ؟ » فقال له خلف : « ليس الشراب
إلا العسل » . فقال : « فما يصنع سودان هجر ؟ ما لهم شراب غير هذا التمر »
قال اليزيدي : فلما رأيت ذلك منه قلت له : « ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله =

ولهجر شأن آخر في آداب اللغة العربية غير هذا المثل المضروب
وتلك القاعدة النحوية ، إذ في دِهاسها ^(١) هلك المهلهل ، أول من هلهل
الشعر وأرق نسجه ، مات عطشاً في حمارة القيظ (الأغاني ٦ / ١٢٨)
ومن الغريب أن سبب موته هو خمر هجر هذه : وذلك أن عمرو بن مالك
ومهللاً التقيا في خيلين من غير مزاخفة في بعض الغارات بين بكر
وتغلب ، فانهزمت خيل مهلهل وأدركه عمرو بن مالك فأسره فانطلق
به إلى قومه وهم في نواحي هجر ، فأحسن إيساره ، وهر عليه تاجر
يبيع الخمر ، قدم بها من هجر وكان صديقاً لمهلهل يشتري منه الخمر ،
فأهدى إليه وهو أسير زق خمر ، فاجتمع إليه بنو مالك فنحروا عنده
بكرأ وشربوا عند مهلهل في بيته - وقد أقرده عمرو بيتاً يكون
فيه - فلما أخذ منهم الشراب تغنى مهلهل فيما كان يقوله من الشعر وينوح
به على كليب ، فسمع ذلك عمرو بن مالك وهاج تغنيه كامن الغيظ في

والعمل بها » فقال : « هذا كلام لا دخل فيه ، ليس ملاك الامر إلا طاعة الله
والعمل بها » فقال اليزيدي : « ليس ملاك الامر إلا طاعة الله والعمل بها . »
فقال : « ليس هذا لخي ولا لحن قومي » . فكتبنا ما سمعناه منه ثم أتينا المنتجع
فأتينا رجلاً يعقل فقال له خلف : « ليس الطيب إلا المسك » ، فلقناه النصب
وجهدنا فيه فلم ينصب وأبى إلا الرفع .

فأتينا أبا عمرو فأخبرناه وعنده عيسى بن عمر لم يبرح ، فأخرج عيسى بن
عمر خاتمه من يده وقال : « ولك الخاتم ، بهذا والله فقت الناس » . اهـ .

(١) الدهاس المكان السهل ليس برمل ولا تراب .

نفسه فقال: «إنه لريان ، والله لا يشرب ماء حتى يرد ريب» (وريب هذا جمل كان لعمر بن مالك ، وكان يتناول الدّھاس من أجواف هجر فيرعى فيها غباً بعد عشر في حمارة القيظ) ، فأشفق إخوان عمرو من هذا القسم وخافوا أن يزيد الشر بين الحيين إن هلك مهلهل ؛ فأسرعت ركبائهم وخرجت في طلب البعير ريب ، وهم حراص على ألا يقتل مهلهل ، فلم يقدرُوا على البعير حتى مات مهلهل عطشاً . ونحرو عمرو يومئذ ناقة مسنة فأسرج جلدھا على مهلهل وأخرج رأسه .

وهكذا ذهب مهلهل من جراء نشوة من خمر هجر^(١) ، وكم أفقدت الخمر الناس رؤوسهم وسادتهم ، وكم كانت نذير الشر والشؤم منذ الزمن الأقدم ، فلنذكرن هجر وخمرھا ، وهذه الميثة الروائية كلما ذكرنا المهلهل وما رقق من شعر .

* * *

تهبط العرب هذه السوق ولعلھا كانت أكثر مكانة من دومة الجندل ، لأنها فرضة يجدون فيها من أصناف التجارات التي يأتيهم بها تجار الهند وفارس ما لا يجدون في تلك ، ولأن بها من التمر ما طبقت شهرته الآفاق ، وضرب في الجودة مثلاً في البلاد ؛ وليس ذلك بقليل .

(١) في الجزء الاول من مسالك الابصار فصل عن حانات هجر المشهورة فارجع اليه ثمة .

وكان بها عدا ذلك ضروب من البضائع ، فعلى مقربة منها « الخط » المشهورة برماحها . وفي (رياض الصالحين ص ٤٤٩) أن سويد بن قيس قال : « جابت أنا ومخزومة العبدي بزاً من هجر . فجاء النبي ﷺ فساومنا سراويل . » فأنت ترى أنه يجلب منها بزاً يباع في المدينة . وكان كسرى يرسل إلى سوق هجر من تجاراته : يرسل إليها لطائم فيها الطيب فيباع فيها ثم ترجع موقرة عروضاً وتمرأ . وحدث مرة أن أغارت بنو تميم على اطيمة لكسرى فيها مسك وعنبر وجوهر كثير فأرسل جيشاً أوقع بهم فأخذ الأموال وسبى الذراري بمدينة هجر وسميت تلك الواقعة « يوم الصفقة ^(١) » . ولعل نفوذ كسرى في هذه السوق كان غير ضئيل .

تقصد العرب هذه السوق بعد انقضاءهم من سوق دومة الجندل ، فإذا أهل ربيع الآخر انتقلوا إليها فقامت سوقها . وينظر في أمرها المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم ، يتولى أمرها ويعشر الناس فيها ، وهو ملك البحرين عامة .

(١) انظر الخبر مفصلاً في العقد الفريد ٣ : ٣٥٤ .

سوق عمان

كورة عربية في جنوب الخليج الفارسي تمتد على سواحل بحر اليمن ،
وتشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزدوع ، وهي شديدة الحرارة
حتى إن حرها يضرب به المثل .

وبها فواكه جُرومية^(١) (كالموز والمان والتين ونحو ذلك)
ولعل نخيلها متميز من غيره ، فقد ذكروا ان بالبصرة نخلة يقال لها
(العمانية) لا يزال عليها السنة كلها طلع جديدو كبانس مشمرة وأخرى
مرطبة . قيل إنها سميت بعمان بن نقشان بن سبأ أخي عدن^(٢) وقيل من
(عمن يعمن) إذا أقام ، وقد اشتقوا منها فعلا فقالوا : أعمن وعمن إذا
أتى عمان ، قال العبدى :

فإن تَتَّهَمُوا أنجد خلافاً عليكمُ وإن تَعْمَنُوا مستحقى الحرأعرق
عندها الحمداني في (صفة جزيرة العرب ص ٤٨) من مخاليف اليمن

(١) مسالك الممالك للاصطخري .

(٢) تاج العروس : وعمان كغيرها من أعلام الامكنة تصرف ولا تصرف
وبكايها ورد الشعر ، فمن أمثلتها غير مصروفة قول الشاعر :
أحب عمان من حي سليمي وما عهدي بحب قرى عمان .

نزلها الأزدي على قبائل يحمود و حدان و مالك و الحارث و عتيك و جديد
(ص ٢١١) ، و استشهد على قوله بشواهد من الشعر منها :
و أزد لها البحران و السيف^(١) كله و أرض عمان بعد أرض المشقر^(٢)
و منها :

و غسان الذين هم استتبوا قبائلهم بأطراف البلاد^(٣)
و حياً منهم نزلوا عماناً أراهم لم يهموا بارتداد
و غسان من الأزد كما هو معلوم ، و استشهد أيضاً بهذا الشاهد
و هو يريد الأزد طبعاً :

فأقرت قرارها بعمان فعمان محل تلك الحماة^(٤)
و تضرب بها العرب المثل في بعدها لأنها في أقصى الجزيرة إلى
الشرق و الجنوب تفصلها عن اليمن صحراء الاحقاف و هي بعيدة
عن الحجاز و العراق و الشام .

ذكر ياقوت أن الحسن بن عادية قال : لقيت عبد الله بن عمر
فقال : « من أي بلد أنت ؟ » قلت : « من عمان » قال : « أفلا أحدثك
حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ؟ » قلت : « بلى » قال : « سمعت
رسول الله ﷺ يقول : « اني لأعلم أرضاً من أرض العرب يقال لها

(١) سيف البحر : ساحله . (٢) ٢٠٦ (٣) ٢٠٧ (٤) ٢١٠

عمان على شاطئ البحر : الحجة منها أفضل من حجتين من غيرها ،
ومن المفسرين من ذهب إلى أن المقصود بقوله تعالى : « وَعَلَى كُلِّ
ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . » ^(١) عمان .

ولو عرف الشاعر أبعاد منها لذكره محلها في قوله يهجو قوماً :
لو يسمعون بأكلة أو شربة بعُمان أصبح جمعهم بعُمان
والظاهر أنها على بعدها لم تكن تخلو من أخلاط القبائل ومختلف
الأمم ، شأن كل فرصة تجارية ، فلم تقتصر على الأزدي الذين رويها لك
فيهم ما ذكره الهمداني ، لأنها أقرب بلاد العرب من الهند وليس بينها
وبين فارس إلا المضيق فكان فيها النزلاء الغرباء من هؤلاء ، عدا من
يقصدها من العرب للتجارة فيقيم فيها ، وقد ظلت تحت نفوذ الفرس
الفعلي ، وكان ملوك فارس هم الذين يولون عليها الأمراء فاستعملوا
بني المستكبر - على رواية المرزوقي - وقد تقدم أن لهم نفوذاً على
هجر ، وعلى المشقر كما سبق ، فتكون فارس قد بسطت سلطانها على
سواحل الخليج الفارسي كله وعلى سواحل بحر اليمن حين أرسلوا
الاحرار فطردوا الحبشة منها ، وبذلك يكون لهم نصف سواحل
جزيرة العرب ، وما زالت الفرض والشواطئ عرضة للأطاع ينزلها

كل قوي ، فكيف إذا كانت خصبة فيها الغني كعمان ، وقد جاء في الحديث : « من تعذر عليه الرزق فعليه بعمان . » فتجاراتهم كثيرة ومعاشهم وافرة ، وفيها ذخائر متنوعة ومعادن جيدة وخصب ورخاء فجمعوا بذلك أسباب الثروة والغنى فلم يكن من الغريب طمع فارس فيهم .

وقد استتبع مركز عمان هذا كثرة الأعاجم فيها واختلاط أهلها بهم ، حتى أدخل ذلك الضميم على لغتهم فلم يعرفوا في العرب بالفصاحة . ولما رأى أبو عمرو بن العلاء أعرابياً من عمان فصيحاً لم يكتف استغرابه من حسن وصفه لبلده وفصاحة منطقته ، حتى عرف أن الأعرابي بعيد عن مراكز الاختلاط تلك ، ذكر القالي (١٦/٣) عنه أنه قال :

لقيت أعرابياً بمكة ، فقلت له : « ممن أنت ؟ » قال : « أسدي . » قلت : « ومن أيهم ؟ » قال : « نهدي . » قلت من أي البلاد ؟ قال : « من عمان . » قلت : « فأني لك هذه الفصاحة ؟ » قال : « إنا سكننا قطراً لا نسمع فيه ناجخة التيار . » قلت : « صف لي أرضك . » قال : « سيف أفيح ، وفضاء صحصح ، وجبل صرّوح ، ورمل أصبح . » قلت : « فما مالك ؟ » قال : « النخل . » قلت : « فأين أنت عن الإبل ؟ »

قال : « ان النخل حملها غذاء ، وسعفها ضياء ، وجذعها بناء ، وكرها صلاء ، وليفها رشاء ، وخصها وعاء وقرؤها إناء ^(١) . » وذكر صاحب مرصد الاطلاع ان أهلها خوارج أباضية .

* * *

تقصد العرب هذه السوق إذا انتهت من سوق هجر ، فترحل الى عمان وتقيم سوقها حتى آخر جمادى الأولى . وهي لتوسطها بين فارس والهند والحبشة ، تجتمع فيها بضائع هذه الممالك الثلاث وكانت جملها تحمل (الورس) من اليمن الى عمان حيث تعالج الاشياء التي يراد صبغها بالصفرة .

وذكر الألوسي أن بأرضها معادن جيدة وذخائر متنوعة . وقد كان يستخرج بها عنبر مشهور ، احتفظت عمان بشهرتها به حتى أيام الرشيد فقد ذكر في الأغاني أنه « جاء العباس بن محمد الى الرشيد يوماً ببرنية غالية فوضعها بين يديه ثم قال : « هذه يأمر المؤمنين غالية صنعتها لك بيدي ، اختير عنبرها من بحر عمان ، ومسكها من

(١) ناهضة التيار : صوت الموج ، والسيف الافيج : الشاطئ الواسع ، والصحصح : الصحراء ، والصروح : الصلب ، الاصبح : الذي يعلو بياضه حمرة والرشاء : الحبل . والقررو : وعاء من جذع النخل ينبذ فيه .

مفاوز التُّبَّت ، وبانها ^(١) من ثغرتهامة ، فالفضائل كلها مجموعة فيها . . . الخ ^(٢) ،

في هذه السوق يجري التبادل بين بضائع فارس والهند والحبشة واليمن والحجاز والشام ، يصب فيها كل تاجر قطر ، ما حمل من قطره ويرجع الى بلده بما يأخذه من عروض ليست فيه ؛ ولهذا كانت فيها جاليات من كل أمة وكل قبيلة .

(١) البان شجر معروف ، ولحبه ثمره دهن طيب - القاموس .

(٢) ١٥ / ٣٩ .

سوق حباشة

تقوم هذه السوق بتهامة في ديار بارق نحو (قنونا) على ست ليال من مكة إلى جهة اليمن . فهي المتجر المتوسط المشترك بين الحجاز واليمن . وأصل الحبش الجمع ، والحباشة الجماعة من الناس ليسوا من جنس واحد ، ولعلها سميت بذلك لكثرة ما يجتمع بها من مختلف القبائل والأجناس للتجارة ، وليست من مواسم الحج . وكما سميت سوق تهامة القديمة بهذا الاسم سميت به سوق أخرى لبني قينقاع تقام في رجب أيضاً ، كما هي اسم للأزد أيضاً . والمشهورة منها هي الأولى التي بتهامة وقد تاجر فيها رسول الله ﷺ ، جاء في الحديث :

« لما استوى رسول الله ﷺ وبلغ أشده وليس له كثير مال ، استأجرته خديجة إلى سوق حباشة وهي سوق بتهامة واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش وكان من قول الرسول وهو يحدث عن هذه التاجرة الكبيرة : « مارأيت من صاحبة أجير خيراً من خديجة ، ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا . » اهـ

كان لهذه السوق ماغيرها من المزايا : يكون فيها فداء الاسرى
وتشددان الثأر ... عدا أمور التجارة . ولما قتل الشنفرى الشاعر
حرام بن جابر قاتل أبيه ، أتى رجل أسد بن جابر أخاالمقتول فقال :
« تركت الشنفرى بسوق حباشة » فرصد له قوم القتل حتى أسروه
وقتلوه .

وليس لحباشة شأن الأسواق العربية الكبرى ، فانها تأتي في
الدرجة الثانية في الخطر ، وتكاد تكون لما حولها في الغالب ، على
خلاف الأمر في بقية الاسواق التي هي من مواسم الحج .

بقيت هذه السوق قائمة كل عام حتى سنة سبع وتسعين ومئة ، إذ
تركت في زمن داوود بن عيسى بن موسى العباسي . والسبب في خرابها
أن من عادة ولاية مكة أن يستعملوا عليها رجلاً يخرج معهم بجند
فيقيمون بها ثلاثة أيام متوالية من أول رجب واستمر الامر على هذا
حتى قتلت الأزد واليا كان عليها من قبيلة غني ، بعثه داوود بن عيسى بن
موسى ، فأشار فقهاء مكة على داوود بتخريبها فخربها وتركت منذ
ذلك الوقت ^(١) .

(١) أخبار مكة للأزرقي ص ١٣١ .

ذيل - لهذه السوق يد كبرى على العلم بنعم بفضلها كل باحث شرقي أو غربي ، =

ولأنها كانت السبب المباشر في تزويدنا بأوسع معجم جغرافي تاريخي وهو (معجم البلدان) لياقوت رحمه الله ، فقد جاء في مقدمة هذا المعجم مانصه :

« وكان أول البواعث لجمع هذا الكتاب أني سئلت عمرو الشاهجان في سنة

٦١٥ هـ) عن حباشة : اسم موضع جاء في الحديث النبوي وهو سوق من أسواق العرب في الجاهلية ، فقلت : أرى أنه حباشة بضم الحاء قياساً على أصل هذه اللفظة لأن الحباشة الجماعة من الناس من قبائل شتى ، وحبشت له حباشة أي همت له شيئاً . فأنبرى لي رجل من المحدثين وقال : إنما هو حباشة بالفتح ، وسمم على ذلك وكابر ، وجاهم بالعناد من غير حجة وناظر . فأردت قطع الاحتجاج بالنقل ، إذ لا معول في مثل هذا على اشتقاق ولا عقل ، فاستقصيت كشفه في كتب غرائب الأحاديث ودواوين اللغات مع سعة الكتب التي كانت روي يومئذ وكثرة وجودها في الوقوف وسهولة تناولها فلم أظفر به إلا بعد نقضاء ذلك الشغب والمراء ، وبأس مع وجود بحث وامتناء ، فكان موافقا والحمد لله لما قلته ، ومكيداً بالصاع الذي كلفته . فألقي حينئذ في روعي افتقار العالم لكتاب في هذا الشأن مضبوط ، وبالإتقان وتصحيح الالفاظ محوط . ليكون في مثل هذه الظلمة هادياً ، وإلى ضراء الصواب داعياً ، وشرح صدري لنيل هذه المنقبة التي غفل عنها الأولون ولم يمتد الغابرون .. الخ ما قال »

سوق صحار

بلد من أعمار بلاد العرب وأغناها وأطفحها بالمناجر، جاء في
(مسالك الممالك) للإصطخري عند الكلام على عمان: « وقصبتها
صحار، وهي على البحر وبها متاجر البحر وقصد المراكب. وهي
أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالا ولا تكاد تعرف على شاطئ بحر
فارس بجميع بلاد الاسلام مدينة أكثر عمارة ومالا من صحار، وبها
مدن كثيرة، وبلغني أن حدود أعمالها (٣٠٠) فرسخ وكان الغالب
عليها الشراة. »

وياقوت وصفها لنا كما شاهدها وصفا أسهب وأدل على مكاتها
التجارية الكبرى فقال :

« صحار قصبة عمان مما يلي الجبل (وتوأم : قصبتها مما يلي الساحل)؛
مدينة طيبة الهواء والخيرات والفواكه، مبنية بالآجر والساج،
كبيرة ليس في تلك النواحي مثلها. وليس على بحر الصين (يريد فرض
الجزيرة التي على بحر الهند) بلد أجل منه، عامر أهل، حسن طيب
نزه، ذو يسار وتجار وفواكه، أجل من زيد وصنعاء؛ وأسواق

عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر ، دورهم من الآجر والساج ، شاهقة نفيسة ، ولهم آبار عذبة وقناة حلوة وهم في سعة من كل شيء . وهو دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومعونة اليمن . والمصلى وسط النخيل ومسجد صحار على نصف فرسخ . فتحها المسلمون أيام أبي بكر سنة (١٢) صلحاً . »

ونستطيع أن نفهم من هذا الوصف - وإن كان لعمد ياقوت - مدى الشأن التجاري الذي كانت تتمتع به صحار ^(١) في الجاهلية أيضاً . فقد كان بها تجارات واسعة تجلب الى مختلف أقطار الجزيرة العربية وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كُفّن بثوبين صحاريين .

* * *

تقيم العرب السوق العامة في صحار من عاشر رجب الى الخامس عشر منه بعد انقضاء سوق حباشة . والظاهر أنها تمتد الى ما بعد الخامس عشر من رجب ، فإن من لم يشهد الأسواق التي كانت قبلها لشغله عنها أو لأنه لا أرب له فيما يباع بما قبلها من الاسواق ، يوافيها فيجد فيها من البز المنثور وغيره من البياعات . وذكر المرزوقي ^(٢) :

(١) في فهرس الاماكن لكتاب (صفة جزيرة العرب) : « صحار في اليمن » و « صحار في البحرين » فيها صحاران إذن . إلا أن المشهورة هي صحار اليمن وهي التي نتكلم عليها هنا . (٢) الأزمنة والامكنة ٢ : ١٦٣

« أنهم يقيمونها لعشرين يوماً من رجب . » ولا يناقض هذا ما قدمناه ، لأن افتتاح السوق وانفضاضها لم يكن بساعة محتمة لا تقدم عنها ولا تأخر ، بل إن من العرب من لا يكون حضر ما قبلها فيأتيها من أول رجب ^(١) . ومنهم من يكون في جاشة أو غيرها فيوافيها متأخراً . وتبقى البيوع قائمة حتى ينتهي اصحابها منها .

وليست صحار من الأسواق العامة ولا من المواسم مثل عكاظ حتى يحرصوا عليها ذلك الحرص ، وإنما هي سوق تجارية محضة لما حولها ولمن يقصدها ، على أنها كثيراً ما يأتيها التاجر البعيد .

وقيام هذه السوق في رجب يغني قاصدها عن الحماية فيقدمها الناس غالباً بلا خفارة ولا حذر إلا من المحليين ، لأن رجب شهر حرام . فهي من هذه الجهة تمتاز من الأسواق التي تقوم في غير الشهر الحرام مثل سوق المشقر وغيرها .

يعشر الناس في هذه السوق الجلندي بن المستكبر ^(٢) ، وذكر الأزرق أن يبعثهم فيها بالقاء الحجارة على ما تقدم في فصل البيوع كما هو الأمر في سوق دومة الجندل .

(١) نص صاحب المحبر (ص ٢٦٥) على أن زمنها في الليالي الخمس من

أول رجب . (٢) المحبر ص ٢٦٥

سوق دبي

دبي ^(١)، سوق ذكرها المرزوقي في جملة أسواق العرب . والطاهر أنها كانت قديماً ذات شأن إذ كانت قصبة عمان ثم اضمحل مركزها وزاحمتها صحار وصارت هي قصبة هذا القطر فمن ثم لم يكن لها من الشأن مثل ما غيرها . وصفها صاحب مرصد الاطلاع بأنها سوق من أسواق العرب بعمان وأنها مدينة عظيمة مشهورة . قال ياقوت : « دبي سوق من أسواق العرب بعمان وهي مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها وأشعارها وكانت قديماً قصبة عمان . ولعل هذه السوق المذكورة كانت عندها . فتحها المسلمون أيام أبي بكر عنوة سنة ١١ للهجرة . »

* * *

جعل المرزوقي تاريخ قيام هذه السوق بين سوقي صحار والشحر . ونستطيع ان نفهم شيئاً من خطرهما التجاري إذا علمنا أنها من فرض العرب المشهورة ، وأنه يكون فيها من لا يكون في غيرها من تجار

السند والهند والصين وأهل المشرق والمغرب^(١) ، وتمتاز من غيرها
بالبضائع الأجنبية التي يحملها التجار من بلادهم في البحر وتنفذ منها
تجارات العرب الى الخارج .

تقوم سوقها آخر يوم من رجب ويشتري بها بضائع جزيرة
العرب وبضائع الاقاليم . ومن البديهي أن البيع فيها لا يكون بإلقاء
الحجارة ولا بالإيماء ولا بغيرهما من البيوع الخاصة ، لمكان الأجانب
منها ، بل هو بالمساومة^(٢) لأن السوق سوق مختلطة غير خالصة الصبغة .
ولا يباع فيها شيء حتى يبيع ملكها الجلندي بن المستكبر كل
ما عنده ، وهو الذي يعثر الناس فيها كما يفعل غيره من الملوك في
غيرها من الأسواق .

(١) المجلد ص ٢٦٥ (٢) المصدر السابق ص ٢٦٦

سوق الشحر

يطلق اسم الشَّحْر على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب بين عدن وعمان ، والشحر مأخوذ من مشَّحَر الأرض وهو مسبخ الأرض ومنابت الحموض ، وتشتمل على بلاد وأودية وقرى ، والمراد بها هنا شحر مهرة وهي قصبتها ، وليس فيها زرع ونخيل وإنما أموالهم الإبل « وبها نُجِب من الإبل تفضل في السير سائر النجب »^(١) .

ونظراً لوقوعها في أقصى جنوب الجزيرة على بحر الهند ضربوا بها المثل في البعد فيقولون :

« لست بمعجز لنا ولو بلغت الشحر »^(٢) واختلاط أهلها بالنازلة من الحبشة والهند وفارس وغيرهم من التجار ، مع ما في لسانهم من الفروق بينه وبين لغة الحجاز جعل أهلها غير فصحاء حتى قال الإصطخري « ألسنتهم مستعجمة جداً لا يكاد يوقف عليها . » وأرضهم في الجملة مقفرة ، وعيش أهلها من الأنعام والتجارة والصيد .

اشتهرت منذ القديم بعنبرها الذي لا نظير له ، فكل عنبر جيد

(١) مسالك الممالك للإصطخري (٢) صفة جزيرة العرب للهداني ص ٢١٣

إليها ينسب ، قال الثعالبي في (ثمار القلوب) : « عنبر الشحر يضرب به
المثل قال الشاعر :

ولو كنت عطراً كنت من عنبر الشحر »
واللبان الذي يحمل الى الآفاق منها يجلب .

* * *

تقوم هذه السوق في النصف من شعبان بعد انقضاء سوق «دبي»
ويقصدها من كان ثمة من تجار البر والبحر ، والبضاعة الرائجة فيها البز
والأدم والكندر والمر والصبر والدخن^(١) .

ولا يسير إليها قاصدها إلا بخفارة لبعدها وانقطاعها فلا غنى
لتجار العرب عن خفارة يتخفرون بها ، وكان يقوم أحياناً بهذه
الخفارة أهل مهرة أنفسهم .

« ولم يكن بها عشور لأنها ليست بأرض مملكة وكانت التجار
تتخفرون ببني محارب من مهرة^(٢) » ، وفي هذه السوق يبيع كالتي تقدمت
في سوق دومة الجندل من رمي الحصاة وإلقاء الحجارة^(٣) . وموضع
هذه السوق - على ما ذكر محمد بن حبيب - تحت ظل الجبل الذي عليه
قبر هود عليه السلام^(٤) .

(١) الكندر : ضرب من العلك نافع لقطع البلغم ، والمر دواء معروف
نافع للسعال ولسع العقارب وديدان الأمعاء ، والدخن : حب أصفر من حب
الجوارس ، أملس جداً بارد يابس حابس للطبع . (٢) المهر ص ٢٦٦

سوق عدن آئين

قيل إن هذه التسمية نسبة الى آئين ، وعدن بالمكان: أقام، فمن هنا قول من قال إنها اشتقت من العدن لأن آئين، رجل من حمير أقام فيها . إلا أن صاحب تاج العروس قال : « نقل شيخنا عن حواشي الكشاف للفاضل اليمني وهو أعرف ببلاده : آئين اسم قصبة بينها وبين عدن ثمانية فراسخ ، أضيفت إليها لأدنى ملاسة .

وعدن مدينة ذات موقع جغرافي ممتاز ، على بحر الهند الى جنوبي مضيق باب المنذب نحو الشرق . فيها مرسى للسفن الواردة الى آسية من البحر الاحمر ، وبها كانت تمر مراكب الهند ومصر والحجاز والحبشة منذ القديم للحط والإقلاع ، وهي في ذيل جبل ينتهي بسور الى البحر « رديئة الهواء لأماء بها ولا مرعى ، وشرب أهلها من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو يوم^(١) » والماء ينقل اليها على ظهور الدواب . وأهم تجارات هذه السوق الطيب بأنواعه ، ويجلب اليها الأدم

والبرود من (معافر) وتكثر فيها اللطائم ، وبها مغاوص اللؤلؤ ، بقيت على شأنها هذا حتى الاسلام فازدهت في عهده تجارتها حتى « أصبحت فرضة اليمن ومقر كل فضل مستحسن » وإن الطيب الذي يستعمله سائر الناس كان يتخذ بها وصار لأهلها بصنعه مهارة فائقة ، قال المرزوقي : « وكان طيب الخلق جميعاً بها يعبأ ، ولم يكن يحسن صنعه أحد من غير العرب ، حتى إن تجار البحر لترجع بالطيب المعمول (بعدن) تفخر به في السند والهند ، وترتحل به تجار البر إلى فارس والروم . وإن الناس على ذلك (الى اليوم) ما يحسن اليوم حمله إلا أهل الاسلام بعدن ^(١) »

كان العرب إذا ارتحلوا من الشحر بعد انقضاء سوقها نزلوا عدن فأقاموا بها السوق مدة العشر الاول من رمضان ، أما تجار البحر فإنهم يستغنون عن شهودها بما شهدوا من الاسواق قبلها ، إلا من بقي من يبعه شيء لم ينفد بعد ، أو فاته حضور ما قبلها ، فإنه يشهدا مع الناس فيستدرك بها ما فاته من اتجار . ثم ينفض الناس منها إلى رمضان من قابل .

وقاصد هذه السوق في غنى عن خفارة الناس لقيام حكومة

(١) الأزمنة والامكنة ٢ : ١٦٣

متظمة فيها فإنها من مخالف اليمن ، لذلك لا يتخفر أحد فيها وتؤدي
عشور هذه السوق إلى ملكها من حمير أو من خلف حمير على ملكها .
ولما صارت في حوزة الالباء من فارس حين غلبوا على اليمن كما امتد
نفوذ مملكتهم على سواحل العرب الشرقية والجنوبية كلها ، جعل الناس
يؤدون العشور فيها الى هؤلاء .

وذكر محمد بن حبيب أن « الالباء تعشرهم بها ولا تشتري في
أسواقهم ولا تبيع »^(١)

ولعل حال الاخذ والعطاء في هذه السوق أنشط وأوسع ،
والتجارة فيها حرة أكثر ، لأن من قام على أمور عدن من حمير أو من
الفرس لم يكونوا يتاجرون لأنفسهم فيها كما يفعل أكيدر في دومة أو
الجلندی في صحار فينججز الناس عن عرض بضائعهم حتى يبيع الملك
كل ما عنده من متاع ، فكانت التجارة تحظى في هذه السوق بشيء من
الانطلاق لكف ملوكها عن مزاحمة الرعية على هذا المورد من
الكسب .

سوق صنعاء

صنعاء أطيب بلاد اليمن ، بل جنة جزيرة العرب كلها ، هي مضرب الأمثال في طيب الهواء واعتداله وحسن العيش ، قال ياقوت : « صنعاء قصبة اليمن وأحسن بلادها تشبه بدمشق لكثرة فواكهها وتدفق مياهها ، وليس بجميع اليمن أكبر ولا أكثر مرافق وأهلاً من صنعاء . وهي من الاعتدال في الهواء بحيث لا يتحول الانسان من مكان طول عمره صيفاً ولا شتاء ، وتتقارب بها ساعات الشتاء والصيف ، وغاية ساعات النهار بها اثنتا عشرة ساعة وإحدى وخمسون دقيقة ^(١) . طيبة الهواء كثيرة الماء . قدم يزيد بن الصعق صنعاء ورأى أهلها وما فيها من العجائب ، فلما انصرف قيل له : كيف رأيت صنعاء ؟ فقال :

ومن ير صنعاء الجنود وأهلها
و جنود حمير قاطنين ، وحميرا
يعلم بأن العيش قسم بينهم
جلبوا الصفاء فأنهلوا ، ما كدرا
ويرى مقامات عليها بهجة
يا رجن هندياً ومسكاً أذفرا .
وليس من الغريب أن نسمع يميناً كألهمداني يشيد بذكره فيقول :

« هي إحدى جنان الارض عند كافة الناس ^(١) » فقد حيرت بحسنها وكثرة اشجارها ومياها ومروجها وأنهارها وطيب أوديتها غيره فدهش أول مارآها وملكه الاعجاب ^(٢) : « قال احمد بن موسى وهو من الشعراء المتأخرين حين رفع الى صنعاء وصار الى ثقل السود (على مقربة منها) :

إذا طلعتنا (ثقل السود) لاح لنا من أفق صنعاء مصطاف ومرتبِع
يا حبذا أنت يا صنعاء من بلد وحبذا واديك الظهر والضلَع ^(٣) ،
بقيت صنعاء ^(٤) دار سلطنة وإمارة حتى يومنا هذا . وقد كان بها
مقر ملوك اليمن قديماً وفيها قصر غمدان وهو بناء شاهق على تل عظيم
اتخذة أقيال اليمن وليس في اليمن جميعه بناء أرفع منه .

(١) الإكليل ٨ : ١٢

(٢) ومن الطريف أن يذكر ياقوت أيضاً أن صنعاء اسم لقربة على باب دمشق دون المزة مقابل مسجد خاتون ، خربت وهي اليوم مزرعة وبساتين . وفي هذا دلالة على أن العرب مولعون بذكر ديارهم وأوطانهم أينما حلوا ، هم على الوفاء لعمدها تحت كل سما ، وإطلاقهم صنعاء على هذه القرية الخربة لعمد ياقوت ، كإطلاقهم في بلاد الاندلس وجناتها أسماء حمص ودمشق

(٣) تاج العروس

(٤) نعتها المبداني في كتابه (صفحة جزيرة العرب) نعتاً جليلاً حوى معارف قيمة جداً عن هذه البلدة العظيمة ، وانظر على سبيل المثال ما ذكره عن ضروب =

« ويكون سوق صنعاء في واديها ، قيل هو وادي غليب ،
وقيل هو أصل جبل نَقْم مما يلي قبليته ، وقيل غدير الحقل ^(١) . »
كان العرب اذا ارتحلوا من الشحر وعمدن أقاموا سوق صنعاء
فاستمرت من نصف شهر رمضات حتى آخره . يأتونها « بالقطن

= فراكها فإنها في هذا فاقت دمشق نفسها قال ص ١٩٦ :

« جميع الثمار بها من العنب الملاحى والدوالي والاشهب والدُرَج والنوامي
والزبادي والاطراف والعيون والقوارير والجُرثمي والنشاني والتابكي والرازي
والضروع . ويؤتى اليها من خيوان بالرومي ، ومن الجوف بالوادي . وبها
الرمان الحلو والحامض والمزوج والمليس والسفرجل ، وليس يلحق به سفرجل
البلاد لأن فيه شيئاً من الحموضة والقبض ، والإجاص والمشمش والتفاح الحلو
والتفاح الحامض والمزوج . والحوخ الحميري والحوخ الفارسي والحوخ الهندي
والجوز الفرك واللوز الفرك ، والحلو منه والمر والكمثرى وقد وفِد إلى صنعاء
قِدْمة . وبها الورد والباقلاء الأخضر ولا يتركونه يبلغ ؛ وجميع أصناف البقول
وجميع الجبوب ... » وكثير أن يكون ببلدة واحدة أربعة عشر صنفاً من
العنب وحده . وقد أفاض الهمداني بعد هذا بتفصيل مستفيض عن طعامها وألوانه
وعن خبزها بما هو غاية في الطرافة والخطر فليرجع اليه ثمة . ولو أن كل قطر
عربي حظي بباحث كالهمداني لما كنا اليوم في معارفنا عن بلادنا في ظمأ وغلة
لا نجد لها أدنى ري .

(١) تاج العروس . وكان بدل (جبل نَقْم) في الطبعة الاولى من كتابنا
(جبل نعيم) فكتب اليها الاستاذ (كرنكو) أن الصواب : جبل نَقْم بضم
النون والقاف وهو الجبل المطل على صنعاء واسمه كذلك الى يومنا هذا . اهـ

الزعفران والأصباغ وأشباهاها فما ينفق بها ويشترون فيها ما يريدون من البز والحرير^(١) ، وكان أروج تجارتها الغالية والأدم والبرود وكان هذان الصنفان الأخيران يجلبان إليها أيضاً من معافر إحدى قرى اليمن فتباع فيها وتصدر إلى الاقطار . وكذلك يجلب منها من الخرز شيء كثير .

كان يبيعهم فيها الجس جس اليد^(٢) ، وكان يعثر الناس فيها الأبناء^(٣) بعد أن كان يعثرهم أمراؤهم من حمير .

* * *

(١) ، (٢) الأزمنة والامكنة ٢ : ١٦٤ والمجبر ص ٢٦٦ .

(٣) اليعقوبي ، والمجبر ص ٢٦٦ .

سوق حضرموت

حضرموت إقليم واسع يشتمل على بلاد وقرى ومياه وجبال وأودية باليمن ، يكون الى جنوبه الشحر ، والى شرقه عجمان والى غربه صنعاء : قريب من البحر وفيه رمال واسعة كثيرة تعرف بالأحقاف ، وهذا الصقع كثير الجبال والأودية وهو في جملته قاحل ، والبلد نفسها صغيرة ضئيلة الشأن ، راسل أهلها رسول الله ﷺ فدخلوا في طاعته صلحاً ، وقدم عليه الأشعث بن قيس في بضعة عشر راكباً مسلماً في وفد فأكرمه الرسول (١)

وأغلب قوت أهلها التمر ، لأن بها نخلاً كثيراً ، وقد كشفت الحفريات الآن في هذا القطر عن مدن خربة عليها كتابات بالخط المسند ، مما يدل ان لسكانه في القديم شأنأ يذكرو .

(١) ياقوت ، وقد اهتم بعض القدامى من المؤلفين بما حظيت به من كثرة الاولياء ، ورأوا في تسجيل ذلك عوضاً مما فاتهم من خصب وسعة فقال القزويني في عجائب المخلوقات : « نقل شيخنا عن تفسير أبي الحسن البكري في قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها) : يستثنى من ذلك أهل حضرموت لأنهم أهل ضنك وشدة ، وهي تنبت الاولياء كما تنبت البقل وأهلها أهل رياضة .

يتخذ بها نعال جيدة ذات شهرة وتنسب إليها فيقال : نعل
حضرية وهي الملسنة من النعال .

* * *

تقوم السوق في رابية بحضرموت فتعرف أيضاً بسوق الرابية ،
من منتصف ذي القعدة حتى آخره ، وربما قامت هي وعكاظ في يوم
واحد ، فكان بعض الناس يأخذ الى عكاظ وبعضهم يتوجه الى رابية
حضرموت ، وهذه السوق خاصة بمن حولها ، ولكن كثيراً ما يأتيها
الناس من بعيد ، ولقریش قوافل الى هذه السوق ترسلها في تجاراتها ،
وكثير من العرب يجوزها الى غيرها ولا يحضرها ، ونظراً لانتقطاعها
عما حولها لم يستغن قاصدها عن دليل وخفير قال المرزوقي :

أما الرابية فلم يكن يصل إليها أحد إلا بخفارة ، لأنها لم تكن
أرض مملكة ، وكان من عز فيها بز صاحبها ، فكانت قریش تتخفر
ببني آكل المرار من كندة ، وسائر الناس (يتخفرون) بآل مسروق
ابن وائل الحضرمي ، فكانت مكربة لأهل البيتين ، وفضل أحدهما
على الآخر كفضل قریش على سائر الناس ^(١) .

فيستفيد هذان الحيان من الخفارة والدلالة معاً رجاً مادياً إذ كان
كسبهم من أولئك التجار الذين يمشون بين أيديهم بسلاحهم يحرسون
بضائعهم ويحمون حياتهم ويدلونهم على الطريق .

سوق عكاظ

عكاظ^(١) هي المعرض العربي العام أيام الجاهلية ، معرض بكل ما لهذه الكلمة من مفهوم لدينا نحن أبناء هذا العصر ؛ فهي مجمع أدبي لغوي رسمي ، له محكمون تضرب عليهم القباب ، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأديبهم ، فما استجادوه فهو الجيد ، وما بهرجوه فهو الزائف . وحول هذه القباب الرواة والشعراء من عامة الأقطار العربية ، فما ينطق الحكم بحكمه حتى يتساقل أولئك الرواة القصيدة الفائزة فتسير في أغوار الجزيرة وأنجادها ، وتلهج بها الألسن في البوادي والحوضر . يحمل الى هذه السوق التهامي والحجازي والنجددي والعراقي واليامي واليمني والعماني ، كل ألفاظ حية ولغة قطره ، فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نخلًا واصطفاءً حتى يتبقى الأنسب الأرشق وي طرح المجفوء الثقيل .

وهي السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة ، يحمل إليها

(١) ورد في (عكاظ) الصرف وعدمه . وقد جربنا على منعه لأننا رأينا المنع هو الأكثر فيها والأشهر :

من كل بلد تجارته وصناعته كما يحمل إليها أدبه ، فإليها يجلب الخمر من هجر والعراق وغزة وبصري ، والسمن من البوادي ، ويرد إليها من اليمن البرود الموشاة والأدم ، وفيها الغالية وأنواع الطيب وأدوات السلاح .

ويباع فيها الحرير والوكاء والحذاء والمسير والعدي ، يحملها إليها التجار من معادنها ، وفيها من زيوت الشام وزبيها وسلاحها ما اعتادت قريش أن تحمله في قفولها إلى مكة . ويعرض فيها كثير من الرقيق الذي ينشأ عن الغزو وسي الذراري فيباع فيها يبيع المتاع التجاري^(١) .

ويبيع فيها كل غاز سلبه وكثيراً ما يكون هذا البيع سبياً في قتل صاحبه إذا أبصر السلاح أحد من ذوي المقتول فعرفه ، فإنه يضمها في نفسه وينتظر أن يظفر بالرجل ليأثر منه .

(١) من ذلك أم عمرو بن العاص ، فقد كانت سبية بيعت في عكاظ ، عرفنا أمرها في خبر طريف يقصه ابن عبد ربه ، « خاطر رجل إلى أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو في الخطبة فيقول : : (أيها الأمير ، من أمك ؟) ، ففعل ؛ فقال له : « النابتة بنت عبد الله : أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ ، فاشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل ، فولدت فأنجبت ، فإن كانوا جدوا لك شيئاً فخذها ! » - العقد الفريد ٦٣/١ (سنة ١٩٤٠) .

وقد كانت تجارة فارس يصل منها أشياء الى عكاظ : فإن النعمان ابن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق عكاظ كل عام لطيمة (وهي في الأصل العير المحملة مسكاً) في جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها له ويحميها من كل معتدٍ حتى تصل سالمة الى عكاظ فتباع هناك ويشترى بثمرها ما يحتاج إليه من آدم (جلود) الطائف وسائر المتاع في عكاظ : من حرير وعصب مسير ، ويبيعت فيها حلة ذي يزن فاشتراها حكيم بن حزام ليهدىها رسول الله ^(١) ، بل إن عكاظ نفسها مشهورة بما يعرض فيها من جلود حتى قالوا : « أديم عكاظي » نسبة إليها .

حتى البضائع المجهولة الأصل المعروضة في عكاظ تجد من شرائع القوم وأعرافهم التي التزموها ما يجعلها كاسدة لا يرغب فيها أحد ، فهذا بعض لصوص العرب « قرب إبلاً للبيع في سوق عكاظ وكان أغار عليها من كل وجه ، فلما عرضها قيل له : « مانارك ؟ » (أي ماسمة إبلك ؟) وكانوا يعرفون علامة كل قوم التي يسمون إبلهم بها ويعرفون كرمها من لؤمها) ، فلما كثر ذلك عليه أنشأ يقول :

(١) انظر تفصيل هذا الخبر في تهذيب تاريخ ابن عساكر ص ٤١٤ ، ٤١٥

يسألني الباعة أين نارها إذ زعزعتها فسمت أبصارها
كل نجار إبل نجارها وكل نار العالمين نارها ^(١)
وهي معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية :
فها هنا (قس بن ساعدة) يخطب الناس ، يذكر الخالق ويعظمهم بمن
كان قبلهم ويأمرهم بفعل الخير ^(٢) . وهناك خالد بن أرطاة الكلبي تتبعه
قبيلته وقد جاء لينافر جرير بن عبد الله البجلي ومع هذا حية أيضاً
وقد ساق كل منهما مالا عظيماً ينافر عليه ، وعرضا الحكومة على
رجال قريش فأبوا أن يحكموا خوف الفتنة بين الحيين ، فالرجلان
في عكاظ ينتظران الأقرع بن حابس ليقوم بهذه الحكومة وقد ساقا
الرهن فوضعوها عند عتبة بن ربيعة ^(٣) دون جميع من شهد على ذلك
المشهد ، وها هنا عمر بن الخطاب في الجاهلية يصارع ^(٤) ، وثمة كاهن

(١) و يروى البيتان هكذا :

يسألني الباعة ما نجارها إن زعزعوها فسمت أبصارها
فكل دار لأناس دارها وكل نار العالمين نارها - بلوغ الأرب ١٦٣/٢

(٢) زعم أحد الكتاب أنه كان بعكاظ (أسقفية) للنصارى - انظر مجلة

المشرق (السنة ٣٥) ص ٨٤

(٣) انظر تفصيل ذلك في رسائل الجاحظ ص ١٠٢ (جمع السندوبي) ،

وبلوغ الأرب ٣٠١/١ - ٣٠٥ وغيرهما .

(٤) طبقات ابن سعد ٢٣٥/١

وعراف وعائف وقائف ، وقرد ، وغنم ، وصحيفة وكاتب .
وهناك أناس من غواة الشهرة : هذا يمد رجله وينشد شعراً
ويقول : « من كان أعز العرب فليقطع رجلي » وآخر يأتي عكاظ
بيناته ترويحاً لزوجهن ، وأناس قدوها ليختاروا من يتزوجون إليه ..
قال المرزوقي :

كان في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب : كان
الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد ، والحلة الحسنة ، والمركوب
الفاره ، فيقف بها وينادي عليه : « ليأخذه أعز العرب » يريد بذلك
معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته .
وكان كسرى يبعث في ذلك الزمان بالسيف القاطع والفرس
الرائع والحلة الفاخرة فتعرض في تلك السوق وينادي مناديه : « إن
هذا بعثه الملك الى سيد العرب » فلا يأخذه إلا من أذعنت له العرب
جميعاً بالسودد فكان آخر من أخذه بعكاظ حرب بن أمية ، وكان
كسرى يريد بذلك معرفة ساداتهم ليعتمد عليهم في أمور العرب
فيكونوا عوناً له على إعزاز ملكه وحمايته من العرب .. ^(١)

(١) مثير العزم الساكن في فضائل البقاع والاماكن لابن الجوزي ،
مخطوطة بدار الكتب الظاهرية (أدب ٤٦) الكراس الخامس عشر .

وهي أيضاً ندوة سياسية عامة ، تقضى فيها أمور كثيرة بين القبائل : فمن كانت له إتاوة على قبيلة نزل عكاظ فجاؤوه بها ، ومن اراد تخليد نصر لحيه فعل فعل عمرو بن كثوم فرحل الى عكاظ وخلده فيها شعراً ، ومن اراد إجارة أحد هتف بذلك في عكاظ حتى يسمع عامة الناس ، ومن اراد اعلان حرب على قوم أعلنه في عكاظ ، حتى (جمعية الأمم) او (هيئة الامم المتحدة) وماقامتاه من مجهود (رسمي) في سبيل السلم الخاص ، كان لها صورة مصغرة تشبهها بحسب الظاهر (لا في الحقيقة ، لأن عكاظ لم تكن ترائي فتستغل الدعاية الشريفة لتسيغ للقوي أكل الضعيف) ، فقد روى الأصفهاني أنه : « اجتمع ناس من العرب بعكاظ منهم قرّة بن هبيرة القشيري والمخبل وهو في جوار قرّة ، في سنين تتابعت على الناس فتواعدوا وتوافقوا ألا يتغاوروا حتى يخصب الناس ! »^(١) ولا يخفى علينا أنه كانت تكون في عكاظ « وقائع مرة بعد مرة »^(٢) .

وكانت هذه السوق تقوم من العرب يومئذ مقام الجريدة الرسمية في أيامنا هذه وقد تقدم آنفاً شيء من ذلك في أمر الجوار وأخبار

(١) الاغانى ١٤ / ٣٧

(٢) بلوغ الارب. ١ / ٣٦٨

الحروب . فن أتى عملاً شائناً تأباه مروة العربي شهروا أمره بعكاظ
ونصبوا له راية غدر ^(١) فعرفوه فلعنوه واجتنبوه ، ومن أراد أن
يستلحق امرأ بنسبه استلحقه وأعلن ذلك للناس في عكاظ ، ومن أراد
التبرؤ من قريب لسبب ما ، تبرأ منه علناً ، فإذا أتى بعد ذلك جريمة
أو خيانة كان المتبرئ - في عرف العرب يومئذ - في حل مما أتى
قريبه : ذكروا « أن قيس ابن الحداذية من شعراء الجاهلية ، كان
شجاعاً فأنكأ صعلوكاً خليعاً ، وقد جر على قومه خزاعة عتاً وإرهاقاً
كبيراً ، فخلعته خزاعة بسوق عكاظ وأشهدت على نفسها بخلعها إياه
فلا تحتل جريمة له ولا تطالب بجريمة يجزها أحد عليه ^(٢) . »

وإذا أطلق لقب على أحد في عكاظ عرف صاحبه به ، وجرى
له مجرى اسمه واسم أبيه : قاتل أبو ربيعة بن المغيرة من قريش يوم

(١) لم يقتصر هذا على عكاظ ، بل نجد نحواً منه في عامة المراسم ولا سيما
مراسم الحج ، فإذا غدر الرجل بجاره أوقدوا النار في أيام الحج على أحد
الأخشبين ثم صاحوا : هذه غدره فلان ليحذره الناس ، - بلوغ الأرب ١٦٢/٢
وهذه زهير بن أبي سلمى بني عبد الله بن غطفان ان لم ينصفوا بقوله :

وتوقد ناركم شرراً ويرفع لكم في كل جمعة لواء

العقد الثمين ص ٣١

(٢) الاغاني ٢٠/١٢ .

شرب (وهو من أيام عكاظ) برعحين فسمي ذا الرمحين وبه يعرف ، وثبت في هذه الحروب من قريش أولاد أمية بن عبد شمس الستة وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو فسموا (العنابس) والعنيس الأسد ^(١) . وأمثال ذلك .

وغني عن البيان أيضاً ما يدخره الصغار الذين يصطحبهم أهلهم الى عكاظ من ذكريات عن تلك السوق لا تنسى ، هذه خولة بنت ثعلبة ^(٢) تستوقف عمر بن الخطاب في خلافته فيقف لها فتقول : « إيهأ يا عمر ، عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ تزرع الصبيان بعصاك ، فلم تذهب الايام حتى سميت عمر ، ولم تذهب الايام حتى سميت امير المؤمنين ! » ^(٣) وخير ما يعطينا صورة واضحة عن عكاظ أن نعرض لأهم الأحداث التي جرت فيها ، فتمثل بوساطتها أحوال العرب في هذه السوق الكبرى ، في بيعهم وشرائهم وتخاصمهم وتفاخرهم وحربهم

(١) القاموس مادة (عنيس)

(٢) التي سمع الله كلامها من فوق سبع سموات وأنزل فيها « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله .. » انظر خبرها في كتابي (الاسلام والمرأة) ص ٣٩

(٣) اجتماع الجيوش الاسلامية لابن قيم الجوزية ص ٦٨

وسلمهم ، فإن في ذلك تفصيل ما أجملت ^(١) .

وأشد ما يثير الاستغراب ؛ هذا الشبه الكبير بين عكاظ ومعارض هذا العصر ، بل إن عكاظ لأوسع مدى فيما يعرض فإنه لا يقتصر على مواد التجارة والصناعة بل يتعداهما إلى الأدب والشعر والحرب والسلم والعادات . . . فإذا أنا أفضت في وصف عكاظ وما فيها ، فإن ذلك إفاضة في وصف سائر أسواق العرب أيضاً ، فليس فيهن سوق تساميهما . وما جرى في عكاظ جرى قريب منه في بقية الأسواق مع مراعاة صغر هذه واقتصارها أحياناً على أهل ناحية واحدة ، فليكن تاريخ عكاظ إذناً تاريخاً لكل أسواق العرب ، وتاريخاً لكثير من عاداتهم الاجتماعية أيضاً .

* * *

(١) هذه الاخبار مبثوثة في بطون الاسفار وقد لقيت في جمعها وتبويبها من المصابرة والعناء نصيباً غير يسير ، فانه ليس لدينا تفصيل جلي عن عكاظ مجموع في موطن واحد ، وأوسع فصل عنها هو ما ذكره الألوسي رحمه الله في بلوغ الأرب ، ويكاد يقتصر هذا الفصل على ذكر حروب عكاظ وتنتف تتعلق بالمفاخرة وهو شيء لا ينفع غلة ولا يكاد يرسم الخطوط الاولى للصورة . ونحن نعلم أن الكلمة والكلمتين والثلاث ، والسطر والسطرين . . مما يكون عرضاً في خبر من الاخبار ، قد يكون له من البلاء الحسن في الكشف عن الحقائق والدلالة على العادات ، مالا يكون للفصل المطول تفرؤه في موضوع واحد .

عكاظ نخل في واد بين مكة والطائف على مرحلتين من مكة
ومرحلة من الطائف ، وموقعها جنوب مكة إلى الشرق . هذا زبدة
ما يستخلص من تعاريفهم المتضاربة في عكاظ^(١) تقوم السوق في
مكان منه يعرف بالأثداء فيه مياه ونخل ، وهو مستوٍ لا علم فيه ولا
جبل إلا ما كان من الأنصاب التي كانت لأهل الجاهلية ، وبها من دماء

(١) من حسن الحظ أن ذهب فتحري موضعها بنفسه باحث عربي فوصفه
لنا . وهو السيد خير الدين الزركلي الشاعر في كتابه (مارأيت وما سمعت)
ص ٧٩ قال : « على مرحلتين من مكة للذهاب إلى الطائف في طريق السيل ،
يميل قاصد عكاظ نحو اليمن ، فيسير نحو نصف الساعة فإذا هو أمام نهر في باحة
واسعة الجوانب يسمونها (القانس -- بالكاف المعقودة) وهي موضع سوق
عكاظ ... وهذه الباحة هي مجتمع الطرق إلى اليمن والعراق ومكة ، وهي
مرتفعة تشرف على جبال اليمن ... والواقف فيها يرى على مقربة منه موضعين
مرتفعين أحدهما يسمى الدمة (بكسر ففتح) والآخر البهينة (بصيغة التصغير)
وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل إلى الطريق التي يمر بها سالكو
درب السيل .. وسمعت كثيراً من أهل الطائف يقولون : إن عكاظاً كان في
مكان يعرف اليوم باسم (القم-اوي) في وادي لية من الطائف . غير أن
الشيوع يؤيد ما قلناه آنفاً من أنه هو (القانس) نفسه وعليه أكثر العارفين من
أهل هذه الديار » .

هذا وقد نشر الدكتور محمد حسين هيكل كتابه « في منزل الوحي » بعد
صدور الطبعة الأولى من كتابنا هذا بنحو سنة ، فإذا فيه بحث عن عكاظ
وقد رجح المؤلف أن موضعها جنوب الطائف مستنداً إلى قول (ابن رسته) =

البدن كالأرحاء العظام^(١) . كانوا يطوفون حول صخور فيها ، وربما

= في الاعلاق النفيسة والى أن (مولر) رسم خريطة الادريسي الغامضة وحل ألغازها فكانت عكاظ جنوب شرقي الطائف أما قول ابن رسته فليس فيه تصريح بذلك وأما حل مولر للغاز خريطة الادريسي فلن يقف بحال لما تضافر عليه باحثو العرب قدماؤهم ومحدثوهم ، وخريطة الادريسي نفسها حافلة بالاغلاط ، ثم ينقل عن المسترغلي رأيه في أن عكاظ في مكان السيل الصغير ص (٣٨٠) وقد مضى المؤلف بالسيارة الى حيث قيل له ورجع أن السوق كانت في موضع السيل الكبير ص ٣٨١ .

وخلو مصادر الدكتور هيكل من (أسواق العرب) دليل على أن هديتنا اليه لم تصله وقد أرسلناها اليه بعنوان (مجلة السياسية الاسبوعية) قبل صدور كتابه (في منزل الرحي) بعشرة اشهر . وكان الظن بمثله أن يطلع على الكتاب وقد كتب عنه في المجلات العلمية قبل طبعه المذكور .

وفي شهر رمضان ١٣٧٠ هـ (تموز ١٩٥١ م) اي بعد صدور الطبعة الاولى من (اسواق العرب) بـ ١٤ سنة نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (ص ٣٧٧ / ٢٦) محاولة للسيد حمد الجاسر في تحديد السوق فإذا به يجعلها شرقي الطائف اي لاعلى طريق القاصد من مكة الى الطائف (في نحو ثلثي الطريق) على ما في تعاريف القدماء . ومع ما بذل من جهد فإن النفس لا تطمئن الى مذهبه مع اعترافه بأن اغلب الاعلام التي كانت حول عكاظ لاتعرف اليوم . ومع هذا فقد يوفق باحث في المستقبل الى الصواب المقنع .

ولما زرت الطائف بعد أيام الحج سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩ م) حرصت أن أرجع بإيشفي النفس وتفرجت على المسيل الذي وصفوه ، وسألت العارفين وخرجت بصحبة وجه الطائف السيد محمد صالح نصيف وعرفت منه ان الذي = (١) معجم ما استعجم للبكري ٦٦٠ ومرصد الاطلاع وياقوت .

كان ذلك شعيرة من شعائرهم فقد ذكروا أنهم كانوا يحجون إليها .
وبالأثداء كانت أيام الفجار .

والظاهر أن ما يطلق عليه (عكاظ) من الأرض متسع فسيح
فيه حرار وفيه أرضون مسقية ذات نخيل . وقد مر في حروب الفجار أن
(شرباً) من عكاظ ، وأن (العباء) إلى جنب عكاظ ، وأن (شمطة) موضع
في عكاظ وأن (الحريرة) حرة إلى جانب عكاظ . مما يلي مهب جنوبها ،
وعرفت أن بني نصر صبروا مع ثقيف لأن عكاظ بلدتهم وذلك الذي أحاطهم .
ولا شك أن أرضاً اتسعت بعض أجزائها لمعارك عدة أرض
فسيحة واسعة ، وبذلك نفهم كيف كانت السوق تتنقل في عكاظ
فلا تلازم بقعة واحدة لاتحاد عنها يمينا ولا شمالاً على مدى
السنين المتطاولة .

وهي وما جاورها ديار قيس عيلان وهو ازن منهم خاصة .
وقد عرفت من حرب الفجار ص ١٧٠ أن قريشاً بادرت من

= استقر عليه رأي الباحث المرحوم السيد رشدي ملحس وابن بليهد وسمو الامير فيصل
في عكاظ : انها منتقلة على ارض تمتد من جنوبي العشيرة الى المسيل الصغير (الحاوية) .
وأظن جهداً يبذله الافاضل العارفون من اهل تلك الناحية موصل الى
الكشف عن موضع عكاظ بما يزيل كل ريب ان شاء الله .

عكاظ مسرعة إلى الحرم خوفاً من هذه القبائل بعد قتل البراض ،
إذ كانت عكاظ في ديارهم ، وهم بها أكثر ما يكونون منعة وعددا .
أما اشتقاق عكاظ ولم سميت بهذا الاسم ، فقد ذهب اللغويون
فيه مذاهب ، وقلبوا الكلمة على معانيها المختلفة : فالقهر والحبس ورد
الفخر والتجادل والتجاج . . . كل هذه معان للعكظ وكلها صالحة
لأن يعلل بها التسمية فيقول قوم : سميت عكاظ لأن العرب كانت
تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضاً في المفاخرة أي يقهره ويعرکه ،
وقال آخرون إنها من تعكظ القوم إذا تحبسوا لينظروا في أمورهم ،
وذهب غيرهم إلى أنها من التعاكظ بمعنى التفاخر .

تقوم هذه السوق في ذي القعدة ، وللعلماء بعد خلاف في تعيين
أيامها من هذا الشهر ، فالمرزوقي يجعلها تبدأ من نصفه حتى آخره ،
وآخرون يجعلون وقتها في شوال (١) إلا أن الأكثرين على أنها تبدأ
من أول ذي القعدة وتستمر حتى العشرين منه ، إذ تبدأ سوق مجنة
فيرتحل إليها الناس وهي أقرب من مكة ، فإذا أهل ذو الحجة انقشع
الناس من مجنة إلى ذي المجاز قرب عرفة وبقوا فيها حتى يوم التروية
فيبدأ الحج .

(١) ذكره صاحب مرصد الاطلاع وبقوت في إحدى روايته .

ويمكن جمع الأقوال المتقدمة بأن عكاظ قد تحفل بالناس في شوال ويتم تقاطرهم إليها في ذي القعدة : الزمن الرسمي للسوق . وحين تذهب جماعاتهم الى مجنة في العشرين من ذي القعدة يتخلف كثير ممن لم يكن أنهى بيعه وشراؤه فلا يتم خلوص السوق تماماً إلا في غرة ذي الحجة عند اقتراب الحج ^(١) .

والسوق لقيس بن عيلان وثقيف وهي بمعكد هوازن ، وأرضها لنصر ، حتى لقد منعت هوازن قريشاً مرة من حضور عكاظ ، فقد روى الهمداني أنه لما طرد عبد الله بن جدعان القرشي مئة ناقة لكلاب ابن ربيعة من هوازن ، أرسل هذا الى قريش : « إن سفيهم أغار علي فطردنا ^(٢) مئة ناقة ، فليس لكم أن تشهدوا عكاظ ، ولي عليكم ترة ، وكان عكاظ في وسط أرض قيس عيلان ^(٣) » ونوت قريش قتل ابن جدعان لعدم استغنائها عن حضور السوق .

(١) هناك من نقل : أن لعكاظ غير تلك السوق السنوية التي تجتمع بها القبائل ، لها ايضاً سوق اسبوعية تقوم كل يوم أحد لليبيع والشراء . انظر (مدينة العرب في الجاهلية والاسلام) لرشدي ص ٥٩
(٢) كذا ولعلها (طرد لي)
(٣) الاكليل ج ٨ ص ١٨٤

ينزل السوق « قريش وهوازن وغطفان وخزاعة والأحباش
وعضل والمصطلق وطرائف من أفناء العرب ^(١) » يؤمونها من العراق
والبحرين واليمامة وعمان والشحر واليمن وسائر أطراف الجزيرة .
فهي عامة حتى إنه ليس فيها مكّاس ولا عشّار لأنه لم تكن في ملك
أحد من الأمراء . وقربها من مكة ومشاعر الحج ألبسها حرمة
تتقصف دونها مطامع الكبراء ، ولعل من أهم ميزاتها صفتها العامة
هذه ، أما الفصل بين الناس فيها فزعم المرزوقي « أن أمر الموسم
وقضاء عكاظ كان في بني تميم يكون ذلك في أفخاذهم : الموسم على
حدة ، وعكاظ على حدة ، وكان من اجتمع له ذلك منهم عامر بن الضرب
العدواني وسعد بن زيد مناة من تميم ، وقد فخر الخبيل بذلك في شعره فقال :
ليالي سعد في عكاظ يسوقها له كل شرق من عكاظ ومغرب
ثم وليه (فلان وفلان ..) حتى جاء الإسلام فكان يقضي
بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم ، وكان أبوه قاضيا في
الجاهلية ، فأت فصار ذلك ميراثا لهم ، وكان آخر من قضى منهم ووصل
إلى الإسلام الأقرع بن حابس . »

وكان الناس ينزلونها منحازين على مداعيمهم وراياتهم في المنازل ،

تضبط أمور كل قبيلة أشرافها وقادتها . ويختلط بعض الناس في بعض
إذا هبطوا بطن السوق للبيع والشراء .

تقيم العرب هؤلاء الأيام في عكاظ يهيمؤون للحج ويتبايعون
ويتناشدون ويتفاخرون ويتقارعون ويتنافرون ويتعاضمون ^(١) .
ولم يكن مجمع للعرب أحفل من عكاظ ، فكانوا يضربون بكثرة
أهلها المثل ، وبقيت لها هذه الشهرة بعد الإسلام ، فقد جاء في الأمالي :
أن عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب لما سئل عن قتله علياً
قال : « ضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ لقتلتهم » ^(٢) .

وكما كان يقوم بأمر الحكومة عامة فيها بنو تميم ^(٣) . كانت
الحكومة في الشعر للناطقة الذبياني .

لا عاشر لهذه السوق ، وأما بيعهم فيها فهو السرار وجس اليد ^(٤) .

(١) المفاخرة ان يتحاكم اثنان في : أيها آباؤه أكثر مفاخر . والمنافرة
ان يتحاكما في : أيها أعز نفرأ من صاحبه . والمعازمة ان يتحاكما في : أيها أعظم
مصيبة . والمقارعة شبيهة بالمنافرة . هذا وقد يكتفي المتنافران بالحكم مجرداً
وقد يجعلان بينهما جعلاً الذي يحكم له بالغلبة ؛ لبلاً أو جارية أو مالا . . .

(٢) ج ٢ ص ٢٥٦

(٣) انظر كتاب (المخبر) ص ١٨٢

(٤) انظر فصل (بيوع الجاهلية) من هذا الكتاب ص ٤٦

وإليك الآن مثلاً مما كان يجري في عكاظ سياسة ومنافرة وفداء..
أسرى، وأدباً وحرباً ومتاجرة :

١ - منافرة

اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بموسم عكاظ ،
وقدم أمية بن الأسكر الكنانى وتبعته ابنة له من أجل أهل زمانها
فخطبها يزيد وعامر . فقالت أم كلاب امرأة أمية :

« من هذان الرجلان ؟ » فقال : « هذا يزيد بن عبد المدان، وهذا
عامر بن الطفيل . » فقالت : « أعرف بني الديان ، ولا أعرف عامراً . »
فقال : « هل سمعت بملاعب الأسنة ؟ » فقالت : « نعم » قال : « فهذا
ابن أخيه » وأقبل يزيد يفاجر خصمه فقال :

- « يا أمية إن ابن الديان صاحب الكتبية ورئيس مذحج ومكلم
العُقَاب ، ومن كان يصوب أصابعه فتنتطف دماً ويدلك راحتيه
فتخرجان ذهباً . »

فقال أمية : - « بخ بخ ! مرعى ولا كالسعدان ^(١) »

(١) في مجمع الأمثال للميداني : السعدان أخثر العشب لبناً ، وإذا خثر لبن
الراعية كان أفضل ما يكون وأطيب وأدسم . ومنابت السعدان : السهول . وهو
من أنجع المراعي في المال ، ولا يحسن على نبت كما يحسن عليه . ثم ذكر رويبتين في أول من
أرسل هذا المثل : الأولى أنه الحنساء الشاعرة ، والثانية - رواء عن المفضل - : أن قائلة
امرأة من طيء كان تزوجها امرؤ القيس . وارجع الى القصة هناك .

(فأرسلها مثلاً) :

فقال يزيد : - يا عامر ! هل تعلم شاعراً من قومي سار بمدحة
إلى رجل من قومك ؟

قال : اللهم لا .

قال : فهل تعلم أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي ؟

قال : اللهم نعم .

قال : فهل لكم نجم يمان أو برد يمان أو سيف يمان أو
ركن يمان .

قال : لا

قال : فهل ملكناكم ولم تملكونا ؟

قال : نعم

فنهض يزيد وأنشأ يقول مخاطباً أبا البنت

أميَّ يابن الأسكر بن مدلج لا تجعلن هوازناً كمدحج

إنك إن تلجج بأمر تلجج ما التبع في مغرسه كالعوسج

ولا الصريح المحض كالممزج

فزوج أمية يزيد بن عبد المدان ابنته . ثم لجج التهاجي بين الرجلين .

٢ - في سبيل بني

وافى معاوية بن عمرو بن الشريد ، عكاظ في موسم من مواسم العرب ، فبينما هو يمشي بسوق عكاظ إذ اتي أسماء المُرّية ، وكانت جميلة ، وزعم أنها كانت بغياً فدعاها إلى نفسه فامتعت عليه وقالت : « أما عامت أني عند سيد العرب هاشم بن حرملة ؟ » فأخفظته فقال : « أما والله لأقارعنّه عنك . » قالت : « شأنك وشأنه . »

فرجعت الى هاشم فأخبرته بما قال معاوية وما قالت له فقال هاشم :

« لعمرى لانريم أياتنا حتى ننظر ما يكون من جهده . »
ثم مضى عام وأصاب قوم هاشم غرة من معاوية فقتل في خبر طويل ، وكان بين الحيين يوم حوزة الأول ويوم حوزة الثاني ويوم ذات الأثل ويوم ملحان وهي من أيام العرب المشهورة الطافحة أدباً وشعراً ورجزاً . ولها الفضل في إتخاف اللغة العربية بأكثر قصائد الخنساء لأنها أخت معاوية هذا وأخيه صخر ، فلهذه الأيام قالت الخنساء أبلغ الرثاء في الشعر العربي .

٣ - خطّة عمرو

لقي زُرعة بن عمرو بن خويلد النابغة بعكاظ ، فأشار عليه أن
يشير على قومه بقتال بني أسد وترك حلفهم ، فأبى النابغة العذر ، فبلغه
أن زُرعة يتوعدّه فقال من قصيدة :

نبث زُرعة والسفاهة كاسمها	يهدي إليّ غرائب الاشعار
فحلفت يازرع بن عمرو إنني	رجل يشق على العدو ضراري
أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني	تحت العجاج فما شقت غباري
أنا اقتسمنا خطبتنا بيننا	فحملت برة واحتملت فجار ^(١)
فلتأتينك قصائد وليدفعن	جيشاً إليك قوادم الأكوار ^(٢)
رهط ابن كوز محقي أذراعهم	فيهم ورهط ريعة بن حذار. و..
وبنو جذيمة حي صدق سادة	غلبوا على خبت إلى تعشار
ممكنني جني عكاظ كليهما	يدعوبها ولدانهم عرعار ^(٣) . الخ

وهكذا لم يخنع للتهديد قاضي الشعراء في عكاظ ، بل التزم

(١) برة اسم مرتف للبر . وفجار : اسم للفجور .

(٢) الكور : رجل الناقة . والقادمة مقدمته .

(٣) عرعار : لعبة لصبيان الاعراب ، كانوا يتداعون بها ليجتمعوا للعب .

يعني انهم آمنوا وصبيانهم يلعبون في عكاظ .

الوفاء وشهر هذا الذي يريد أن يحمله على الغدر تشهيراً يدرك عاره كل من في عكاظ .

٤ - معاذمة في المصائب

أيام حوزة والأثل وملحان ، ذهبت بوالد الخنساء عمرو بن الشريد وبأخويها صخر ومعاوية ، فطفقت الخنساء تبكي قتلها ولا تزدد على الأيام إلا إعظاماً لمصبتها فقرتحت أجفان الناس بما بكت على هؤلاء وخاصة أخاها صخرا .

انحدرت هذه الشاعرة العظيمة إلى عكاظ تسجل فيها رسمياً أنها أعظم العرب مصيبة ، فليس أحد أصيب بما أصيبت ، فكانت تنزل كل عام على هودج سوّمته لتلفت إليها الأنظار ، وجرت على هذه العادة أعواماً .

ثم كانت وقعة بدر، التي انتصف فيها الاسلام من مناوئيه وقتل فيها من أعدائه صناديد قريش : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد ابن عتبة . « فأقبلت هند بنت عتبة ترثيهم . وبلغها تسويم الخنساء هودجها في الموسم ومعاظمتها العرب بمصبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية ، وأنها جعلت تشهد الموسم وتبكيهم وقد

سومت هودجها براية وأنها تقول : « أنا أعظم العرب مصيبة » وأن العرب قد عرفت لها بعض ذلك ، فلما أصيبت هند بما أصيبت به وبلغها ذلك قالت : « أنا أعظم من الحنساء مصيبة . » وأمرت بهودج فسوم

براية وشهدت الموسم بعكاظ وجعلت تندب قتلاها بقولها :

من حسّ لي الأخوين كما غصنين أو من راهما

قرمان^(١) لا يتظالما ن ولا يرام حاهما

ويلي علي أبوي وال قبر الذي واراها

لامثل كيلي في الكهو ل ولافتي كفتاهما . . . الخ

وقالت : « اقرنوا جملي بجمل الحنساء » ففعلوا ، فلما أن دنت منها

قالت لها الحنساء : « من أنت يا أختي ؟ » قالت : « أنا هند بنت عتبة ،

أعظم العرب مصيبة ، وقد بلغني أنك تعاضمين العرب بمصيبتك

فبم تعاضمينهم ؟ »

فقالت الحنساء : « بعمر و بن الشريد وصخر ومعاوية ابني عمرو ،

وبم تعاضمينهم أنت ؟ »

قالت : « بأبي عتبة بن ربيعة وعمي شيبه بن ربيعة وأخي الوليد

ابن عتبة . »

(١) القرّان : الفعل ، السبد .

قالت الخنساء « أو سواء هم عندك ؟ ! » ثم أنشدت تقول :

أبكى أبي عمراً بعين غزيرة قليل إذا نام الخلي هجودها
وصنوي ، لأنسى معاوية الذي له من سراة الحرتين وفودها
وصخراً ، ومنذا مثل صخر إذا غدا بساهمه الآطال قُباً يقودها ^(١)
فذلك ياهند الرزية فاعلمي ونيران حرب حين شب وقودها
فقلت هند تحبها :

أبكى عميد الأبطحين كليها وحاميهما من كل باغ يريد
أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي وشيبة والحامي الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب وفي العزم منها حين يُنمى عديدها
وأمر هند والخنساء هذا في عكاظ ، من أغرب ما يؤثر في باب
التنافس واعتناء الناس بمصائبهم واهتمامهم بالتنويه بها وتخليدها في
آدابهم ومحافلهم العامة . ولعل هذا المنظر ، منظر تينك السيدتين
لبلباسهما الاسود وجليهما المسوّمين ، أطرف منظر شهدته عكاظ .

(١) الساهمة : الضامرة . والآطال جمع أطل : وهو الحاصرة . والتشبُّ
جمع أقب وهو الدقيق الحصر الضامر البطن .

٥ - الفجار الاول

جلس بدر بن معشر الغفاري في مجلس له بعكاظ - وكانت بدر
رجلاً حدثاً منيعاً مستطيلاً بمنعته على من ورد عكاظ - فجعل يقول
ورجل على رأسه قائم :

نحن بنو مدركة بن خندف من يطعنوا في عينه لا يطرف
ومن يكونوا قومه يعطرف كأنهم لجة بجر مسدف^(١)
وهو باسط رجله يقول : « أنا أعز العرب ، فمن زعم أنه أعز
مني فليضرب هذه بالسيف فهو أعز مني » فوثب رجل من بني نصر
ابن معاوية فضربه على ركبته فأندرها ثم قال له : « خذها إليك أيها
المخندف » وأنشد وهو شاهر سيفه :

نحن بنو دهمان ذي التغطرف بجر لبحر زاخر لم ينزف

نبني على الأحياء بالمعرف

فتجاوز الحيان عند ذلك وثارا حتى كادت تكون فتنة ودماء .
ثم تراجعوا ورأوا أن الخطب يسير .
وهذا الذي هاج أول أيام الفجار بين كنانة وهوازن .

(١) التغطرفة : الخيلاء والعبث . والمستدرف : المظلم .

٦ - اناوة

كان لزهير بن جذيمة العبسي اناوة على هوازن ، و كان إذا كانت أيام عكاظ أتاها زهير ويأتيها الناس من كل وجه ، فتأتيه هوازن بالإنابة التي كانت له في أعناقهم ، فيأتونه بالسمن والأقط والغنم ... ثم إذا تفرق الناس عن عكاظ نزل زهير بالنفقات .

أمت زهيراً يوماً عجوز من هوازن ، بسمن في نحي ، واعتذرت إليه ، وشكت السنين التي تتابعن على الناس ، فذاقه زهير فلم يرض طعمه ، فدعسها (طعنها) بقوس في يده عطل في صدرها فاستلقت على قفاها فانكشفت وبدت عورتها ، فغضبت من ذلك هوازن واضطغنتها عليه ، مع ما كان في صدرها من الغيظ والحسد . فتدامرت عامر بن صعصعة يومئذ ، وتآلى خالد بن جعفر (من سراة هوازن) وقال : « والله لأجعلن ذراعي في عنقه حتى يقتل أو أقتل . » وجعلوه من شأنهم في حروب وأيام حتى ظفروا به فقتلوه .

٧ - ظفر بنار

« أقبل شأس بن زهير العبسي من عند النعمان بن المنذر ، وكان قد حباه بحباء جزيل ، وكان فيما حباه قطيفة حمراء ذات هدب ، وطيلسان وطيب ، فورد منعجاً (وهو ماء الغني) فأناخ راحلته إلى جانب الردهة ، وعليها خباء لرياح بن الأسل الغنوي ، وجعل يغتسل ، فناداه الغنوي : « استتر » فلم يحفل بما قال ، فقال : استتر ويحك ، البيوت بين يديك ، فلم يحفل ، وامرأة رياح تنظر إليه وهو مثل الثور الأبيض ، فاتزعه رياح بسهم فقتله ونحر ناقته فأكلها وضم متاعه وغيب أثره .

فقد شأس بن زهير ، ومكث قومه كذلك ماشاء الله حتى رأوا امرأة رياح هذه باعت بعكاظ قطيفة حمراء أو بعض ما كان من حباء الملك ، فعرفوها وعلموا أن رياحاً صاحب ثأرهم . فقزت بنو عبس غنياً قبل أن يطلبوا قوداً أو دية . وهرب رياح منهم ، وكان لعكاظ الفضل في معرفة القاتل إذ عملت في ذلك عمل رجال التحري اليوم .

بقي قوم شأس ووالده زهير خاصة يكثرون القتل في غني

ولا يشتفون ، وضرب الزمان ضرباته فالتقى خالد بن جعفر بن كلاب ، هو ووالد شأس القتيل العبسي في عكاظ في الشهر الحرام ، فقال خالد لزهير : « لقد طال شرنا منك يا زهير أما آن لك أن تشتفي وتكف ؟ » قال زهير : « أما والله ما دامت لي قوة أدرك بها ثأراً فلا انصرام له . » وأغلظ له زهير وحقره . وكان ذلك الكلام بينهما أمام رجال من قريش كانوا في عكاظ ، فلما حقره زهير وسبه قال خالد :

« اللهم أمكن يدي هذه ، الشقراء القصيرة من عنق زهير بن جذيمة ثم أعني عليه . »

فقال زهير : « اللهم أمكن يدي هذه البيضاء الطويلة من عنق خالد ثم خل بيننا . »

فقالت قريش : « هلكت والله يا زهير . » فقال : « إنكم والله الذين لا علم لكم . »

وكانت موازن توثي زهير بن جذيمة الإثارة كل سنة بعكاظ وهو يسومها الحسف وفي أنفسها منه غيظ وحقده .

ومضى الرجلان وتفرق الجمع عن عكاظ وبقي خالد وقومه يتربصون بزهير حتى وجدوا منه غرة فقتلوه .

وفي ذلك يقول خالد بن جعفر بن كلاب :

بل كيف تكفر في هوازن بعدما أعتقتهم فتوالدوا أحراراً
وقلت ربهم زهيراً بعدما جدع الأنوف وأكثر الأوتاراً
وجعلت مهر نسائهم ودياتهم عقل الملوك هجائناً وبكاراً

٨ - سيف بتار لصاحبه

قتل الحارث بن ظالم - وكان أحد الجبارين الفتاكين الذين
أضرموا الجزيرة فتناً ودماء - ، قتله ابن الحُصَّ التَغْلِي ، ثاراً بأبيه
الذي كان كاهن يزيد بن عمرو الغساني أمره بقتله الملك في
خير طويل ..

فأخذ ابن الحُصَّ سيف الحارث بن ظالم ، فألقى به عمكاظ في
الأشهر الحرم ، فجعل يعرضه على البيع ويقول : « هذا سيف الحارث
ابن ظالم . » فاشتراه قيس بن زهير بن جذيمة ، فأراه إياه فعلاه به
حتى قتله ثم أنشد قيس يرثي الحارث :

وما قصرت من حاضٍ دون سترها أبر وأوفى منك حارٍ بن ظالم
أعز وأحمى عند جار وذمة وأضرب في كلبٍ من النقع قائم^(١)

(١) حار في البيت الاول . مرخم حارث . وكبا الغبار : علا

٩ - شريف غير متقنع

كانت الفرسان إذا كانت أيام عكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضاً تقنّعوا كيلا يعرفوا ، وكذلك كان حال الشرفاء ، فإنه لا يوافي عكاظ شريف إلا على وجهه برقع ، مخافة أن يؤسر يوماً فيكبر فداؤه ، وكان طريف بن تميم العنبري من مشهوري شجعان العرب وفرسانهم ، لا يتقنع كما كانوا يتقنعون .

فوافي عكاظ يوماً وقد قتل رجلاً من بني شيبان . وتطوع منهم رجل للأخذ بشأره من طريف فقال لقومه : « أروني طريفاً » . فأروه إياه ، فجعل كلما مر به تأمله ونظر إليه فأمعن النظر . ففطن طريف فقال : « مالك تنظر إلي ؟ » فقال : « أتوسمك لأعرفك ، فله عليّ إن لقيتك يوماً أن أقتلك » .

فقال طريف في ذلك :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إليّ عريفهم يتوسمُ
فتوسمونني إنني أنا ذلّكم شاكي سلاحي في الحوادث معلّم
تحتي الأغر ، وفوق جلدي نثرة زغف ترد السيف وهو مثلّم^(١)

(١) النثرة : الدرع الواسعة . والزغف : الدرع اللينة أو الرقيقة . الحسنة

السلاسل . والشانيء : الكاره .

حولي أسيّد والهجوم ومازن وإذا حلت فحول بيتي خضم^(١)
ولكل بكريّ لديّ عداوة وأبوربيعة شانيّ ومحلم
فمضى لذلك ما شاء الله ثم ظفر الرجل بطريف في يوم من أيام العرب
فقتله ثأراً لقتيله .

١٠ - تأريب سفير

كان عبد الله بن جعدة سيّداً مطاعاً ، وكانت له إتاوة بعكاظ
يؤتى بها : يأتيه بها هذا الحي من الأزد وغيرهم ، فجاء سُمير بن
سامة القشيري وعبد الله جالس على ثياب قد جمعت له من إتاوته .
فأنزله عنها وجلس مكانه ، فجاء رياح بن عمرو بن ربيعة بن عقيل - وهو
الخليع ، سمي بذلك لتخلعه عن طاعة الملوك لا يعطيهم الطاعة - فقال
للقشيري : « مالك ولشيخنا تنزله عن إتاوته ونحن ها هنا حوله ؟ »
فقال القشيري : « كذبت ، ماهي له . » ثم مد القشيري رجله
فقال : « هذه رجلي فاضربها إن كنت عزيزاً . » قال : « لا لعمرى ،
لا أضرب رجلك . » فقال له القشيري : « فامددي رجلك حتى

(١) قبيلة العنبر بن عمرو بن تميم ، والجمع الكثير من الناس . وانظر تفصيل
هذا الخبر ومقتل طريف في يوم مبايض في العقد الفريد ٢٠٨/٥ (طبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٥ هـ) وبلوغ الأرب ٣٦٨/١

تعلم أضر بها أم لا ؟ » فقال : « ولا أمد لك رجلي ، ولكن أفعل ما لا تنكره العشيرة ، وما هو أعزّ بي ، وأذلّ لك » ثم أهوى الى رجل القشيري فسحبه على قفاه ونحّاه وأقعد عبد الله بن جعدة مكانه .

١١ - اغارة

أغار قيس بن عاصم المنقري على بني مرة بن عوف بن ذبيان ، فأسر أحد رجلين من هوازن ، جاورا في بني مرة . ففدى كل قوم أسيرهم من قيس بن عاصم ، وتركوا الهوازي فاستغاث أخوه بوجوه بني مرة فلم يغيثوه .

ركب الهوازي الى موسم عكاظ فأتى منازل مذحج ليلاً فنادى يذكر أسيره ومن استغاث بهم فردّوه :

دعوت سناناً وابن عوف وحاتثاً	وعاليت دعوى الحصين وهاشم
أعيذهم في كل يوم وليلة	بترك أسير عند قيس بن عاصم
حليفهم الأدنى وجار بيوتهم	ومن كان عما سرهم غير نائم
فصمّوا وأحداث الزمان كثيرة	وكم في بني العلات من متصامم
فيا ليت شعري من لإطلاق غنمة	ومنذا الذي يحظى به في المواسم

فسمع صوتاً من الوادي ينادي بهذه الأبيات :

ألا أيّذا الذي لم يُجَبْ عليك بجي يجلي الكرب

عليك بذا الحيّ من مذحج فإنهم للرضى والغضب
فناد يزيد بن عبد المدان وقيس وعمرو بن معد يكرب
يفكوا أخاك بأموالهم وأقلل بمثلهم في العرب
أولاك الرؤوس فلا تعدّهم ومن يجعل الرأس مثل الذنب؟

فاتبع الصوت فلم يرَ أحداً . فعدا على المكشوح قيس بن عبد
يغوث المرادي فقصّ عليه قصته وأمر الأبيات التي سمعها ثم قال له :
« بدأت بك لتفك أخى . » فقال المكشوح : « والله إن قيس بن
عاصم لرجل ما قارضة معروفاً قط ولا هو لي بجار ، ولكن اشتري
أخاك منه وعليّ الثمن ، ولا يمنعك غلاؤه . » ثم أتى عمرو بن
معد يكرب فقال له مثل ذلك وسأله : « هل بدأت بأحد قبلي ؟ » قال :
« نعم ، بقيس المكشوح . » قال : « عليك بمن بدأت به . » فتركه
وأتى يزيد بن عبد المدان فقال : « يا أبا النضر إن من قصتي كذا
وكذا ... » فقال له : « مرحباً بك وأهلاً ، أبعث الى قيس بن عاصم :
فإن هو وهب لي أخاك شكرته ، وإلا أغرت عليه حتى يتقيني بأخيك ،
فإن نلتها وإلا دفعت إليك كل أسير من بني تميم بنجران فاشتريت به
أخاك . » فقال أخو الأسير : « هذا الرضى » فأرسل يزيد الى قيس
ابن عاصم بهذه الأبيات :

يا قيس أرسل أسيراً من بني جُشم إني بكل الذي تأتي به جازي
لا تأمن الدهر أن تشجى بُغصته فاختر لنفسك إحمادي وإعزازي
فافكك أخا منقر عنه وقل حسناً فيما سئلت وعقبه يانجـاز
فبلغه الرسول ذلك وقال : « إن يزيد بن عبد المدان يقرأ عليك
السلام ويقول لك : « إن المعروف قروض ومع اليوم غد ، فأطلق
لي هذا الجشمي فقد استعان بأشراف بني جشم ، فلم يصب حاجته
فاستجار بي . ولو أرسلت الي في جميع أسارى مضر بنجران لقضيت
حقتك . » فقال قيس بن عاصم لمن حضره من تميم :

« هذا رسول يزيد بن عبد المدان سيد مذحج وابن سيدها ومن
لا يزال له فيكم يد ، وهذه فرصة لكم فها ترون ؟ » قالوا : « نرى أن
نغليه عليه ونحكم فيه شططاً فإنه لن يخذله أبداً ولو أتى ثمنه على ماله
كله . » فقال قيس :

« بشمار أيتم ، ألا تخافون سجال الحروب ، ودول الأيام ، ومجازاة
القروض ؟ » فأبوا عليه فقال : « يبعونه . » فاشتطوا بالثمن فتركه
بأيديهم واعتذر الى يزيد قائلاً : « إن الأسير بيد رجل من سعد وقد
اشتطوا في ثمنه . » فأرسل يزيد إلى السعدي وقال له : « احتكم . »

فقال : « مئة ناقة ورعاؤها معها . » فقال يزيد : « إنك لقصير الهمة ، قريب الغنى ، جاهل بأخطار بني الحارث ، أما والله لقد غبنتك يا أخا بني سعد ، ولقد كنت أخاف أن يأتي ثمنه على جلّ أموالنا ، ولكنكم يا بني تميم قوم قصار الهمم . » وأعطاه ما احتكم . وفك الأسير الذي بقي هو وأخوه مجاورين لمن فكّه حتى ماتا بنجران .

١٢ - صروب الفجار

اختلاط أحياء العرب بعضها ببعض ، وجمع عكاظ للأعداء المتنافرين في صعيد واحد ، وتحريمها قتال بعضهم بعضاً في أيامها التي هي في الأشهر الحرم ، لم يمنع الشغب بين الناس ولا الخصومة والنضال بالكلام أو الشعر . وكثيراً ما كان يهان أحد أفراد قبيلة بكلمة يثلبه بها خصمه من القبيلة المعادية فينادي : يال فلان ، وينادي الآخر : يال فلان ، ويهيج الشر بين القبيلتين . وكم جرّ من حروب على الحيّ سفهاؤه ، وما أكثر ما ألقى أراذل قوم كلمات غير مبالين ، فجرت من أجلها الدماء حتى أشرف الحيّان على الفناء والهلكة . وهذا ما وقع في أكثر أيام الفجار وهي حروب كانت في عكاظ بين قريش وكنانة من

جهة ، وهو ازن من الجهة الثانية . وقد تعددت الوقائع فيها مرة بعد مرة ولذلك يقول دريد بن الصمة :

تغيبت عن يومي عكاظ كليهما وإن يك يوم ثالث أتغيب
وإن يك يوم رابع لا أكن به وإن يك يوم خامس أتجنب^(١)
تعرف كتب الأدب والتاريخ من أحداث الفجار أربعة ، فأما
الرابع الذي هو أهمها وأكبرها فقد تقدم الكلام عليه في فصل مخصوص
أول الكتاب ص ١٦٢ .

وتكلم هنا عن أيام الفجار الثلاثة الأولى وهي جميعاً لم تنته
بحروب وإن كادت تشرف عليها ، لأن أسبابها تافهة ولأن عقلاء الفريقين
حاولوا دوت الشر ، وبذلك نلّم بأحوال سوق عكاظ
إماماً شافياً .

الفجار الأول : - تقدم آنفاً وهو حادث بدر بن معشر الغفاري
(ص ٣٠٠)

الفجار الثاني : - كان بين قريش وهو ازن^(٢) . وكان الذي هاجه

(١) بلوغ الأرب ٣٦٨/١

(٢) العقد الفريد

أن فتية من قریش جلسوا في سوق عكاظ إلى امرأة وضئنة من بني عامر بن صعصعة ، وقيل بل أطاف بها شباب من بني كنانة لا من قریش ، وعليها برقع وهي في درع فضل ، فأعجبهم ما رأوا من هيئتها فسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت عليهم . فأتى أحدهم من خلفها فشد ذيلها بشوكة إلى ظهرها وهي لا تدري . فلما قامت تقلص الدرع من خلفها فضحكوا وقالوا : « منعنا النظر إلى وجهها فقد رأينا خلفها . » ، فنادت المرأة : « يا آل عامر ! » فتحاور النار وكان بينهم قتال ودماء يسيرة فحملها حرب بن أمية وأصلح بينهم .

الفجار الثالث : - « وهو بين كنانة وهوازن ، وكنانة هم حلفاء قریش . وكان الذي هاجه أن رجلاً من بني كنانة كان عليه دين لرجل من بني نصر بن معاوية . وكان الكناني فقيراً ، فرآه دائنه النصري بسوق عكاظ ، ومع النصري قرد وافي به السوق . فوقف في السوق ونادى : « من يبيعني مثل هذا القرد بمالي على فلان الكناني ؟ » وجعل يعيد النداء حتى أكثر ، تعبيراً للكناني ولقومه . فر به رجل من بني كنانة فسمعه فحمي وضرب القرد بسيفه فقتله . فهتف النصري : يا آل هوازن ! وهتف الكناني : يا آل كنانة ! فهايج الناس حتى كاد

يكون بينهم قتال . ثم رأوا أن الخطب أيسر مما تكلفوا له فتراجعوا ولم يفقم الشر بينهم .

١٣ - واعظ

احتشد الناس في ناحية من عكاظ يتوسطهم شيخ وقور ، على وجهه سمات اليقين والخير ، وهو على جبل أورق ، قد أرهف الناس إليه آذانهم مصغين ، وأعينهم الى وجهه ، وقد شدلتهم الحيرة من ألفاظ تجري على لسانه من خبر السماء وما بعد الممات ، وعظات لا عهد لهم بمثلها في أحيائهم النائية وأوطانهم الشاحبة ، وإذا هو يخطبهم ويقول :

« أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهـر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجرأة ، إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعلوا ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ اأرضوا فأقاموا ؛ أم تركوا فناموا ؟

يقسم (قس) بالله قسماً لا إثم فيه : إن لله ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكراً :

في الزاهبين الأوليـ من من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الأكابر والأصاغر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر.

سمع الناس هذا ثم أخذت أبصارهم أولئك الذين يطوفون حول
الصخور في السوق ، فانصرفوا حيرى ، في أنفسهم شيء . وكان بين
المنصرفين غلام حدث ، هو صاحب الشريعة الاسلامية ﷺ . بقي
يذكر هذا المشهد حتى بعد أربعين سنة وقد طبقت الجزيرة دعوة
الإسلام فأغارت وأنجحت ، وقدمت على صاحبها وفود الأقطار
بالطاعة والإجابة ، وكان منهم وفد من إياد قوم قس ، وفدوا على رسول الله
فسمع منهم وقال لهم : « ما فعل قس بن ساعدة ؟ » قالوا : « مات
يارسول الله . » قال :

« كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورك وهو يتكلم
بكلام عليه حلاوة ، ما أجدني أحفظه . »

فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يارسول الله . « فتلاه عليه

فلما انتهى قال النبي ﷺ :

« يرحم الله قساً ، إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده .^(١) »

١٤ - تنافس شعراء

كان نابعة بني ذبيان تضرب له قبة من آدم بسوق عكاظ : يجتمع إليه فيها الشعراء . فدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى قد أنشده شعره و حكم له ، ثم أنشدته الخنساء قولها :

قذى بعينك أم بالعين عوار

حتى انتهت الى قولها :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وإن صخرأ لكافينا وسيدنا وإن صخرأ اذا نشتو لنحار

فقال النابعة : لولا أن أبا بصير (كنية الأعشى) أنشدني قبلك

لقلت : إنك أشعر الناس ، أنت والله أشعر من كل ذات مشاة .

قالت : « والله ومن كل ذي خصيتين . »

فقال حسان : « أنا والله أشعر منك ومنها . » قال : « حيث

تقول ماذا ؟ » قال : حيث أقول :

(١) قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين : « لقس ولقومه فضيلة ليست

لأحد من العرب ، لأن رسول الله ﷺ روى كلامه وموقفه على جملة بعكاظ وموعظته وعجب من حسن كلامه وأظهر تصويبه . وهذا شرف تعجز عنه

الاماني وتنقطع دونه الآمال . »

لنا الجففات الغري يلمعن بالضحي وأسيفنا يقطرون من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابناً
فقال النابغة : « إنك لشاعر لولا أن قلت عدد جفانك وفخرت بمن
ولدت ولم تفخر بمن ولدك ! »^(١)

١٥ - تزويج بنات

كان الأعشى يوافي سوق عكاظ في كل سنة . وكان المحلق الكلابي
مثنائاً مملقاً ، فقالت له امرأته « يا أبا كلاب ما يمنعك من التعرض
لهذا الشاعر ؟ فما رأيت أحداً اقتطعه الى نفسه إلا وأكسبه خيراً . »
قال : « ويحك ما عندي إلا ناقتي وعليها الحمل . »
قالت : « الله يخلفها عليك . » قال « فهل له بد من
الشراب والمسوح ؟ »

(١) وفي رواية ثانية : « إنك قلت (الجففات) ولو قلت الجفان لكان
أكثر ، وقلت (يلمعن في الضحي) ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ في
المدح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً ، وقلت (يقطرون من نجدة دماً)
فدللت على قلة القتلى ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم ، وفخرت بمن
ولدت ولم تفخر بمن ولدك » فقام حسان منكسراً . وأي الروايتين كانت فإن
حكم عكاظ خليق بنفوذ البصر وصحة النظر وقوة البديهة ، فما عن قليل رضيته
العرب بحكم في شعراء عكاظ .

قالت : « إن عندي ذخيرة لي ولعلي أن أجمعها . »

مرّ الشاعر فتلقاه المخلق قبل أن يسبق إليه أحد ، وابنه يقوده ،
فأخذ الخطام فقال الأعشى : « من هذا الذي غلبنا على خطامنا ؟ »
قال : « المخلق » قال : « شريف كريم . »

ثم سلمه إليه فأناخه فنحر له ناقته وكشط له عن سنامها وكبدها
ثم سقاه ، وأحاطت بناته به يغمزنه ويمسحته ، فقال : « ماهذه الجواري
حولي ؟ » قال المخلق : « بنات أخيك وهن ثمان شريدتهن ^(١) قليلة . »

ثم خرج الأعشى من عنده ولم يقل فيه شيئاً .

فلما وافى المخلق عكاظ ، إذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها
وإذا الأعشى ينشدهم قصيدته التي مطلعها :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق^١ وما بي من سقم وما بي تعشّق^٢
ولكن أراني لا أزال بجادث أغادى بما لم يمس عندي ويطرق

* * *

ومنها :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق^٣
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى و«المخلق»

(١) أي بقية أموالهن .

رضيحي لبان ثدي أم تقاسما بأسحمداج: عوض لا تتفرق^(١)
تري الجوديجري ظاهر أفوق وجهه كما زان متن الهندواني رونق
يداه يدا صدق : فكف مبيدة وكف إذا ماضن بالمال تنفق
ومنها :

أبا مسمع سار الذي قد فعلتم فأنجد أقوام به ثم أعرقوا^(٢) .. الخ
فما أتم الأعشى قصيدته إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه .
ثم أتى المحلق الأعشى فسلم عليه فقال الأعشى :

« مرحباً بسيد قومه » ثم نادى : « يامعشر العرب هل منكم
مذكر يزوج ابنه إلى الشريف الكريم . »

فتسابق الأشراف إليه جرياً ، يخطبون بناته لمكان شعر
الأعشى ، فما قام من مقعده وفيهن مخطوبة إلا وقد زوجها . ولم تمس
واحدة منهن إلا في عصمة رجل خير من أبيها وأفضل .

(١) اليفاع : الأرض المرتفعة . تشب النار : تضرم . والمقرور : من
أصابه البرد ، وتقاسما : حلفا الأيمان . والأسحمداج : الأسود . والداجي : المظلم
(يعني بالأسحمداجي : الليل) عوض : ظرف لاستغراق الزمن المستقبل .
(٢) الكف المبيدة : المهلكة التي لا تبقي على مال . أنجد : أتى نجداً
أعرق : سار إلى العراق .

فما قولك بفطنة امرأة المحلق ، وحسن دعاية الأعشى ؛ وهذا النوع من البضاعة التي روجتها عكاظ .

١٦ - مفتة محررة

حضر عكاظ من سراة الناس في أحد المواسم عمرو بن الشريد السلمي ، وابناه معاوية وصخر أخوا الخنساء الشاعرة . وحضرها معمر بن الحارث جد جميل الشاعر الغزلي . فلما نظر معمر إلى عمرو صافنه (قام حذاءه) وأمر ولده أن يخدموه ففعلوا .

فلما تقوّضت السوق دعا عمرو بن الشريد ابنه معاوية وصخرأ فقال لهما :

« إن معمراً قد طوقني مالم يطوقني أحد من العرب ، وقد أحبيت أن أكافيه . » فقالا : « افعل ما بدا لك . » فدعا بكتاب وصحيفة فكتب :

(هذا مامنح عمرو بن الشريد السلمي ، معمر بن الحارث العذري) :

منحه ماله بالوحيدة من أخلاف يثرب ، أطلال ذاك ومغانية ورسومه وأعراصه ودواويه وزحاليفه وقرياته وبراذعه وقسوره

وعُجْرُمُهُ وبَشَامِهِ وَيُنْعُهُ وَتَالِيَهُ وَحِمَاطُهُ وَشَبْحُهُ وَأَرَاكُهُ وَأَحْزَنَتُهُ
وَحَذَارِيَهُ وَآكَامُهُ وَبُرْقَهُ وَعُلْجَانَهُ، وَكُلُّ مَا صَاءَ وَصَمَتَ فِيهِ، وَبَكَتَ
السَّمَاءُ عَلَيْهِ وَضَحَكَتِ الْأَرْضُ عَنْهُ فَهُوَ لِمَعْمَرٍ دُونَ عَمْرٍو . وَمَنْحُوحٌ بِهِ
مِنْ نِيَّاتِ الصَّدْرِ ، لَا يَشُوبُهُ كَدَرُ الْأَمْتَانِ وَلَا أَمَارَاتُ الْإِمْتِهَانِ ،
مُسْتَنْزَلٌ مِنْ هَضَابِ الْجَنْدَلِ وَجَرِثُومَةٍ وَدُ بَعِيدِ الْحَلِّ لَا تَخْلُقُ الْأَيَّامُ
جَدَّتَهُ وَلَا يَرُكِدُ لِمَتَنَسِّمٍ بَارِحُهُ مَا دَامَ الزَّمَانُ ؛ وَتَوْقَدُ الْحَرَارَاتُ
وَسَمَرُ ابْنَا سَمِيرٍ وَأَقَامَ حَرَاءٌ وَثِيرٌ ^(١) .

(١) الوحيدة : من أعراض المدينة بينها وبين مكة . الحِلْفُ : ما أُنْبِتَ
الصيف من العشب والجمع أخلاف . الأطلال جمع طلل : وهو ما شُيْخِصَ مِنْ
آثَارِ الدَّارِ . والمغنى : المنزل الذي غني به أهله ثُمَّ ظَعَنُوا . والرسم : رَكِيَّةٌ
تَدْفِنُهَا الْأَرْضُ ، وَمَا لَا شَخْصَ لَهُ مِنَ الْآثَارِ . وَالْأَعْرَاصُ جَمْعُ عَرَصَةٍ : وَهِيَ
كُلُّ بَقْعَةٍ بَيْنَ الدُّوَرِ وَاصِعَةٍ لَيْسَ فِيهَا بِنَاءٌ . الدَّوِيَّةُ : الْأَرْضُ غَيْرُ الْمَوَاقِفَةِ ، وَالِدَّوُ
وَالدَّوِيَّةُ وَالِدَاوِيَّةُ : الْفَلَاةُ . وَالزَّحَالِيفُ جَمْعُ زُحْلُوفَةٍ : وَهِيَ (هُنَا) الْمَكَانُ
الْمُنْحَدِرُ الْمَلْتَسُ . وَالْقَرَرِيُّ : مَسِيلُ الْمَاءِ مِنَ التَّلَاعِ ، وَمَدْفَعُهُ مِنَ الرَّبْوِ إِلَى
الرَّوْضَةِ ، وَالْقَرَوُ ، حَوْضٌ طَوِيلٌ تَرُدُّهُ الْإِبِلُ وَالْأَرْضُ لَا تَكَادُ تَقْطَعُ ، وَمَسِيلُ
الْمَعْصَرَةِ ، وَأَسْفَلُ النَّخْلَةِ يَنْقَرُ فَيَنْتَبِذُ فِيهِ وَالْجَمْعُ قَرَرِيٌّ . وَالْبَرَاذِعُ جَمْعُ بَرْدَعَةٍ :
وَهِيَ الْأَرْضُ لَا غَلِيظَةَ صَلْبَةٍ وَلَا سَهْلَةٍ . وَالْقُسُورَةُ : نَبَاتٌ سَهْلِيٌّ ، وَالْجَمْعُ قُسُورٌ ،
وَقُسُورُ النَّبْتِ : كَثْرٌ . وَالْعُجْرَمُ ، جَمْعُ عَجْرَمَةٍ : وَهِيَ شَجَرٌ . وَالْبَشَامُ :
شَجَرٌ عَطَّرَ الرَّائِحَةَ بِسُودَةِ الشَّعْرِ وَيَسْتَاكُ بِقَضِيئِهِ . وَالْيَنْعُ : جَلُّ الشَّجَرِ . وَالْحِمَاطُ جَمْعُ
حِمَاطَةٍ : شَجَرٌ شَبِيهُهُ بِالْتَيْنِ أَحَبُّ شَجَرٍ إِلَى الْحَيَاتِ أَوِ الْتَيْنِ الْجَبَلِيِّ أَوْ الْأَسْوَدِ الصَّغِيرِ

وكتب لخمس وثلاثين عاماً خلت من عام الفيل .

ثم بعث بالكتاب مع طرف من طرائف اليمن وعدد الى معمر .

قال الاصمعي : فهي باقية الى الآن يفيض على ولده دخلها وذلك

في أيام الرشيد رحمه الله ^(١)

وهذا سند تملك محرر ، صدر عن عكاظ ليعرفنا كم تهز الأريحية

من نفوس الكرام .

= أو الجيز . الشبح : الباب العالي البناء وأشباح المال : ما يعرف من الإبل والغنم
وسائر المواشي . والأراك : القطعة من الأرض ، وشجر من الحمض يستاك
به . والأحزة جمع حزيز : وهو الموضع الغليظ المنقاد ، كثرت حجارتها
وغلظت كأنها سكاكين . والحداري جمع حدورية : وهي الكلمة الغليظة ،
والقطعة الغليظة من الأرض ، وحره لبني سليم وهم قوم عمرو صاحب هذا
القول . والبرق جمع برقة : غلظ من الأرض فيه حجارة ورمل ، وطين مختلطة ،
وبرق ديار العرب تنيف على مئة ذكر صاحب القاموس كثيراً منها فارجع إليه .
والعجان : كل شجر ذي شوك ، وكل عظيم طويل من الشجر . وماصمت
من المال : الذهب والفضة . وماصاء منه : الإبل وما إليها . وودة : الوتد ،
واسم جبل ، واسم صنم معروف . والبارح : الريح الحارة في الصيف . وابننا
سمير : الليل والنهار تقول : لا أفعله ماسمير السمير وابن سمير وابننا سمير : أي
ما اختلف الليل والنهار .

(١) اللازمة والامكنة ٢ : ١٦٨

١٧ — صفقة خاسرة

« أخسر صفقة من شيخ مهو »

كانت إياد تسبّ بالفسو وتغيّر به ، فقام رجل من إياد بسوق
عكاظ ومعه بردا حبرة فقال :

« من يشتري مني عار الفسو بهذين البردين ؟ »

فقام عبد الله بن يدرّة أخو مهو (ومهو حي من عبد القيس)
فقال :

« هاتهما ، واشهدوا أنني اشتريت عار الفسو من إياد لعبد
القيس بهذين البردين . »

فلما أتى رحله وسئل عن البردين قال : « اشتريت لكم بهما عار
الدهر . » فوثبت عبد القيس وقالت :

إن الفساة قبلنا إيادُ ونحن لا نفسو ولا نكاد

وتفرق الناس عن عكاظ بابتياح عبد القيس عار الفسو حتي
قال الشاعر :

يامن رأى كصفقة ابن يدرّة من صفقة خاسرة مخسرة

المشتري الفسوي يردى حبرة شلت يمين صافق ما أخسره
وسارت هذه الصفقة الخاسرة مثلاً بين الناس .
قال ابن دارة :

وإني إن صرمت حبال قيس وحالفت المزون على تميم
لأخسر صفقة من شيخ مهو وأجور في الحكومة من سدوم^(١)
وتلك غريبة في بابها بين جميع ما أتى القوم في عكاظ .

١٨ - فتنة جحمال

زعموا : « أن جارية بن سليط كان أحسن الناس وجها وأمدهم
جسماً ، وأنه أتى عكاظ فأبصرته امرأة من خثعم فأعجبها ، وتلطفت
له حتى وقع عليها ، فلما فرغ قالت : « إنك قد أتيتني على طهر ، وإني
لا أدري لعلّي سأعلق لك ولداً ، فوعدك فصال ولدي إن حملت
لك . » فسمي لها اسمه .

ثم وافى عكاظ لرأس ثلاثة أحوال . وأقبلت المرأة مع أمها
وخاتها يلتمسنه بعكاظ حتى رآته المرأة فعرفته وقالت لأمها : « هذا
جارية . » قالت أمها : « بمثل جارية ، فلتزن الزانية ، سرّاً أو علانية . »

(١) ثمار القلوب للثعالبي ص ٨٢ في الاصل (ضربت حبال قيس)

ووجد الرجل أن المرأة قد ولدت غلاماً وفطمته . ثم دفن إلى الغلام
فسماه عوفاً فشرف وساد قومه وهو عوف الأصم^(١) .

١٩ -- راية غدر

والذي يثلج الصدر ويشفي النفس من مآثر عكاظ ، مشهد
نستطيع أن نفيد فيه درساً بليغاً . ومثالاً فعالاً وأسلوباً ناجحاً في
محاربة الخائنين ، ووددت - والله - لو أخذنا به في أيامنا العvisية هذه ،
واحتذينا مثاله ؛ إذ ألبق كل ساع في فساد يذوق الموت ألواناً حتى
يلاقى ربه بالموت المريع . قال المرزوقي :

« كانوا إذا غدر الرجل أو جنى جناية عظيمة ، انطلق أحدهم
حتى يرفع له راية غدر بعكاظ ، فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر
فيقول : « ألا إن فلان بن فلان غدر . فاعرفوا وجهه ولا تصاهروه
ولا تجالسوه ولا تسمعوا منه . »

فإن أعتب وإلا جعل له مثل مثاله في رمح فنصب بعكاظ فلعن
ورجم !! وهو قول الشماخ :

ذعرت به القطا ونصبت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين .

وهي خطوة حاسمة موفقة في السياسة السلبية لمحاربة الرذائل ،
ما أظن أن أحداً اهتدى إليها قبل العرب ولا بعدهم .
لم يغفل العرب في عكاظ أن يرفعوا مقابل ذلك راية وفاء
لمن أتى مكرمة كلّفته المغارم ثم مضى فيها ولم ينكص ، فقد ذكروا :
أن عامر بن جوين رفعت له كندة راية غدر في صنيعة بامرئ القيس
ابن حجر في وجهه إلى قيصر ، ورفعت له فزادة راية وفاء في صنيعة
بمنظور بن سيار حيث أقحمته السنة فصار بماله وإبله وأهله إلى الجبلين
فأجاره عامر ووفى له . وصار الناس بين حامد له وذام^(١)

٢٠ - رابعة الاسرار

وقف رسول الله ﷺ بعد مبعضه بثلاث سنين في عكاظ ،
يدعو الناس إلى الخير والهدى والسعادة . وقد لزمه منذ قيامه بالدعوة
حزن عميق على قومه الذين كفروا بنعمة الله ، وآلمه ألا يراهم
مسارعين إلى ما به صلاحهم ، فعزم ليقصدن المواسم وليأتين فيها
القبائل ، كل قبيلة بمنزلها ، وكل جماعة في حيهم ، يعرض عليهم هذا

(١) انظر كتاب الازمنة والامكنة ٢ : ١٧٠

الدين الجديد . ولقد حرص الحرص كله على أن يهتدوا ، وكان أسفه يشتد كلما ألح قومه بالصد ؟ قام في عكاظ يقول :

« يا أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا » ويتبعه رجل له غدیرتان كأن وجهه الذهب وهو يقول :

« يا أيها الناس إن هذا ابن أخي وهو كذاب فاحذروه »
فعرف الناس أن هذا (الصادق عن سبيل الله) هو عمه أبو لهب بن عبد المطلب ، يكذبه كلما قال كلمة الحق .

عاود الدعوة مراراً فلم يُجب ولم يئأس ورجا أن يجد فيهم الحامي والمجير على الأقل إذ لم يجد المجيب ، فكان يقول للحي في موسم عكاظ :

« لا أكره منكم أحداً على شيء . من رضي الذي أدعوه إليه قبله ، ومن كرهه لم أكرهه ، إنما أريد أن تحوزوني مما يراد بي من القتل ، فتحوزوني حتى أبلغ رسالات ربي ويقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء ^(١) »

كان الناس يعجبون من أمره وأمرعه ، وهم بين راض وغاضب

ومتعجب يرى بعينه ثم يمضي كأن الأمر لا يهمه ، منهم من لا ينكر ما يسمع ومنهم من يرد أقبح الرد ، ومنهم من يقول : قومه أعلم به .
كان هذا دأبه أبداً يوافي به القبائل سنة بعد سنة ، حتى إن منهم من قال له : « أيها الرجل ، ما آن لك أن تيأس ؟ » من طول ما يعرض نفسه عليهم .

* * *

انتهى رسول الله في تطوافه على القبائل في عكاظ الى بني محارب ابن خفصة . فوجد فيهم شيخاً ابن عشرين ومئة سنة ، فكلمه ودعاه الى الإسلام وأن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربه فقال الشيخ : « أيها الرجل قومك أعلم بذنوبك ، والله لا يؤوب بك رجل الى اهله الا آب بشر ما يؤوب به أهل الموسم ، فأغْنِ عنا نفسك . » وإن أبا هلب لقائم بسمع كلام المحاربي . ثم وقف أبو هلب على المحاربي فقال : « لو كان أهل الموسم كلهم مثلك لترك هذا الدين الذي هو عليه ، إنه صائب كذاب . » قال المحاربي : « أنت والله أعرف به ، هو ابن أخيك ولحنك . » ثم قال المحاربي : « لعل به يا أبا عتبة لمماً ، فإن دعنا رجلاً من الحي يهتدي لعلاجه . » فلم يرجع أبو هلب بشيء ^(١) .

روى عبد الرحمن العامري عن أشياخ من قومه قالوا :

[أئانا رسول الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ فقال : « من القوم ؟ »

قلنا : « من بني عامر بن صعصعة . » قال : « من أي بني عامر ؟ »

قلنا : « بنو كعب بن ربيعة . » قال : « كيف المنع فيكم ؟ » قلنا :

« لا يرام ما قبلنا ولا يصطلى بنا رنا . » فقال :

« إني رسول الله فإن أتيتمكم تمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولم

أكره أحداً منكم على شيء ؟ » قالوا : « ومن أي قريش أنت ؟ »

قال : « من بني عبد المطلب » قالوا : « فأين أنت من بني عبد مناف ؟ »

قال : « هم أول من كذبني وطردني . » قالوا : « ولكننا لا نطردك

ولا نؤمن بك ونمنعك حتى تبلغ رسالة ربك . »

فنزل إليهم والقوم يتسوقون إذ أتاهم بجرة بن قيس القشيري فقال :

« من هذا الذي أراه عندكم أنكروه ؟ » قالوا : « هذا محمد بن عبد الله

القرشي . » قال : « وما لكم وله ؟ » قالوا : « زعم لنا أنه رسول الله ،

يطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه . » قال : « فماذا ردتم عليه ؟ »

قالوا : « قلنا : في الرحب والسعة ، نخرجك إلى بلادنا ونمنعك مما نمنع

به أنفسنا . » قال بجرة : « ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع

بشيء أشرف من شيء ، ترجعون به ، بدأتُم لتنا بذك الناس وترميكم العرب
عن قوس واحدة ، قومه أعلم به ، لو آتسوا منه خيراً لكانوا أسعد
الناس به ، تعمدون إلى رهيق قوم قد طرده قومه و كذبوه فتؤوونه
وتنصرونه ؟ فبئس الرأي رأيستم . » ثم أقبل على رسول الله ﷺ
فقال : « قم ، الحق بقومك فوالله لو أنك عند قومي لضربت عنقك . »

فقام رسول الله ﷺ إلى ناقته فركبها ، فغمر الخبيث بحجرة
شاكلتها فقمصت برسول الله ﷺ فألقتة . وعند بني عامر يومئذ ضباعة
بنت عامر بن قرط ، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله
بمكة ، جاءت زائرة إلى بني عمها فقالت : « يال عامر ولا عامر لي !
أيصنع هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم لا يمنع أحد منكم ؟ »

فقام ثلاثة نفر من بني عمها إلى بحجرة ، وثلاثة أعانوه ، فأخذ كل
رجل منهم رجلاً فجلد به الأرض ثم جلس على صدره ثم علقوا
وجوههم لطمأ ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم بارك على هؤلاء
والعن هؤلاء . »

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان أذركته
السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم ، فمكانوا إذا رجعوا إليه

حدثوه بما يكرن في ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه سألهم عن كان في الموسم فقالوا :

جاءنا فتى من قريش ثم حدث أنه أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا الى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به معنا الى بلادنا .
فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال :

« يا بني عامر ! هل لها من تلاف ؟ هل لذُنابها من تطلب ؟
فوالذي نفس فلان بيده ، ماتقوها إسماعيلي قط ، ألا إنها الحق ، فأين كان رأيكم ؟ ! ! » [(١)] .

٢١ - ضمير

بعث رجل من بني جشم امرأته - واسمها عجلة بنت عبيد بن خالد ... بن حنظلة - الى عكاظ بأنحاء سمن تبيعها له فيها ، فباعت السمن وراحتين وشربت بسمها الخمر ، فلما نفذ السمن وهنت ابن أخيه وهربت ، فطلّقها فقالت في شربها الخمر :

شربت براحتي محجن فيا ويلتي ، محجن قاتلي
وبابن أخيه على لذة ولم احتفل عذلة العاذل

وتزوجها عبد شمس بن عبد مناف فولدت له أمية الأصغر ،
وعبد أمية ونوفلاً ، وهم العيلات .

٢٢ - تلقيب

ساوم ربيعة بن عمرو بقدح في عكاظ فاستغفره فقال لصاحبه :
« لو وضعت فيه حوثرتي (حشفتي) للملأته . » فسمي حوثره بذلك .

٢٣ - نصارب بن النضر

وهذا غلام وقع في الأسر وبيع في عكاظ وكان له في هذا البيع
وذلك الأسر كل الخير ، إذ افتتح لنفسه صفحة في التاريخ مجيدة
فأصبح من أعلامه ، ولترك الطبري يقص كيف بدأ أمره في عكاظ
في مواسم الحج :

زارت أم زيد بن حارثة قومها من بني معن بن طي وزيد معها ،
فأغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية ، ففروا على أيات بني
معن رهط أم زيد ، فاحتملوا زيدا وهو يومئذ غلام بفعمة قدأوصف ،
فوافوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع ، فاشتراه منهم حكيم بن حزام
لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها رسول الله ﷺ

وهبته له ، فقبضه رسول الله ﷺ إليه وقد كان أبوه حارثة بن شراحيل حين فقده قال :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل أحبي فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدري وإن كنت سائلاً أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل
فيا ليت شعري هل لك الدهر رجعة فحسي من الدنيا رجوعك لي بجل
تذكرني الشمس عند طلوعها وتعرض ذكره إذا قارب الطفل
وإن هبت الأرواح هيجن ذكره فيا طول ما حزني عليه وما وجل
سأعمل نص العيش في الأرض جاهداً ولأسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتي أو تأتي علي منيتي وكل امرئ فانٍ وإن غره الأمل
وأوصي به عمرأً وقيساً كليهما وأوصي يزيداً ثم من بعدهم جبل
قال : (يريد جبلة بن حارثة أخا زيد ، وكان أكبر من زيد ، ويعني

يزيد أخا زيد لأمه وهو يزيد بن كعب بن شراحيل .)

وحج ناس من كلب فرأوا زيداً فعرفهم وعرفوه فقال أبلغوا
أهلي هذه الآيات فإني أعلم أنهم قد جزعوا علي وقال :

ألكنني إلى قومي وإن كنت نائياً بأني قطين البيت عند المشاعر
فكفوا من الوجد الذي قد شجاكم ولا تعملوا في الأرض نص الأباعر

فإني بحمد الله في خير أسرة كرام معدّ كبراً بعد كابر
فانطلق الكليون فأعلموا أباه ، فقال : ابني ورب الكعبة ،
ووصفوا له موضعه وعند من هو ، فخرج حارثة وكعب ابنا شراحيل
بفدائه وقدمامكة فسألا عن النبي ﷺ فقيل هو في المسجد ، فدخلا
عليه فقالا : يا بن عبد الله يا بن عبد المطلب يا بن هاشم يا بن سيد قومه ا .
أنتم أهل حرم الله وجيرانه وعند بيته تفكون العاني وتطعمون
الأسير ، جئتاك في ابنا عندك فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه فإننا
سنرفع لك في الفداء) قال : « من هو ؟ » قالوا : « زيد بن حارثة »
فقال رسول الله ﷺ فهلا غير ذلك ؟ قالوا وما هو ؟ قال أدعوه
فأخيره فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي
أختار على من اختارني أحداً ، فقالا قد زدتنا على النصف وأحسننت ..
فاختار زيد محمداً وقال « إني قدر أيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا
بالذي أختار عليه أحداً أبداً » فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ
أخرجه الى الحجر فقال : « يا من حضر : اشهدوا أن زيدا ابني أرثه
ويرثني » فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا ^(١)

(١) المنتخب من (ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين)

٢٤ - نداء

وهذا منادي عامر بن الطفيل وهو واحد من منادين كثيرين ،
قائمين وطوافين ، نستمع إليه فإذا هو يقول :
« هل من راجل فنحمله ، أو جائع فطعمه ، أو خائف فتؤمنه .. »^(١)

٢٥ - ضرب الفزري

في ناحية من عكاظ ، وقف شيخ هم حطمته السنون فلا يكاد
يستقل واقفاً ، ومن ورائه معزى كثيرة تكاد تملأ السبل ، وأسارير
الشيخ ناطقة بالغضب وخرج الصدر ، وإن الناس يتساءلون - وقد
عرفه بعض وجهه بعض - : ما باله ؟

فيجيب المجيب : « ذلك سعد بن زيد مناة بن تميم الملقب بـ (الفزري)
أكثر قومه مالا وولداً ، ويجتمع عليه الناس وقد علموا أن له لشأناً ،
فاذا به يقول :

« أيها الناس ، ألا إن هذه معزاي ، فلا يحل لرجل أن يدع أن
ياخذ منها شاة ، ولا يحل لرجل أن يجمع منها شاتين . »

(١) تاريخ دول العرب والاسلام لمحمد طلعة حرب ١/٩٩

فاندفع الناس على الغنم ينتهبونها ويذهب كل لطيته ، فما هو أن
يسأل سائل عما حمل سعداً على إتهاب معزاه حتى يعلم انه طلب يوماً الى
ابنه هبيرة ان يسرح في معزاه فيرعهاها فأجاب هبيرة : « والله لا أرعهاها
سنّ الحسل ^(١) » ، فنادى سعد ولده الآخر صمصعة قائلاً : « يا صمصعة
اسرح في غنمك . »

قال : « لا والله لا أسرح فيها ، ألوة ^(٢) الفتى هبيرة »
فغضب سعد وسكت على ما في نفسه حتى اذا أصبح ساق المعزى
كلها الى عكاظ ، فكان منه مارأى الناس .

* . * . *

سار هذا الحدث في عكاظ بين العرب واشتهر حتى صار مثلاً
يضرب ، إذا أراد أحدهم قطع أمل صاحبه من أمر قال : لا أفعله « حتى
يجتمع معزى الفرز » وأصبحت هذه القولة من أمثال العرب .
قال شبيب بن البرصاء :

ومرّة ليسوا نافعيك ولن ترى لهم مجعاً حتى ترى غنم الفرز ^(٣)

(١) انظر أمثال الضبي ص ٢٢ طبعة الجوائب - الحسل : ولد الضب ولم
توجد دابة قط أطول عمراً منه ، وسن كل دابة يسقط إلا سن الحسل
والمعنى : لا أرعها أبداً . ألوة : يمين ، قسم .

٢٦ - مهرب الرزق

أما هذا ففتى المشرق نبيك بن مالك ، « قدم مكة بطعام ومتاع للتجارة ، فرآهم مجردين ، فأذهب العير بما عليها » وهام أولاء الناس يتهافتون على أرزاقه في عكاظ يأخذ كل مايقشع به عن نفسه وأهله الجوع والفقر . فلما انكشف الناس ولم يبقوا في أرض عكاظ من مال نبيك شيئاً ، وكان الخبر قد طار في أقطار عكاظ ، أقبل خاله عليه يعاتبه على انهاب ماله ، فقال نبيك :

ياخالُ ذرني ومالي : ما فعلت به وما يصيبك منه ، إنني مودي إن نبيكأ أبى إلا خلأثقه حتى تبيد جبال الحرة السود فلن أطيعك إلا أن تخلدني فانظر بكيدك : هل تستطيع تخليدي الحمد لا يشتري إلا له ثمن ولن أعيش بمال غير محمود^(١)

٢٧ - فرسان العرب

« اجتمع العكاظيون على أن فرسان العرب ثلاثة :
ففراس تميم عتمية بن الحارث بن شهاب أحد بني ثعلبة بن يربوع
ابن حنظلة : صياد الفوارس وسم الفرسان .

(١) الإصابة ٨٤/٦ آخر الترجمة ٨٩١١

وفارس قيس : عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب
وفارس ربيعة بسطام بن قيس ... بن بكر بن وائل «
» ثم اختلفوا فيهم حتى نهوا عليهم سقطاتهم^(١)»

٢٨ - مارأيت شيخاً أكذب

مر المستوغر بن ربيعة ، شاعرٌ معمرٌ ، بعكاظ يوماً وعلى ظهره
ابن ابنه شيخاً هرمًا ، فأعيا من حملة فوضعه بالأرض وقال : « عنيتني
صغيراً وكبيراً » فسمعه رجل فسأه ذلك فالتفت إليه ناصحاً :
- يا عبد الله أتقول هذا لأبيك ؟ أحسن إليه فطالما أحسن إليك .

قال : أو تدري من هو !

قال : نعم ، هو أبوك أوجدك .

قال : هو والله ابن ابني

قال الرجل : مارأيت شيخاً أكذب ، لو كنت المستوغر بن
ربيعة ما زدت . قال : فأنا المستوغر بن ربيعة^(٢) !



(١) هذا قول أبي عبيدة - الكامل للمبرد ص ٨٩ طبعة ليدن

(٢) عُمَر طويلاً جداً وأدرك صدر الاسلام ، ولقد بالغوا في عمره حتى

بلغوا به (٣٢٠) سنة ورووا قوله : =

الآن وقد استعرضت هذه المشاهد ، وذكرتك هذه الفقرات
جواً خاصاً تتصوره لعكاظ كلما مرت بك في نقلة من نقل الأدب أو
التاريخ ، الآن تستطيع أن تفهم : لم يعد مؤرخو الأدب عكاظ في
أول ما وحد لهجات القبائل العربية قبل نزول القرآن الكريم
بأكثر من قرن ، وهياً لقريش خاصة تلك الزعامة والتحكم في اللغة
والانتقاء فسلمت من عيوب اللهجات ، وعرفت أيضاً أن عكاظ دنيا
تعج بالقاصدين من كل فج عميق ، وأن فيها الخطباء المصاقع يخطبون ،
والشعراء الفحول ينشدون ، والأعزة والأشراف يتفاخرون

= مئة أمت من بعدها مئتان لي وازددت من عدد الشهور سنينا

وقد سمّ حياته حين كان أحفاده صغاراً ووصف حاله بقوله :

إذا ما المرء صمّ فلم ينجى ولم يك سمعه إلا ندايا

ولاعب بالعشي بني بنيّه كفعل الهر يجترش العظايا

فذاك الهرم ليس له دواء سوى الموت المنطق بالمنايا

العظايا جمع عظاية وعظاءة : دابة على خلفه سام أبرص ، أعظم منه قليلاً -

المنطق المحاط في موضع النطاق .

انظر : معجم الشعراء للمرزباني ص ٢١٣ ، والشعر والشعراء

ص ٣٤٤ ومختلف تأويل الحديث لابن قتيبة ص ٣٦٠ .

ويتنافرون ويتسابقون^(١) ، والموتورين يؤمونها للبحث عن واريهم ،
ومن له أسير سعى إلى عكاظ في فكاكه ، ومن أراد أن يأتي عملاً
تعرفه له العرب عامة أنه في عكاظ ، ومن أتى مكرمة في قطر فأحب
أن تخلد جاء إلى عكاظ فشهر فيها أمره .

قال أبو ذؤيب ؛

إذ بني القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الألوف

وقال آخر يضرب بها المثل :

فإنك ضحاك إلى كل صاحب وأنطق من قس غداة عكاظها

وهجا أمية بن خلف الخزاعي حسان وأراد إيلامه فعنونها إلى

عكاظ فقال :

ألا من مبلغ حسان عني مغلفة تدب إلى عكاظ

(١) جلس القلمس في عكاظ يسابق بين ابنتي الحُس قائلاً : « إني سألكما
لأعلم أيكما أبسط لساناً وأظهر بياناً وأحسن للصفة إتقانا ؛ » ثم كانت الأسئلة
لكل منهما حول الأبل والحيل والمعزى والسحاب والرجال والنساء « أيها أحب
إليك ؟ » ثم « أيها أبغض إليك ؟ » ثم استنشدهما فأشدهتا في الحكم ونجارب
الحياة . في حوار طريف وحديث مسهب ، ثم ختم المجلس بقوله : « أحسنما
وأجملنا فبارك الله فيكما » ووصلها وحباهما . وانظر المجلس بطوله في
(بلاغات النساء) ص ٥٨-٦٤ فهو قيم حافل .

أليس أبوك فينا كان قينا لدى القينات فسلاً في الحفاظ
يمانياً يظل يشدّ كيراً وينفخ دائماً لهب الشواظ^(١). الخ
فيجيبه حسان :

أتاني عن أمية زورقول وما هو بالمغيب بذي حفاظ
سأنشر ما حيت لهم كلاماً ينشر بالجامع من عكاظ^(٢)
فأت إذ تجول في عكاظ يتقسم سمعك خطب وقصائد ومفاخرات
ومنافرات وخصومات وأتماط من البيع لالتشابه ، وأزياء في اللبس
والتكلم والمراكب .. تجمعت من كل صوب .
ولما قال عمرو بن كلثوم قصيدته :

ألا هي بصحنك فاصبحينا . . .

في العراق ، أحب أن تسير في الناس ويكتب لها الخلود ، فسعى
إلى عكاظ في الموسم ، فقام بهذه القصيدة خطيباً ثم قام بها أيضاً في
موسم مكة .

وكذلك قل في بقية القصائد الطوال التي يسمونها (المعلقات) ،

(١) المغلفة: الرسالة السريعة . والقيّن : الحداد . والفسل : الرذل الساقط

(٢) ديوان هسان ص ٢٤١ وتاريخ النقائض ص ٩٧ ، وبعده

قوافي كالسلام إذا استمرت من الصم المعروفة الغلاظ

فما كان الإجماع ليعقد على أنها أجود الشعر لولا أن المحكمين في
عكاظ شهدوا لها بذلك وأقر السامعون بتفوقها .

تلك مشاهد عامة مما كان يجري في عكاظ ، و كأن العرب الذين
عرضوا في هذه السوق متاجرهم وأموالهم وأنعامهم ، وعرضوا فيها
أدبهم وشعرهم ، أبوا إلا أن يعرضوا بقية مقوماتهم فرأينا مشاهد عن
سياساتهم وصالحهم وحرهم . ولو كان لعربي أن يصبر على ضيم قريب
أو بعيد لصبر هؤلاء الجيران في هذه السوق العامة ، ولكن طرح الخسف
ورد الضيم في نفس العربي هو قبل التجارة والأدب ، ورفع الذل عنده
أهون وسائله إهراق الدماء وقطع ورید الحياة ، لأنه لا يفقه عيشاً
بقيد ولا يتصور حياة بذل .

والظاهر أن احتفال الناس بعكاظ لم يكن واحداً دائماً ، فقد
كان في بعض السنين يربي على الغاية في الازدحام والحركة ، حتى تضيق
السوق بمن فيها وحتى يربح التاجر والجالب إليه رجاً عظيماً لا يتأتى
إلا في الفرط النادر . قال المروزقي : « فلما دخلت سنة خمس وثلاثين
من عام الفيل حضر السوق من نزار واليمن ما لم يروا أنه حضر مثله
في سائر السنين ، فباع الناس ما كان معهم من إبل وبقرة نقدوا بتاعوا
أمتعة مصر والعراق والشام . . »

هي إذاً معرض عام للجزيرة العربية : فيها عرض لتجارات جميع الأقطار وعرض للبيوع وعرض للعادات وللأديان واللغات والآداب ، وللسياسة . . . وفيها لجان رسمية على نحو ما نألف في معارضنا اليوم ، تحكم للمتفوق بتفوقه حكماً نافذاً من أقصى الجزيرة إلى أقصاها . وتزيد على معارضنا بميزة جليلة ، وهي صهرها لعادات القبائل ولغاتها ومواضعاتها لتنقي منها أحسنها وأخلقها بالبقاء .

لسنا نعلم لهذه السوق بداية محدودة إلا أنا نرجح وجودها قبل القرن السادس الميلادي ^(١) ، ولما جاء الإسلام وتوطدت أركانه في

(١) في بعض المراجع القديمة والحديثة تخبّط في تعيين سنة افتتاحها وتناقض ظاهر : خذ لك مثلاً هذه المصادر : بلوغ الأرب للألوسي ، دائرة معارف وجدي ، الوسيط للأستاذين الإسكندوي والعناني ؛ فإنها اتفقت على أن عكاظ افتتحت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة مع أن هناك حديثاً صحيحاً يفيد أن رسول الله ﷺ كان ينبل على أعمامه في حروب الفجار وعمره أربع عشرة سنة أي بعد الفيل بأربع عشرة سنة فتكون الفجار ونبل الرسول فيها قبل وجود عكاظ بسنة وهو تناقض بين . والغريب حقاً أن ينقل صاحب الوسيط - وهما ما هما فضلاً وتحققاً - هذا التحديد عن بلوغ الأرب على علاقته في الطبعة الخامسة للوسيط ص ١٢ ثم ينقضاه هما نفساهما ص ٢٧ من الكتاب المذكور فيذكر أن نبل الرسول وعمره أربع عشرة . كما فعل الألوسي تماماً . ولو نجا أحد من زلل لنجا هؤلاء الأفاضل الثقات .

أما دائرة معارف وجدي فمع ارتكابها الخطأ نفسه فقد عزّزته بثان فقالت : =

الجزيرة والعراق والشام بدأ شأنها يضئول ، ولم تزل قائمة إلى أن خرجت الخوارج الحوورية مع المختار بن عوف بمكة سنة (١٢٩) للهجرة فنهبوها فتركت إلى الآن .

وعلى هذا تكون هذه السوق قد عمرت أكثر من قرنين ونصف القرن .

= عكاظ اتخذت سوقاً بعد الفيل بخمس عشرة سنة أي سنة (٥٤٠) ميلادية؟ وهذا غير صحيح لأن حادث الفيل كان سنة (٥٧٠-٥٧١) م . ولعل الألوسي رحمه الله أراد « قبل الفيل بـ ١٥ سنة » فقيرت في الطبع كلمة (قبل) بـ (بعد) ثم تابعه على الخطأ من بعده .

ثم اطلعنا بعد صدور الطبعة الاولى بسنة فإذا الدكتور محمد حسين هيكل يقول في كتابه (في منزل الوحي ص ٣٦٤ الطبعة الاولى) : « أدق ما يروى (!) أنما اتخذت بعد الفيل بـ ١٥ سنة وقد عرفت آتفاً مباغ هذا النقل في الدقة . وإذا تأملت أحداث عكاظ التي عرضنا لها عرفت أن بعضها يرتفع إلى ما قبل جميع هذه التواريخ التي ذكروها : فالمرأة التي باعت أنحاء السن بعكاظ تزوجت بعد ذلك بعبد شمس ، وعمر بن كثنوم الذي أنشد قصيدته في عكاظ عاش حول سنة (٥٠٠ م) . وإذا أضفت إلى هذا ما فطن له الأستاذ أحمد أمين (الرسالة : السنة الاولى : العدد ١٣ ص ٢٥) في بحوثه عن عكاظ والمربد ، من أن المرزوقي عد عشرة ولوا القضاء بعكاظ قبل الإسلام ، استظهرت أن السوق مضى على إنشائها زمن قبل أن يصير فيه هذه الأحداث كلها . من كل ذلك تعرف صحة ما ذهبنا إليه من أنها كانت قبل سنة (٥٠٠ م) حتماً .

سوق مجنة

مَجَنَّةُ موضع (وقيل بلد) قرب مكة على أميال منها ، تقع بمر
الظهران ، قرب جبل يقال له الأسفل وهو بأسفل مكة على قدر
بريد منها ، ميمها بالفتح وتكسر ^(١) . والظاهر أنها من المواطن التي
لا ينساها أهل مكة لبعض جمال فيها ولأنها ذات مياه ، فقد جاء في
في كتب السيرة : أن بلالاً لما هاجر الى المدينة وأصيب بالحمل ، تشوق
الى مكة ومواطنها وتغنى بقوله :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بفتح وحوالي إذ خير وجيل
وهل أردت يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل ^(٢)

(١) لهم في اشتقاقها أكثر من مذهب ، فقد جاء في تاج العروس أن
المجنة الكثيرة الجن ، وفي الصحاح : أرض مجنة : ذات جن . قال ابن جني :
« مجتمعة مجنة وزنين ، أحدهما أن يكون فعلة من الجنون كأنها سميت بذلك
لشيء يتصل بالجن أو بالجنة أعني البستان أو ما هو سبيله ، والآخر أن يكون
فعلة من مجن يمجن كأنها سميت بذلك لأن ضرباً من المجنون كان بها . هذا
ماتوجهه صنعة علم العربية ، فأما لأي الامر بن وقعت التسمية فذلك أمر
طريقه الخبر »

(٢) أخبار مكة للارزقي ص ٣١ . الإذخر والجيل : نباتان . وشامة
وطفيل : جبلان مشرفان على مجنة .

هذه السوق لكنانة وأرضها من أرض كنانة ، تقوم في العشر الأخير من ذي القعدة ^(١) ويقصدها العرب بقضهم وقضيضهم بعد أن تنفض سوق عكاظ ، يتممون فيها ما قصدوا له من تجارة وفداء وتفاخر و... على شبه التفصيل المتقدم في عكاظ . ويجلب إليها ما يجلب إلى تلك من متاع وعروض ، ولم تكن الحمر لتقل فيها شأناً عن بقية الأسواق فقد كانت تحمل إليها من معادنها من الشام ، ومن بصرى وغزة حتى صار يشيد بذكرها الشعراء ، قال أبو دؤيب الهذلي :
سُلَافَةٌ رَاحَ ضُمْنَتُهَا إِدَاوَةٌ مَقِيرَةٌ رِدْفٌ لِمَوْخِرَةِ الرَّحْلِ
تَزُودُهَا مِنْ أَهْلِ بُصْرَى وَغَزَةٍ عَلَى جَسْرَةٍ مَرْقُوعَةِ الذَّيْلِ وَالْكَفْلِ
فَوَافِي بِهَا عُسْفَانٌ ثُمَّ أَتَى بِهَا «مَجْنَةً» تَصْفُو فِي الْقَلَالِ وَلَا تَغْلِي ^(٢)
ومجنة وعكاظ وذو المجاز تستوي في نظر المحرمين من العرب

(١) هذا قول جمهرة العلماء ، أما ياقوت فعم أنه واقفهم على هذا عند كلامه على (مجنة) ، خالفهم وناقض قوله هو نفسه فقال عند الكلام على عكاظ هذا القول الغريب : « كانت العرب تقيم سوق عكاظ في أول شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج »

(٢) السُلَافَةُ : الحمر وكذا لراح . والإِدَاوَةُ : المطهرة . وَالْمَقِيرَةُ : المطلبة بالقار . الرِدْفُ : الراكب خلف الراكب وكل ما تبع شيئاً فهو رِدْفُهُ . =

وتتمتع منهم جميعاً باحترام واحد حتى إن بعضهم لا يردّها إلا محرّماً .
قال الأزرقى :

« كانت قريش وغيرها من العرب تقول : « لا تحضروا سوق
عكاظ ومجنة وذى المجاز إلا محرمين بالحج . » وكانوا يعظمون أن
يأتوا شيئاً من المحارم أو يعدّو بعضهم على بعض في الأشهر الحرم
وفي الحرم^(١) . »

ومجنة - وإن قرنت في أغلب الأحيان مع عكاظ وذى المجاز -
دون هاتين السوقين شأنهما حتى إنّ المزروقي لم يذكرها مستقلة كما
ذكر غيرها بل اكتفى بقوله : « وزاد بعضهم في الأسواق المجنة
وهو قريب من ذى المجاز . »

= والرحل : مركب للبعير . والجسرة : الناقة العظيمة الماضية . والكفل :
مركب الرجل يؤخذ من كساء فيعقد طرفاه فيلقي مقدمه على الكاهل ومؤخره
على العجز . القلال جمع قلة : وهي الجرة العظيمة .

(١) أخبار مكة ص ١٣٢

سوق ذي المجاز

لهم في تحديد قولا ن : أحدهما أنها على فرسخ من عرقة بناحية
كَبْكَب ، وكَبْكَب جبل بعرفات خلف ظهر الإمام اذا وقف .
ذكره ياقوت وغيره وهو أحد قولين نقلهما الزبيدي ، والثاني : أنها
موضع بمنى ؛ ومنى بين مكة وعرفات في نصف الطريق تقريبا ،
والذين نقلوا الأول أكثر عدداً وان كان القول الثاني أدنى الى القبول .
وسمي ذا المجاز لأن إجازة الحاج كانت منه ، ولعل السوق أحيانا تمتد
أو يتنقل الناس فيها : يقتربون ويبتعدون حتى تشغل هذه المسافة^(١) .
وذو المجاز من ديار هذيل ، هم أهلها وجيرانها الأدنون .

يكثر ورود ذي المجاز في شعر العرب ولا سيما شعراء هذيل ،
لأنها من أسواقهم الكبرى ، ومن المواسم أيضاً قال أبو ذؤيب الهذلي :
وراح بها من ذي المجاز عشية يبادر أولى السابقات الى الحبل

وقال اللبي :

(١) وذو المجاز علم يضاً على موضع قريب من العراق لاشأن لبحثنا به .

للفانيات بذى المجاز رسومٌ في بطن مكة عهدن قديم
أما التي ذكرها الحارث بن حلزة في معلقته :
واذكروا حلف ذى المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء
فالغالب أنها التي في شمال الجزيرة ، لأن مقام قبيلته يشكر
والأحداث بينها وبين غيرها كانت هناك .

* * *

إذا انقشع الناس عن مجنّة حين يهل ذو الحجة ، ساروا بأجمعهم
إلى هذه السوق وأقاموا بها حتى اليوم الثامن من ذي الحجة ، وهو
يوم التروية ، سمي بذلك لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء ويملؤون
أوعيتهم لما بعده إذ لا ماء بعرفة . وإلى هذه السوق تتقاطر وفود
الحجاج من سائر العرب ممن شهد الأسواق قبلها ، أو لم يشهدها وأتى
للحج خاصة ، إذ أن ذا المجاز من مواسم الحج عندهم .

تحفل^(١) ذو المجاز لوقوعها أيام الحج بجموع العرب وتجارهم

(١) خير تعبير عن ازدحام هذه السوق بالناس كلمة فاه بها أبي بن خلف
دلت على أنهم بضربون المثل بمن فيها كثرة ، وذلك أنه قصد الرسول ليقته وهو
يقول : « أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا » فلما دنا تناول الرسول حربة من أحد
أصحابه وانتفض بها انتفاضة أطارت من حوله من الأصحاب ثم استقبل بها أبا
فطمة طعنة وقع بها عن فرسه فكسر ضلعاً من أضلاعه ولم يخرج له دم ، فلما =

وأشرفهم ، وهي تلي عكاظ في الشأن ، ويجرى فيها ما يجري في هذه من تبائع وتناشد وتفاخر وفداء أسرى وطلب ثأر .. الخ ، يقصدها صاحب الثأر ليتعرف فيها واتره ، فيترصد به انقضاء الشهر الحرام ان كان من المحرمين والا عاجله فأخذ بثأره واليك بعض أحداثها :

١

روى الأصفهاني : « أن قيس بن الخطيم لم يزل يلتبس غرة من قاتل أبيه وجده في المواسم حتى ظفر بقاتل أبيه يثرب فقتله ، وظفر بقاتل جده بذي المجاز ، فلما أصابه وجده في ركب عظيم من قومه ، ولم يكن معه إلا رهط من الأوس ، فخرج حتى أتى حذيفة بن بدر الفزاري فاستنجده فلم ينجده ، فأتى خدش بن زهير فنهض معه بيني عامر حتى أتوا قاتل عدي (جد القيس) فإذا هو واقف على راحلته في السوق ، فطعنه قيس بحربة فقتله ثم استمر . فأراد رهط الرجل فحالت بنو عامر دونه ... الخ . »

٢ - رجع أبي قريش قال : « قتلني والله محمد ، فقالوا : « ليس عليك بأس ، ما أجزعك ! إنما هو خدش لو كان بمين أحفنا ماضره » فقال : « واللات ، لو كان الذي بي بأهل في المجاز لما أتوا أجمعين !! » - انظر شرح الزرقاني للمواهب ٢/ ٤٥

٢

حالف ابو الازهر الدوسي وكان عظيم الشأن في الأزد أبا سفيان
ابن حرب عظيم بني أمية ، وكان بين أبي الازهر هذا وبني الوليد بن المغيرة
محاكمة في مصاهرة ، فإن أبا الازهر لقاعد في مقعد أبي سفيان بسوق ذي
المجاز إذ جاء هشام بن الوليد فضرب عنقه في مقعده ذاك بذئ المجاز
وانتظر الناس ، أن يأخذ ابو سفيان بثأر حليفه من هشام فلم يفعل ولم
يدرك به عقلا ولا قوداً من بني المغيرة ، وتحدث بذلك أهل السوق
من قبائل العرب وراجت في الناس حتى عبروا بها أبا سفيان وحتى
قال حسان بن ثابت فيها :

غدا أهل حضني ذي المجاز بسحرة

وجار ابن حرب لا يروح ولا يغدو

كساك هشام بن الوليد ثياباً فأبل وأخلق مثلها جدداً بعد^(١)

٣

كثيراً ما يغير قوم على قوم فيسبون من ذراريهم فيستعبدونهم .
فينشأ هؤلاء الذراري أرقاء في غير قومهم ، فيباعون في الاسواق
أيام المواسم ، فكانت الجواري والأطفال من جملة العروض التي

(١) رسائل الجاحظ (جمع السندوي) ص ٧٦ بتصرف يسير

يقتنيها العربي في الجاهلية ويبيعها ويشتريها كما يفعل بالتمر والسياب
والسلاح حتى جاء الاسلام فأبطل سي العربي ، جاء في الاغانى
(١١ : ٧٥) :

« أن أبا وجزة لحق أباه عبيداً - وهو صي - سباء في الجاهلية ،
فبيع بسوق ذي المجاز ، فابتاعه رجل من سعد واستعبده ، فضرب
عبيد هذا يوماً ضرع ناقة لمولاه فأدماه ، فلطم المولى وجه العبد ، فخرج
عبيد الى عمر ' مستعدياً فلما قدم عليه قال : « يا أمير المؤمنين انا رجل
من بني ' سليم ثم من بني ظفر أصابني سباء في الجاهلية كما يصيب العرب
بعضها من بعض ، وأنا معروف النسب ، وقد كان رجل من بني سعد
ابتاعني فأساء إلي وضرب وجهي ، وقد بلغني أن لاسباء في الاسلام . »
فما فرغ من كلامه حتى كان مولاه قد أتى عمر على أثره فقال : « يا أمير
المؤمنين هذا غلام قد ابتعته بذي المجاز ، وقد كانت يقوم في مالي ،
فأساء ، فضربته ضربة والله ما أعلمني ضربته غيرها قط ،
وإن الرجل ليضرب ابنه أشد منها فكيف بعده ؛ وأنا أشهدك أنه
حر لوجه الله . » فقال عمر لعبيد : « انه لاسباء على عربي ، وإن هذا
الرجل قد امتن عليك ، وقطع عنك مؤونة البينة ، فإن أحببت فأقم

معه فله عليك منه ، وإن أحببت فالحق بقومك . ، فأقام عبيد مع
السعدي وانتسب في بني سعد بن بكر بن هوازن « اه
وعمر نفسه اشترى خادمه « أسلم » من سوق ذي المجاز ، وكان
أسلم هذا حبشياً أسود مشروطاً ^(١)

* * *

هذه الأسواق الثلاث ، عكاظ ومجنة وذو المجاز التي كانت تقوم
في أيام الحج ويؤمها العرب قاطبة من كل حذب وصوب ، شهدت الى
جانب مناظر البيع والشراء ، والمفاخرة والإنشاد ، مشهداً من أظنع
مشاهد الجفاء والتنكر والأذى لصاحب الشريعة الاسلامية ﷺ
وابتلعت تلك الأسواق بضجيجها وما كانت تعجب به من حوادث ، صوت
الدعوة الاسلامية فيما ابتلعت من دعوات ، وغاب صوت صاحبها في ذلك
الرغاء والصخب والزحام ، فلقد مكث الرسول بمكة مستخفياً ثلاث سنين
ثم أعلن في الرابعة ودعا الناس الى الاسلام عشر سنين يوافي فيهن
المواسم كل عام ، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذو المجاز ،

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٣ و (أسلم) هذا روى الناس لسيرة عمر رضي
الله عنه وكان ابن عمر يعظمه ، ومن طريق ما يذكر ابن عساكر عنه أن (أسلم)
وعاصم بن عمر حكما عمر في : أيها أحسن غناه !

يدعوهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ، فلا يجد أحداً ينصره أو يجيبه ، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة فيردون عليه أقبح الرد ويؤذونه ويقولون له ، « قومك أعلم بك ^(١) . »

كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج ، موزع السمع بين داع الى ثأر وناشد ضالة ، ومنشد قصيدة ، وخطيب ، وعارض بضاعة ، وحامل مال لفك أسير ، وقاصد شريف لإجازة او حمالة ، وداع الى عصية ، وأمر بمنكر ... فيجد شيئاً معروفاً قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا . لكنه بعد عام الفيل بثلاث واربعين سنة يجد أمراً لم يألفه قط ، ولاسمع بمثله : رجلاً كهلاً وضيقاً عليه سمات الوقار والخير ، يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة : هذه بنو عامر بن صعصعة ، وهذه محارب ، وتلك فزارة ، والرابعة غسان ، وهناك مرة وخيفة ، وسليم وعبس ، وهنا بنو نصر وكندة ، وكعب ، وعذرة ، وهؤلاء الحارات ابن كعب وأولئك الحضارمة ... الخ

يؤم منازل كل قبيلة ، ويقصد الى شريفها بدعوه بالرفق الى الله ،

(١) شرح المواهب ١ : ٣٠٩ . وانظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤١٥/٤

وفعل الخير ، فيتجهم له هذا ، ويعبس ذاك ، ويحبه ذلك ويحقره آخر .. فيلقى من الصدأ ألواناً يضيق ببعضها صدر الحليم ، فلا يؤيسه مالقى ، ولا يكفه ما أودى ، فيمضي متسداً حزناً الى قبيلة اخرى وشريف آخر : يعرض نفسه عليهم ويقول : « هل من رجل يحملني الى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي . » فلا يجد مجيئاً ، حتى تدارك الله نبيته بوفد الأنصار .

هذا ما حفظته لنا كتب السير والأدب من مشاهد مؤثرة ، فرأينا أن تلك الأسواق لم تخل من دعوة الى خير ، فقد تردد في أجوائها الصوت الضعيف الخافت ، يطلب حماية وإجابة . ولئن صدف عنه الناس وازوروا في أسواق الجاهلية لقد ملأ هذا الصوت فيا بعد ما بين المشرق والمغرب ، وطبق الخافقين بآثاره التي بشا في العالمين رحمة وعدلاً وعالماً وإنسانية وسعادة ومثلاً علياً . وما زال يستجيب لهذا الصوت كل يوم ، أفواج من أمم الحضارة والعرفان ، في آسية وأوربة وامريكة ، صدء عنه قديماً أجلاف البادين ، وهرع إليه اليوم زمر المتحضرين من كل عالم ومخترع ومصلح وأديب وسياسي ، ومفكر يستضيء بعلمه وفكره الملايين من الخلائق .

فلنأخذ من هذه الأسواق العبرة ، ولنحتفظ بهذا الدرس ، فإن الحق مهما بدا ضعيفاً وبدا خصيمه الباطل قوياً صائلاً ، لا بد أنه ظافر في النهاية عليه . ولنعلم أن اليأس لا ينبغي أن يجد سيلاً الى قلب المؤمن ، وأنه :

(لَا يَئِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

سوق نطاة خيبر

خيبر قرية شمالي المدينة ، بينها وبين تبوك . وهي عدة حصون لليهود وفيها مياه ومزارع . ونطاة اسم حصن بها واسم عدين أيضاً . وقيل هي خيبر نفسها . وحول القرية نخيل كثير يسقى بعين فيها والبلدة وبئة معروفة في العرب بحماتها .

أهلها يهود استوطنوا الحجاز منذ القديم واشتغلوا بالزراعة والتجارة^(١) .

ونظراً لوقوع هذه القرية على الطريق التجارية الكبرى بين اليمن والشام أسهم أهلها بتجارة الجزيرة ، وكانت إحدى محطات القوافل التجارية في سفرها الى الشام . ونجح أهلها في متاجرتهم حتى أفادوا منها غنى واسعاً واستفاضة لهم ثروات طائلة ونشأت فيهم رؤوس الأموال الضخمة . ولا نبعد إذا قلنا إن خيبر مصرف الجزيرة المالي . ولما فتحها الرسول ﷺ صالح أهلها على الشطر من الثمر والحب . ويذكر أصحاب السيرة غنائم خيبر وما وجدوا فيها من

(١) انظر ص ٢٢ وما بعدها في هذا الكتاب

كنوز ، فيذكرون أموالاً حجة ودنيا عريضة . بنى اليهود فيها حصوناً عديدة جعلوا فيها أموالهم وميرتهم من طعام وحب وثمر . وهم في الجملة أهل بأس وشكيمة قاوموا كثيراً قبل أن يفتح المسلمون حصونهم ، ثم غلبوا على أمرهم فافتتح المسلمون حصن ناعم ثم القموص ثم حصن الصعب بن معاذ وهو أعظم حصونها غناء وأكثرها طعاماً وودكاً ، ثم الوطيع ، ثم السلام ثم الشق . وكان في الغنائم ذهب كثير وفضة كثيرة ، فجعل الصحابة يتبادلونها حتى نهى الرسول ﷺ أن يبتاع الذهب بالذهب والفضة بالفضة . بين تلك الحصون حصن الشق وحصن نطاة وحصن الكتيبة . كان لكل حصن خازن يخبئ أموال أهله وكان كنانة بن الربيع عنده كنز بني النضير فلما أسر سئل عنه فأنكر فاهتمدى الفاتحون إليه فوجدوا أموالاً طائلة .

اتسعت تجارات اليهود في خير وغيرها حتى استطاع الرجل الواحد منهم كأبي رافع الخيري أن يسيّر قوافل تجارية لحسابه إلى الشام . وهم نشروا في الجزيرة التعامل بالربا كما تقدم في أول الكتاب وأثروا إثراء ضخماً . وكلما مرت عير لقريش أو لطيمة من لطائم النعمان قامت لها سوق في خير . وقد جعل المرزوقي زمنها بعد زمن سوق ذي المجاز أي بعد أشهر الحج وقبل أن تبتدى سوق حجر .

سوق حجر

تقع بلاد اليمامة إلى غربي البحرين وجنوبي العراق . والطريق إليها من العراق وغيره طويلة شاقة . وقصبتها وأم قراها (حَجْر) وذكر اللسان أنها (الحَجْر) بالتعريف وحكى فيها الكسر أيضاً . ينزل أمراء اليمامة وولاتها في حجر ، حيث السوق وحيث تجلب إليها الأشياء ، إذ هي مصر اليمامة عامة وفي وسطها . وهي في قاع فيه نخيل وماء وكان به قصور في القديم حين كانت البلدة ذات شأن . وأصلها لبني حنيفة إلا أنها شركة كالبصرة والكوفة : لكل قوم فيها خطة . لكن العدد فيها لبني عبيد من بني حنيفة وكان قد تحصن فيها مسيامة الكذاب لما تبعته سجاح المتنبئة قبل أن يتزوجها ويقتسمها الأرض بينهما ، وهي ذات شهرة في العرب ، اشتهرت منها زرقاء اليمامة التي ضرب المثل بجدّة بصرها واشتهر أيضاً منها عرافها الذي كان يقصد من بعيد ، والذي روي فيه بيت عروة بن حزام :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني

حَجْر من الأسواق المتوسطة ، يقصدها العرب لما يقصدون إليه بقية الأسواق من بيع وشراء وتناشد . ثم صار لها في الإسلام

ذكر مكرّر في أحاديث الأدب والأخبار لأنها دار جرير بن الحنظلي الشاعر ، وكثيراً ما كان ينزلها أيضاً ذو الرمة ، وكانت في مأمن من السلطان ، لبعدها . وبقيت سوقها حتى آخر العصر الأموي ، وذكروا أن عمران بن حطان هرب من الحجاج إلى اليمامة فنزل بجحر . كان يجري في هذه السوق قريب مما يجري في عكاظ من المفخرة .

١ - مناصرة

قال علي بن شفيع : « إني لواقف بسوق حَجَر ، إذ أنا برجل عليه مقطعات خز وهو على نجيب مهري ، رجل من هيئته وحالته .. لم أرقط أحسن منه وهو يقول : « من يفاخرني ؟ » من ينافرني ببني عامر بن صعصعة ، فرساناً وشعراء وعدداً وفعالاً ؟ » قلت : « أنا . » قال : « بمن ؟ » قلت : « ببني ثعلبة بن . . . بن بكر بن وائل . » فقال : « أما بلغك أن رسول الله ﷺ نهى عن المناصرة ؟ » ثم ولى هارباً . فقلت من هذا ؟ ف قيل : « عبد العزيز الكلابي . »

٢- جرير يكي الفرزدق

ولعل أفحل من بها (وبغيرها) من الشعراء في الإسلام جرير
كان إذا انتهى من أحداثه الشعرية في العراق أو الشام وملا الأجواء
بهجائه وفخره ، أوى إلى بلده وقومه الذين ينافع عنهم ، فأكرموا
مثواه وطاروا بأشعاره ، وإن مجلس جرير ليعدّ أحد المشاهد في
سوق حجر :

« كان يوماً جالساً بفناء داره في حجر فإذا راكب أقبل فقال له
جرير : « من أين وضح الراكب ؟ » قال « من البصرة . » فسأله عن
الخبر فأخبره بموت الفرزدق ، فقال :

هالك الفرزدق بعدما جدّ عته^(١) ليت الفرزدق كان عاش قليلاً
فقال له المهاجر : « بس ماقلت ، أتتهجو ابن عمك بعدما مات ،
لورثيته كان أحسن بك . » ففكّر قليلاً ثم قال : « والله إني لأعلم
أن بقائي بعده لتقليل ، وإن كان نجمي ليوافق نجمه ، أفلا أرثيه .. »
فقبل له : « لو كنت بكيته مانسيتك العرب . »

ثم قال جرير من أبيات يرثيه :

(١) جدّ عته : قطع أنفه

فلا ولدت بعد الفرزدق حامل . ولا ذات بعل من نفاس تبلت^(١)
هو الوافد المأمون والواثق الرضى إذا النعل يوماً بالعشيرة زلت . «

٣ - سائر بطاف به مجاورا

هجا البعيث بطناً من باهلة يقال لهم بنو أصخب، فاستعدوا عليه
إبراهيم بن عدي عامل الوليد بن عبد الملك ، فضربه بالسياط وأمر
فطيف به في سوق حجر . ويراه جرير فيقول :
لئن هجوت (بني صخب) لقد تركوا للأصبحية في جنبيك آثارا
قوم هم القوم لو عاد الزير بهم

لم يسلموه وزادوا الحبل إمراراً^(٢)

وهكذا كانت سوق حجر خاتمة المطاف لهذه النقائض الممتعة
والحرب السجال الطويلة بين فحلين من أفحل شعراء العرب ، استأثر
سوق المربد بالبصرة بأكثرها وختمت هنا في حجر .
ففي هذه السوق إذاً ، أثارا كما كان يكون في عكاظ من بيع
وشراء ومفاخرة ومجالس أدب .

كانت تقوم هذه السوق بين عاشوراء وآخر المحرم .

(١) صححت وعوفيت

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٢٢/٥ - الأصبحية : السياط

سوق دير ايوب

دير ايوب قرية بجوران من نواحي دهباق يزعمون أنها مسكن
ايوب النبي عليه السلام ، وأن الله ابتلاه فيها ويزعمون أيضاً أن
العين فيها هي التي ركضها برجله .

هذا ما ذكره ياقوت . أما القرية فهي الى شمال بصرى وغرب
أذرنات (درعا) وتعرف اليوم باسم (شيخ سعد)^(١) ولا يزال
اليوم فيها مقام للنبي ايوب وفيها العين التي أشار إليها ياقوت وهي
من القرى الصغيرة في حوران ، قليلة النفوس والشأن .

ويظهر أن لها في القديم خطراً كبيراً يقارب ما لبصرى فقد
هبطتها منذ سنين بعثة أثرية (تشيكوسلوفاكية) ونقبت في تربتها
فعثرت على آثار رومانية قديمة ، حملت منها الى بلادها قسماً مهماً وكان
في جملة ما عثرت عليه آثار حثية ومصرية وأبقت منها نصباً في دار
الاعظم بدهباق .

(١) انظر في ذلك (الطبوغرافية الأثرية لمرورية وفلسطين) لدوسو ص ٢٤٤

فالبلدة إذن ذات مكانة قديمة لعهد الجاهلية وصدر الاسلام .
ويذكر الطبري ^(١) أنه لما « انصرف مروان (الجعدي) منهزماً ،
جمع قومه وجنده ، ومضى إليه أبو الورد فهزمه ثانية وتفرق من معه
وأسر ثلاثة رجال من ولده وهم نعيم ، وبكر ، وعمران فبعث بهم
الى مروان . . . وهو بدير أيوب فأمر بمداواة جراحتهم . » ثم ذكر
ما يفيد أن مروان جعلها قاعدة حربية لتجهيز جنده وبعثهم الى الاطراف
المنتقضة فيقول : « فأقبل نحو من عشرة آلاف ممن كان مروان قطع عليه
البعث بدير أيوب لغزو العراق مع قوادهم حتى حلوا بالرصافة ^(٢) . »
وبقيت دير أيوب من القرى المهمة في حوران حتى ضؤل شأنها
كما ضؤل شأن بصرى وأذرعات وسائر حوران .

وهذه السوق أول أسواق الشام قياماً . فكان العرب وقريش اذا
انتهوا من أسواقهم الموسمية : عكاظ ومجنة وذى المجاز ، وأنهبوا حجبهم
ورجعت وفود البلدان ، نظّموا عيهم وتهيؤوا للسفر الى الشام
فأقاموا تجارتهم فيها وبدؤوا بسوق دير أيوب هذه .

ومتى انتهوا منها وانتقضت اعتدوا سبعين يوماً ^(٣) ثم أقاموا

سوق بصرى .

(١) ١٨٩٤: ٢ (٢) ١٨٩٧: ٢ (٣) الأزمنة والأمكنة ٢: ١٦٩

سوق بصرى

بصرى من مشارف الشام وهي عاصمة حوران ومن كبار مدن الشام منذ الزمن الأطول قبل الإسلام ، حتى إن اسمها ليتردد في كثير من أشعار العرب . وكان أهل الشام عامة على علاقات متواصلة مع سكان الحجاز ، لكثرة أسفار هؤلاء إلى الشام . وكان النبط كثيراً ما يحملون تجارتهم بين الحجاز والشام وينقلون الأخبار بين البلدين . بل إننا نجد لبصرى من الشهرة في الجاهلية ما لا نجد لدمشق نفسها ، لأنها كانت محطة رحال تجار العرب من بلاد الشام يقصدون إليها بحاصلات الحبشة والهند واليمن فكانت هذه العلائق سبباً في جريان الألسنة بذكرها دون دمشق التي لا نكاد نذكر على ذكرها في الأشعار القديمة .

كانت بصرى أيام الرومان على جانب من العظمة والمكانة وقد أنجبت أحد أباطرة الرومان : « فيليبس » الذي نصب إمبراطوراً سنة (٢٤٤) من الميلاد فقد كان عربياً من بصرى حوران . جاء في خطط

الشام^(١) في صدد الكلام على حوران وعمرانها :

« ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران وأحسن مدن
(باشان) ومعقل الرومان ، شاهدة بما كان في بلاد تلك المدينة من
الفخامة والعظمة . وكان طولها داخل السور كما قال بورتير ميلاً وربع
ميل وعرضها ميلاً . ويحيط بالسور ربض كثير المباني ، ومحيطها
خمسة أميال ، لها سور عالي الجدران وثيق البنيان ، وقلعة لا أحسن
منها في عامة بلاد الشام . ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر في
وسطها له بابان جميلان على طرفه ، وشوارع رحبة ، وفيها ما يفوق
الوصف من غرائب الصناعة . وبدائع البناء ، وأساليب النقش في
الهياكل والكنائس والقبور والمذابح ، ورُكّام الانتقاض وبيوت
الأقدمين . وقوس نصر أقيم للقائد فيليبس الذي صار إمبراطوراً وهو
من أهالي بصرى . والمشهد نصف دائرة قطره (٢٧١) قدماً وهو
مكشوف من الأعلى مثل كل المشاهد الرومانية . وفيها مشاهدان
وستة هياكل وعشر كنائس . عدا القصور والحمامات والسبل
والقنوات وأقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة . وبعضها
ما يصلح أن تزدان به أعظم عواصم أوروبا الآن . » اهـ

ونظراً لمرکزها التجاري المهم وكونها سوقاً عامة للقوافل الآتية من جزيرة العرب وتوسطها بين أماكن قبائل النبط والبدو وغيرهم حصنها الرومانيون وعنوا بها عناية فائقة وجعلوا فيها الحاميات القوية لمراقبة قبائل الصحراء وحرركاتهم ، فهي قلعة الرومان في وجه البادية والصحراء ، ومعقلهم يصدون منها ما قد تتعرض له الشام من هجمات القبائل .

انتظم سير القوافل التجارية العربية إلى بصرى قبل الإسلام بزمان طويل . وكان رحل إلى الشام فسكنها وماحولها : عرب من اليمن بعد حادث سيل العرم . وكانت تزعم لها الشهرة قبل هذا الحادث أيضاً فقد جاء في الأغاني :

لما أرسل الله سيل العرم . على أهل مأرب قام رائدهم فقال : من كان يريد الخمر والخير ، والأمر والتأمر ، والديباج والحريز ، فليلق ببيصرى والحفير ، وهي من أرض الشام فكان الذين سكنوه غسان . اهـ

ولما عظم أمر قریش صارت غيرهم ترد بصرى في مقدمة ما ترد من مدن الشام وتعددت أسفارهم إليها ، وليس في قریش تاجر إلا رحل إليها مراراً وعرفها حق المعرفة ، كما عرف أغلب مدن الشام ، فاستفادوا من خبرتهم بهذه

الديار فوائد جُلّى لما بدأت الفتوحات بعد الإسلام . وفيما يذكر رواية
الأخبار دليل على احتفال العرب ببصرى وسوقها ، فيزوي الحافظ ابن
عساكر مثلاً عن الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله أحد العشرة أنه
قال : « كنت في سوق بصرى ، فإذا راهب في صومعته يقول : « سلوا
أهل هذا الموسم : أفيهم أحد من أهل الحرم ؟ » فقال طلحة : « نعم أنا »
فقال : « هل ظهر أحمد بعد ؟ » .. الخ ^(١) فالموسم جامع للناس من
أقطار شتى وأهل الحرم ممن يرد :

وكتب السيرة تذكر أن رسول الله ﷺ سافر إليها مرتين : مرة
طفلاً ومرة تاجراً ابن خمس وعشرين سنة ^(٢) وتزعم اجتماعه بأحد الرهبان
في دير ^(٣) هناك ، وأن الراهب دعا إلى وليمته جميع من في العير ... مما يدل على

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٧٣

(٢) انظر ص ١١٣ من هذا الكتاب

(٣) جاء في مسالك الأبصار ١ : ٣٤٧ ما يأتي :

دير بصرى : هو بالشام ، وقيل هو الذي كان فيه بجري الراهب ، حكى
المازني : قال : نزلت بدير بصرى . فرأيت في رهبانه فصاحة ، وهم عرب متنصرة
من طيء من بني الصادر ، أفصح من رأيت . فقلت لهم : مالي لا أرى فيكم
شاعراً مع فصاحتكم ، فقالوا والله ما فينا رجل ينطق بالشعر ، إلا أمة لنا كبيرة =

وجود العلائق بين الفريقين وتفاهمهم معاً باللغة العربية . بحيث يجوز لنا أن نعد كورة بصرى قطراً عربياً في الجاهلية . وقد راسل رسول الله ملك بصرى عاصمة حوران فأرسل إليه كتاباً مع الحارث بن عمير كما بعث الى غيره من الملوك . ولما كانت خلافة أبي بكر لم يفت المسلمين شأن بصرى وعظمتها ، فكانت أول ما فتحت صلحاً بعد حصار قليل ، لما سار خالد بن الوليد من العراق لمدد أهل الشام وقدم على المسلمين وهم نزول ببصرى ، وضايقوا أهلها فصالحوهم ، على أن يؤدّوا عن كل خالم ديناراً وجريب حنطة ثم افتتح المسلمون حوران جميعها وقد تمّ ذلك سنة ١٣ للهجرة . قال القعقاع بن عمرو يذكر أمر بصرى هذا وقد كان في الجيش المحاصر .

بدأنا بجمع الصُفّرين فلم ندع لغسان أنفاً فوق تلك المناخر

= السن . فقلت : جيئوني بها . فجاءت ، فاستنشدتها فأنشدتني لنفسها :
 = أيا رفقة من آل بصرى تحملت تؤم الحمى لقيت من رفقة رشدا
 إذا ما بلغتم سالمين فبلغوا نحية من قد ظن أن لا يرى نجدا
 وقولوا : تركنا الصادريّ مكبلا بكبل هوى من جبكم ، مضرا وجدا
 فيا ليت شعري هل أرى جانب الحمى وقد أنبتت أجراعه بقللا جمدا
 وهل أردت الدهر ماء وقية كأن الصبا تسدى على منته بorda
 فوهبت لها درجيات . وبت في دبرهم وأكرموا ضيافتي .

صبيحة صاح الحارثان ومن به سوى نفر نجتذهم بالبواتر
وجئنا الى بصرى وبصرى مقيمة فألقت إلينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت بنا العيس في اليرحوك جمع العشائر
ونحن - وإن لم يكن في يدنا نص عربي قديم يشير الى غناها
و كثرة أزاقها - نجد في شرط الصلح ما يدل على وفرة خيراتها ،
حتى لقد ادعى صاحب بصرى مرة أنه صالح المسلمين على طعام وخل
وزيت فكذب به أبو عبيدة ^(١) ، كما أن في كثرة ورودها على السنة الشعراء
ما يدل على شأنها ، فإننا إذا أردنا التقصي تعذر علينا إحصاء ما في الشعر
القديم من مثل :

أيأ رفقة من آل بصرى تحملوا رسالتنا لقيت من رفقة رشدا ،
وقول الصمة بن عبد الله القشيري :

نظرت و طرف العين يتبع الهوى شرقي بصرى نظرة المتطاول
وقول المتامس (وهذا كان له ولد يقال له عبيد المنان ذلك
ببصرى ولا عقب له) :

لم تدر بصرى بما آليت من قسم ولا دمشق اذا ديس الكراديس

(١) طبقات ابن سعد

وقول الآخر :

ولو أعطيت من بيلاد بصرى وقنسرين من عرب وعجم
وورد في كتب السيرة ذكر لقصور بصرى هذه .

* * *

لم ينقطع قيام سوق بصرى بعد الاسلام بل زاد أمد قيامها .
وكان العرب في جاهليتهم اذا انتهوا من سوق دير أيوب أقاموا سوق
بصرى حيث كان يشرف عمال الرومان . وتطول مدة هذه السوق
طويلاً يتناسب هو وما قطعوا في سفرهم إليها من زمن . وقد بقيت
تلك السوق حتى زمن المرزوقي (القرن الخامس الهجري) إذ ذكر
أنه أدركها تقوم خمساً وعشرين ليلة ، ونقل أنها كانت تقوم بولاية بني
أمية من ثلاثين ليلة الى أربعين وهي مدة طويلة ليس للعرب مثلها
في عامة أسواقهم .

اشتهر ابصرى نوعان من البضاعة اختلفت بهما . أما الأول فالخمر
لأنها كانت من مدن الشام التي يحمل منها الخمسور ^(١) ويتبعج العرب
بذكرها . قال ابو ذؤيب الهذلي يذكر خمرتها :
سلافة راح ضمنتها إذ لاوة دقيرة ردف لمؤخرة الرجل

(١) كذلك صرخدا ، وحلبون كانتا مشهورتين بخمرهما أيضاً .

تزودها من أهل بصرى وغزة على جسرة مرفوعة الذيل والكفل^(١)
وأما الثاني فالسيوف وقد اشتهرت بصنعها بصرى كما اشتهر
كثير غيرها من قرى الشام التي تدنو من الريف حتى قيل للسيف
« مشرفي » نسبة الى مشارف الشام وبصرى أحدها فتنتسب إليها
السيوف البصرية قال الشاعر :

يعلنون بالقلع والبصريّ هامهم^(٢)

وقال الحصين بن حمام المري يصف خيل الغارة :

عليهن فتیان كساها محرق وكان اذا يكسو أجاد وأنعم
صفائح بصرى أخلصتها قيونها ومطر دأمن نسج داوود معلما^(٣)
وأمر هذه السوق من إشراف ومكس ، الى عمال الروم عليها
وكثيراً ما يكونون عرباً من غسان .

(١) مر شرحها ص ٣٤٥

(١) القلع : فأس صغيرة تكون مع البتاء ، ومعدن ينسب إليه الرصاص
الجيد . (٢) الصفائح : السيوف . والقيون : الحدادون . والمطرده : الدرع .
والمعلم : ما عليه علامة .

سوق أذرعات

أذرعات بلد بالشام قرب البلقاء (وهي اليوم تعرف بدرعا)
أمرها قريب من أمر بصرى وتليها في الشأن ، وعلاقتى العرب التجارية
بها في الجاهلية كعلاقتهم ببصري ، واستفاضتها على ألسن شعرائهم
تشبه ما لبصرى ، من مثل قول امرئ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها ييثرب أدنى دارها نظر عالي^(١)
وقول الآخر :

وهيجتني من أذرعات وما أرى بنجد على ذي حاجة طرباً بعدا ؟
واشتهرت بخمرها في الشعر فقال أبو ذؤيب الهذلي :
فما إن رحيقٌ سببتُها التجا ر من أذرعات فوادي جدَرُ
وقال :

فما فضلة من أذرعات ثوت بها مذكرة عَنَس كهادية الضحل^(٢)

(١) تنور الناس من بعيد : أبصرها . (٢) المذكرة : الناقة العظيمة
الرأس . والعَنَس : الناقة الصلبة . والضحل : الماء القليل . وهادية الضحل
وأثانه : صفوة على فم الركبة ، ملساء أو بعضها وبعضها غائر . ديوان
أهلدين ٣٩/١ (طبعة دار الكتب المصرية) .

سلافة راح . . . الخ ، وتنسب إليها فيقال خمر أذرعية .
كان يحكمها في الجاهلية عمال للروم فلما جاء الإسلام صواح أهلها
ونالوا عهداً لأنفسهم وبلدهم . فلما كانت جيئة عمر إلى الشام استقبلوه .
قال عبد الله بن قيس :

« كنت بمن لقي عمر مع أبي عبيدة مقدّمه الشام ، فبينما عمر
يسير إذ لقيه المقلّسون ^(١) من أهل أذرعات بالسيوف والريحان فقال
عمر : « مه ، امنعوهم . » فقال أبو عبيدة : « يا أمير المؤمنين هذه
سنتهم ، وإنك إن منعتهم منها يروا أن في نفسك نقضاً لعهدهم . » فقال
عمر : « دعوهم . »

تقوم هذه السوق بعد سوق بصرى بسبعين ليلة ^(٢) . ويطول
أمدّها . والغالب أنهم يقيمونها مدى الصيف . وبقيت هذه السوق
قائمة بعد الاسلام بكثير ، فقد أدركها المرزوقي ووصف طول قيامها
بقوله : « وسوق أذرعات اليوم أطولها قياماً وربما لقيت الناس
صادرين منها وأنا وارد . »

(١) التلبّس : الضرب بالدّف والغناء واستقبال الولاة عند قدومهم
بأصناف اللّهر ، وأن يضع الرجل يديه على صدره ويخضع - القاموس .

(٢) الازمة والامكنة ٢ : ١٧٠ .

سوق الحيرة

لم يذكر هذه السوق أحد من تعرض لذكر أسواق العرب مع
عظم شأنها وقصد تجار العرب إليها . وليس من المعقول أن تقصد
قريش وأهل الطائف ، فارس ، للنجارة فيها ولا يكون لهم أسواق
موسمية في العراق وهي طريقهم وأهلها عرب .

إلا أن في الأغاني ما يدلنا على أن بها سوقاً عظيمة موسمية ، قال
أبو الفرج :

« خرج الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ومعه عطر
يريد الحيرة ، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليه الناس كل سنة^(١) . »

وبلدة كالحيرة بعيدة الصيت في جزيرة العرب ، يتحدثون بخصبها
وعظمتها ومنازلها... وأحداث ملوكها بني نصر ، وعلائقهم مع من
جاورهم من العرب ، ويتحدثون عن الشعراء العظام الذين قصدوا
ملوكها للنوال والهبات كالنابغة الذبياني والأعشى وحسان بن ثابت
وغيرهم... بلد كهذا لا بد أن يكون مرتبطاً بما جاوره من الأقاليم

ارتباطاً تجارياً وثيقاً ، وهي أولى من بصرى وأذرعاً بأن يكون فيها للعرب أسواق عامة .

ويطلعون التعمق في التنقيب على أسواق ثانية تقام في أماكن من العراق ولا تقتصر على العرب وبضائعهم ، بل يخاطبهم فيها أجناب من فرس وغيرهم ويحمل إليها متاع الهند وفارس كما يحمل إليها أمتعة الشام واليمن والبحرين فقد جاء في الطبري عند كلامه على فتوح العراق :

« سوق الحنافس سوق يتوافى إليها الناس ويجتمع بها ربيعة وقضاة يخفرونهم ... قال رجل من أهل الحيرة المثنى : « ألا ندلك على قرية يأتياها تجار مدائن كسرى والسواد وتجتمع بها في كل سنة مرة ، ومعهم فيها الأموال كبيت المال ؟ وهذه أيام سوقهم ... » فصبّحهم في أسواقهم فوضع فيهم السيف ... وأخذوا ماشاؤوا . وقال المثنى : « لا تأخذوا إلا الذهب والفضة ، ولا تأخذوا من المتاع إلا ما يقدر الرجل منكم على حمله على دابته . وهرب أهل الأسواق وملا المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء والحر من كل شيء ... »^(١)

* * *

الحيرة مدينة واسعة الشهرة منذ القديم . ذكروا أن بناها
بختنصر ، وأنه بناها لتجار العرب الذين وجد بحضرته ثم صارت من
بعده عاصمة ملوك العراق حتى إن الطبري ليذكر أن لها قبل الاسلام
أكثر من خمسة قرون ^(١) . وموضعها الى شمال الكوفة على ثلاثة
أميال منها . طيبة الهواء كثيرة البساتين . ردّد ذكرها الشعراء منذ
الجاهلية وفتنوا بها وبخمرها وحاناتها وأديارها فكانت بحق مقصف
العرب عامة . ونسبوا إليها فقالوا : (حاري) على غير القياس ؛ وقالوا :
(حيري) على القياس ، فمن الأول قول عمرو بن معد يكرب :

كأن الإثم الحاريّ منها يسف بحيث تبتدر الدموع ^(٢)
ومن الثاني قول بعضهم :

فلما دخلناه أضفنا ظهورنا الى كل حاريّ قشيب مشط ^(٣)
ولها تاريخ طويل يدل على قدمها وشهرتها قبل الإسلام وأنها
كانت ميداناً لحوادث جسام ليس هذا مقام سردها فليرجع إليها
في مظانها .

(١) تاريخ الطبري ١ : ٧٤٨ طبع أوربة

(٢) الإثم : حجر للكنحل . وأسف الجرح دواء : أدخله فيه .

(٣) الحاريّ : السيف ، والمعنى أنهم احتبوا بالسيوف - لسان العرب ،

مادة (حير) .

وذكر ياقوت في سبب بنائها أن : « بختنصر قد جمع من كان في بلاده من العرب بها فسمتها النبط أنبار العرب ٠٠٠ فصار في الحيرة من جميع القبائل من مذحج وحمير وطى وكلب وتميم وتنوخ ٠٠٠ فأهل الحيرة ثلاثة أصناف : فثلث : تنوخ وهم كانوا أصحاب المظالم ويوت الشعر ينزلون غربي الفرات بين الحيرة والأنبار فما فوقها . والثلث الثاني : العباد وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا فيها ، وهم قبائل شتى تعبدوا لملوكها وأقاموا هناك ، وثلث : الأحلاف وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها ، وأشار إلى بعض هؤلاء الشعراء :
وغزا تبّع في حميرَ حتى نزل الحيرة من أهل عدن
واشتهر في ظاهر الحيرة بناءان عظيمان هما قصر الخورنق وقصر السدير . وبقيت مسكن ملوك العرب من بني نصر والحخم حتى كان آخرهم المناذرة الذين انقضى ملكهم بالإسلام .

ارتباط هذه البلدة بفارس وخضوع أمراءها لهم وكثرة العلائق بين البلدين ، وسّع أفقها التجاري وأكثر فيها الغنى والترف وأحدث فيها نوعاً من الثقافة ليس في غيرها . فقد مرّ بك أن قریشاً تعلمت الكتابة من أهل الحيرة ، وأن الذي قرأ صحيفة المتأسس غلام حيري ، وأن النضر بن الحارث شيطان قریش تعلم من الحيرة أخبار ملوك

فارس وأحاديث دياناتهم وأساطيرهم فكان إذا جلس رسول الله يدعو قريشاً إلى الاسلام ويحذرهم ، خلفه في مجلسه فقص عليهم من أحاديثه التي نقلها من الحيرة ، وعلمت أن لقريش رحلات وقوافل تجارية إلى الحيرة ، وأن للنعمان ملك الحيرة لطائم يجهزها إلى عكاظ كل سنة . وهذا الاختلاط الشديد بين أهلها والفرس والأنباط جعل أنساب الحيريين في منزلة دون منزلة بقية أنساب العرب ، حتى إن من العرب من يُعبر بالنسب إلى الحيرة . وانظر إن شئت ما كان بين قيس بن عاصم وعمرو ابن الأهتم بين يدي رسول الله ﷺ فقد جاء في الأغاني أن قيس ابن عاصم قال في عمرو : « والله يارسول الله ما هم منا ، وإنهم لمن أهل الحيرة !! » وقال فيه :

لولا دفاعي ككنتم أعبداً مسكنها الحيرة فالسيلحون
فقال عمرو بن الأهتم متأثراً بهذا التعبير الذي لم يجد له ما يفي به إلا أن ينسب خصمه إلى الروم : « بل هو يارسول الله من الروم وليس منا . » ثم قال :

إن تبغضونا فإن الروم أصلكم والروم لا تملك البغضاء للعرب^(١)
هذا وإن نحن استرشدنا بنقف من الاخبار تأتي عرضاً في

مطاوي الكلام ، عرفنا أن للحيرة شأنًا تجاريًا ممتازاً ، وأن عادة العرب جرت منذ القديم بالتجارة الى الحيرة ، وأنها كانت تؤمها القوافل الكبرى التي تقصد البرّ حاملة متاجر الهند من عُمَّات الى الشام ، فكانت الحيرة محطة كبرى لتلك القوافل المحمّلة . وكان أكثر الطرّاء عليها تجاراً يختلفون إليها ^(١)

ولما قتل الشّيعظم بن الحارث الغساني رجلاً من قومه وهرب الى الحيرة تظاهر بأنه « رجل من خير أقبلى إلى هذه البلدة بتجارة » ^(٢) . «
وخرج خمسة نفر من طيء من ذوي الحجا والرأي يريدون سواد بن قارب الدوسي ليمتحنوا علمه .. » فأهدوا اليه طرفاً من طرف الحيرة فضرب عليهم قبة ونحر لهم .. ^(٣) »

ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أن الأعشى باع في سوق الحيرة « كبرشاً مدبوخة مملوءة عنبراً بثلاثمائة ناقة حمراء » ^(٤) .

مما تقدم ، ومما سنذكره بعد قليل ، يتبين أن للحيرة مع شأنها التجاري شأنًا صناعياً راقياً حتى صارت طرفها مما يتهادى به ، وليس

(١) الطبري ١ : ٢٦٧٧ . (٢) الامالي : النوادر ص ١٧٩ طبعة دار

الكتب المصرية . (٣) المصدر نفسه ٢ : ٢٨٩ . (٤) الاغانى ٩ :

١٢٥ . دار الكتب .

هذا بغريب فإن اختلاطها الواسع بفارس جعل أهلها يحذقون صناعات كثيرة مما أفادوه من الأيرانيين « والمعروف أن سجاجيد ذات زخارف حيوانية كانت تصنع في الحيرة قبيل الإسلام »^(١)

يعرض في هذه السوق الأدم والعطر والبرود والجواهر والخيل والاموال وسائر ما يعرض في بقية أسواق العرب ، مما يحمل من الشام أو اليمن أو عمان أو الحجاز أو البحرين أو الهند وفارس ، عدا ما يحمل الأعراب إليها من إبل وشياه وقرود أحياناً^(٢) وفيها أيضاً إلى هذا ، أدب وشعر وخطابة و مناقرات ومماجدة كما يكون في غيرها من الأسواق ، وسنعرض لبعض ما يجري فيها بعد قليل .

فلما كان الإسلام تضاعف شأنها التجاري ، وانصرف الناس إلى الفتوحات فلم يمض القرن الأول للهجرة حتى صارت الحيرة ذات لون أخاذ يفتن الشبان وأهل اللهو والمجون . فطار لها صيت بعيد ساحر في منازلها وخمرها وحاناتها^(٣) وأديارها ، وصرنا بعد هذا

(١) ذكي حسن (مجلة المقتطف ، عدد يوليو سنة ١٩٣٨ ص ٢٣٣)

(٢) الأمازي : ٢ : ٤٤ . وانظر تاريخ ملوك الحيرة للأعظمي ص ١٣٦

(٣) عقد صاحب المسالك الابصار فصلاً في كتابه عن حانات الحيرة فارجع

إليه في ١ : ٣٨٩ - ٢٩١ وكذلك فعل في أديارها .

الزمن لانجد ذكرآ للحيرة إلا حيث مجلس شراب ، وجماعة قصف
وبذخ ، وخليفة يخرج للترويح عن النفس ، وفتيان سثموا حياة الجدد
فخرجوا الى الحيرة فنزلوا أحد أديرتها أو إحدى حاناتها فذبجوا
وطعموا وشربوا وغنوا وأنشدوا . وأثري أصحاب الحانات من
وراء ذلك إثراء عظيمافصاروايتنافسون بتجويد الخمر ، وجذب الزائرين
حتى كثر الذين ذهبت ثرواتهم وفدّحهم الدين من جراء خمرة الحيرة .
« ولما حرم بعض امراء الكوفة بيع الخمر على خماري الحيرة
وركب فكسر نبيذهم . . جاء بكر بن خازجة يشرب عندهم على
عادته ، فرأى الخمر مصبوبة في الرحاب والطرق ، فبكى طويلاً وقال
شعراً^(١) ويظهر ان الأمراء لم يشددوا على الخمارين حتى رأوا من
إقبال الفتيان عليهم الشر المستطير ، وحتى كان رجال كأبي حبة
النميري يشربونها في الحيرة بنسيئة ، وصارت السكرة في الحيرة
إحد المنى الغالية :

هل إلى سكرة بناحية الحية رة يوماً قبل المات سليل ؟
أما بساتين الحيرة فحدث ولا حرج عما فيها من منازة نضرة
وفتنة تحير اللب وتأسر العقل ، وحسبك أن تعلم أن إبراهيم الموصلي

خرج في ركب الرشيد إلى الحيرة ، فلما نام الرشيد اغتم غفلته
فركب يدور في ظهر الحيرة فنظر الى بستان فقصده « فإذا على بابه
شاب حسن الوجه . . وإذا جنة من الجنان في أحسن تربة وأغزرها
ماء ... فقال فيه :

جنان شماری ليس مثلك منظر لذي رَمَدٍ أعياء عليه طيب
ترابك كافور ونورك زهرة لها أَرَج بعد الهدوء يطيب
ثم صنع فيه لحناً وغناه الرشيد ، فأعطاه ثمن البستان أربعة
عشر ألف دينار .

لم نهتد إلى الزمن الذي تقوم فيه هذه السوق . أما ربيع الطريق
فقد جعله النعمان طُعْمَةً لبني لام من طيء لأنهم أصهاره ^(١) ونظراً
لوقوع هذه السوق في سلطة المناذرة كانت كانت عشورها اليهم لأنهم
هم المسيطرون عليها . والأمر فيها على كل حال اكمل وأتم من بقية
الأسواق من حيث النظام والأمن لأنها في ارض مملكة .

واليك الآن مشاهد مما كان يجري في تلك السوق على سبيل
المثال ، ولاتعجب إذا كانت أكثرها في الحمرة لأن الحمرة والنضرة
والعزف والشعر والغناء ، هن الطابع الخاص للحيرة :

١ - منافرة حامية

خرج الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، ومعه عطر يريد الحيرة ، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليها العرب كل سنة . فمر بحاتم بن عبد الله الطائي ، فسأله الجوار في أرض طيء حتى يصير إلى الحيرة ، فأجاره . ثم أمر حاتم بجزور . فنصرت وطبخت أعضاء فأكلوا .

ومر حاتم بسعد بن حارثة بن لام (وكان النعمان جعل ربيع الطريق لبني لام لأنهم أصهاره) وليس من بني أبيه غـيـر ابن عمه ملحان ، فوضع حاتم سفرتة وقال : « اطعموا حيّاكم الله . » فقالوا : « من هؤلاء معك يا حاتم ؟ » قال : « هؤلاء جيرانني . » قال له سعد : « أفأنت تجير علينا في بلادنا ؟ » قال له : « أنا ابن عمكم وأحق من لا تخفرون ذمته . » فقالوا : « لست هذاك . » وأرادوا أن يفضحوه كما فُضح عامر بن جويئن قبله ، فوثبوا إليه ، فتناول أحدهم حاتمًا فأهوى له حاتم بالسيف فأطار أرنبة أنفه ، ووقع الشر حتى تجاوزوا ، فقال حاتم :

وددت وبيت الله لو أن أنفه هواءٌ كما مت الخاط عن العظم
ولكننا لا فاه سيف ابن عمه فأب ومـرّ السيف منه على الحطيم^(١)

فقالوا لحاتم : « بيدنا وبيدك سوق الحيرة فمناجدة ونضع الرهن . » ثم نفذوا ما قالوا فوضعوا تسعة أفراس رهناً على يد رجل من كلب ، ووضع حاتم فرسه ثم خرجوا حتى انتهوا إلى الحيرة .

وسمع بذلك إلياس بن قبيصة الطائي ، فخاف أن يعينهم النعمان ويقوهم بماله . وسلطانه لأصهر الذي بينهم وبينه ، فجمع إلياس رهطه من بني حبيسة وقال :

« يا بني حية إن هؤلاء القوم أرادوا أن يفضحوا ابن عمك في مجادته . » فقال رجل منهم : « عندي مئة ناقة سوداء ، ومئة ناقة حمراء أذماء ، وقام آخر فقال : « عندي عشرة حصن ، على كل حصان منها فارس مدجج لا يرى منه إلا عيناه » وقال حسان بن جبلة الخير :

« قد علمت أن أبي قد مات وترك مالاً كثيراً ، فعسلي كل تمر أو لحم أو طعام ما أقاموا في سوق الحيرة ! »

ثم قام إلياس فقال : « عليّ جميع ما أعطيتكم كلكم . »

وكان حاتم لا يعلم بشيء مما فعلوا . فذهب إلى مالك بن جبار ابن عم له بالخيرة كان كثير المال ، فقال : « يا بن عم ، أعطني على مخايلتي (مفاخرتي) » فقال مالك : « ما كنت لأخرب نفسي ولا عيالي وأعطيك . » فانصرف عنه .

ثم أتى حاتم ابن عم له يقال له وهم بن عمرو ، وكان حاتم يومئذ مصارماً له لا يكلمه ، فقالت له امرأته : « أيّ وهم ! هذا والله أبو سقانة حاتم ، قد طلع . » فقال : « ما لنا ولحاتم ، تئسني النظر . » فقالت : « حاتم ! » قال : « ويحك ، هو لا يكلمني ، فما جاء به إليّ ؟ » فنزل حتى سلم عليه فرد سلامه وحياه ثم قال : « خاطرت على حسبك وحسي . » قال : « في الرحب والسعة ، هذا مالي (وعديته يومئذ تسعمائة بعير) فأخذت هامة مئة ، حتى تذهب الإبل أو تصيب ما تريد . »

فقالت له امرأته : « أنت تخرجنا عن ماله وتفضع صاحبنا (تعني زوجها) ؟ » قال :

« اذهبي عني فوالله ما كان الذي غمك ليروني عما قبلي . »

ثم إن إلياس بن قبيصة قال : « احموني إلى الملك . » وكان به فقر يس ، فجعل حتى أدخل عليه . فقال : « أنعم صباحاً أبيت اللعن . » فقال النعمان : « وحياتك إليك . » فقال إلياس :

« أتمد أختانك بالمال والحيل وجعلت بني ثعل في قعر الكنانة ؟ ^(١) أظنّ

(١) الأختان : الإصهار . والكنانة : جملة السهام .

أختناك أن يصنعوا بحاجهم كما صنعوا بهما من بن جوين ، ولم يشعروا أن بني حية بالبلد ؟ فإن شئت والله ناجزناك حق يسفح الوادي دماً ، فليحضروا لمجاهد غداً بجمع العرب .

فعرّف النعمان الغضب في وجهه وقال له :

« يا أحلمنا لا تغضب فاني سأكفيك . »

وأرسل النعمان الى سعد بن حارثة وإلى أصحابه : « انظروا ابن عمكم حاتماً فأرضوه ، فوالله ما أنا بالذي أعطيكم مالي تبتذرونه ، وما أطيق بني حية . »

فخرج بنو لام الى حاتم فقالوا له : « أعرض عن هذا المجاهد . » وتركوا أرض أنف صاحبهم وأفراسهم وقالوا :

« قبحها الله وأبعدها ، فانما هي مقاذيف . »

فقدوا اليها حاتم فعقرها وأطعمها الناس^(١).

٢ — صرمة شاعر في ولده

قدم لبسطة بن الفرزدق الحيرة فمرّ بقوم من بني تغلب فاستقراهم فقرّوه ثم قالوا له : « من أنت ؟ » قال : « ابن شاعركم ومادحكم ، أنا ابن الذي يقول :

أضحى لتغلب من تميم شاعر يرمي الأعادي بالفريض الأنفل^(٢)

(١) الاغاني ١٦ : ٩٥ . والأعرش : الدية .

(٢) نفل : نثره مرة واحدة . ونفل الرحي : وضع نحتها ما يقيسها من الارض . ولا يشفلون الرحي إلا إذا كانت طاحنة .

إن غاب كعب بن جُعَيْل عنهم وتنتثر الشعراء بعد الأخطل
يتباشرون بموته ووراءهم مني لهم قِطْعُ العذاب المرسل .
فقالوا له : « أنت ابن الفرزدق إذن ؟ » قال : « أنا هو . » فتنادوا :
« يا آل تغلب ، افضوا حق شاعركم والذائد عنكم في ابنه . »
فجعلوا له مئة ناقة وساقوها إليه فانصرف بها^(١).

٣ — حلق رأسه

شرب طغَيْم الأصدى بالحيرة ، فأخذته العباس بن معبد المري ، وكان
على سُرْط يوسف بن ممر ، فحلق رأسه ، فقال :

وبالحيرة البيضاء شيخ مسلط إذا حلف الأيمان بالله برت
لقد حلقوا منا غداً كأنها غنا قيد كرم أينعت فاسبطرت^(٢)
يظل العذارى حين تحلق لمتي على عجل يلقطنها حين جُرّت^(٣)

٤ - ضحارة وسرطي

كان الأقبشير الشاعر يكثر في بغلة أبي المضاء المُسَكاري فيركبها إلى
الحمارين بالحيرة ، وكان لا يسأل أحداً أكثر من خمسة دراهم : يجمل
درهمين في كربي بغل إلى الحيرة ودرهمين للشرب ودرهماً للطعام .. فيقال
إنه دفع ثمن البغل في الكراء^(٤) .

(١) الاغاني ١٩ : ١٣ .

(٢) القداف الأسود : يعني شعره . واسبطرت : طالت وامتدت .

(٣) الاغاني ٨ : ١٧٩ (دار الكتب) . واللغة : الشعر الجاوز شعبة الاذن

وجز الشعر : قصه .

(٤) الاغاني ١٠ : ٨١ .

شرب يوماً في بيت خمار بالحيرة فجاء شرطي من شرط الأمير ليدخل عليه ، فغلّق الباب دونه ، فناداه الشرطي : « اسقي نبيذا وأنت آمن » فقال : « والله ما آمنك ، ولكن هذا ثقب في الباب فاجلس عنده ، وأنا أمسيك منه . » ثم وضع أنبوباً من قَصَب في الثُّقْب وصب فيه نبيذاً من داخل ، والشرطي يشرب من خارج الباب حتى سكر ، فقال الأقبشر :

سألني الشرطي أن نسقيه فسقيناه بأنبوب القصب
لما نشرب من أموالنا فسلوا الشرطي ما هذا الغضب^(١)

٥ - صبح

قد جرت الطير أيا منينا
قالت - وكنت رجلاً فطيناً -
هذا ووب البيت إسرائيلنا^(٢) .
قال أبو بكر في كتاب المتناهي في اللغة : « هذا أعراي أدخل فرداً الى سوق الحيرة ليبيعه ، فنظرت اليه امرأة فقالت : « مسخ » فقال هذه الايات .

(١) الاغاني ١٠ : ٨٦ . هذا وقد قال عبد الملك بن مروان للأقبشر : « أنشدني أبياتك في الحيرة . » فأشده :

ترك القذى من دونها وهي دونه لوجه أخيها ، في الإناء قطوب
كعبت اذا فضت في الكأس وردة لها في عظام الشاربين ديب
فقال : « أحسنت ، ولقد أجدت وصفها ، وأظنك قد شربتها ! » فقال : « والله بأمر المؤمنين إنه ليريني منك معرفتك بهذا !! » .

والقذى : الوسخ في الشراب . والكعبت : الاشقر .
(٢) الامالي ٢ : ٤٤ وإسرائيل : إسرائيل ، أوردها القالي في فصل (ماتعاقب فيه اللام والنون) .

٦ -- وطنية صادقة

أختم الكلام عن الحيرة بهذا الدرس البليغ الذي ألقاه علينا أحد فتيان الحيرة منذ ثلاثة عشر قرناً في حب الوطن ونصرته . وهو درس عملي يخلق بقيادة الفكر وزعماء العرب أن يستفيدوا منه فيكونوا قدوة في الوطنية العملية الحقيقية .

بلغ العرب في الاعتماد على أنفسهم والاقتصار على صناعاتهم في جميع شؤونهم أمراً عجيباً ، حتى إن بلدة كالحيرة ليست من البلدان الكبرى حينئذ في الأقطار الإسلامية ، استطاع أهلها أن يعتمدوا على محصول بلدتهم ويكتفوا به في كل حاجاتهم حتى الكمالية منها . نرى ذلك في هذا الخبر الطريف الذي سنرويهِ لك عن الاغاني ونود لو جرؤنا على تقليد أسلافنا في مكرماتهم تلك ، إذأً لكننا حذقنا درساً في الإخلاص الصادق للوطن ، ولما استعبدتنا أموال الغرب وشركائه ، ولما كنا جميعاً رجالاً ونساء وأطفالاً ، جنوداً لهم - على رغم أنوفنا - نوطد أقدامهم في بلادنا بما نتأقت على استهلاكه من بضائعهم ، وبما يطير من جيوبنا إلى خزائنهم ومصانع أسلحتهم من أموال باهظة ، لا داعي إلى تبذيرها إلا التقليد الأعمى وقشور التمدن السخيف والترف الكاذب ، واليك هذه الطرفة الثمينة :

« كان بعض ولاية الكوفة يذم الحيرة أيام بني أمية ، فقال له رجل من أهلها وكان عاقلاً ظريفاً : « أتعيب بلدة بها يضرب المثل في الجاهلية والإسلام ؟ » .

قال : « وبماذا تمدح ؟ » قال : « بصحة هوائها وطيب مائها ونزعة ظاهرها : تصالح للخف والظلف ، سهل وجبل ، وبادية وبستان ، وبر

وبجر . محل الملوك ومزارهم ومسكنهم ومشوام ، وقد قدمتها أصلحك الله مخفياً فرجعت مشقلاً وزورتها مقللاً فأصارتك مكثراً . قال : « فكيف نعرف ما وصفتها به من الفضل ؟ » قال : « بأن تصير إلي » ، ثم ادع ما شئت من لذائذ العيش فوالله لا أجوز بك الحيرة فيه ! » .

قال : « فاصنع لنا صنيعاً واخرج من قولك » قال : « أفعل . » فصنع لهم طعاماً وأطعمهم من خبزها وسمكها ، وما صيد من وحشها : من طباء ونعام وأرانب وحبارى . وسقام ماءها في قلاها ، وخرها في آنيتها ، وأجلسهم على رقعتها (وكان يتخذ بها من الفرش أشياء ظريفة) . ولم يستخدم لهم حراً ولا عبداً إلا من مولديها ومولداتها من خدام ووصائف كأنهم اللؤلؤ ، لغتهم لغة أهلها . ثم غنم حنين (الحيري) وأصحابه في شعر عدي بن زيد شاعرهم وأعشى همدان ، لم يتجاوزهما ، وحيام برياحينها ، ونقلهم على خمرها ، وقد شربوا بفواكهها . ثم قال له : « هل رأيتني استعنت على شيء مما رأيت وأكلت وشربت وافترشت وشممت وسممت بغير ما في الحيرة ؟ » .

قال : « لا والله ، ولقد أحسنت صفة بلدك ونصرتَه فأحسنَت نصرته . والخروج بما تضمنته ، فبارك الله لكم في بلدكم^(١) . »

(١) الاغاني ٢ : ٣٥١ (دار الكتب)

الظلف : البقر كالحف للبعير وكالحافر للفرس . والحبارى : طائر طويل العنق رمادي اللون في منقاره بعض طول . والرقم : ضرب مخطط من الوشي أو الخز . والوصائف جمع وصيفة : وهي الجارية البالغة حد الخدمة وكذلك الوصيف . ولقلمهم : أطعمهم النقل ، والنقل : ما يتنقل به على التراب من فستق وتفاع وغيرهما .

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أسواق العرب

ب - في الاسلام

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الاسواق في الاسلام

لم يعد - وقد تحضر العرب - من حاجة إلى مواسم وأسواق على ما كان عليه الحال في الجاهلية ، لأن العرب سكنت المدن الكبار من بلاد الشام والعراق ومصر وفارس والروم، ومصرت هي لأنفسها أمصاراً عظم شأنها مع الزمن كالكوقة والبصرة وبغداد والقيروان ...

فصارت تستغني كل مدينة بأسواقها الدائمة عن أسواق المواسم، وكفى الله العرب مؤونة الترحال بين أسواق الجزيرة ، بما فتح عليهم وسهل من تجارات تأتيمهم إلى مدنها ، بحيث يجدون في كل بلد عروضاً كثيرة من البلدان . وعدل الذين يعانون التجارة منهم عن أسفار البوادي إلى أسفار البحار . وأصبح من المنتظر تضائل الأسواق الجاهلية بتضائل آثار البداوة من حياة العرب ، وانتقلوا إلى حضارة وارفة الظلال ريانة الجنبات يأتيهم فيها رزقهم رغداً من كل مكان ، فامحّت أسواق الجاهلية قبل انقضاء القرن الثاني للهجرة ورسخت أقدام التجارة في المدن والنجور .

ولكن سوقاً واحدة نشأت في الإسلام احتفظت بكثير من
خصائص أسواق الجاهلية ، وزادت عليها بميزات واسعة أسبغتها
الحضارة الجديدة واقتضتها حاجات الرقي الحديث : تلك هي سوق
المربد في البصرة ، السوق التي استطاعت أن تكون مرآة تعكس
حياة العرب في الجاهلية كما تصور حضارتهم في الإسلام . وسنرى
كيف استطاعت هذه السوق أن تصهر الحياتين معاً في بوتقة واحدة ،
لتصوغ منهما هذه الحلية العجيبة التي نعرضها عليك الآن :

البصرة - المربد

يتقاضانا الكلام على المربد أن نصف البصرة ، المدينة التي كان المربد سوقها العامة ، نظراً لمكاتها التجارية ، إذ أنها ثغر العراق في الإسلام . وليس من المستطاع أن نفهم المربد على حقه إذا لم نعرف أحوال بلده البصرة ، وسيفيننا هذا التمهيد عن شروح وحواش كثيرة عند كلامنا على المربد نفسه .

مُصِّرَت البصرة سنة (١٧) أيام عمر بن الخطاب « في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم كما أمر الخليفة عمر رحمه الله » ، وكانت في الجاهلية من ثغور العراق ، فيها خليط من أمم شتى ، فرس ويونان أحلهم فيها الاسكندر ، وهنود انتشروا في بطائعها ، وقد نزها العرب منذ القديم ، كما فيها أنباط غير قليلين . وكانت هي والأبلة مركزين للتجارة الداخلية والخارجية ، وكان يرتادها تجار العرب ، وتردد عليها أبو بكر الصديق في الجاهلية مرات .

ولم تكن على عهد الراشدين بالمدينة الكبيرة ، لحدائثة نشأتها العربية ، وكانت مستوخمة رديئة الهواء والماء ، ليست بالحصبة ولا الفنية ،

حتى اضطر عمر إلى أن ينظر إلى أهلها نظر رحمة ، حينما شكوا إليه أمرهم ، فقد جاء في فتوح البلدان^(١) :

« قدم الأحنف بن قيس على عمر في أهل البصرة فجعل يسألهم رجلاً رجلاً والأحنف في ناحية البيت ، في بَتَّ^(٢) لا يتكلم فقال له عمر : « أما لك حاجة ؟ » قال :

« بلى يا أمير المؤمنين : إن مفاتيح الخير بيد الله ، إن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة والجنان الملتفة ، وإننا نزلنا سبْخَةً بشاشة لا يحف نداها ولا ينبت مرعاها ، ناحيتها من قبل المشرق البحر الأجاج ، ومن قبل المغرب الفلاة ، فليس لنا زرع ولا ضرع ، يأتينا منافعنا وميرتنا في مثل مريء النعامة ، يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين وتخرج المرأة لذلك فتربق^(٣) ولدها كما تربق العنز يخاف بادرة العدو وأكل السبع ، فإذا ترفع خسيستنا وتجبر فاقتنا نكون كقوم هلكوا . »

(١) ص ٣٥٦

(٢) البت : طيلسان من خز .

(٣) ربقة : ربطه بالربق وهو حبل فيه عدة عُرى .

فألقى عمر ذراري أهل البصرة في العطاء . وكتب إلى أبي موسى يأمره أن يحتفر لهم نهراً .

هذه بداية أمر البصرة وقد ظلت على حالها ، لم تترق منها إلى خير منها ، حتى صدرأ من أيام الأمويين ، ومضت خلافة معاوية ولم ينفرج ضيق أهلها تمام الانفراج فقد قدم الأحنف أيضاً على معاوية وافداً لأهل البصرة يستعطفه لهم ، وكان فيما وصف به أهلها قوله : « أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير مع تتابع من المحول واتصال من الذحول ، فلكثر فيها قد أطرق ، والمقل قد أملق ، وبلغ منه المخنق^(١) . »

وبانقضاء عهد الفتن فيها واستقرار الأمر بمثل زياد وابنه والحجاج ، انصرف أهلها لشؤونهم فعكفوا على الزراعة والتجارة واتعشوا واستفاض لهم زرع ونخيل وتجارات ، فن شتم عدت البصرة من أكبر ثغور الإسلام قاطبة .

أما الهواء فيها فرديء وكذلك الماء فهو غير عذب ، حتى إنهم

(١) زهر الآداب ١ : ٨٧ (الطبعة الثانية - مبارك) المحول جمع محل : وهو النحط . والذحول جمع ذحل : وهو الثأر : يعني أنهم تفانوا لكثرة الحروب والفتن بينهم . وأطرق : غض بصره حياءً لأنه لا يجد ما يعطي . وأملق : افتقر .

ليجلبونه من المسافات البعيدة . وقد حفرت فيها أقنية وجداول كثيرة تتشعب عن النهر الأعظم ، ووصف الأقدمون كثرتها وصفاً نكاد لانصدقه . جاء في مسالك الممالك للإصطخري :

« البصرة مدينة عظيمة لم تكن في أيام العجم ، وإنما اختطها المسلمون أيام عمر ، ومصرها عتبة بن غزوان وهي خطط وقبائل كلها . ويحيط بغربيها البادية ، وليس فيها إلا أنهار . وذكر بعض أهل الأخبار أن أنهار البصرة عدت أيام بلال بن أبي بردة فزادت على (١٢٠ ٠٠٠) نهر « كذا !! » تجري فيها الزوارق . وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الأنهار في أيام بلال . حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع ، فربما رأيت في مقدار رمية سهم ، عدداً من الأنهار صغاراً تجري في كلها زواريق صغار ، ولكل نهر اسم ينسب إلى صاحبه الذي احتفره أو إلى الناحية التي يصب فيها وأشبه ذلك من الأسامي ، فجوزت أن يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها . وأكثر أبنيتها بالآجر (هذا على عهد الإصطخري في القرن الرابع الهجري) وهي من بين سائر العراق مدينة عشيرة ، ولها نخيل متصلة من عبّس إلى عبادان نيفاً وخمسين فرسخاً متصلاً لا يكون الإنسان منه في مكان إلا

بحيث نهر ونخيل أو يكون بحيث يراها ، وهي في مستوى لا جبال فيه ولا بحيث يقع البصر على جبال ٠٠٠ وبها نهر يعرف بنهر الأبلّة طوله أربعة فراسخ ما بين البصرة والأبلّة^(١) ، وعلى حافتي هذا النهر قصور وبساتين متصلة كأنها بستان واحد قد مدّت على خيط واحد . ويتشعب هذا النهر إلى أنهار كثيرة ، فمنها ما يقارب هذا النهر في الكبر ... وهذه الأنهار كلها محتركة بعضها إلى بعض وكذلك عامة أنهار البصرة حتى إذا جاءهم مدّ البحر تراجع الماء في كل نهر حتى يدخل نخيلهم وحيطانهم وجميع أنهارهم من غير تكلف ، فإذا جزر الماء انحط حتى تخلو منه البساتين والنخيل ويبقى في الأنهار ، إلا أن الغالب على ما منهم الملوحة وإنما يستقون إذا جزر الماء إلى حد نهر معقل ثم يعذب فلا يضره ماء البحر . »

ونحن معنيون بأن نعرف عن البصرة ميناء العراق الأكبر ، تفاصيل مسهبة لأنها سوق العراق العامة يومئذ ، فلا غنى لنا عن شاهدها ونعتها لنقف على مكانتها وسعة غناها . ولولا هذه الصفات

(١) قال في القاموس : الأبلّة : موضع بالبصرة ، أحد جنات الدنيا .

التي وصلتنا عن الاقدمين في مختلف حالاتها ، لما استطعنا أن نعلم التدرج الذي ترقّت فيه البصرة من الاملاق إلى الثروة . ثم صار لهذه الأرض السبخة القفرة على عهد عمر ، الشأن العظيم والمكانة البعيدة في نفوس الكبار حتى قال زياد : « لو أضللت البصرة لجعلت الكوفة لمن دلي عليها ! »^(١) .

والذين نعتوها متفقون على رداة هوائها مع سعة عيشها ، فقد روى ابن عبد ربه عن أبي العباس أنه قال : « إنما مثل الكوفة مثل اللّماء من البدن ، يأتيها الماء يبرده وعذوبته ، ومثل البصرة مثل المّثانة يأتيها الماء بعد تغير وفساد . » وقال الحجاج : « الكوفة

(١) العقد الفريد ٤ : ٢٦٥ . هذا وقد ألف العلماء في البصرة وخططها وأسواقها وأخبارها تواليف مستقلة لم نطلع عليها . وحسبك أن ابن حزم الظاهري وهو أندلسي في أقصى المغرب يقول في رسالته في فضل الأندلس : « ... ولا أعلم في أخبار البصرة غير كتاب عمر بن شبة ، وكتاب لرجل من ولد الربيع بن زياد المنسوب إلى أبي سفيان في خطط البصرة وقطائعها ، وكتابين لرجلين من أهلها يسمى أحدهما عبد القاهر كريري النسب ، وصفها وذكر أسواقها ومحالها وشوارعها . » - نفع الطيب ١٢٩/٢

فإذا كان ما اطلع عليه ابن حزم في أقصى المغرب أربعة كتب فقط ، فمن المحتمل أن تزخر مكاتب الشرق بالكتب عن البصرة .

بكر حسناء والبصرة عجوز بخراء أوتيت من كل حلبي وزينة^(١) .
وسماها الناس ، لتقلب هوائها بالرّعاء قال الفرزدق ،
لولا أبو مالك المرجو نائله ما كانت البصرة الرعاء ليوطنا
والرعونة الحمق والاسترخاء .

إلا أن وخامتها لم تمنع أن يتكاثر فيها السكان ويطردها النمو ،
حتى أصبحت كما وصفها جعفر بن سليمان بقوله : « العراق عين الدنيا
والبصرة عين العراق . »

انقضى القرن الهجري الأول والبصرة قد قطعت شوطاً بعيداً
في الازدهار ، ولم تستقرّ الأمور لبني العباس في عهد المهدي ومن
بعده حتى صارت البصرة « باب^(٢) بغداد الكبير ومدخل دجلتها
المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا ،
نظير مرسيلية اليوم بالنسبة إلى فرنسة ، أو جنوة لإيطالية ، أو
ليفربول لبلاد الانكليز . بل امتازت البصرة على تلك المراسي
بنصيب أوفر وحظ أكبر إذ كانت مقصد القوافل الواردة من
كل حذب وصوب ، ومحط رحال الشرق والغرب ، من مجاهل

(١) المصدر نفسه . وانظر أيضاً ما جاء في أحسن التقاسيم وفي رحلة ابن
بطوطة من تقلب هوائها وعفنها . اللهاة : الهنة المطبقة في أقصى سقف الفم .
والبخّر : نقي ربيع الفم .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب (مجلة المجمع العلمي العربي) ١٣ : ٣٢١

الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى ، ولذلك استفحل بها العمران
و كثر فيها المصانع والصناعات ، وصارت واسطة العرب والعجم
وحق لها أن تتلقب « بقبة الإسلام » كما سماها عمر بن الخطاب . ناهيك
ببلد جمع لحسن الموقع أضداد الأشياء وأشتات الأرزاق ومختلف
المكاسب والمطالب ...

اشتهر أهل البصرة من قديم بالتطوح في الآفاق والتراخي على
الأسفار البعيدة والضرب في مناكب الأرض طلباً للرزق والتماساً
للثراء (اشتهاراً) جعل الجاحظ يصرح : « بأنه ليس في الأرض بلدة
واسطة ولا بادية شاسعة ولا طرف من أطراف الدنيا إلا وأنت
واجد به البصري والمدني^(١) » وقد اتفقت كلمة السائحين وأصحاب
الرحلات على بعد همة البصريين في الترحال وغورهم في الاغتراب
حتى قال أبو بكر الهذلي - وناهيك به من خير - : « وأبعد الناس
نجعة في الكسب بصري وحميري ، ومن دخل فرغانة القصوى [شرقاً]
والسوس الأقصى [غرباً] فلا بد أن يرى فيها بصرياً أو
حميرياً^(٢) . » اهـ ملخصاً .

(١) البغلاء (طبعة مصر سنة ١٣٢٣) ص ١٦٠

(٢) البلدان للهذلي (ايدن) ص ٥١

و كثر الأَصناف المجلوبة إلى البصرة من عامة الأقطار حتى
لقبت بحق بـ (خزانة العرب^(١)) واستطاع أحد أبنائها وهو الجاحظ،
أن يؤلف في بضائع البصرة كتاباً مستقلاً يذكر فيه الأحجار الثمينة
كالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد . . الخ والطيب والعطر
والروائح الطيبة والوشى والفرش وما يجلب من البلدان من طرائف
السلع والأمتعة والجرازي وما يختار من البزاة والشواهين والبواشق
والصقور . . . يتبدى بصفة النوع وما يستجد منه ومن أين يجلب
وأين أحسنه . والجاحظ كما نعلم لم يرحل إلى الهند ولا إلى فارس
ولكن عنده في بلده تجارات تلك الأمم كلها . ولا نكون
إلى الغلو إذا قلنا إن البصرة في عصر العباسيين الذهبي كانت سوق
العالم قاطبة .

ولم يقصر البصريون في الزراعة بل عكفوا عليها وجودوها
حتى اختصوا بمعرفة النخيل وضروبه وأصول غراسه اختصاصاً
فاقوا به كل أحد . قال الهمداني في كتابه البلدان : « ولأهل
البصرة من النخيل وأنواع التمور ما عدم مثله في جميع كُور
النخيل، وذكر الجاحظ أنهم أحصوا أصناف نخيل البصرة دون
نخل المدينة ودون مصر واليامة والبحرين وعمان وفارس وكرمان

(١) انظر تاج العروس .

ودون الكوفة وسوادها وخير وذواتها والأهواز وما بها ، أيام
المعتصم ، وإذا ثلاثمائة وستون ضرباً من مُغَلٍّ معروف وخارجي
موصوف وبديع غريب مع طيب عجيب . »

وهذا افتنان غير قليل في إجادة الزراعة يدل على حذق بها ورقي
بالغ . وذلك عدا ما شهرت به من الأسماك وأنواع اللحوم والألبان
والأقطان وسائر التجارات .

ولها إلى ذلك شهرة أخرى تعيننا هنا في بحثنا كثيراً ، وهي ما استفاد
فيها من علوم ولغة وأدب وشعر حتى صارت تقصد لذلك دون سائر
البلاد ، وكثر فيها العلماء والشعراء والادباء والكتاب والفقهاء
والقراء ... كثرة تستعصي على الإحصاء ، وسنلمّ بذلك في كلامنا
على سوقها الكبرى : المربد .

ولم تخل إبان ازدهارها من أن تكون متعة للناظرين ومنازه
للمتفرجين ، واشتهر فيها وادي القصر الذي قال فيه الجاحظ :
« ومن أتى وادي القصر بالبصرة رأى أرضاً كالكاפור ، ورأى
ضباباً تُحترش ، وغزلاً ناسمكاً وصياداً ، وسمع غناء ملاح في
سفينته ، وحذاء جمال خلف بعيره . »

وكانت هذه الجملة الموجزة نثر ما كان الخليل بن أحمد قاله قبله :
زر وادي القصر نعم القصر والوادي في منزل حاضر إن شئت أوبادي

ترى به السفن والظلمان حاضرة والضرب والنون والملاح والحادي
وليس في أيدينا نعت للبصرة أبلغ ولا أكثر إحاطة ولا أصدق
ولا أدق مما قاله خالد بن صفوان لعبد الملك بن مروان ، فقد جمع لنا
فيه من صفات البصرة وخصائصها ما لم نجده عند غيره ، ولا ريب فهو
ابن البصرة وأحد بلغاء الناس ، وكل من أراد معرفة البصرة في القرن
الاول الهجري فهو عيال على صفة خالد هذه ، قال :

« يغدو قانصنا فيجيء هذا بالشبوط والشيم ويحيى هذا بالظبي والظليم ،
ونحن أكثر الناس عاجاً وساجاً ، وخزاً وديباجاً ، وبرذوناً هملاً جاً ،
وخريذة مغناجاً ، يوتنا الذهب ، ونهرنا العجب ، أوله الرطب ،
وأوسطه الغنب ، وآخره القصب :

فأما الرطب عندنا فننخل في مباركه ، كالزيتون عندكم في
منابته ، هذا على أفنائه ، كذلك على أغصانه ، هذا في زمانه ،
كذلك في إبانه ، من الراسخات في الوحل ، المطاعم في المحل ،
الملقحات بالفحل ، يخرجن أسفاطاً عظاماً ، وأوساطاً ضخاماً كأنما
ملئت رياطاً . ثم ينفلقن عن قضبان الفضة منظومة باللؤلؤ
الايض ، ثم تبدل قضبان الذهب منظومة بالزبرجد الاخضر ،
ثم تصير ياقوتاً أحمر وأصفر ، ثم تصير عسلأ في شنة من سحاه

ليست بقربة ولا إناء ، حولها المذاب ، ودونها الحراب ، لا يقربها الذباب ، مرفوعة عن التراب . ثم تصير ذهباً في كَيْسَةِ الرجال ، يستعان به على العيال^(١) .

وأما نهرنا العجب فإن الماء يقبل عَنَقاً ، فيفيض مندققاً ، فيغسل غثها ، ويبيدي مبثها ، يأتينا في أوان عطشنا ، ويذهب في زمان رَيْنَا ، فنأخذ منه حاجتنا ، ونحن نيام على فرشنا ، فيقبل الماء وله عُبَاب وازدياد ، ولا يحجبنا عنه حجاب ، ولا تغلق دونه الابواب ، ولا يتنافس فيه من قلة ، ولا يحبس عنا من علة^(٢) .

وأما بيوتنا الذهب ، فإن لنا عليهم خرجاً في السنين والشهور ، نأخذه في أوقاته ، ويسلمه الله تعالى من آفاته ، وننفقه في مرضاته .
هذا ولم تحظ - فيما نعلم - بلدة من بلاد الإسلام ، بمثل ما حظيت به البصرة ، فقد تشارك في صفتها ثلاثة من فرسان البلاغة والعبقرية : خالد بن صفوان ، والخليل بن أحمد ، والجاحظ .

(١) الشوط والشم : نوعان من السك . والساج : خشب يجلب من الهند . والمِسْلَاج : الحسن السير . والأسقاط مفردا صَفَظَ : وعاء يجعل فيه الطيب ونحوه . والرباط جمع رِبْطَة : وهي الملاءة . والشَتَّة : القربة البالية . والسعاء : الفشر . والمذاب جمع مذبَّة : وهي من شعر ذنب الفرس يدفع بها الذباب . والكَيْسَة جمع كَيْس . (٢) العَنَق : سير فسيح سريع والغث : الرديء . والعباب : موج أو ارتفاع الماء .

سوق المربد

ننتقل من أسواق العرب في الجاهلية إلى أسواقها في الإسلام .
ونلاحظ أننا لا نرى في هذه الأسواق الشأن الكبير الذي كان لأسواق
الجاهلية ، لأن العرب - كما تقدم - تحضرت وسكنت الأمصار
وكثر فيها الأسواق الدائمة تحوي كل نوع من أنواع البضائع
المعروفة لهم . فلم تستجد في الإسلام سوق لم تكن في الجاهلية ،
إلا ما كان من أمر المربد^(١) الذي ورث عكاظ ، وقضى على ما كانت
تتمتع به من ميزات ، منذ عصر الراشدين ، وأخذ أمر المربد (عكاظ
الإسلام) بالازدياد حين بدأ شأن عكاظ (الجاهلية) بالتحول
فالانتقاص فالموت .

نزلت العرب البصرة سنة أربع عشرة ومصرتها سنة سبع عشرة
على تخطيط وضعه عمر وأرسل من يقف على تنفيذه . وكان المربد على
الجهة الغربية من البصرة إلى البادية ، ليكون أول ما ينزلون إذا قصدوا
البصرة ، وآخر ما يتركون إذا رحلوا عنها . ليقضوا فيه متاعاً لهم
ومرافق يتبلمغون بها في ظعنهم وإقامتهم .

(١) المربد على وزن منبر هذا هو المشهور . وكان الأخفش يقول المربد
كمسجد - انظر شرح مقصورة ابن دريد ص ٤١ الطبعة الثانية (مصر ١٣٣٨هـ) -
هذا وللكوفة سوق تعرف بـ (الكناسة) ليس لها ذلك الشأن .

معنى المِرْبَد : محبس الابل ومربطها . والمربد أيضاً يدر التمر لانه يربد فيه فيشمس . والرُبْدَة لون إلى الغبرة .

ومربد البصرة هذا متسع للإبل تُربد فيه للبيع . وكان في الاصل سوقاً للابل ، حتى إذا كان عهد الامويين صار سوقاً عامة تتخذ فيه المجالس ويخرج إليها الناس كل يوم ، كل إلى فريقه وحلقته وشاعره ، وتعدد فيه الحلقات يتوسطها الشعراء والرُجَّاز ويؤمها الاشراف وسائر الناس يتناشدون ويتفاخرون ويتهاجون ويتشاورون وقد وجدوا فيه مستجماً لأبدانهم وأرواحهم التي نهكتها الفتوحات ، وحنّت إلى سابق عهدها في عكاظ فجددت منه ما سمح به الدين الجديد . بل غصّت النظر قساحت أحيانا وأحييت ما ألمات الاسلام من حمية جاهلية وإحن وثرات وأثارت عداوات ، كان يعيشها الناس من تلقاء أنفسهم ، أو بتشجيع خفي من بعض خلفاء الامويين ، ليشغلوا الناس بعضهم ببعض عن الخلاقة وما يأتي الخلفاء من هنوات .

فالمربد معرض لكل قبيلة تعرض فيه شعرها ومفاخرها كما تعرض عروضها . وهو مجتمع العرب ومتحدثهم ومتنزه البصريين ، يؤمه منهم من عاف رخاوة المدن . وما زال يعلو شأنه وتستجيب له أسباب الكمال ، حتى اشتد ولوع الناس به وارتياحهم له . ويظهر أن الأمر

زاد على ما نعرف للمنازه اليوم من خطر ، فقد بنيت فيه الدور الجميلة وتفاقم أمره حتى صار من الضروري لكل أحد في عصر العباسيين ، أن يغشى المربد ، إن لم يكن لحاجة فلترويح النفس وتمتيع البصر وترويض البدن ، وحتى قال جعفر بن سليمان الهاشمي جملة المشهورة :

« العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة ، وداري عين المربد ^(١) » . وما زال في مجده هذا حتى خرب وخربت البصرة وتقلص العمران بينهما إلى أن صار بين المربد والبصرة ثلاثة أميال خراب على عهد ياقوت ^(٢) الذي ذكره في معجمه فقال :

« مربد البصرة من أشهر محالها . وكان يكون سوق الابل فيه قديماً ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء والخطباء . وهو الآن بائن عن البصرة نحو ثلاثة أميال وكان ما بين ذلك كله عامراً وهو الآن خراب فصار المربد كالبلدة المنفردة في وسط البرية . »

نقلت قول ياقوت هذا في البصرة ومربدها ، لأقول إن الذي طرأ عليها من الخراب والتأخر ، طرأ على العراق كله فمن يقرأ وصف العراق وبلدانه وجنانه ونعيمه وسكانه وعمرانه وخيراته .. في كتب

الأدب ، وخاصة في المئة الثانية والثالثة والرابعة للهجرة ، ثم يرحل إليه أول هذا القرن ، لا يجد وصفاً للعراق أصدق من قول ياقوت في تلك الأميال الثلاثة التي كانت عمراً متصلاً بين البصرة ومربدها وأصبحت على عهده خراباً يباباً أفرد المربد من أمه وكان سوقاً من أسواقها ، وجعله قرية بائنة لا خطر لها .

وإن كان لعكاظ ذلك الأثر في اللغة العربية : ألفاظها وأساليبها ، إن المربد كان له أيضاً في اللغة أثر بعيد يختلف بعض الاختلاف عن أثر عكاظ ، لما بين الزمانين والمكانين من التباين ، فعكاظ في قلب الجزيرة العربية يحج إليها أشراف العرب وفصحائها ، لا عجمة فيها ولا أثر لأعجميين البتة . والأمر في المربد على العكس : هو في طرف الجزيرة على الخليج الفارسي وبين الفرس قرب قريب . وزاد الاسلام والفتوح اختلاط العرب بالعجم فتطرق إلى اللغة الفساد والعجمة واللحن وغشي هذا الضعف مجالس الخاصة من العرب ، وأزرى بلهجات الفصحاء حتى صرت تسمع الأمير على المنبر في المواسم ، يلحن على ملأ من الأعراب والبلغاء والأشراف ، فغيب على الحجاج لحن وأثر عن عبيد الله بن زياد مثله ، وكذلك نقلت لحنات

عن أشرف العرب^(١). فكان المربد يعج بأعلام اللغة والأدب والشعر والنحو ، معهم محاربهم ودفاترهم يكتبون عن فصحاء الأعراب فيه ، وهذه الظاهرة لم تكن في عكاظ قط ، فهذا أبو عمرو بن العلاء يسأل الأصمعي : « من أين أقبلت ؟ » فيجيبه : « جئت من المربد . » فيقول : « هات مامعك » ، فيقرأ عليه الأصمعي ما كتب في ألواح ، فإذا ستة أحرف (كلمات) لم يعرفها أبو عمرو ، فيخرج يعدو في الدرجة ويقول للأصمعي : « شمرت في الغريب . » أي خلبتني^(٢).

ويشبه المربد عكاظ في أمر الشعر وحلقاته ، بل يزيد عليه ، فلكل شاعر حلقة ، ولكل متهاجين مجلس ، ولكل قبيلة ناد وشاعر يزود عنها ويرد عدوان قريعه من القبيلة الثانية : فللعجاج ولرؤبة حلقة ، ولأبي النجم العجلي حلقة ، ولجربير والفرزدق وراعي الابل وذو الرمة ، لكل منهم حلقة . وكثر هذا المحصول من الرجز والشعر والنكات الادبية كثرة ملأت أمهات كتب الأدب بأخبارها ، ولا شك في أن المربد في هذا فاق عكاظ مراحل واسعة وفاته بعدد الشعراء والرجاز وكثرة الرواد وطلاب الادب . وفي المربد أطفئت ثلاثة

(١) انظر كتابنا في أصول النحو ص ٨ - ١٤ (مطبعة الجامعة السورية)

سنة ١٩٥٧

(٢) التوارد للقالبي ص ١٨٢

جرات العرب ، أطفأها جرير بقصيدته الدمّاعة . كان لكل من الشعراء زوارة ينقلون له ما قاله خصمه وينشرون في الناس جواب شاعرهم عليه ، وكان اهتمام الناس بالشعر والادب من أقوى الاسباب العاملة في غزارته وكثرة المقبلين على تعلّمه وروايته .

ويتفرّد المربد بأمر علمي محض لم يكن له في عكاظ من أثر ، وهو أنه أرفد اللغة بمادة كثيرة ، عليها أسّس النحاة قواعدهم وأصلحوها ، وذلك بما كانوا يقصدون له فصحاء الاعراب يسألونهم فيما فيه يختلفون ، يأخذون عنهم مستفيدين ومتعلمين . وحسبك أن تقرأ أياً شئت من كتب الادب الاصول كالأغاني والأمالى والبيان والتبيين والكمال و... لتجد أن أكثر مادتها فيما يتعلق بالعصر الاول والثاني للهجرة ، كان المربد ميدانه وينبوعه . وخذ إن أردت كتب التاريخ الكبرى كالطبري مثلاً ثم ابلغ في فهرس أماكنه إلى المربد ، يأخذك العجب من كثرة المواطن التي ورد ذكر المربد فيها مع أن الكتاب كتاب سياسة وأخبار ملوك لا كتاب عامة وأدب .

فن المربد وعلى هامشه غذي الادب بقصص وأساطير كما غذي التاريخ بالاعخبار الواقعة ، ووضع من وضع من الرواة والاعخباريين أحاديث حاكوا بها ما وقع . وفي حلقاته اضطرعت الأهواء المتباينة

والنزعات المتضاربة ، استغلها الشعويون والمنافحون عن الحقائق على السواء ، وشهدت هجوماً من أولئك ودفاعاً من هؤلاء .

والغريب أن هذا المربد لم يكف بأن يستأثر بكل ميزة كانت لعكاظ ، بل جمعها وضم إليها ميزات جديدة أفادها من خصائص عصره وطبيعة اجتماعه ، فإن كانت في عكاظ حروب موضعية بين قبيلتين فإن المربد كان ميداناً لأكبر فتنة وأشد حرب داخلية وقف فيها المسلم أمام المسلم يكافحه بسيفه ويشرع إليه رحمه . كان المربد ميداناً لإحدى مواقع الجمل ، أول حرب فرقت كلمة هذه الامة المخيفة وجعلت بأسها بينها ، وكانت حلقة أولى في هذه السلسلة الطويلة التي نخرت الجسم الاسلامي ومكنت عدوه منه وكانت أفك به من كل حرب صليبية وغارة تترية ووحشية أوروبية .

فلأعرض على القارئ مشهداً صغيراً مما جرى في المربد من هذه الحرب ليحمل باقي المشاهد عليه :

خرجت السيدة عائشة مطالبة بدم عثمان ، نائمة على خلاقة علي ، ومعها مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ مهاجرين وأنصاراً ، منهم الزبير وابنه ، وطلحة وابنه ، ونفر من بني أمية فيهم مروان بن الحكم ، وآخرون غير هؤلاء ، فقصدت البصرة لأن لها فيها نفراً على رأيها .

وكان على البصرة عثمان بن حنيف والياً لعلّي ، وقد مهدت لأمرها
بكتب أرسلتها إلى رؤساء البصرة وساداتها فأجابها قليل وردّ عليها
قوم وحديد قوم . بعد هذا التمديد القصير أنقل وصف هذا المشهد
معتمداً على ما جاء في تاريخ الطبري :

« أقبلت عائشة فيمن معها حتى إذا انتهوا إلى المربد ودخلوا من
أعلاه ، أمسكوا ووقفوا وتلقاهم الناس حتى لو رموا بحجر ما وقع
إلا على رأس إنسان . وخرج عثمان أمير البصرة لعلّي فيمن معه ، ولحق
بعائشة من أهل البصرة من شاء حتى غصّ المربد بالناس واحتلّ طلحة
والزبير وجوعهما ميمنة المربد واحتلّ عثمان بمن معه ميسرته . فوقف
طلحة يتكلم فأنصتوا له :

فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان رضي الله عنه وفضله والبلد
وما استحلّ منه بقتل عثمان الخليفة ، وعظم ما أتى إليه . ودعا إلى
الطلب بدمه وقال : إن في ذلك إعزازاً لدين الله عز وجل وسلطانه ،
وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فإنه من حدود الله ، وإنكم إن
فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم وإن تركتم لم يقيم لكم سلطان ولم يكن
لكم نظام . وتكلم الزبير بمثل ذلك ، فقال من ميمنة المربد وكانوا
يحطبون في جبل الخارجين على علي : « صدقا وبراً وقالوا الحق وأمرنا

بالحق . « وقال من في ميسرته : « فجرا وغدرا . وقالوا الباطل وأمرنا به ، قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان . » وتحاثى الفريقان وتحاصبوا وأرهبوا ^(١) .

فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كأنه صوت امرأة جليلة فحمدت الله وأثنت عليه وقالت : « كان الناس يتجنون على عثمان رضي الله عنه ويؤزرون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم ويرون حسناً من كلامنا في صلاح بينهم ، فننظر في ذلك فنجد به بريئاً تقياً وفيما ونجدهم فجرة غدره كذبة ، يحاولون غير ما يظهرون . فلما قروا على المكاثرة كاثروا ، فاقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر . ألا إن مما ينبغي - ولا ينبغي لكم غيره - أخذ قتلة عثمان رضي الله عنه وإقامة كتاب الله عز وجل وتلك : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ^(٢) . »

(١) تحاثى : ترامى ، والحثى : التراب . تحاصبوا : تراموا بالخصبة : وهي الحجارة . وأرهبوا : أثاروا الرهيب وهو الفبار .

(٢) سورة آل عمران ٣ الآية ٢٣ .

فماجد الناس وافترق أصحاب عثمان بن حنيف بعد سماعهم ما تقدم
فوقتین: فقالت فرقة : « صدقت والله وبرت وجاءت والله بالمعروف . »
وقال الآخرون : « كذبت والله ما نعرف ما تقولون . » فتحاثوا
وتخاصبوا وأرهبوا . . .

أوقعت هذه الخطب الانقسام في جماعة عثمان نفسه ، ولما رأت
عائشة ذلك انحدرت وانحدر أهل الميمنة مفارقين لعثمان حتى وقفوا
من المربد في موضع الدبائغين . وبقي أصحاب عثمان على حالهم
يتدافعون حتى تحاجزوا ومال بعضهم إلى عائشة وبقي بعضهم مع
عثمان . وأتى عثمان فيمن معه حتى إذا كانوا على فم السكة سكة
المسجد عن يمين الدبائغين استقبلوا الناس فأخذ عليهم بفمها .

كاد الأمر يقف عندهذا ، فإن أصحاب عائشة ما أرادوا
حينئذ قتالاً ، ولكن جماعة في أصحاب عثمان - ولعل أكثرهم ممن
اشترك في دم الخليفة الشهيد - تعجلوا الحوادث وأرادوا بدء القتال ،
وكان حكيم بن جبلة على الخيل وهو أول من أقبل ينشب القتال ،
وأشرع أصحاب عائشة رضي الله عنها رماحهم ، وأمسكوا ليمسك
أصحاب عثمان ، فلم ينهه حكيم ولم يشن ، وقاتلهم ، وأصحاب
عائشة كافروا ، إلا ما دفعوا عن أنفسهم ، وحكيم

يُذَمَّرُ^(١) خيله ويركبهم بها ويقول : « إنها قریش ، ليردینہا جبنہا والطیش . » واقتلوا علی فم السکة . وأشرف أهل الدور - والموقعة بجوارهم والمربد يومئذ سوق داخلة فی البلد حولها البيوت - من كان له فی واحد من الفريقین هوی ، فرموا الآخرين بالحجارة . وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتی انتهوا إلى مقبرة بني مازن فوقفوا بها طويلاً وثار إليهم الناس حتی حجز الليل بينهم^(٢) .

هذا حادث من حوادث كثيرة وقعت فی المربد واستمرت حتی انتهت حرب الجمل باندحار أصحاب عائشة . ذكرته ليقف القارىء علی صورة من هذه المأساة الفادحة التي كانت وما بعدها سبباً فی فرقة المسلمين وحدوث طوائف ونحل يلعن بعضها بعضاً ويحمل بعضها علی بعض ، تتناكر وتتقاذف وترى كل منها أن غیر المسلم أقرب إليها من أهل الطائفة الثانية ، وكثيراً ما استعان بعضها علی بعض بالأجنبي عدوها معاً ، بل كثيراً ما عمل الدخيل علی توسيع الشقة بينهما وقوى بعضاً علی بعض وأمدّ الفريقین من وراء وراء ، بالسلاح والمال ایفنيا جميعاً .

(١) التذمیر : الحث والخض .

(٢) ارجع فی تفاصيل هذه الموقعة ومعرفة أسبابها ومسببها الحقیقین إلى کتابي (عائشة والسياسة) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧ هـ

وتمضي عشرات السنين ويصلى العراق بسطوة الحجاج وإرهابه ،
وتشتد الوطأة فلا يكون المتنفس إلا في المربد ، حيث يخطب الناس
الزعيم الشاعر عبد الرحمن بن الأشعث قائلاً :

« أيها الناس ! إنه لم يبق من عدوكم إلا كما يبقى من ذنب الوزغة
تضرب به يميناً وشمالاً فلا تلبث أن تموت . » فتقوى بهذا الكلام
نفوس البائسين إلا رجلاً من بني قشير لا يعجبه كلام ابن الأشعث
فيقول :

« قبح الله هذا ، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس من عدوهم ويعدم
الغرور^(١) » فيكون أشد على الحجاج من ابن الأشعث إذ أراد التي
هي أحزم .

كان في المربد إذن أدب وتجارة وحرب^(٢) وسياسة كما كانت في
عكاظ . وأستطيع أن أقسم الكلام على المربد أقساماً ثلاثة كان

(١) الكامل للمبرد ١/١٥٩ .

(٢) ثم كان مسرحاً لفتن قبلية يذكر إحداها الفرزدق مفتخراً :

عشية . سال المبردان كلامها عجاجة موت بالسيوف الصوارم

والمربد واحد لا اثنان وإنما أراد الفرزدق : المربد وما يليه مما جرى جراه
والعرب تفعل هذا في الشبثين جرياً في باب مجرى واحداً . — الكامل للمبرد
ص ٨٢ طبعة ليدن .

شأنه في كل منها مختلفاً . أما الأول فعلى عهد الراشدين إذ كان يقتصر أمره على التجارة غالباً وإن لم يعدم يوماً أن كان ساحة حرب ومسرح مأس . وقد عرفنا مما ذكر الطبري أن به موضعاً للباغين . فالمربد إذن سوق البصرة أيام الراشدين وأغلب ما يتساجر فيه التمر وما إليه والإبل والسلاح والغنائم مما كان يقسم على المحاربين ، فيبيعه هؤلاء في المربد .

ثم يأتي العهد الثاني أيام الأمويين وقد اتسعت السوق وكثر قاصدوها من الأطراف وازدهت بالشعراء والأدباء والعلماء ووفود القبائل ، مما لم يكن في العهد الأول ، لانشغال الناس آنذاك بالجهاد والفتوح ، وعدم فراغ لهذه الألوان من الأدب التي لا تغزر وتتهياً إلا بعد استتباب حال الدولة ، ولم نعهد حركة أدبية نشأت إبان الفتوح حين تتأسس الدول .

وازدان هذا العهد بأفحل رجّاز وشعراء أخرجهم العهد الأموي وأخص بالذكر جريراً والفرزدق والأخطل والبعيث ، وراعي الإبل وذا الرمة ، ومن الرّجّاز رؤبة وأباه العجاج وأبا النجم العجلي وهذا الفريق .

أما في العهد الثالث أي بين آخر العصر الأموي والقرون الثاني

للهجرة ، فقد نضجت حركة المربد الأدبية والعلمية نضجاً يتسق هو وما وصلت إليه الدولة من حسن الحال وسعة الأفق ومرافق الحضارة وبسطة العلم وسعة السلطان . وكان من أبطال المربد أكابر النجاة ورواة الشعر والأدب والشعراء . والذي كان جديداً في هذا العهد ولم يكن قبل ، الناحية العلمية وأعني بها ما كان يصنعه أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وقيلهما من غشيان لفصحاء^(١)

(١) كان المربد مدرسة عملية تعلم الفصاحة ويهرع إليه طلابها من كل وجه ونبغ منهم عدد غير قليل ، والنظام والجاحظ من مشهورهم فقد ذكر المؤرخون أن الثاني تلقف الفصاحة شفاهاً بالمربد . وأهل البصرة في الجملة من أفصح أهل الأمصار ، بل إن الجاحظ ليذهب أبعد من ذلك فيزعم أنهم أفصح أهل الأمصار عامة ، ولنا نستطيع أن ننسب هذا منه إلى عصبية لبلده . جاء في كتابه البيان والنبين (١ : ٣٣ السندوبي) :

[قال أهل مكة لمحمد بن منافر الشاعر : « ليست لكم معاصر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة إنما أهل مكة . » فقال ابن منافر : « أما ألقاظنا فأحكى الألقاظ للقرآن ، وأكثرها له موافقة ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم :

أنتم تسنون القدر : بُرْمَة ، وتجمعون البرْمَة على برام ، ونحن نقول : قدر ونجمعها على قدور ، وقال الله عز وجل « وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ . » سورة مَبَأ . الآية ١٣

وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت عليه ، وتجمعون هذا الاسم على =

الأعراب وصبر على لوتهم وجفائهم ، وتلقف لما ينطقون به .
ولإثبات له في الصحف ، يروونه ليبي عليه الأساس في وضع
القواعد العربية .

قال صاحب ضحى الإسلام (٢ : ٨٠) وفي قوله إجمال ما قدمت :
كان المربد في عصر الخلفاء الراشدين والامويين مركزاً سياسياً
وأديباً ، نزلت فيه عائشة أم المؤمنين بعد مقتل عثمان تطالب
بدمه وتؤلب الناس على علي ، وكان المربد مركزاً للمهاجرة
بين جرير والاخلط والفرزدق ، وأنتج ذلك نوعاً من أقوى
الشعر الهجائي كالذي نقرؤه في النقائض ، وكان لكل من هؤلاء
الشعراء حلقة ينشد فيها شعره ، وحوله الناس يسمعون . جاء
في الاغانى « وكان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى
المربد في البصرة . »

واستمر المربد في العصر العباسي ، ولكنه كان يؤدي غرضاً

= علالي ونحن نسميه غرفة ونجمعها على غرفات وغرف ، وقال الله تبارك وتعالى :
« غُرْفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ » الزمر ، الآية ٢٠ وقال :
« وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » سبأ ، الآية ٣٧

وأنتم تسمون الطلع : الكافور والاغريض ، ونحن نسميه الطلع وقال
الله عز وجل : « وَتَخْلُ طَلْعُهَا فَضِيمٌ » الشعراء ، الآية ١٤٨
فعدت عشر كلمات ولم أحفظ أنا منها إلا هذا . [

آخر غير الذي كان يؤديه في العهد الاموي ، ذلك أن العصية القبلية ضعفت في العصر العباسي بمهاجمة الفرس للعرب ، وأحس العرب بما هم فيه جميعاً من خطر من حيث هم أمة لا فرق بين عدائهم وقحطائهم ، ولكنهم لم يستطيعوا المقاومة ، فقوي نفوذ الفرس وغلبوا العرب على أروهم ، وبدأ الناس في المدن كالبصرة يحبون حياة اجتماعية هي أقرب إلى حياة الفرس منها إلى حياة العرب ، وانصرف الخلفاء والامراء عن مثل النزاع الذي كان يتنازعه جرير والفرزدق والاخلط ، وظهرت العلوم تزاحم الادب والشعر ، وفشا اللحن بين الموالي الذين دخلوا في الإسلام ، وأفسدوا حتى على العرب الخالصة لغتهم ، فتحول المربد يؤدي غرضاً يتفق (هو) وهذه الحياة الجديدة .

أصبح المربد غرضاً يقصده الشعراء لاليتهاجوا ، ولكن ليأخذوا عن أعراب المربد الملكة الشعرية يحتذونهم ويسيرون على منوالهم ، فيخرج إلى المربد بشار وأبو نواس وأمثالهما ، ويخرج إلى المربد اللغويون يأخذون عن أهله ويدونون ما يسمعون . روى القالي في الامالي عن الاصمعي قال : « جئت إلى أبي عمرو ابن العلاء فقال لي : من أين أقبلت يا أصمعي ؟ » قلت : « جئت من المربد » ، قال : « هات ما معك » فقرأت عليه

ما كتبت في ألواحى ، فربه ستة أحرف لم يعرفها ، فخرج يعدو في الدرجة وقال : « شمرت في الغريب » أي غلبتني .

والنحويون يخرجون إلى المربد يسمعون من أهله ما يصح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم ، فقد اشتد الخلف بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة في النحو وتعصب كل لمذهبه ، وكان أهم مدد لمدرسة البصرة هو المربد^(١) ، وفي تراجم النحاة نجد كثيراً منهم كان يذهب إلى المربد يأخذ عن أهله . ويخرج الادباء إلى المربد يأخذون الادب ، من جمل بليغة وشعر رصين وأمثال وحكم ، مما خلفه عرب البادية وتوارثوه عن آبائهم ، كما فعل الجاحظ : إن الجاحظ أخذ النحو عن الاخفش ، وأخذ الكلام عن النظام ، وتلقف الفصاحة من الاعراب شفاهاً بالمربد « اهـ

وكما كانت عكاظ يؤمها كل من أراد أن يفتخر أو يعلن أمراً تفرد به أو يشيع في الناس ماثرة أو خبراً ، كان المربد كذلك

(١) قلت : أقام الكوفيون «سوق كُناصة» بالكوفة لتقوم لهم بما يقوم المربد للبصريين فلم يقلحوا ولم تذكّر سوقهم قط ولا قصدها مثل من يقصد البصرة من فصحاء العرب وخطبائهم وشعرائهم ورجازهم ، بل كانت إلى إفساد اللغة أقرب - انظر كتابي « في أصول النحو » ص ١٩٠ (طبعة ثانية) .

منشرة للمحامد والمساوى ، منسرة الصديق وغيظ العدو ، فكل من أراد أن يكتب خصماً أو يحقر قبيلة أو يشهر محمداً طلب لها المربد يجعلها فيه ، لتكون أشيع وأسير وأبلغ في الإرضاء والاغظة . وقد كان المربد مسرحاً لدعوات سياسية ودينية واستغاثات وشكوى وورثاء وفخر كما كانت عكاظ . وأحفل ما كان المربد ، في النصف الثاني لعهد الأمويين والثلث الأول لعهد العباسيين . فلأشعر في عرض مناظر تكمل الصورة التي وصفت ليكون القارئ ملماً بجميع ما يعرض ويجري في المربد على اختلاف المناحي والغايات ، وقد تقدمت صورة على عهد الراشدين وهي حرب الجمل . ولا ريب في أن المربد لم يستفحل أمره وتعدّد مقاصده إلا فيما بعد ، في الزمن الذي ذكرت لك من أيام بني أمية وبني العباس .

* * *

١ - عوز بقبر

عبد مكاتب لبني منقّر ، ضاقت حاله ولم يقدر على حيلة يجمع بها المال لسيده حتى يعتقه ، فلما عي بالأمراء أن قبر غالب أبي الفرزدق ، فضرب قبّة له علامة الاستعاذة والاستغاثة ، فقدم الناس فأخبروا الفرزدق أنهم رأوا ناء على قبر غالب أبيه .

قصد المكاتب المربد وتقصّى الحلقات حلقة حلقة ، حتى وقف على حلقة الفرزدق حيث يجلس فقال :

بقبر ابن ليلي غالب عذت بعدما خشيت الردي أو أن أروء على قسري
فخطبني قبر ابن ليلي وقال لي : فكأكك أنت تلقى الفرزدق بالمصر
فقال له الفرزدق : « صدق أبي ، أنيخ أنخ . » ثم طاف على الناس حتى
جمع له كتابته وفضلاً فضل المكاتب ، فانصرف وقد أنجح مسعاه .

٢ - مجنون في حب

كان بالبصرة مجنون قاعد على ظهر الطريق بالمربد ، فكلمها مر به ركب قال :
ألا أيها الركب اليانون عرجوا علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
نسألكم هل سال نعمان بعدكم وحبنا إلينا بطن نعمان واديا
فسألت عنه ، فقيل : هذا رجل من البصرة ، كانت له ابنة غم يحبه
فتزوجها رجل من أهل الطائف فنقلها ، فاستوله عليها^(١) .

٣ - إنزهاب مال

كان زياد قد نهى أن ينهب أحد مال نفسه ، وكان الفرزدق أنهب ماله
بالمربد . وذلك أن أباه بعث معه إبلا ليبيعه فباعها وأخذ ثمنها . فعقد عليه
مُطَرَفٌ خَزَّ كان عليه ، فقال قائل : « لشد ما عقدت على دراهمك هذه »
أما والله لو كان غالب ، ما فعل هذا الفعل ! ،

فعلها الفرزدق ثم أنهبها وقال : « من أخذ شيئاً فهو له . »
وبلغ ذلك زياداً فبالغ في طلبه فهرب ، فلم يزل زياد في طلبه ، قد بلغ
منه كل مبلغ ليعاقبه على ما صنع ، وقد نهى زياد في ذلك ألا يفعله أحد .

(١) الأمازي ٢ : ١٢٦ . والوله : ذهاب العقل من حزن ، والحيرة والخوف .

وكان زياد إذا قال شيئاً وفى به . فلم يزل في هربه ذلك يطوف في القبائل والبلاد حتى مات زياد^(١) .

٤ - غلام نجبل الفرزدق

كان الفرزدق بنشد شهره بالمريد والناس مجتمعون حوله إذ مر به الكوفة نيت وهو غلام فوقف ، فقال له الفرزدق : « ليسرك أني أبوك ؟ » فقال الغلام : « أما أبي فلا أريد به بديلاً ، ولكن يسرني لو كنت أمي ليدوق أبي عُسَيْلَتِكَ ! » فقال الفرزدق : « اكتمها على عمك يا بن أخي فما مر بي مثلاً^(٢) » .

٥ - تهريبهم دور الربيعانيين

كان للبصرة وال متنسك يروى عنه الفقه ، اسمه الحارث بن عبد الله المخزومي ولقبه القُبَاع^(٣) بلغه ما يكون في المريد من الشر بين جرير والفرزدق وبين حبيبيهما بسبيهما ، ولما رأى أنها غير منتهيين عن ذلك ، أراد أن يخطو الخطوة الحسنة بحزم ، فأمر بالدار التي ينزلها جرير في المريد والدار التي ينزلها الفرزدق في المقبرة فهدمتا .

وكان القُبَاع قد أراد هدم دار الفرزدق قبل هذه المرة أيضاً في شيء بلغه ، ثم إنه كلّم فيه وهرب الفرزدق .

(١) النقائض ص ٦٠٧

(٢) المستجد من مقالات الاحواد ص ٢٤٦ . المسيلة : ماء الرجل ، أو حلاوة الجماع .

(٣) القُبَاع : المكبال الضخم . ولقب الحارث بن عبد الله والي البصرة بالقُبَاع لانه اتخذ

ذلك المكبال لهم ، أو لانهم أنوه بمكبال لهم حين وليهم فقال : « إن مكبالكم هذا قُبَاع » - القاموس .

ويظهر أن هذا الجزاء كان شديداً قد بلغ من نفسي الشاعرين مبلغاً ، حتى
إن الفرزدق بعدها خنع وتلقى فقال :

أحارثُ داري مرتين هدمتها وكنت ابن أخت لا تخاف غوائله
وأنت امرؤ: بطحاء مكة لم يزل بهـا منكم معطي الجزيل وفاعله
فقلنا له : لا تشمتن عدونا ولا تفس من أصحابنا من نواصله
فقبلك ما أعيت كاسر عينه زياداً فلم تقدر علي حبائله
فأقسمت لا آتيه سبعين حجة ولو نشرت عين القبايع وكاهله
وقال جرير في ذلك :

أحارثُ خذ من شئت منا ومنهم ودعنا نفسُ بجداً تعد فواضله
فما في كتاب الله تديم دورنا بتمديم ماخور خبيث مداخله

٥ - هجاء البليسي

كان الفرزدق قد أكثر من هجاء « باهلة » حتى عيّت هذه القبيلة بأمرها
وكان بما قال فيهم :

أباهلُ لو أنت الأنام تنافروا على : أيهم شرّ قديماً والأُمُ
لفاز لكم منها لثيم عليهم ولو كانت العجلان فيهم وجرم
وقال أيضاً :

ألا كيف البقاء لباهلي هو بين الفرزدق والجحيم
ألسن إذا نسبت لباهلي بالأم من تركّض في المشيم^(١)
وهل يستطيع أبكم باهلي زحام الهاديات من القروم^(٢)
فلا يأت المساجد باهلي وكيف صلاة مرجوس رجم . الخ

(١) المشيم : محل الولد في الرحم .

(٢) الهادي : المتقدم ، والهوادي من الإبل أول رعييل يطلع منها . والقروم : الفحول .

إلا أن الله أراد أن يرحمهم ، فساق الفرزدق يوماً إلى المريد ، فلقى رجلاً قال له حمام من موالي باهلة ، ومعه نَحْيٌ من صمن يبيعه .

فسامه الفرزدق إياه فقال له : « أدفعه إليك وتهب لي أعراض قومي ! » قال وقال يجب له أعراض قومه ويهبو إبليس :

ألا بشرنا من كان لا يملك استه	ومن قومه بالليل غير نيام
يخافون مني أن يصك أنوفهم	وأقفاهم إحدى بنت صام ^(١)
لعمرى انعم النحْيُ كان لقومه	عشية عبّ البيع نحي حمام ^(٢)
اطعنك يا إبليس سبعين حجة	فلما انتهى شبي وتم تمامي
فررت إلى ربي وأيقنت أنني	مُلاق لأيام المنوت حمامي
لا طالما قد بت يوضع ثاقفي	أبو الجن إبليس بغير خطام
ظل يمتيني على الرَحْل وادكأ ^(٣)	يكون ورائي مرة وأمامي...
وما أنت يا إبليس بالمرء أبغني	رضاء ولا يقنادني بزمام
سأجزيك من سوءات ما كنت سقتني	إليه جروحاً فيك ذات كلام ^(٤)
وإن ابن إبليس وإبليس ألينا	لهم يعذاب الناس كل غلام ^(٥)
ما تفلا في في من فوجها	على التابع العاوي أشد رجام ^(٦)

-
- (١) العمام الداهية الشديدة . يقال صمي صمام أي زيدي ياداهية .
 (٢) النسي : الزق وقيل ما كان للهن خاصة . والعب : الكروع وتتابع الثرب .
 (٣) الودك : المتد على وركه ، والودك : ما فوق الفخذ .
 (٤) الكلام : الجروح .
 (٥) لبن القوم : مقام اللين ، وألبن القوم : كثر عندم اللين ، ومن الجاز : لهما والحجر : ضربه .
 (٦) الرجام : الحجارة .

٦ - جرير يهجو قبيلة

بنو العم قبيلة ليست من صميم العرب « نزلوا ببني تميم في أيام عرب بن الخطاب فأسلموا وغزوا مع المسلمين وحسن بلاؤهم ، فقال الناس : « أنتم وإنا لم نكونوا من العرب ، إخواننا وأهلنا وأنتم الأنصار والآخران وبنو العم . » فلنقبوا بذلك وصاروا في جملة العرب . إلا أن الاسم الذي مسموا به يحمل في تضاعفه سمة قوم لصفاء ، فكان فيه بعض الغض منهم وكانوا يُخربون مثلاً في رقة النسب وضعف الوشيجة حتى قال كعب بن معدان يهجو بني ناجية ويعرض بنسبهم في قريش :

وجدنا آل سامة في قريش كمثل « العم » بين بني تميم
حضرت هذه القبيلة المربد وقد تواقف للهجاء جرير والفرزدق ، يردّ هذا على ذلك ووراء كل قبيلته وحزبه ، فهاج الشر واقتلت القبيلتان : بنو يربوع قوم جرير ، وبنو مجاشع قوم الفرزدق ، فأمدت بنو العم بني مجاشع وجأؤهم وفي أيديهم الحشب فطردوا بني يربوع فقال جرير : « من هؤلاء ؟ » قالوا : « بنو العم . » فقال جرير يهجوهم ويعرض بالفرزدق وأنصاره الوضعين هؤلاء :

ما للفرزدق من عزّ يلوذ به إلا بني العم في أيديهم الحشب
سيروا بني العم فالأهواز داركم ونهر تيرى ولم تعرفكم العرب^(١)

٧ - والفرزدق يهجو

جرير والفرزدق ملأ المربد بأشعارهما ونقائضهما وظلالاً حديث أهلها ما عاشا . لا يألوا أحدهما جهداً في خلق ما يعير صاحبه به ، فهما أبدأ

(١) الاغانى ٣ : ٢٥٧ (دار الكتب) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس ، لكل كورة منها اسم ويجمعها الأهواز . ونهر تيرى من نواحي الأهواز .

اثبان في أن يجد من كل شيء موضوعاً للهجاء ، ألف منها ذلك أهل المربد عامة . وكانت لكل حلقة يلاً فيها ما ضغينه فخرأ بقبيله وهجاء لقييل خصه ، وكانت عبقريتهما البعيدة الغور تفتق لهما من الشعر ألواناً تشغل بها السامعين من البدو والحضر .

هذا جرير ، وقف بالمربد وقد لبس درعاً وسلاحاً تاماً وركب فرساً اعاره إياه أبو جهضم عبّاد بن حصين الحبطي . فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب ورشي وسواراً وقام في مقبرة بني حصن ينشد بجرير ، والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما . فقال الفرزدق وقد وجد في لباس جرير السلاح والدرع ، مادة لهجائه :

وإن كليباً إذ أنتني بعبتها	كمن غرته حتى رأى الموت باطلة
رجوا أن يردوا عن جرير بدرعه	نوافذ ما أرمي وما أنا قائله
عجبت لراعي الضأن في حُطَمِيَّة	وفي الدرع عبد قد أصيبت مقاتله
وهل تلبس الحبل السلاح وبطنها	إذا انتطقت عبء عليها تعادله
أفاخ وألقى الدرع عنه ولم أكن	لألقي درعي من كمي أقاتله
تركنا جريراً وهو في السوق حابس	عطية : هل يلقى به من يبادله
فقالوا له ودُّ الحمار فإنه	أبوك لثيم رأسه وجهافه
وأنت حريص أن يكون مجاشع	أباك ولكن ابنه عنك شاغله ^(١)
وما ألبسوه الدرع حتى تزيّلت	من الحزي دون الجلد منه مفاصله

ولما بلغ جريراً أن الفرزدق في ثياب ورشي اهتبلها فرصة فقال :

لبست سلاحي والفرزدق لعبة عليه وشاحاً كُرج وجلاجله^(٢)

(١) النقااض صفحة ٦٢٣ . الحطمية : الدرع . أفاخ : تفاجّ وفتح فخذيه وفسا وعطية : أبو جرير . والجحافل للخيال والبفال والحجير : بمنزلة الشفة .

(٢) الكرج : المهر . (معرب) .

فعرف كيف يصوّب السهم ويحكم الضربة ويفوز بإضحاك الناس من
خصمه الفرزدق : اللعبة .

٨ - ضمنية بين فعلين

هاجى جرير ثمانين شاعراً ، وكان عمر بن لجأ أحدهم ، وكان جرير قد
هجاه بقوله :

يَاتِيْمُ تَيْمَ عَدِيٍّ لَا أَبَا لَكُمْ لَا يَقْنَدُ فَنَكْمُ فِي سَوْءِ عَمْرٍ
أَحِينَ صَرْتُ سَمَاماً يَا بَنِي لَجَأٍ وَخَاطَرْتُ نِيَّ عَنْ أَحْسَابِهَا مَضْرُ(١) ..

فبينما جرير واقف بالمربد وقد ركبته الناس وعمر بن لجأ موافقه يتهماً
للردّ عليه ببنيته ، هدأت الضجة فقال عمر هذين البيتين وكان قد رفده
بها الفرزدق :

لَقَدْ كَذَّبْتَ وَشَرَّ الْقَوْلِ أَكْذِبُهُ مَا خَاطَرْتُ بِكَ عَنْ أَحْسَابِهَا مَضْرُ
أَلْبَسْتَ فِرْوَةَ خَوَّارٍ عَلَى لَوْمٍ لَا يَسْبِقُ الْحَلَبَاتِ اللَّوْمُ وَالْحَوْرُ
سمعها جرير ففكر ثم فطن الأمر فقال : « قبحاً لك يا بن لجأ ، أهذا
شعرك ؟ كذبت والله ولؤمت ، هذا شعر حنظلي ، هذا شعر العزيز (يعني
الفرزدق) . » فأبلس عمر وما ردّ جواباً .

وكان في الحلقة غنيم بن أبي الرقراق فطار حتى أتى الفرزدق فضحك له
وأخبره الخبر ، فاستلقى الفرزدق يضحك حتى فحص الأرض برجليه ، وقال
في ساعته يريد عمر بن لجأ ، هذا الذي دخل بين فحلين فسقط مطرَحاً
بين أقدامهما :

(١) الهم : جمع سم . وخاطر : راهن . والحسب : مفاخر الآباء .

وما أنت إن قرّما تميم تساميا أخا التميم إلا كالوشيطنة في الغرم^(١)
 فلو كنت مولى الظلم أو في ثيابه ظلمت ولكن لا يدي لك في الظلم
 ويرجع الخبر بذلك إلى جرير فتنبسط أساوره ويعلوه البشر إذ سمع هذين
 البيتين ، ورأى لأول مرة كلمة انصاف من ذلك الذي ملأ عليه الأرض
 هجاءً وشرّاً فيقول :
 « ما أنصفني في شعر قط قبل هذا . » يعني قوله (إن قرما تميم تساميا) .

٩ - الحكم في تناحر شاعرين

[لما دخل رسول الله ﷺ مكة قتلت بنو سليم وهم من قيس ، مقتلة من
 بني فهر وبني كنانة .
 فلما وجه معاوية في خلافته بسر بن أرطاة الفهري لقتل شيعة علي ، نهضت
 وجوه قيس إلى معاوية وقالوا :
 « نسألك بالله والرحم ألا تجعل البسر على قيس سلطاناً فيقتل قيساً بمن قتلت
 بنو سليم من بني فهر وبني كنانة يوم فتح مكة . » فقال معاوية : « يا بسر ليس
 لك سلطان على قيس . »
 سار بسر حتى أتى الطائف فقالت له ثقيف : « مالك علينا سلطان ، نحن
 من قيس . » فسار حتى أتى همدان وهم في جبل لهم يقال له شبام ، فتحصنت
 فيه همدان ثم نادوا : « يا بسر نحن همدان وهذا شبام . » فلم يلتفت إليهم ،
 حتى إذا اغتروا ونزلوا إلى قراهم أغار عليهم فقتل وسبى نساءهم فكن أول
 مسلمات مبين في الاسلام . ومر بجحى من بني سعد نزول بين ظهري بني جعدة

(١) الوشيطنة : قطعة عظم تكون زيادة في العظم الصميم ، وم وشيطنة في قومهم : حشو
 ذخيرهم ، والدعي لا يدخلونه عادة في الغرم .

بالفليج (موضع لبني جعدة بنجد) فأغار بسر على الحي السعديين فقتل منهم وأسر فقال أوس بن مفرأ في ذلك :

مُشرين ترعون النجيل وقد غدت بأوصال قتلاكم كلاب مزاحم^(١)
فقال النابغة الجعدي بحبيبه :

متى أكلت لحومكم كلابي أكلت يديك من جرب تهام
وهاج الشر بين الشاعرين لما كان بين القبيلتين من ذحول وعداوة . ولم يكن أوس مثل النابغة ولا قريباً منه في الشعر . فقال النابغة : « إني وإياه لنبتدر بيتاً أبنا سبق إليه غلب صاحبه » فلما بلغه قول أوس :

لمعرك ما تبلى سراييل عامر من اللؤم ما دامت عليها جلودها
قال النابغة : « هذا البيت الذي كنا نبتدر إليه . » فغلب أوس عليه . [كان مفهوماً أن يناضل كل شاعر عن حيته ويدفع عنه ما يلصقه خصمه به ، فتأرث الهجاء بين النابغة وأوس ، واستطال أوس بنسبه إلى معدّ ، ثم كانت الحكومة بين الشاعرين في المربد : سوق العرب في الاسلام . وهذه رواية الأغاني في القضاء بينهما :

اجتمع النابغة الجعدي وأوس بن مفرأ في المربد ، فتنافرا وتهاجيا ، وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل ، فقال أوس .

لما رأيت جعدة منا ورداً ولتوا نعاماً في البلاد رُبدا^(٢)
لما لنا عليكم معداً كاهلها ووكنها الأشدا
فقال المعجاج :

كل امرئ يعدو بما استعدا

(١) المشر : الباسط ثوبه في الشمس ، والتجيل : جنس من الحمض .

(٢) الودد : الجيش . والربد : جمع ربداء وهي الغمامة المختلطة السواد .

وقال الأخطل بعين أوس بن مغراء ويحكم له :
 وإني لقاض بين جعدة عامر وسعد قضاء بيتن الحق فيصلا
 أبو جعدة الذئب الجيث طعامه وعوف بن كعب أكرم الناس أولا
 وقال كعب بن جعيل :
 إني لقاض قضاء صوف يتبعه من أم قصداً ولم يعدل إلى أود^(١)
 فصلاً من القول تأتمّ القضاء به ولا أجور ولا أبغي على أحد
 (ثالث) بنو غامر سعداً وشاعرها كما (تنال) بنو عبس بني أسد^(٢)
 وهكذا باء النابغة على فحولته بشرّ ما يبوء امرؤ إلى أهله ، وفاز أوس
 بحكومة هؤلاء القضاة غير العادلين .

١٠ - نقر سحف

نكوت جماعة بمربد البصرة على الشاعر ذي الرمة ، وهو قائم وعليه برد
 قيمته مثناً دينار . فاجتمعوا إليه وهو ينشد ودموعه تجري على حينه حزناً
 وأسفاً على عهد صاحبه خرقاء :
 ما بال عينك منها الدمع ينسكب ... الخ

* * *

بيننا ذو الرمة بالمربد والناس يجتمعون إليه ، إذا هو بخياط يقف ويقول :
 « يا غيلان » (اسم ذي الرمة) :
 أنت الذي نستنطق الدار واقفاً من الجبل : « هل كانت بكنّ حلولاً » ؟
 فقام ذو الرمة وفكر زماناً ثم عاد فقعده في المربد ينشد فإذا بالحياط قد

(١) أم : قصد ، الاود : الموج والميل .

(٢) الاغاني ١٣١/٤ وفيها كلمة قبيلة مكان (ثالث) ، (تنال) .

وقف عليه ، وكان ذو الرمة قد قال في خرقاء صاحبه هذين البيتين المشهورين :

أيا ظيئة الوعاء بين جلاجل وبين النقا أنت أم أمّ سالم
هي الشبه ، لولا مدّ رباها وأذنبا سواء وإلا مشقة في القوائم^(١)
فقال الحياض يعرض بهذين البيتين ويسخر من تشبيهه هذا :

« أنت الذي شبت عنزاً بقفرة لها ذنب فوق استنها أمّ سالم
وقوائف إما يلزقنك يتركها بجنبك يا غيلان مثل المواسم
جعلت لها قرنين فوق شواتها^(٢) ورباك منها مشقة في القوائم »
فجعل ذو الرمة وبهت ، وقام فذهب . ولم ينشد بعدها في المبرد حتى
مات الحياض^(٣) .

١١ - إهدام قبيلة

كان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائها حلقة بأعلى المبرد بالبصرة يجلسون فيها ، وكان الراعي قد ضخم أمره ، وكان من شعراء الناس ، فدخل في المناقرة بين جرير والفرزدق وقضى على الأول للثاني وكان فيما قاله :

يا صاحبي دنا المسير فسيروا غلب الفرزدق في الهجاء جريرا
وقال :

رأيت الجحش جعش بني كليب تيمّم حوض دجلة ثم هابا .
(يعني جريراً) .

(١) الوعاء : رابية من رمل لينة ثبتت أحرار البقول . والنقا من الرمل : القطعة تنفاد عدودة . المشقة : التفريج في قوائم ذات الحافر . المدري : القرن ، والمنشط .

(٢) التوى : قحف الرأس .

(٣) الاغانى ١٦ : ١١٤

فلما أكثر الراعي من ذلك قال جرير لرجال من قومه : « هلا تعجبون لهذا الرجل الذي يقضي للفرزدق عليّ وهو يهجو قومه وأنا أمدحهم . »

(٩)

ثم خرج جرير ذات يوم يمشي ولم يركب دابته لئلا يعلم به أحد ، فتعرض للراعي يريد أن يلقاه من حيال حيث كان يمر إذا انصرف من مجلسه بالمربد . فرى الراعي على بغلته وابنته جندل يسير وراءه على مهر له أحوى ، وإنسان يمشي معه يسأله عن بعض الأمر . فلما استقبل جرير الراعي قال له : « مرحباً بك يا أبا جندل . » ، وضرب بشماله على معرفة بغلته ، ثم قال يا أبا جندل : « إنك شيخ مضر وشاعرها وقد بلغني أنك تفضل عليّ الفرزدق تفضيلاً قبيحاً وهو ابن عمي دونك ، فإن كان لابد من تفضل فأنا أحق به لمدهي قومك وذكرى إياهم . » ويكفيك من ذاك إذا ذكرنا أن تقول : كلاهما شاعر كريم ولا تحتل مني ولا منه لائمة . » فبينما جرير كذلك أقبل ابن الراعي جندل ، حتى ضرب عجز دابة جرير حتى كاد يقطع وأصبع رجله وقال لأبيه : « لا أراك واقفاً على كلب من بني كليب كأنك تخشى منه شراً أو ترجو منه خيراً . » وضرب البغلة ضربة فرحت جريراً رعدة وقعت منها قلنسوته ، قال جرير : « فوالله لو عرّج عليّ الراعي لقلت سفينة غويّ (يعني جندلاً ابنه) ولكن لا والله ما عاج ، فأخذت قلنسوتي فمسحتها ثم أعدتها على رأسي . »

فانصرف جرير غضبان حتى إذا صلى العشاء بمنزله في عليّة له قال : « ارفعوا لي باطية من نبيذ وأسرجوا لي . » ففعلوا . فجعل يهيمهم ، فسمعت صوته عجوز في الدار ، فاطلعت في الدرج حتى نظرت إليه فإذا هو : يجبو في الفراش عرياناً ، لما هو فيه ، فأنحدت فقالت : « ضيفكم مجنون ، وأبنت منه كذا وكذا . » فقالوا لها : « اذهبي لطيتك ،

نحن أعلم به وبما يارس . » فما زال كذلك حتى كان السحر ، ثم إذا هو
يكبر : قد قالها ثمانين بيتاً في تُمَيِّر ، فلما ختمها بقوله :
فغض الطرف إنك من غير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً
كبر ثم قال : « أخزيتك ورب الكعبة . »

(٢)

ثم أصبح ، حتى إذا عرف أن الناس قد جلسوا في مجالسهم بالمربد ،
وكان يعرف مجلسه وجلس الفرزدق دعا بدهن فادّهن ، وكفّ رأسه ،
وكانت حسن الشعر ثم قال : « يا غلام أسرج لي . » فأمرج له حصاناً .
ثم قصد مجلسهم ، حتى إذا كان موقع السلام قال : « يا غلام . » ولم يسلم :
« قل لعبيد : أبعثك نسوتك تكسبن المال بالعراق ؟ أما والذي
نفس جرير بيده لترجعنّ إلى أهلك بيمر يسوؤهن ولا يسرهنّ ، أما أنا
فقد بعثني أهلي لأقعد على قارعة هذا المربد ، فلا يسبهم أحد إلا سببته .
وإن علي نذراً : إن جعلت في غيبي غمضاً حتى أخزيتك . » ثم اندفع
جرير في قصيدته :

أقليّ اليوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا
فأنشدوها فنكّس الفرزدق وراعي الإبل ، وأزمّ القوم ، حتى إذا
بلغ قوله :

بها برص بجانب إسكّتها . . .

وضع الفرزدق يده على فيه ، وغطّى عنفقه لئلا يظن جرير فيخزيه
في مجلسه ذاك ، فظن لها جرير فأنتم البيت هكذا وكان الفرزدق
لقد أنهاه :

بها برص بجانب إسكتيم^(١) كعنفة الفرزدق حين شاب^(٢)

ولعله في الأصل على غير ذلك . فانصرف الفرزدق وهو يقول : « اللهم
أخزّه ، والله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه لا يقول غير هذا ، ولكن
ظمعت بالسلامة فغطيت وجهي فما أغناني ذلك شيئاً . »

واسترسل جرير في الإنشاد حتى بلغ قوله مخاطباً الراعي :

ففض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فأسقط في يد الراعي وبني غير عامة . وقال الفرزدق : « غصّه والله فلا
يجيبه ولا يفلح بعدها أبداً^(٣) . »

وسرعان ما تناقل هذا البيت أهل المربد ، وانفض المجلس عليه . وسار
الراعي فوجد البيت سبقه إلى أهله وقومه فاستعيا ورحل .

وهكذا انطفت قبيلة غير آخر جبرات العرب في المربد ، أمام هذا
المحفل الحاشد ، على يد جرير الشاعر .

١٢ - رد عمروان

قدم معن بن أوس المزني (البصرة) فقمع ينشد في المربد . فوقف عليه
الفرزدق وأراد العبث به فقال : « يا معن ، من الذي يقول :
لعمرك ما مزينة رهط معن بأجفان تطاق ولا سنام^(٣) »

(١) الإسكة : جانب فرج المرأة ، وهما إسكتان . والمنفة : شعرات بين
الشفة السفلى والذقن .

(٢) الاغاني ٤٧/٧

(٣) من معاني الجفن : الشجر الطيب الريح .

فقال معن : « أتعرف يا فرزدق من الذي يقول :
لعمرك ما تقيم أهل فلنج بأرداف الملوك ولا كرام^(١) »
فراه الفرزدق صلباً فقتل وقال له : « حسبك لما جرتبتك . » فأجابه
معن بلمحة الحازم : « قد جرتبت وأنت أعلم . » فانصرف وتركه .

١٣ - سرقة

كان المربد إلى ذلك يفسح مجالاً لمتعصبة الشعوبية وأراذلهم ، فينالون من
الحسب الزاكي والأصل الكريم ويتطاولون ، وكانوا يدسون سمومهم في
أفكار الموالي والعييد قال الاصفهاني :

« وقف رجل من بني زيد شريف ، لا أحب أن أسميه ، على بشار
فقال له : « يا بشار ، قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم إلى الانتفاء منا
وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء ، وأنت غير زاكي الفرع ولا
معروف الأصل . » فقال له بشار :

« والله لأصلي أكرم من الذهب ، ولقرعي أزكى من عمل الأبرار ،
وما في الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه . ولو شئت أن أجعل جواب
كلامك شعراً لفعلت ، ولكن موعدك غداً بالمربد . » فرجع الرجل إلى
منزله وهو يتوهم أن بشاراً يحضر معه المربد ليفاخره ، فخرج من الغد يريد
المربد فإذا رجل ينشد :

شهدت على الزيدي أن نساء

(وأنحش بشار في تمة البيت) فارتاع الشريف وسأل ممن قال هذا

(١) الردف : الرديف وكل ما تبع شيئاً فهو رده .

البيت فقيل له : « هذا لبشار فيك . » فرجع إلى منزله من فوره ولم يدخل
المربد حتى مات .
فانظر في بضاعة المربد هذه ، واعجب كيف ينقبض فيه الاخيار
ويتسلط الاشرار !

١٤ - معركة الربيع

ترك حلبة الشعراء إلى حلبة أخرى أطرف وأظرف ، لانت أصحابها
ذو أصول بدوية مقيمون في الحضر . تلك هي حلبة الرجاز أبي النجم العجلي
ورؤبة وأبيه ، فننظر كيف يتنافس هؤلاء ، حتى إذا سكنت الريح بينهم
أنت قبائلهم فأثارتها وكدرت ما بينهم حتى يعود الشر جذعة كما كان بدأ ،
ولعل المنظر الذي ستعرضه بعد قليل أروع منظر شهدته المربد .

« قال فتیان من عجل لأبي النجم : هذا رؤبة بالمربد يجلس فيسمع الناس
شعره ، وينشد الناس ويجمع إليه فتیان من بني قيم ، فما يمنعك من ذلك ؟ »
فقال : « أوتجبرون هذا ؟ » قالوا : « نعم » قال فانتوني بعس^(٢) من نبيذ
فأتوه به فشرب ثم نهض وقال :

إذا اصطبعتُ أربعاً عرفتني ثم تجشمتُ الذي جشمتني

وأقبل إلى المجلس بالمربد فلما رآه رؤبة أعظمه وقام له عن مكانه وقال :
« هذا رجاز العرب ، وسألوه أن ينشدهم فأنشدهم أرجوزته التي أولها :
الحمد لله الوهوب المجزل .

(١) أصل الجذع : ولد الشاة في السنة الثانية والأثني جذعة . وطفئت حرب بين قوم
فقال أحدهم : إن شئت أعدناها جذعة : يريد من أول .

(٢) العس بالضم : الفدح الكبير .

وكان إذا أنشد أربد ووحش^(١) بشيابه وكان من أحسن الناس إنشاداً ،
فلما فرغ منها قال رثبة : هذه أم الرجز .

إلا أن هذا الصفاء بين الرجازين واعتراف رثبة وإقراره بفضل أبي النجم
ورضى هذا عن رثبة لم يدم طويلاً ، فسُرعات ما أهاج الشرّ بينها
غواة الرجز ، فما لبث أن فسد ما بينها واستدت المنافسة إلى الغاية . وأنت
إذا أردت أن تستمتع وتسلّي وتستفيد ، فأثر خصومة أو منافسة ،
أو هج شرأين أدبيين أو شعاعين أو عالين ، تجد متعة وطرافة
تنعم بها من حيث منقي الرجال . هذا ما صنع قوم أبي النجم لما
رأوا العجاج (أبا رثبة وقريب أبي النجم) خرج محتفلاً عليه جبة خز وعمامة
خزّ ، على ناقة له قد أجاد رحلها حتى وقف بالمربد والناس مجتمعون فأنشدهم
قوله : « قد جبر الدين الإله فجبر »

فذكر فيها ربيعة قوم أبي النجم وهجهم . فانطلق رجل من الناس من
بكر بن وائل يشتدّ عدواً إلى أبي النجم في بيته ، فقال له يستحّته وهو
يلثم : « أنت جالس وهذا العجاج يجحونا بالمربد ، قد اجتمع عليه
الناس ! ؟ » فتحرك أبو النجم وقال : « صف لي حاله وزبّه الذي هو فيه . »
فوصف له ، فقال : « ابغني جملاً طحاناً قد أكثر عليه من الهناء^(٢) »
فجاء إليه بجمل كاه قروح وقطرات ، فأخذ أبو النجم سراويل له فجعل
إحدى رجله فيها واتّزر بالأخرى وركب الجمل ودفع خطامه إلى من
يقوده . فانطلق حتى أتى المربد وقد لحقه ما لا يحصى لما رأوا من الهيئة
الغريبة ، حتى دنا من العجاج في حلقته فقال لقاتد جملة : اخلع خطامه ، فخلعه

(١) أي رمى بها .

(٢) هنا الإبل : طلاها بالهناء وهو القطران يضمونه منها مواضع الجروح .

«أخذ أبو النجم ينشد أرجوزته :

« تذكر القلب وجهلاً ما ذكر ،

والعجاج على ناقته يسمع ، ونفسه تحذثه بشر يصيبه . وجعل جمل أبي
النجم يدنو من ناقة العجاج يتشمسها ، والعجاج يتباعد عنه لئلا يفسد ثيابه
الحزّ ورحله الثمين الثقيل ، بالفطران . وما زال الجمل يتقرب من الناقة
والعجاج يتقهقر حتى وصل أبو النجم في إنشاده إلى قوله :

« شيطانه أنسى وشيطاني ذكر »^(١)

فثارت عاصفة من الضحك والاستحسان من كل صوب وضع بها المربد ،
وتعلّق الناس هذا البيت وهرب العجاج عنه .

١٥ - صحابي بكتاب نبوي

وهذا رجل من ضرب آخر قديم ، أفلت منذ قرن ، ليكون في المربد
كما تكون العاديات في المعارض أو دور الآثار والمصانع :

روى الأصمعي عن يزيد بن عبد الله قال : « بينا نحن بهذا المربد جلوس ،
إذا أتى علينا أعرابي أشعث الرأس فوقف علينا فقلنا : « والله لكأن هذا
الرجل ليس من أهل البلد . » قال الأعرابي : « أجل والله . » وإذا معه
قطعة من جراب أو أديم فقال : « هذا كتاب كتبه لي محمد رسول الله ﷺ .
فأخذناه فقرأناه فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبني زهير (حمي من عكل) :

إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وفارقتم

المشركين وأعطيتهم الخمس من الغنائم وسهم النبي والصفي فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله ، لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم .
فقال القوم وقد تكاثروا حوله : « حدثنا أصلحك الله بما سمعت من رسول الله . » قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صوم شهر الصبر ، وصوم ثلاثة من كل شهر ، يذهب وحر الصدر . »
فقال له القوم : « أنت سمعت هذا من رسول الله ؟ » فأثارة منهم هذا واعرصبه فقال : « أراكم تخافون أن أكذب على رسول الله ﷺ ، لا حدثتكم حديثاً . » ثم أهوى إلى الصحيفة وانصاع^(١) مدبراً .
قال المحدث : فقليل لي لما تولسى : هذا النمر بن تولب العكبي^(٢) الشاعر !

١٦ - صم محي السبابة

أترك معركة الرجز تلك ، وأترك أبا النجم في زهو ظفروه ونشوة

(١) انصاع : انقل راجعاً مسرعاً .

(٢) كان النمر يسمى الكيس لحسن شعره . وهو جاهلي أدرك الإسلام وهو القائل
لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

إنا أتيناك وقد طال السفر نقود خيلاً ضمراً فيها عسر

نطعمها الشحم إذا قل الشجر والحيل في إطامها اللحم ضرر

عاش إلى أن خرف وأهتر وكان هجيراًه أن يقول : « أصبحوا الركب ، أغبقوا الركب » كمادته التي كان عليها . ومن شعره قوله :

لا تقضين - على امرئ - في ماله وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

وإذا تصبكت خصاصة فارح الفنى وإلى الذي يعطي الرغائب فارغب

وقوله :

وأعلم أن مستدركي المنايا فلا أتبعها تبمني

أهتر : خرف . وهجيره : دأبه وعادته . - انظر طبقات الشعراء لابن سلام .

انتصاره وقد سرّه أن يولّي العجاج مدحوراً مقهوراً ، وأن يسري خبر ما صنع واخترع في أسواق البصرة كلها سريان الكهرباء ، وأجوز مشهد النمر بن تولب الأعرابي الغريب الزي ، وأقف بالقارىء على مشهد آخر يبعث العبرة ، ويبيح من النفس مكانن الثورة فيها والمقت للسياسة وما تجرّه من ويلات :

أوقع الخليفة أبو جعفر المنصور بالحراسانية إذ قتل يعسوبها أبا مسلم ، وخلص من صه الذي ناوأه ، وبقي عليه أن يستأصل شأفة العلويين الذين لهم في النفوس المسكنة البعيدة والتجلة والاحترام ، فشدّد عليهم وقيدهم وحبس منهم وقتل .

ونحن الذين رأينا بالمربد ، صورة من كل ما يجري فيه حينئذ من دين وأدب ، ومعرضاً لعادات اجتماعية وأساليب تجارية ، سنرى فيه أيضاً صدى لما يتردد في أمصار الاسلام إذ ذاك من شدّة على العلويين وتضييق وأخذ بالخنق .

في مربد البصرة سليمان بن علي من رؤوس بني العباس الذين أوقعوا بالعلويين ، وحوله جماعة من أشراف الناس . فإنه جالس مجلسه ، وإذ بكبير العلويين إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب : شيخ عليه أمارات الحزن والمهابة والوقار معاً ، وإلى جنبه المفضل الضبي ، ويمشي مع الشيخ صبيان من ولده قد ضمّهم إليه .

لمح إبراهيم مكان سليمان بن علي فوقف على رأسه وأمامه أطفاله ، وقال بصوت متهدّج تحفقه العبرة وأشار إلى سليمان :

« هؤلاء منا ونحن منهم ، إلا أنهم فعلوا بنا وصنعوا . . . » (وذكر كلاماً يعتدّ عليهم فيه بالإساءة) . . . قال هذا فتحرّكت الرحمة في نفوس السامعين جميعاً لما آل إليه أمر بني علي ، وحدثتهم أنفسهم بشيء على بني العباس وقسوتهم ،

على أبناء عمومتهم . ثم توجه الرجل لوجهه وتمثل بهذه الأبيات :

مهلاً بني عمنا ظلامتنا لئلا نلحقكم تحلل السيوف ولا
لئلا نلحقكم تحلل السيوف ولا لئلا نلحقكم تحلل السيوف ولا
إني لأنمي إذا انتميت إلى عز هزير ومعشر صدق
بيض سباط كأن أعينهم تكحل يوم الهياج بالعلق^(١)

فقال له المفضل وهو يتبعه : ما أفعل هذه الأبيات فإني هي ؟ قال :
« لضرار بن الخطاب الفهري قالها يوم الحندق وتمثل بها علي بن أبي طالب يوم
صفين والحسين بن علي يوم قتل ، وزيد بن علي . »
ثم لحق القوم فلم يمس قليل حتى أتاه نعي أخيه محمد قتله رجال أبي جعفر ،
فقتل إبراهيم :

نبئت أن بني ربيعة أجمعوا أمراً خلاهم لتقتل خالدا
لأن يقتلوني لا تصب أرماعهم ثاري ويسمى القوم صعباً جاعداً
أرمني الطريق وإن صددت بضعة وأنزل البطل الكمي الجاعداً

فسأله المفضل لمن هذه الأبيات ؟ فقال : للأحوص بن جعفر بن كلاب
تمثل بها يوم شعب جيلة . ثم لم يلبث أن أقبلت عساكر أبي جعفر
واقترنت مع أصحاب إبراهيم هذا . وقتل من الفريقين من قتل وكاد
يكون الظفر لإبراهيم^(٢) .

(١) سورة الفص : ونوبه وحده . والغمز : العيب . السباط : الحسان اللد
والاستواء . والعلق : الدم .

(٢) الأغاني ج ١٧ صفحة ١٠٩ :

وتتمة رواية المفضل هذه : [فلما رأى البياض يقل والسواد يكثر قال لي : « يا مفضل
حركني بشيء يهون علي بعض ما أرى . » فأشده :

ألا أيها الناهي فزارة بعدما أجبت بسير إنما أنت حالم =

١٧ - هل سلمى

قتل بعض بني تميم مسعود بن عمرو العتكي فنهض أخوه زياد بن عمرو لثأره ،
فمهد الحشود في المربد وجعل في الميسنة بني بكر بن وائل وفي الميسرة بني
عبد القيس وبقي هو في القلب .

بلغ ذلك الأحنف بن قيس سيد بني تميم فقال : « هذا غلام حدث شأنه
الشهرة ، وليس يبالي أين قذف بنفسه » ثم ندب أصحابه فجاءه حارثة بن بدر
العداني وقد اجتمعت بنو تميم فجعلوا سعداً والرباب في القلب ورئيسهم عبس بن
طلق الطعان المعروف بأخي كهس فجعل في القلب بجذاء الازد ، وجعل
حارثة بن بدر في بني حنظلة بجذاء بكر بن وائل ، وجعلت عمرو بن تميم

= أبى كل حر أن يبيت بوتره ويمنع منه النوم إذ أنت قائم
أقول لفتيان المشي تروحوا على الجرد في أفواههم الشكايم
قفوا وقفة : من يحى لم يخز بعدها ومن يخترم لا تتبعه اللوائيم
وهل أنت - إن باعدت نفسك منهم لنسلم - فيا بعد ذلك سالم ؟
فقال لي : « أعد » فتنهت وندمت ، فقلت : « أو غير ذلك ؟ » فقال : « لا ، أعدها »
فأعدتها ، فتطال على سرجه ، وتطى في ركابه حتى خلته قد قطعها ، ثم حمل فطمن رجلا
وطمنه آخر ، فقلت : « أتباشر الحرب بنفسك والعسكر منوط بك ؟ » فقال : « أليك عني
يا أخا بني ضبة ، كأن عويلاً أخا بني فزارة نظر في يومنا هذا حيث يقول :

ألت خناس وإلامها أحاديث نفس وأسقامها
يانية من بني مالك تطاول في المجد اعمامها
وإن لنا اصل جرثومة ترد الحوادث إيامها
يرد الكتيبة مفولة بها أفها وبها ذامها

ثم حمل حملة جاءه فيها معهم عائر ، فشغله عني وكان آخر المهد به . [اه
ويجترم : ميت شاباً . والافن : ضعف العقل . والدام : الدم .

بجذاء عبد القيس ، فذلك حيث يقول حارثة بن بدر للأحنف :

سيكفيك عبس أخو كهسٍ مقارعة الازد بالربد .. الخ

وكان المجتَمعون من تميم وباديتهما وحلفائهما من الاساورة والزط والسبابعة وغيرهم زهاء سبعين ألفاً ، وفي ذلك يقول جرير :

سائل ذوي يمن ورهط محرق والازد إذ ندبوا لنا مسعودا

فأناهم سبعون ألف مدججٍ متسرلين يلامقاً^(١) وحديدا

فلما توافقوا بعث إليهم الاحنف :

« يا معشر الازد وربعة من أهل البصرة ! أنتم والله أحب إلينا من تميم الكوفة وأنتم جيراننا في الدار ويدنا على العدو ، وأنتم بدأتمونا بالامس ورطتم حريمنا وحرقتم علينا فدفعنا عن أنفسنا ، ولا حاجة لنا في الشر ما أصبنا في الخير مسلكتاً ، فتيسروا بنا طريقة قاصدة . »
فوجه إليه زياد بن عمرو :

« تخير نخلة من ثلاث : إن شئت فانزل أنت وقومك على حكمنا ، وإن شئت فغل لنا عن البصرة وارحل أنت وقومك إلى حيث شئتم ، وإلا فدروا قتلتنا واهدروا دماءكم ، وليؤد مسعود أخى دية المشعرة . » أي : عشر ديات ، كما يردى أبناء الملوكة في الجاهلية .

فبعث إليه الاحنف : « سنختار فأنصرفوا في يومكم . »

فهر القوم راياتهم وأنصرفوا . فلما كانت الغد بعث إليهم :

« إنكم خيرتمونا خلافاً ليس فيها خيار : أما النزول على حكمكم فكيف يكون والسكلم يقطر دماً ؟ ! وأما ترك ديارنا فهو أخو القتل ، قال الله عز وجل : « ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أخرجوا من دياركم

ما فعلوه إلا قليلٌ منهم» ، ولكن الثالثة إنما هي حمل على المال فذهن نبطل دماءنا وندي قتلناكم ، وإنما مسعود رجل من المسلمين ، وقد أذهب الله أمر الجاهلية . »

فاجتمع القوم على أن يقفوا أمر مسعود ، ويعمد السيف ، ويودي سائر القتلى من الأزد وربيعة . فتضمن ذلك الأحنف ودفع إلياس بن قتادة المجاشعي رهينة حتى يؤدي هذا المال ، فرضي به القوم .

فخر الفرزدق بهذا وعرض بقوم جرير فقال :

ومنا الذي أعطى يديه رهينة	لغاري معدّ يوم ضرب المجاجم
عشية سال المربدان كلامها	عجاجة موت بالسيوف الصوامم
هنالك لو تبغي كلياً رأيتها	أذل من القردان تحت المناسم ^(١)

(١) الكامل للبرد ٨١/١-٨٣ الفاران : القيلتان العظيمتان ، وأراد بالمربدان المربد وما حوله .

وتمة الخبر طريفة حقاً بما فيها من نبل ومروءة خالصين ، يرونها بطل السلام نفسه الأحنف قال :

« فكثرت علي الديات فلم أجدها في حاضرة نعيم ، فخرجت نحو (يبرين) فسألت عن المقصود هناك فأرشدت إلى قبة ، فإذا شيخ جالس بفنائها مؤترز بشملة محتب بجبل ، فسلط عليه وانتسب له ، فقال : « ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » فقلت : « توفي صلوات الله عليه » قال : « فافعل عمر بن الخطاب الذي كان يحفظ العرب ويعوطها . » فقلت له : « مات رحمه الله تعالى . » قال : « فأبي خير في حاضرتمك بعدهما ؟ »

فذكرت له الديات التي لزمناها للأزد وربيعة فقال لي : « أقم » فإذا راع قد أراح الف بدير ، فقال لي « خذها » ، ثم أراح عليه آخر مثلها فقال : « خذها » فقلت : « لا أحتاج إليها . »

فانصرفت بالألف عنه ووالله ما أدري من هو ؟ إلى الساعة ! !

١٨ - عرضي الأهم

إذا كانت المعارض اليوم تزخر بالناس من مختلف الأمم فإن المربد اقتصر على العرب والفرس فقط . وكانت مضي على هذين الجنسيتين أكثر من قرن وهما يتمازجان دماً وطبائع وعادات ، حتى تعلم كثير من الفرس النازلين في بقاع أغلب أهلها عرب ، اللغة العربية وثقافتها وأحسنوا التكلم بها نظاماً وبنواً . ولم يخل المربد من هذه الطبقة المولدة الجديدة ، فقد كانت تغشاه وتضيف إلى ما به من ألوان ، لوناً حديثاً لا عهد للناس بمثله .

وقد روي أن أديب العرب وفارس : عبد الله بن المقفع ، دعا جماعة بالمربد ناحية وطرح عليهم هذا السؤال : « أي الأمم أعقل ؟ » فكانت الأجوبة مختلفة ، وعرض المجيبون أحوال من يعرفون من الأمم ؛ فلا علينا وقد شهدنا مشاهد النضال في المربد من حروب وهجاء ، أن نشهد مجلساً علمياً هادئاً يضم نخبة من ذوي العقول الراجحة والآراء الحصيفة :

قال شبيب بن شيبه أحد بلغاء العرب وجليس الملوك :

« كنا وقوفاً بالمربد ، وكان المربد مألّف الأشراف ، إذ أقبل ابن المقفع فتبشّبتنا به وبدأناه بالسلام ، فردّ علينا السلام ثم قال : « لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض ، وأرحم دوابكم من جهد الثقل ، فإن الذي تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من شيء تناووه . »

فقبلنا وملنا . ولما استقرّ بنا المكان قال لنا :

« أي الامم أعقل ؟ ! »

فنظر بعضنا إلى بعض ! فقلنا لعله أراد أصله من فارس فقلنا : « فارس » .

فقال : « ليسوا بذلك ، لأنهم ملكوا كثيراً من الأرض ، ووجدوا عظيماً من الملك وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبت فيهم عقد الامر ، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ولا استدعوا باقي حكم في نفوسهم . »

قلنا : « فالروم . »

قال : « أصحاب صنعة . . . »

قلنا : « فالصين . »

قال : « أصحاب طرفة . »

قلنا : « فالهند . »

قال : « أصحاب فلسفة . »

قلنا : « فالسودان . »

قال : « شر خلق الله . »

قلنا : « فالترك . »

قال : « كلاب مختلصة . »

قلنا : « فالخزر . »

قال : « بقر سائمة . »

قلنا : « فقل . »

قال : « العرب . . . فضحكنا . . »

فقال : « أما إني ما أردت موافقتكم ، ولكن إذ فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة . إن العرب حكمت على غير مثال مثلك لها ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم وسكان شعر وأدم . يجود أهدم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ما شاء فيحسن ، ويقبح ما شاء فيقبح . أدبتهم أنفسهم ورفعتهم همهم . وأعلمتهم قلوبهم وألسنتهم . فلم يزل حباء الله فيهم ، وحبائهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم ملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه

وخلافة بهم إلى الحشر ، الخير فيهم ولهم . قال سبحانه :
 « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ
 لِلْمُتَّقِينَ ^(١) . »
 فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خُصم ، ودفع الحق باللسان
 أكبت للجنان . »

١٩ - اهلون مجمل

وإليك بعد أن استمتعت بعلم ابن المقفع وأدبه ، صراعاً مخيلاً إليك إذ
 تقرأ أنه كان في الأولمبياد ، لأحد أبطال يونان ، أو أنه جرى على غرار
 ما يجري في بلاد الإسبانيات ، على يد مصارعى الثيوان ، بطله فارس عربي
 شجاع شاعر شديد البأس والبطش ، على خلاف ما تعهد في الشعراء . هو هلال بن
 الأسمر أحد الجبارين العماقة الضخام ، كآنه من قوم عاد . كان هلال هذا
 أعظم الناس غشاً في حرب ، يرد مع الإبل فيأكل كل ما وجد عند أهله ثم
 يرجع لا يذوق فيما بين ذلك طعاماً ولا شراباً . « عُمِّرَ طويلاً ومات بعد بلالاً
 عظام مرت على رأسه »

« كان يوماً في إبل له وذلك عند الظهيرة في يوم شديد وقع الشمس ،
 محتدم الهاجرة ، وقد عمد إلى عصاه فطرح عليها كساءه ثم أدخل رأسه تحت
 كساءه من الشمس ، فبينما هو كذلك إذ مرَّ به رجلان : أحدهما من بني
 نهمش والثاني من بني فُتَيْمٍ ، كانا أشد تميميين في ذلك الزمان بطشاً ، يقال
 لأحدهما الهيتاج ، وقد أقبل من البحرين ومعهما أنواط ^(٢) من تمر هجر ،
 وكان هلال بناحية الصعاب ، فلما انتهى إلى الإبل ، ولا يعرفان هلالاً بوجهه

(١) سورة الاعراف ١٢٧/٧

(٢) النوط : الحلة الصغيرة فيها تمر واجمع أنواط .

ولا يعرفان أن الإبل له، ناديا : « يا راعي أعندك شراب تسقين؟ » وهما يظنانه عبداً لبعضهم . فناداهما هلال ورأسه تحت كسانه : « عليكما الناقة التي صفتها كذا في موضع كذا فانيخاها فإن عليا وطيبين من ابن ، فاشربا منها ما بدا لكما ، . فقال أحدهما : « ويحك ، انفض يا غلام فأت بذلك اللبن . » فقال لها : « إن تلك لكما حاجة فستأتيانها فتجدان الوطين فتشربان » فقال أحدهما : « إنك يا ابن الاخناء لغلظ الكلام ، قم فاسقنا . » ثم دنا من هلال وهو علي تلك الحال . فقال لها هلال : « أراكما والله ستلقيان هواناً وصغاراً » فسمعا ذلك منه فدنا أحدهما فأهوى له ضرباً بالسوط على عجزه وهو مضطجع ، فتناول هلال يده فاجتذبه إليه ورماه تحت فخذه ثم ضغطه ضغطة ، فنادى صاحبه : ويحك أغثني قد قتلتني . فدنا صاحبه منه ، فتناول هلال أيضاً فاجتذبه فرمى به تحت فخذه الأخرى . ثم أخذ برقابهما فجعل يصكّ برؤوسهما بعضاً ببعض ، لا يستطيعان أن يمتنعا منه . فقال أحدهما : « كن هلالاً ولا نبالي ما صنعت . » فقال لها : « أنا والله هلال ، ولا الله لا تفلتان مني حتى تعطيني عهداً وميثاقاً لا تخيسان به : لتأتيا المربد إذا قدمتا البصرة ثم لتناديان بأعلى أصواتكما بما كان مني ومنكما . » فعاهداه وأعطياه نوطاً من التمر الذي معهما ، وقدا البصرة فأتيا المربد فناديا بما كانت منه ومنهما . وكان إعلان طندان دوى في فضاء المربد .

وهكذا جمع المربد بطولة القوة والصراع والجبروت البدني ، إلى جانب بطولة الشعر والأدب والخطابة ، فكان معرضاً تام الأداة وفي الفروع . وتم لأسواق العرب به خاتمة المزاي والكمال ، وأصبح في وسع من شاء الاستمتاع بأكثر عادات العرب وأخلاقهم ودينهم وسياساتهم وحرهم وأديهم وسباقهم وصراهم ، أن يفوز بأمنيته من أقصر طريق ، إذا استذكر ما كانت عليه أسواقهم في الجاهلية والاسلام .

(١)

استدراك

قرأ فريق من أهل الفضل ، مقدمة الكتاب عقب طبعها ، فأروا من الحق الواجب علينا ، وقد عرضنا لذكر « ممرض دمشق وسوقها » وأثبتنا على ما فيه من كل نفيس معجب ، أن ثبت ما يلي :

أساءت إدارة هذا الممرض إلى الأمة وكرامتها كل الإساءة : في إباحتها القمار والخمر ، وفي غضبها الطرف عن مفاصد كثيرة نشأت عن اختلاط الرجال بالنساء ، وفي إحيائها اللبالي الساهرة تقيم فيهن الحفلات الراقصة ، يتصدرها أشخاص رسميون ، بينما كان العرب في فلسطين يخوضون الدماء ويسلط على رؤوسهم شواظ وقذائف وحرم ، وهم يكافحون ويحالدون ويصابرون ، عدوين الدين ، الانكليز واليهود ، ويتمرضون لنار جيشين قويين . فليتنا إذ لم نعم بحق نجدة اخواننا ، راعينا المروءة والذوق على الأقل ، فنزهنا ممرضنا عن المظاهر المزرية .

ولئن كان الممرض قد مثل الشام بمصنوعاته ونفائسه التي كانت بحق مفخرة من اعظم مفاخر هذه الأمة المحيدة ، إن إدارته لم تكن - فيا أباحت - تمثل البلاد بشيء ، فقد شذت عن كل إدارات الممرض التي سبقتها ، إذ خصصت هذه أياماً للنساء وأياماً للرجال ، ولم تندفع في ميسل التقليد السخيف اندفاع الممرض الاخير ، فكانت بذلك اصدق خبراً عن البلاد التي أقامتها .

ولكل أمة تقاليد كريمة وأخلاق وشعور ، لا تقوم لها قائمة ولا يحترم لها مكانة ، إلا إذا تمسكت بها تمسك الفريق بحبال النجاة ، وأيا امرئ خرج على شيء منها فقد خرج على أمته وبلاده .

نقول هذا ونحن لا ينقضي عجبنا من ان تصدر تلك الكباثر عن ممرض دمشق ، بينما

(١) هذا استدراك صدر في الطبعة الاولى لمناسبة خاصة ، يصف شعور الشاميين إزاء بعض ما كان جرى في ممرضهم العام سنة ١٩٣٦ م أثبتناه هنا للتاريخ فقط .

مديره الذي أطلقت يده في إدارته وموظفيه ، رجل معروف بتانة الخلق وصحة المبدأ ،
والصلابة في تطبيقه .

ولكن يظهر أن الشأن ليس - دائماً - في إحسان اختيار الرأس .

إن الناس كانوا إذا قرؤوا في الصحف اخبار فلسطين وما يدوي في اجوائها من
رصاص وبارود . . . قطع عليهم قراعتهم اصوات الاسهم النارية تطلق في جو المعرض
ابتهاجاً بغير شيء ، فكان الالم يرسم علامته على وجوه اكثر الشاميين . وكان على
الصحف التي تمثل الرأي العام ، وعلى الطبقات المثقفة واهل الحل والعقد ان ينكروا ما يثل
كرامة البلد ويمس مروءته ، لكنه لم يرتفع في استنكار ذلك - مع الاسم - صوت ،
إلا صوت بعض الجمعيات الدينية ، التي استنعت لدمشق بلد الفضيلة ان تؤذى في سمعتها .

هذه كلمة نقولها للحق والتاريخ وقد مضى على انفضاض المعرض ثمانية اشهر . (١)

مصادر الكتاب

١ - مصدر الآيات السكرية

٢ - » الأُمَامَةُ النبوية

٣ - » الأُطُوم

٤ - » الجماعات

٥ - » الأُمَاكِن

٦ - » الأُشْعَار

٧ - » الكُتُب

٨ - » الموضوعات

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

١ - مصدر انويات الكريمة (*)

ص	الآية
٢٨	ثُمَّ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ .. سورة الزخرف ٣٢/٤٣
٢٨	وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا .. » السجدة ١٠/٤١
٢٨	قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا .. » الاعراف ١٨٨/٧
٣٠، ٣٠	وإذا رأوا تجارة أو لهواً .. » الجمعة ١١/٦٢
٣٠	إنما المشركون نجس .. » التوبة ٢٩/٩
٣٣	إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله .. » الفتح ١٠/٤٨
٣٤	.. إذا جاءك المؤمنات يبايعنك .. » الممتحنة ١٢/٦٠
٣٩	.. يرجون تجارة لن تبور .. » فاطر ٢٩/٣٥
٣٩	أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى .. » البقرة ١٦/٢
٣٩	» » » الحياة الدنيا بالآخرة .. » » ٨٦/٢
٣٩	بشما اشتروا به أنفسهم .. » » ٩٠/٢
٣٩	ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله .. » » ٣١٧/٢
٣٩	إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم .. » التوبة ١٢٢/٩
٤٠	رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع .. » النور ٣٧/٢٤
٤٠	.. هل أدلكم على تجارة تنجيكم .. » الصف ١٠/٦١
٤٢	.. إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه .. » البقرة ٢٨٢/٢
٤٣	غلبت الروم في أدنى الأرض .. » الروم ٢/٣٠
٥٩	.. ولا تكبروا فتياكم على البقاء .. » النور ٣٣/٢٤
٦١، ٦٣، ٦٧	.. اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا .. » البقرة ٢٧٨/٢
٦٤	فبظلم من الذين هادوا .. » النساء ١٥٨/٤
٦٥	الذين يأكلون الربا .. » البقرة ٢٧٥/٢

(*) على ترتيب ورودها في الكتاب ، رقم السورة لإزاما وبعد الخط المائل رقم الآية فيها .

ص	الآية
٦٧	.. لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة .. سورة آل عمران ١٣٠/٣
٧٢	يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه .. » البقرة ٢١٧/٢
٧٨	ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس .. » » ١٩٩/٢
٧٨	.. وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها .. » » ١٨٩/٢
١٤٠	.. ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله .. » الانفال ٣٦/٨
١٤٣	ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً .. » النور ٢٨/٢٤
١٤٧	لإيلاف قريش إيلافهم .. » قريش ١/١٠٦
١٤٩	.. أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع .. » إبراهيم ٣٧/١٤
١٥١	.. تخافون أن يتخطفكم الناس .. » الانفال ٢٦/٨
١٥١	وإذا جعلنا البيت مثابة للناس .. » البقرة ١٢٥/٢
١٥١	.. ومن دخله كان آمناً .. » آل عمران ٩٧/٣
١٥١، ٢٠٢	.. جعلنا حرمًا آمناً ويتخطف .. » العنكبوت ٦٧/٢٩
٢٠١	.. ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » الفرقان ٧/٢٥
٢٠١	ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق .. » » ٢٠/٢٥
٢٠٢	.. أولم نمكن لهم حرمًا آمناً .. » القصص ٥٧/٢٨
٢٠٤	ليس عليكم جناح أن تبتغوا .. » البقرة ١٩٨/٢
٢٥٤	.. وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .. » الحج ٢٧/٢٢
٢٧٥	.. وإن منكم إلا واردها .. » مريم ٧١/١٩
٣٥٥	.. لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون » يوسف ٨٧/١٢
٤١٥	ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب .. » آل عمران ٢٣/٣
٤٢٠	.. وجفان كالجواب وقدور راسيات » صبا ١٣/٢٤
٤٢١	.. غرف من فوقها غرف .. » الزمر ٢٠/٣٩
٤٢١	.. وهم في الغرفات آمنون » صبا ٣٧/٣٩
٤٢١	.. ونخل طلعها هضم .. » الشعراء ١٤٨/٢٦
٤٤٧	ولو أنا كتبنا عليهم .. » النساء ٦٥/٤
٤٥١	إن الأرض لله يورثها من يشاء » الأعراف ١٢٧/٧

٢ - مسرد الأحاديث النبوية(*)

ص	الحديث
٢٩	يا معشر التجار إن هذا البيع يحضره الحلف ..
٥٨، ٥٢، ٤٩	نهي رسول الله عن بيع كانت في الجاهلية ..
٥٣	لا تصروا الإبل والغنم ..
٥٧	لا تَلَقُوا الركبان ، ولا يبع بعضكم ..
٥٧	من اشتري طعاماً فلا يبعه حتى ..
٥٧	البيعات بالخيار ..
٦١	مصلحة رسول الله قبيحة ثقيف على إبطال الربا
٦٢	ومن أكل منهم ربا ..
٦٧	إن رضوا وإلا فآذنتهم بحرب ..
٦٩	ألا وإن كل ربا الجاهلية موضوع كذبه ..
٧١	ما أدرتكم بقتال في الشهر الحرام ..
٧٧	لاني رجل أحسي ..
٨٠	لا ضرورة في الإسلام ..
١٤١	أولم ولو بشاة ..
١٦٤	كنت أنبل على أمامي يوم الفجار ..
١٨٤	لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان ..

ص	الحديث
٢٠٤	لك حج ..
٢٣٣	خذه يا بن عرف ... فتزوج بنت ملكهم
٢٣٤	كتاب النبي لا كيدر وأهل دومة الجندل
٢٥٣	إني لأعلم أرضاً من أرض العرب ..
٢٥٨	ما رأيت من صاحبة أجير خيراً من خديجة ..
٣١٤	كأني أنظر إليه (إلى قس بن ساعدة) بسوق عكاظ
٣٢٦	يا أيها الناس قولوا : (لا إله إلا الله) تفلحوا .
٣٢٦	لا أكره منكم أحداً على شيء ..
٣٢٨	إني رسول الله فإن أتيتكم تمنعوني؟ .. هم أول من كذبني وطردي
٣٢٩	اللهم بارك على هؤلاء ..
٣٣٣	يا من حضر اشهدوا أن زيدا ابني ..
٤٤٢	كتاب النبي ﷺ لبني زهير (حي من عكل)
٤٤٣	صوم شهر الصبر وصوم ثلاثة من كل شهر بذهبن وحر الصدر

٣ - مصدر الـعـلـم^(*)

الأحنف بن قيس ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٤٦-	آدم (عليه السلام) ١٥٠
٤٤٨	إبراهيم ١٤٩، ٧٦، ٧٥
الأحوص بن جعفر بن كلاب ٤٤٥	» بن طلحة ١٢٢
أحيحة بن الجلاح ١٠٥، ٦٢	» » عبد الله بن حسن ٤٤٤-٤٤٦
الاخطل ٣٨٦	» » عدي ٣٦١
الاخفش ٤٠٧	» الموصلي ٣٨١
الازرق (صاحب أخبار مكة) ٧٩،	أبرهة ١٠٧ - ١٠٩، ١٦٠
٣٤٦، ٣٤٤، ٢٩١، ٢٥٩، ٢٠٤، ١٢٤	إبليس ٤٢٧، ٤٢٨
الازهري ٢٧١	ابن إبليس ٤٢٨
أبو الازهر الدوسي ٣٤٩	آيين ٢٦٨
إساف (ضم) ٨٥	أبي ^(*) (القاري، الصحابي) ١٥٢، ٢٠٤
» بن يعلى ٨٥	» بن خلف الجمحي ١٨٥، ١٨٦
ابن إسحاق (صاحب السيرة) ١٦٤	٣٤٩، ٣٤٨
أسد بن جابر ٢٥٩	ابن الأثير (صاحب النهاية) ٥٢، ٥٤
» » هاشم بن عبد مناف ١٥٠	أحمد = رسول الله
إسرائيل ولفنسون ١٨	» أمين ٣٤٣
إسرائيلين = إسرائيل ٣٨٧	» بن موسى ٢٧٢

(*) ١- أسقط في بحثك عن الاعلام الكلمات الآتية مراعيًا الترتيب الابداعي فيما بعدها:
ال ، ابن ، ابن ابي ، ابو ، ام ، بنو ، آل
٢- لاحتذف الألفات ولا الواوات من مثل الكلمات الآتية : إبراهيم ، إسحاق ،
إسماعيل ، الحارث ، هارون ، داود . .
٣- اذا اشتهر العلم باسم آخر وجدته بعد إشارة = التي تعني (هو) فابحث عن الاسم
الذي بعد الإشارة لانه الأشهر غالباً .

الاقيشر (الشاعر) ٣٨٧، ٣٨٦
 اكيدر بن عبد الملك (صاحب دومة)
 ١١٤، ١٩٥، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٢-٢٢٢
 ٢٣٢-٢٣٨، ٢٧٠
 الالوسي (صاحب بلوغ الارب)
 ٢١، ٤٦، ٥٠، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٣٧
 ٢٥٦، ٢٨٥، ٣٤٢، ٣٤٣
 أبو أمامة التيمي ٢٠٤
 امرؤ القيس ٢٤١، ٢٩٣، ٣٢٥، ٣٧٢
 أمية بن أسكر الكتاني ١٧٥، ٢٩٣
 ٢٩٤
 » الاصغر (ابن عبد شمس) ٣٣١
 » بن خلف ١٣٢، ٣٣٩، ٣٤٠
 » » عبد شمس ١٠٢، ٢٨٤
 أبو أمية بن المغيرة ١٢٥
 ابن الانباري ١٩٧
 أنيس (سائس فيل أبرهة) ١٠٨
 أوس بن مغراء ٤٣٣، ٤٣٤
 إلياس بن قبيصة الطائي ٣٨٣، ٣٨٤
 أيوب (عليه السلام) ٣٦٢
 باذان ٢٤٢، ٢٤٣
 بشيمة ٢٤٦
 بجرة بن قيس القشيري ٣٢٨، ٣٢٩

إسطرابون ١٧
 أسعد أبو كرب ٤١
 الإسكندر ١٦ ٣٩٥
 الاسكندري (الشيخ أحمد) ٣٤٢
 أسلم (مولى عمر بن الخطاب) ٣٥٢
 أسماء المربية ٣٩٥
 إسماعيل (عليه السلام) ٧٤، ٢٣٩
 » بن علي بن العباس ١٢٢
 الاشر ٣٢
 الاشعث بن قيس ١٩٩، ٢٧٥
 الأصمغ بن عمرو السكبي ٢٣٤
 الإصطخري (صاحب مسالك الممالك)
 ٢٥٢، ٢٦١، ٢٦٦، ٣٩٨
 الأصفهاني = أبو الفرج الأصفهاني
 الأصمعي ٢٦، ٢٤٨، ٣٢١، ٤١١
 ابن الأعرابي ٥٢
 الأعشى ٢٦، ١٩٨، ٢٤١، ٣١٥-
 - ٣١٩، ٣٧٤، ٣٧٩
 أعشى همدان ٣٨٩
 الأعظمي (صاحب تاريخ ملوك الحيرة)
 ٤٤، ٣٨٠
 الأقرع بن حابس ٢٠٥، ٢٨٠، ٢٩١

أبو بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن

هشام ١٧٧

أبو بكر بن العربي ١٤٢

» » » نصر ١٧٤

» » » الحمداني = الحمداني

البكري (صاحب معجم ما استعجم)

٢٨٧

البلاذري (صاحب فتوح البلدان)

٦٢، ٦١

بلال بن أبي بردة ٣٩٨

بلال (الحبشي العجاني) ٣٤٤

بليق (ملكة سبأ) ١٨

ابن بليد ٢٨٨

بندلي جوزي ٣٨

بورتر ٤٦٥

بويج ٥٤

ابن بيدرة = عبد الله بن بيدرة

ابن بيض ١٠١

تبّع ٣٧٧

تأخر بنت الأصبع ٢٣٤

أبو تمام ١٢٠

تيم بن مر ٧٨

التوحيدي ٢١٠، ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٢٦

بجوري الراهب ٣٦٧

البخاري (صاحب الصحيح) ١٣١، ٥٣

٢٠٤، ٢٠١، ٢٠٠

بختنصر ٣٧٧، ٣٧٦، ٤١

بدر بن معشر الغفاري ٣١١، ٣٠٠

أبو براء (عامر بن مالك) ١٧٠، ١٦٩

البراص بن قيس الضمري ١٦٦-١٧٠

١٨٩

برة بنت ع ٩٤

بسر بن أرطاة ٤٣٣، ٤٣٢

بسطام بن قيس ٣٣٧

بشار بن برد ٤٢٢، ٤٣٩، ٤٤٠

بشر (أخو أكيدر) ١١٤

أبو بصير = الأعشى

ابن بطرطة ٤٠١

البغدادى (صاحب خزانة الادب)

٢٢٧، ٢٢٤، ٢١٠

بكر (ابن أبي الوراء) ٣٦٣

بكر بن خازجة ٣٨١

أبو بكر (صاحب المتناهي في اللغة)

٣٨٧

أبو بكر الصديق ٢٦، ٣١، ٧٢

١١٠، ١١٦، ١٣١، ١٣٢، ١٤١

١٤٣، ٢٣٦، ٢٦٤، ٢٦٨

٣٩٥

جندل (ابن راعي الابل) ٤٣٦ -

٤٣٨

أبو جندل = راعي الابل

ابن جني ٣٤٤

أبو جهضم = عباد بن حصين الجبتي

ابن الجوزي ٢٨١

أبو حاتم ٢٤٨

حاتم بن عبد الله الطائي ٣٨٣-٣٨٥

حاجب بن زرارة ٢٠٥

الحارث بن أمية ٧٩

» » حازة ٣٤٨، ٩٥

» » حنش السامي ١٥٠

» » ظالم ٣٠٤

» » عامر ١١٠

» » عبيد الله الخزومي

(القباع) ٤٢٦، ٤٢٧

» » عمير ٣٦٨

» » قيس ١١١

» » كلدة الثقفي ١٧٨

» المري ٣٠٧

حارثة بن بدر ٤٤٦، ٤٤٧

» » شراحيل ٣٢٢، ٣٢٣

حاطب بن أبي بلتعة ٣٦

التمالي (صاحب ثمار القلوب) ٢٦،

١٤٦، ١٤٨، ٢٦٧، ٣٢٣

جابر (الصحابي) ٥٧

الجاحظ ١٤٤، ٩٥، ٨٣، ١٦٣،

١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ٢٨٠، ٣١٥

٤٠٢-٤٠٦، ٤٢٠، ٤٢٣

جارية بن سليط ٣٢٣

جبله بن حارثة ٣٣٢

ابن جدعان = عبد الله بن جدعان

جندل الطعان ١٥٧

جرير بن الخطفي ٣٥٩، ٣٦١-٣٦١

٤١١، ٤١٢، ٤١٩، ٤٢١، ٤٢٢،

٤٢٦-٤٣٢، ٤٣٥-٤٣٨، ٤٤٧

٤٤٨

جرير بن عبد الله البجلي ٣٤٤

جعفر بن سليمان الهاشمي ٤٠١، ٤٠٩

أبو جعفر المنصور ٤٤٤، ٤٤٥

الجلندي بن المستكبر ٢١٧، ٢١٨

٢٢١، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٧٠

الجل (جل عائشة) ٤١٣، ٤١٧،

٤٢٤

جميل بن معمر (الشاعر) ٢٤٦، ٣١٩

الحصين بن الحام المري ٣٧١، ٣٠٧
 ابن الحضرمي = العلاء بن الحضرمي
 الحكيم بن أبي العاص ٣٨٣، ٣٧٤
 حكيم بن جبلة ٤١٦
 د د حزام ١٤٥، ١٤٦
 ٢٧٩، ٣٣١
 ابن حنزة = الحارث بن حنزة
 حمام (مولى باهلة) ٤٢٨
 حمد الجاسر ٢٨٧
 حنين الحيري ٣٨٩
 حوثر = ربيعة بن عمرو
 ابن حوقل ١٣١
 أبو حية النعميري ٣٨١
 الحازن (المفسر) ٢٠٤، ١٦٦، ٢٨
 خالد ؟ ٤٤٥
 د ابن أرطاة السكلي ٦٦، ٢٨
 د د جعفر بن كلاب ٣٠١
 ٣٠٣، ٣٠٤
 د د صفوان ٤٠٥، ٤٠٦
 د د الوليد ٦٣، ٦٦، ٦٧
 ٢٣٦-٢٣٤، ١١٠
 خدش بن زهير ١٧١، ١٧٢، ١٧٤
 ٣٤٩، ١٨٠
 خديجة بنت خويلد ١٣٢، ١٣٣
 ٢٥٨، ٣٣١

ابن حبيب = محمد بن حبيب
 الحجاج بن يوسف الثقفي ٣٩٧، ٣٥٩
 ٤١٨، ٤١٠، ٤٠٠
 ابن حجر (المحدث) ٦٨
 ابن أبي الحديد ٣٣، ١٠٣، ١٠٤
 ١٥٣
 حذافة بن غانم العدوي ٩٤
 حذيفة بن بدر الفزاري ٣٤٩
 حرام بن جابر ٢٥٩
 حرب بن أبية ١٦٧، ١٦٩، ٧٠
 ١٧٢، ١٧٥، ١٧٨، ٢٨١، ٢٨٤
 ٣١٢
 ابن حرب = أبو سفيان بن حرب
 أبو حرب بن أمية ٢٨٤
 ابن حزم (الأندلسي) ٤٠٠
 حسنة بن ثابت ١٧٧، ٣١٥، ٣١٦
 ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٥٠، ٣٧٤
 حسان بن جبلة الخير ٣٨٤
 أبو الحسن البكري ٢٧٥
 حسن حبشي = محمد حسن حبشي
 د حسني عبد الوهاب ٤٠١
 الحسن بن عادية ٢٥٣
 الحسين بن علي بن أبي طالب ١٨٧
 ١٨٨، ٤٤٥

الذهبي (المؤرخ) ١٤١
ذو الرمة ٤٣٥، ٤٣٤، ٤١٩، ٣٥٩
ذو وزن ٢٧٩

راعي الأبل ٤٣٥، ٤٢١، ٤١٩ -
٤٣٨
رؤبة بن العجاج ٤١٩، ٤١١
٤٤٢-٤٤٠

أبو رافع الخيري ٣٥٧، ٢٣
رباح بن عمرو بن ربيعة ٣٠٦
ربيب (اسم جمل) ٢٥٠
الربيع بن زياد ٤٠٠
أبو ربيعة ٣٠٦
ربيعة بن حذار ٢٩٦، ٢٠٥
ربيعة بن عمرو (حوثة) ٣٣١
» » مخاشن ٢٠٥
أبو ربيعة بن المغيرة ١٢٤، ١٧٦
٢٨٣، ١٧٧

ابن رسته ٢٨٧، ٢٨٦
رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٦
٥٣-٥١، ٤٩، ٣٣، ٣٢، ٣٠، ٢٩
١٠٧، ٩٨، ٨٠، ٧٧، ٧٢-٥٧
١٢٨، ١٢٣، ١١٥، ١١٣، ١١٠
١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٧-١٣٩

خرقاء (صاحبة ذي الرمة) ٤٣٤
٤٣٥

ابن الحس النغلي ٣٠٤
أبنة الحس ٣٢٩
خلف الأحمر ٢٤٨
الخليل بن أحمد ٤٠٤، ٤٠٦
خناس ؟ ٤٤٨
الحنساء ٢٩٩-٢٩٧، ٢٩٥، ٢٩٣
٣١٩، ٣١٦، ٣١٥

خولة بنت ثعلبة ٢٨٤
خير بن عباد ٢٤٤
خير الدين الزركلي ٢٨٦

ابن دارة ٣٢٣
داوود (النبي) ٣٧١
د بن عيسى ٢٥٩
دحية بن خليفة الكافي ٢٩
دختنوس ٤٤
ابن دريد ٤٠٧، ٥٤
دريد بن الصة ٣١١، ٢٤٥

دوسو ٣٦٢
ابن الديان ٢٩٣

أبو ذؤيب الهذلي ٢٤١، ٣٣٩
٣٧٠، ٣٤٧، ٣٤٥

ذكوان (مولى عبد الدار) ٩٦

ابن الزبير = عبد الله بن الزبير
زرعة بن عمرو بن خويلد ٢٩٦
زرقاء البامة ٣٥٨
الزرقاني (شارح المواهب) ٢٢
٢٣٥ ، ١٣٩ ، ١٣٣ ، ٨٦ ، ٢٣
٣٤٩

زكي حسن ٣٨٠
الزخشري ١٥٢ ، ٩٢ ، ٢٩
زمنة بن الأسود ١٢٥
زهير بن جذيمة العبسي ٣٠٤-٣٠١
» » ربيعة (أبو خراش) ١٧٩
» » أي سلمى ٢٨٣
زياد (ابن أبيه) ١١٦ ، ٣٩٧
٤٢٧-٤٢٥ ، ٤٠٠

ابن زياد = عبيد الله بن زياد
زياد بن عمرو العتكي ٤٤٨-٤٤٦
زيد بن حارثة ٣٣٣-٣٣١
أم زيد بن حارثة ٣٣١
زيد بن صوحان ١٤٣
زيد بن علي ٤٤٥
زيدان (جرجي) ١٦٧

الساسى (طابع الأغاني) ٢٠٦
أم مالم = خرقاء

١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٥٩ ، ١٤٥ ، ١٤٣
١٨٧-١٨٤ ، ١٨١ ، ١٧٧ ، ١٧٣
-٢٣٣ ، ٢٠٤-٢٠١ ، ١٩٨ ، ١٩٤
٢٦٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥١ ، ٢٣٥
٣١٥ ، ٣١٤ ، ٢٧٩ ، ٢٧٥
٣٤٩ ، ٣٤٨ ، ٣٤٢ ، ٣٣٣-٣٢٥
٣٦٨ ، ٣٦٧ ، ٣٥٩ ، ٣٥٧-٣٥٢
٤٤٢ ، ٤٣٢ ، ٤١٣ ، ٣٧٨
٤٤٨ ، ٤٤٣

رشدي = محمد رشدي
الرشيد ٣٨٢ ، ٣٢١ ، ٢٥٦
رفاعة (صحابي) ٧٧
رملة بنت طلحة ١٢٢
رياح بن الأصل الغنوي ٣٠٢
ريطة ١٧٦
رينولد نيكلسون ١٠٧

ابن الزبيري = عبد الله بن الزبيري
أبو زيد الطائي ٢٠٦
الزبيدي ؟ (جاهلي) ١٨٥ ، ١٨٤
الزبيدي (شارح القاموس) ٩٣
٣٤٧

الزبير بن عبد المطلب ٨٣
الزبير بن العوام ١٧٣ ، ١٤٢
٤١٤ ، ٤١٣ ، ١٨٤

١٣٩٠ ١٣٥٠ ١٣٢٠ ١٢٨٠ ١١٩٠

٣٥٠٠ ٢١٣٠ ١٩٨٠ ١٧٥٠ ١٧٠٠

٤٠٠

سفيان بن مجاشع ٢٩١

ابن سلام ١٢٥٠ ١٧٣٠ ٤٤٣٠

سلامة ذوقاش ٢٦

سلكان بن سلامة ٦٣٠ ٦٤٠

سلمى بنت عمرو بن زيد ١٠٥

د بن نوفل ٢٠٥

سليمان (ابن داود النبي) ١٨

٢٤٠

د بن علي ٤٤٤

سليمي ٢٥٢

سمير بن سلامة القشيري ٣٠٧٠ ٣٠٦

سنان المري ٣٠٧

السندوبي ٨٣٠ ١٥٠٠ ١٦٣٠ ١٨٣٠

١٨٦٠ ٢٨٠٠ ٣٥٠٠ ٤٢٠٠

السهيلي ٩٣

سواد بن قارب ٣٧٩

سويد بن عدي ١٩٩

د د قيس (صحابي) ٢٥١

ابن سيده ١٩٣

سيف الدولة ١٢٧

د بن ذي بن ١٠٨

سالم الكرنكوي ٣٠٠ ٥٤٠ ٢١١٠

٢٧٣

سبرنجبر ١٣٩

ستافسكي ١١٧

سجاح (المتنبة) ٣٥٨

سدوم ٣٢٣

ابن سعد (وانظر : طبقات ابن

سعد) ٢٢٠ ٢٦٠ ١٠١٠ ١٠٢٠

١٠٤٠ ١٣٤٠ ١٤١٠ ١٤٨٠

١٥٤٠ ١٥٨٠ ١٦٤٠ ١٨٤٠ ٢١٠٠

٣٦٩٠ ٢٨٠٠

سعد بن حارثة بن لام ٣٨٥٠ ٣٨٣٠

د د الربيع الأنصاري ١٤٠

د د زيد مناة ٣٩١٠ ٣٣٤٠

٣٣٥

د د عبادة ٧٩

د د أبي وقاص ١٢٦٠ ١٢٧٠

١٤٢

أبو سعيد الحذري ٢٠١

سعيد بن سعد بن سهم ١٧٦

أبو سفانة = حاتم بن عبد الله

سفيان بن أمية ٢٨٤

أبو سفيان بن أمية ١٧٥٠ ١٧٨٠

٢٨٤

د د د حرب ١١٠٠ ١١٦٠

الصبياء بنت حرب ١١٤

ضباعة بنت عامر بن قرط ٢٢٩

الضحاك بن قيس الفهري ٩٦

ضرار بن الخطاب الفهري ٤٤٥

ضمرة بن ضمرة ٢٥٥

ضمضم بن عمرو الغفاري ١٣٥

أبو طالب بن عبد المطلب ١٣١-١٣٣

٢٥٥

الطبراني (صاحب المعجم في

الحديث) ٢٥٤

الطبري (المؤرخ المفسر) ٦٥، ٦٦

١٢٦، ١٢٧، ١٤٣، ٢١٥، ٢١٥

٢٣١، ٢٣٢، ٢٦٣، ٣٧٥، ٢٧٦

٣٧٩، ٤١٢، ٤١٤، ٤١٩

طنيم الأسدي ٣٨٦

طريف بن تميم المنبري ٥٤، ٣٥٥

٣٠٦

طلحة (الصحابي الجليل) ٢٦، ١٣٢

٣٦٧، ٤١٣، ٤١٤

ابن طلحة (محمد) ٤١٣

طلحة بن عمر بن عبد الله ١٢٢

ظافر القاسمي ١٤٧

السيوطي ٢٨، ١١٤، ٢٠٠

شاس بن زهير العبسي ٣٠٢

شبيب بن البرصاء ٣٣٥

» » شيبه ٢١٥، ٤٤٩

الشيخ ٣٢٤

الشفري ٢٥٩

شيبه بن ربيعة ٢٠٠، ٢٩٧، ٢٩

» » هاشم = عبد المطلب

شيخ مود ٣٦، ٣٢٢، ٣٢٣

الشيخم بن الحارث الغساني ٣٧٩

صاحب الرسالة = رسول الله

ابن صخر ١٧٨

صاعد (صاحب طبقات الأمم) ١٦

١١٥

صخر بن عمرو بن الشريد ٢٩٥

٢٩٧-٢٩٩، ٣١٥، ٣١٩

الصدّيق = أبو بكر الصديق

صعصعة بن سعد ٣٣٥

» » صوحان ٤٠

صفوان بن أمية ١١١، ١٣٧

١٩٩، ٢٠٥

صلصل بن أوس ٨١

الصمة بن عبد الله الفشيري ٣٦٩

عائشة (أم المؤمنين) ١٧٧، ٥٨
 ٤١٣-٤١٧، ٤٢١
 عائكة بنت عبد المطلب ١٨٠
 العاص بن وائل السهمي ١٨٣
 ٢٧٨، ٢٠٥
 عاصم بن مخر ٣٥٢
 عامر بن جوين ٣٨٥، ٣٨٣، ٣٢٥
 » » الطفيل ٣٢٤، ٢٩٤، ٢٩٣
 ٣٣٧
 » » الظرب ٢٠٥، ٢٠٠، ١٩٩
 ٢٩١
 » » مالك = أبو براء
 عباد بن حصين الحبطي ٤٣٠
 أبو العباس = المبرد
 ابن عباس ١٠٧، ٩٤، ٩٢، ٥٧
 ٢٠٤، ١٦٠، ١٥٤، ١٤١
 العباس بن عبد المطلب ٦٣، ٦٢
 ١١٠، ١٠٩، ١٠٧، ٦٩، ٦٧، ٦٦
 ١٤٠، ١٣١، ١٢٩، ١١٣
 العباس بن محمد ٢٥٦
 » » معبد المري ٣٨٦
 عبد أمية ٣٣١
 عبد الدار ٩٩
 ابن عبد ربه ٢١٠، ١١١، ١١٠
 ٤٠٠، ٢٧٨

عبد الرحمن بن الأشعث ٤١٨
 » » العامري ٤٢٨
 » » بن عباس ١٠٧
 » » عثمان التميمي ١٨٧
 » » عوف ١٤٠، ١٣٢-
 ٢٣٤، ٢٣٣، ٢٠٠، ١٤٢-
 » » بن ملجم ٢٩٢
 عبد شمس ١٥٧، ١٥٦، ١٥٣، ١٠٠
 ٣٤٣، ١٦١
 عبد العزيز الكلاني ٣٥٩
 عبد القاهر (الكرزي) ٤٠٠
 عبد الله بن أبي بن سلول ٥٩
 » » » بيدرة ٣٢٢
 » » » جعش ١٣٥، ٧٢، ٧١
 » » » جدعان ١٣١، ١٣٠، ٢٥
 ١٧٢، ١٧٠، ١٦٩، ١٦٢، ١٣٨
 ٢٩٠، ٢٧٨، ٢٠٠، ١٨٣
 عبد الله بن جعدة ٣٠٧، ٣٠٦
 » » » الزبيري ١٧٦، ١٠١
 ١٧٩، ١٧٧
 » » » عباس = ابن عباس
 » » » ممر ٢٠٤، ١٨٨، ٥٧
 ٣٥٢، ٢٥٣
 » » » المقفع = ابن المقفع

عبد الله بن قيس = أبو موسى الأشعري
عبد المدان بن الديان ١٣٠
عبد المطلب بن هاشم ١٠٥-١٠٩
٢٠٠، ٢٠٥
عبد الملك بن مروان ٩٣، ١٨٢
١٨٩، ١٩٠، ٢٤٦، ٢٤٧، ٣٨٧
٤٠٥
عبد مناف بن قصي ٩٩، ١٥٦
أبو عبد مناف = الفاكه بن المغيرة
العبيدي ٢٥٢
عيسى بن طلق (أخو كهس) ٤٤٦
٤٤٧
عيلة بنت عبيد ٣٣٠
عبيد (أبو أبي وجزة) ٣٥١، ٣٥٢
أبو عبيد ٢٤٦
عبيد بن حصين = راعي الإبل
عبيد بن شربة ٤١
عبيد الله بن زياد ٣٩٧، ٤١٠
عبيد الله بن عباس ١٠٧
عبيد المنان (ابن المتلس) ٣٦٩
أبو عبيدة بن الجراح ٣٦٩، ٣٧٣
عقاب بن أسيد ٦١، ٦٧

ابن عتبة = الوليد بن عتبة
أبو عتبة = أبو لهب
عتبة بن ربيعة ٢٨٠، ٢٩٧-٢٩٩
» » غزوان ٣٩٨
العتبي ١٤٤
عتيبة بن الحارث ٣٣٦
عثمان بن حنيف ٤١٤-٤١٦
» » طلحة ١١٠
» » عبد الله ٧٢، ٧٣
» » عفان ٣١، ٦٣، ٦٦، ٦٧
١١٦، ١٣٢، ١٤١، ٢٠٠
٤١٣-٤٢١، ٤٢١
عثمان بن مظعون ٢٠٠
العجاج ٤١١، ٤١٩، ٤٣٣، ٣٣٤
٤٤٠-٤٤٢، ٤٤٤
عدن بن نقشان بن سبأ ٢٥٢
عدي (جد قيس بن الحطيم) ٣٤٩
عدي بن زيد ٣٨٩
عروة بن حزام ٣٥٨
عروة الرحال ١٦٦-١٧٠
» بن مسعود الثقفي ١٥٩
» » الورد ٣٦

» د جأ ٤٣١، ٤٣٢
 همران (ابن أبي الورد) ٣٦٣
 » د بن حطان ٣٥٩
 عمرو = هائم
 » د بن أحيحة ١٠٥
 » د أمية بن عبد شمس ٢٨٤
 أبو عمرو بن أمية بن عبد شمس
 ٢٨٤
 عمرو بن الأهتم ٢٧٨
 » د بن قميم ٤٤٦
 » د الثاني ٦١
 » د الحضرمي ٧١-٧٣
 » د الشريد ٢٩٧-٢٩٩
 ٣٢١-٣١٩
 » د العاص ١١٦، ٩٢، ١٢٧
 ١٣٤، ٢٣٦، ٢٧٨
 أم عمرو بن العاص ٢٧٨
 عمرو بن عتبة ١٤٤
 أبو عمرو بن العلاء ٢٤٨، ٢٤٩
 ٢٥٥، ٤١١، ٤٢٠، ٤٢٣، ٤٢٤
 عمرو بن كلثوم ٢٨٢، ٣٤٠، ٣٤٣
 » د لحي ١١٥
 » د مالك ٢٤٩، ٢٥٠
 » د معد يكرب ٣٠٨، ٣٧٦

ابن عساكر ٢٦، ١٤٦، ٢٧٩، ٣٥٢
 ٣٦٧، ٣٦١، ٣٥٣
 عطية (أبو جرير الشاعر) ٤٣٠
 عفيف بن معد يكرب ١٩٩، ٢٠٠
 عقبه بن أبي معيط ١٣٢
 عقيل بن أبي طالب ١١٤
 عكرمة ١٦١
 العلاء بن حارثة ٢٠٥
 » د الحضرمي ١٣٥، ١٣٦
 علقة الفعل ١١٦
 علي بن أبي طالب ٣١، ٣٢، ٢٩٢
 ٤١٤، ٤٢١، ٤٣٢، ٤٤٥
 علي بن شفيع ٣٥٩
 أبو علي القالي = القالي
 همارة بن الوليد ١٣٤
 همان بن نقثان بن سبأ ٢٥٢
 ابن عمر = عبد الله بن عمر
 همر بن الخطاب ٣١، ٦٢، ١٠٧
 ١١١، ١١٤، ١١٦، ١٣١، ١٤٦
 ١٥٢، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٤٥، ٢٨٠
 ٢٨٤، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٧٣
 ٣٩٥-٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٧، ٤٤٨
 همر بن أبي ربيعة ١٧٧
 » د شبة ٤٠٠

الفردق ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٨٦
٤٠١ ، ٤١١ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢١
٤٢٢ ، ٤٢٤ - ٤٣٢ ، ٤٣٥ - ٤٣٩
٤٤٨

فريتز كرنكو = سالم الكرنكوي

الفرد ٣٣٤ ، ٣٣٥

الفضل بن عباس ١٠٧

فليبي (المستر) ٢٨٧

فهر بن مالك ٩٣ ، ٩٤

الفيروزبادي ٢٠٥

فيصل بن عبد العزيز ٢٨٨

فيليبس (الإمبراطور الروماني)

٣٦٥ ، ٣٦٤

الغالي ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٨٥ ، ١٠٧

١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٩٦ ، ١٩٩

٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٣٨٧ ، ٤١١

٤٢٢

القباع = الحارث بن عبد الله

قتول الجمحية ١٨٦

ابن قتيبة ١٣٢ ، ١٧٢ ، ٣٣٨

قثم بن العباس ١٠٧

قرة بن هيرة القشيري ٢٨٢

قريش بن يخلد ٩٢

العناني (الشيخ مصطفى) ٣٤٢

عنبرة ١٩٧

العوام بن خويلد ١٧٣ ، ١٧٤

ابن عرف (المري) ٣٠٧

عوف الأصم ٣٢٤

عوييف (الفزاري) ٤٤٦

عيسى البابي الحلبي ١١٤

د بن عمر الثقفي ٢٤٨ ، ٢٤٩

غالب (أبو الفردق) ٤٢٤ ، ٤٢٥

غنيم بن أبي الرقراق ٤٣١

غيلان = ذو الرمة

أبو غيلان (ابن سلمة) ١٢٠

غيلان بن سلمة ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٨

٢٠٥

ابن فارس (صاحب المعجم) ٥٤

الفاضل البيني (صاحب حواشي

الكشاف) ٢٦٨

فاطمة بنت عمرو ١٠٨

د القاسم ١٢٢

الفاكه بن المغيرة ١٧٦

أبو الفرج الأصفهاني ١٣٤ ، ١٦٤

١٧٧ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢٨٢ ، ٣٤٩

٣٧٤ ، ٣٧٩ ، ٤٣٩

كاهنة اليمن ٩٥
 كرنكو = سالم الكرنكوي
 كرين بن ربيعة ١٧٢
 كسرى ٨٧، ١١٤، ١٢٠، ١٢١
 ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٥٦، ١٥٩
 ١٩٥، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٥١، ٢٨١
 كعب بن الأشرف ٦٣
 » د جعيل (كعب بن جعيل)
 ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨
 » د شراحيل ٢٢٣
 » د معدان ٤٢٩
 أم كلاب (امرة أمية بن الأسكر)
 ٢٩٣
 كلاب بن ربيعة ١٦٢، ٢٩٠
 ابن الكلبي ٨٥، ٩٣، ٢١٦، ٢٤٢
 كليب ٢٤٩
 الكمين ٩٧، ١٥٣، ٤٢٦
 كنانة بن الربيع ٣٥٧
 ابن كوز ٢٩٦
 اللات ٣١٩
 لافونتين ٤٣
 لامنس ١١٠

القزويني ٢٧٥
 قس بن ساعدة الإيادي ٢٨٠
 ٣١٣-٣٣٩، ٣١٥
 قسي بن كلاب ٩١-٩٤، ٩٧-٩٩
 ١٢٤
 قطبة بن عامر ٧٧
 القعقاع بن عمرو ٣٦٨
 القلقشندي ٢١٠، ٢٢٢، ٢٢٧
 القلمس ٣٣٩
 قنافة الكلبي ٢١٧، ٢٢١، ٢٣٨
 قيس بن الحدادية ٢٨٣
 » د الخطيم ٣٤٩
 » د زهير بن جذيمة ٣٠٤
 » د عاصم ١٩٩، ٣٠٧-٣٠٩
 ٣٧٨
 » د عبد يغوث المرادي ٣٠٨
 » د أبي غرزة ٢٩
 » د (المذحجي) ٣٠٨
 قيصر ٨٧، ١١٤، ١٤٦، ١٤٨
 ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧-١٥٩
 ٣٢٥
 ابن قيم الجوزية ١٢٣، ٢٨٤
 السكاهن الخزامي ١٠٢

١٤٨ ، ١٢١ ، ٧٧ ، ٧٥ ، ٥٥

٢١٠ ، ١٥٨ ، ١٥٧ ، ١٥٢ ، ١٥٠

٢٦٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢١٧ ، ٢١١

٣٧٠

محمد حسن حبشي ١٩ ، ١٠٧

» حسين هيكل ٢٨٦ ، ٢٨٧

» رشدي ١٢٩ ، ٢٩٠

» بن السائب الكلابي ٤١

» » صفيان بن مجاشع ٢٩١

» صالح نصيف ٢٨٧

» طلعة حرب ٣٣٤

» بن عبد الله بن حسن ٤٤٥

» » القمر ٢٤٠

» » مناذر ٤٢٠

أبو محمد الهمداني ٤١

ابن حمية الديلي ١٧٩

النجبل ٢٤٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩١

الختار بن عوف ٣٤٣

مخرمة العبدى ٢٥١

» بن نوفل ١١٤

مرة بن عوف بن ذبيان ٣٠٧

» » معتب الثقفي ١٧٣

المرزباني ٣٣٨

لبطة بن الفرزدق ٣٨٥

ليبد ٢٣٦

ابن لجأ = عمر بن لجأ

أبو لهب ٣٢٦ ، ٣٢٧

الليثي (الشاعر) ٣٤٧

ابن ليلي = غلب أبو الفرزدق

المازني ٣٦٧

مالك ؟ ١٨٠

» بن جبار ٣٨٤

أبو مالك ٤٠١

مبارك = زكي مبارك

المبرد ٣٣٧ ، ٤٠٠ ، ٤١٨ ، ٤٤٨

المنس ٣٦٩ ، ٣٧٧

المتبي ١٠ ، ١٢٧

المثنى بن حارثة الشيباني ٣٧٥

مجاشع ٤٣٠

مجنن الجشمي ٣٣٠

محرق ٣١٦ ، ٣٧١

المحقق الكلابي ٣١٦ - ٣١٩

محمد صلى الله عليه وسلم - رسول الله

محمد بن جبير بن مطعم ١٩٠

» » حبيب ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٣

المطرزي ٥٤
 مطرود الخزاعي ١٥٢، ١٠٦
 المطلب بن عبد مناف ١٠٠
 ١٦١، ١٥٧، ١٥٦، ١٥٣، ١٠٦
 معاذ بن جبل ١٩٤
 معاذة ٥٩
 معاوية (الخليفة) ١٤٢، ١٠٧، ٤٠
 ٣٩٧، ١٨٩-١٨٧، ١٧٨، ١٧٥
 ٤٣٢
 معاوية بن عمرو بن الشريد ٢٩٥
 ٣١٦، ٢٩٩-٢٩٧
 المعتصم ٤٠٤
 معد يكرب (ملك اليمن) ١٠٩
 معقل ٣٩٩
 معمر بن الحارث ٣٢١-٣١٩
 معن بن أوس المزني ٤٣٩، ٤٣٨
 المغيرة بن شعبة ١١٩-١١٦
 » » عبد الله الثقفي ٦١
 » » نوفل بن عبد مناف
 ١٧٦
 المفضل الضبي ٢٩٣، ٤٤٤-٤٤٦
 ابن مقبل ١٧٤

المزوني ٨٢، ٧٣، ٥٣، ٤٨، ٤٧
 ٢٢٥، ٢٢١، ٢١١، ٢١٠، ١٢١
 ٢٥٤، ٢٤١، ٢٣٩، ٢٣٨، ٢٢٧
 ٢٨١، ٢٧٦، ٢٦٩، ٢٦٤، ٢٦٢
 ٣٤٣، ٣٤١، ٣٢٢، ٢٩١، ٢٨٩
 ٣٧٣، ٣٧٠، ٣٥٧، ٣٤٦
 مروان بن الحكم ٤١٣، ١٤٢
 » » محمد (الجمدي) ٣٦٣
 مسافر بن أبي عمرو بن أمية ١٢٥
 المستوغر بن ربيعة ٣٣٧
 مسعود بن معتب الثقفي ١٧٢
 » » عمرو العنكي ٤٤٦-
 ٤٤٨
 المسعودي ١١٥، ٩٦، ٩٥، ٨٦
 ١٤٨
 مسلم (صاحب الصحيح) ٥٣-٤٦
 أبو مسلم الخراساني ٤٤٤
 أبو مسمع = الملق
 المسور بن مخزوم بن نوفل ١٨٧
 مسيكة ٥٩
 مسيلة (الكذاب) ٣٥٨
 المشرخ بن عمرو الحميري ٩٢
 أبو المضاء المسكاري ٣٨٦

فائلة (صن) ٨٥
 د بنت زيد ٨٥
 أبو فائلة = مل-كان
 النابغة الجعدي ٤٣٤، ٤٣٣
 د الذبياني ٣١٥، ٢٩٦، ٢٩٢
 ٣٧٤، ٣١٦
 د بنت عبد الله ٢٧٨
 النبي = رسول الله
 فنيه بن الحجاج ١٨٦
 النجاشي ١٥٨، ١٥٤، ١٤٦، ٢٦
 ١٥٩
 أبو النجم العجلي ٤١٩، ٤١١
 ٤٤٣-٤٤٠
 نصوحى البخاري ٥
 النضر بن الحارث ٣٧٧
 د « كنانة ٩٢-٩٥
 النظام ٤٢٣، ٤٢٠
 النعمان بن المنذر ١٦٦، ١٦٥
 ٣٥٧، ٣٠٢، ٢٧٩، ٢٤٢، ٢١٥
 ٣٨٥-٣٨٢، ٣٧٨
 نعم (ابن أبي الورد) ٣٦٣

المقنع ٤٤٩-٤٥١
 المقنع الكندي ٢٠٦
 المقوقس ١٤٦، ٢٥
 المكشوح = قيس بن عبد يغوث
 ملحان ٣٨٣
 ملكة سبا = بلقيس
 المنتجع النيسبي ٢٤٩، ٢٤٨
 ابن مناذر = محمد بن مناذر
 المنذر بن ساري ٢١٧، ١٩٥
 ٢٤٤، ٢٢٢-٢٢٠، ٢١٨
 ٢٥١
 منظور بن منيار ٣٢٥
 المهاجر ٣٦٠
 المهدي (الخليفة) ٤٠١
 أبو المهدي (الأعرابي) ٢٤٩، ٢٤٨
 المهملان ٢٥٠، ٢٤٩
 أبو موسى الأشعري ٢٠١، ٢٠٠
 ٣٧٣
 مولر ٢٨٧، ١٩
 الميداني (صاحب مجمع الأمثال)
 ٢٩٣، ٣٦

٢١٠، ٢٠١، ١٨٧، ١٨٣، ١٦٥

٢٣٣

هشام بن عبد الملك ٩٧، ٩٤

١٥٣

» د المغيرة ١٧٢-١٧٠

١٧٧، ١٧٦

» » الوليد ٣٥٠

هلال بن الأسعر ٤٥٢، ٤٥١

الهمداني ٢٧، ١٦٣، ١٩٤، ٢١١

٢١٩، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٥٢، ٢٥٤

٢٦٦، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٩٠

الهمداني ٢٨، ٤٠٢، ٤٠٣

هند بنت غيبة ٢٩٧-٢٩٩

هود (عليه السلام) ٢٦٧

هودة بن علي الحنفي ٢٤٢ -

٢٤٤

الهاج ٤٥١

الهيثم بن عدي ٤١

واقد بن عبد الله التميمي ٧٢، ٧٣

الواقدي ٢٣٥

وجدي (فريد) ٣٤٢

نعيم بن ثعلبة ٨٥

النمر بن تولب العكلي ٤٤٣، ٤٤٤

أبو نهشل ١٧٧

نهيك بن مالك ٣٣٦

أبو نواس ٤٢٢

نوفل بن عبد شمس ٣٣١

» » د مناف ١٠٠، ١٠٦

١٥٣، ١٥٦، ١٥٧، ١٦١

النوري ٥١

النيسابوري (المفسر) ٨٦

نيكلسون = رينولد فيكلسون

هاشم = هاشم بن عبد مناف

هاشم بن حرمة ٢٩٥

» » عبد مناف ٢٢، ٨٧

١٠٠ - ١٠٧، ١٤٨ - ١٥١

١٥٣-١٦١

هاشم المري ٣٠٧

هيرة بن سعد ٣٣٥

هرقل ١٢٨، ١٢٩، ٢٣٤

ابن هشام (صاحب السيرة) ٦٣

٧١، ٧٢، ٧٨، ٨٥، ٩٣-٩٥

٩٨، ٩٩، ١٠٦، ١٥٢، ١٦٤

٢٧٥، ٢٧٢، ٢٧١، ٢٦٨، ٢٦٤

٣٦٢، ٣٤٧، ٣٤٥، ٢٨٩، ٢٨٧

٤٠٩، ٤٠٧، ٣٧٧

يحيى اليزيدي ٢٤٩، ٢٤٨

يزيد بن زمعة ١١٠

» » الصعق ٢٧١

» » عبد الله ٣٩٤

» » عبد المدان ٢٩٤، ٢٩٣

٣١٠-٣٠٨

» » عمرو القسافي ٣٠٤

» » كعب بن شراحيل ٣٣٢

اليزيدي = يحيى اليزيدي

اليعقوبي (المؤرخ) ٢١٨، ٢١٠

٢٧٤، ٢٢٦

يعمر الشداخ ٢٠٥

يوسف بن عمر ٣٨٦

أبو وجزة (ابن عبيد) ٣٥١

أبو الورد ٣٦٣

ورقة بن نوفل ٢٠٠

وضاح اليمن ٢٠٦

الوليد بن عبد الملك ٣٦١

» » عتبة بن ربيعة ٢٩٧-

٢٩٩

» » » أبي سفيان

١٨٨، ١٨٧

» » المغيرة ١٧٠ - ١٧٢

٣٥٠، ٢٠٠

وعب بن عبد قصى ١٠١

وهم بن عمرو ٣٨٤

يا قوت (صاحب معجم البلدان)

٢١١، ١٩٤، ١٧٤، ١٧١، ١٠٦

٢٦٢-٢٦٠، ٢٥٣، ٢٤٦، ٢٤٥

٤ - سرر الجماعات^(*)

بنو الأدم بن غالب ٩٦	الآراميون ٣٧
آل أذينة ٤١	بنو آكل المرار ٢٧٦
الأزد ٤١ ٢٤٠ ٢٥٣ ٢٥٤	الإباضية ٢٥٦
٢٥٨ ٢٥٩ ٣٠٦ ٣٥٠ ٤٤٦ -	بنو إبراهيم ٧٥
٤٤٨	الأبناء (فرس اليمن) ٢١٨ ٢١٧
الأساورة ٢٤٢-٢٤٤ ٢٤٧	٢٧٤ ٢٧٠ ٢٢١
الإسبان ٤٥١	أبناء الملوك في الجاهلية ٤٤٧
أسد ٧٤ ٨١ ١١٠ ١٥٣ ٢٠٥	الأتراك ٢٠٢
٤٣٤ ٢٩٦ ٢٣٩	الأحابيش ٢٩١ ١٧٢ ١٤٠
بنو أسد بن عبد العزى ١٨٣	أخبار يهود ١٢٨
» لإسرائيل = اليهود	الأحباش ١٩٤ ١٤٠ ٢١ ٢٥
» لإسماعيل ١٠٣ ٢٣٩	الأحرار ٢٥٤
أسيّد ٣٠٦	الأحلاف (عبد الدار وحلقاؤها) ٩٩
أشراف العرب ١٦٥ ٢٧٩ ٤٠٨	الأحلاف (في الحيرة) ٣٧٧
٤٤٩ ٤١١ ٤١٠	الأخباريون ٤١٢
» مكة ٨٧ ١٨٢ ١٨٣	الأدباء ٤٢٣
أصحاب الحديث ٢٣٢	

(*) أكثر أسماء القبائل وردت هنا باسم جد القبيلة خالية من كلمة (آل) أو (بنو) .

الأنصار ١٢٦، ١٤٥، ٢٠١، ٢٥٤
 ٤١٣
 الأنباط ٢١-٢٣، ١٠٥، ٣٦٤
 ٣٩٥، ٣٧٨، ٣٧٧، ٤٦٦
 الإنكليز ١٦، ٤٠١، ٤٥٣
 أهل البحرين ٢١
 » البصرة ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٠٢
 ٤٢٣، ٤٢٠، ٤٠٣
 » ثمامة ١٦٦
 » الجاهلية ٥٢، ٥٥، ٥٨، ٦٥
 » الحجاز ٢٠، ٢٤، ٢٠٣، ٢٦٦
 » الحرم ٧٦، ١٥١، ١٦٠، ٢٠٧
 ٣٦٧
 » الحل والمقد ١١٧
 » الحيوة ١١٥، ٢٣٢، ٣٧٥
 ٣٧٨، ٣٧٧
 » دومة الجندل ٢٣٤، ٢٣٥
 » الشام ١٥٦، ٣٦٤، ٣٦٨
 ٤٥٣
 » الطائف ٢٨٦، ٣٧٤، ٤٢٥

أصحاب عائشة ٤١٦، ٤١٧
 » الفيل ١٥٢، ١٦٠
 » اللغة ٢٣٢
 بنو أصخب ٣٦١
 الأعاجم ٤١، ١٠٠، ١٥٥، ١٥٨
 ٢٥٥
 الأعراب ١٨٢، ٢٠٩، ٣٨٠
 ٤٢١-٤٢٣
 أعمام الرسول ١٦٤، ٣٤٢
 الإفرنج ٢٥، ٢٠٣
 الأقنان ٢٠٢
 أقيال حمير ١١٤
 » اليمن ٢٧٢
 أمراء العرب ٨٧، ٤٢٢
 بنو أمية بن عبد شمس = الأمويون
 الأمويون ١٠٢، ١١٠، ١١٦
 ١٧٧، ١٨٩، ٣٥٠، ٣٧٠، ٣٨٨
 ٣٩٧، ٤٠٨، ٤١٣، ٤١٩، ٤٢١
 ٤٢٤

بكر بن وائل ٢٤٩، ٤٤١، ٤٤٦
بنات الملق ٣١٧-٣١٩
التابعون ٣٣٣
التجار ٢٠٧، ٤٣
تجار البحر ٢٦٩
» البر ٢٦٩
» العرب ١١٦، ٥٦، ٣٢، ١٦
٢٦٧، ١٥٩، ١٥٥، ١٢٧
» المدينة ٢٣٤، ٢٣٣
» التدمريون ١٧
» الترك ٤٥٠
تغلب ٣٨٦، ٣٨٥، ٢٤٩
قيم ٢٣٩، ٢١٧، ٢٠٥، ٩٤، ٧٤
٢٤٢-٢٤٤، ٢٥١، ٢٩١، ٢٩٢
٣٠٨-٣١٠، ٣٢٣، ٣٣٦، ٣٧٧
٣٨٥، ٣٢٩، ٤٣٢، ٤٣٩، ٤٤٠
٤٤٦ ٤٤٨
تقوخ ٣٧٧، ٤١
قيم (ابن مرة) ١١١، ١١٠، ٩٦
قيم عدي ٤٣١، ٤٣٢

أهل العراق ٢٣٨
» عمان ٢١
» الكتاب ٤٣، ٤١
» الله = قريش
» مكة ١٦٠، ١٣٠، ٤٣، ٢٥
٤٢٠
» نجد ١٧٩، ١٦٦، ٢١
» حجر ٢١
» يثوب ٧٩، ٦٤، ٢٤
» اليمن = اليمنيون
الأوس ٢٤ ٣٤٩
الأولياء ٢٧٥
إباد ٣٦، ٤١، ١٨٦، ٣١٤
٣٢٢
الإيرانيون ٣٨٠
باهلة ٤٢٨، ٤٢٧، ٣٦١
بخاريون ٢٠٢
البصريون = أهل البصرة
بنو بكر ٢٧٥، ١٦٧
بكر بن عبد مناة ٨١

جمعية الامم ٢٨٢
 الجن ٤٢٨
 جيش أبرهة = أصحاب الفيل
 جيش العسرة ١٤٠
 الحاج المشرقي ٢٠٣
 » المغربي ٢٠٣
 بنو الحارث (في عمان) ٢٥٣
 » » بن فهر ٩٦
 » » » كعب ٣١٠ ٣٥٣
 الحبشة (وانظر الحبشان) ١٥٣
 ٢١٣ ٢٥٤ ٢٦٦
 الحبشان ١٥ ١١٣
 الحجاج ٧٨ ٩٩ ١٠٣ ١٠٤
 ١١٢ ١٢٣ ٢٠٣
 الحجازيون = أهل الحجاز
 حدان ٢٥٣
 بنو حصن ٤٣٠
 الحضارمة ٢٥٣
 حكام العرب (ا) (بون) ٢٠٥
 ٢٠٨

بنو ثعل ٣٨٤
 » ثعلبة بن بكر بن وائل ٣٥٩
 » » » يربوع ٢٣٦
 ثقيف ٦١ ٦٦ ١٧٤ ١٧٥
 ٢٨٨ ٢٨٩ ٤٣٢
 بنو جدعان ١٣٥
 جديد ٢٥٣
 جديس ٤١
 جديلة ٧٥
 » طيء ٢٣٦
 بنو جذيمة ٢٩٦
 الجرامقة ٤١
 جرم ٤١ ٨٥ ٩٧ ١٨٤ ٤٢٧
 جشم ٣٠٩ ٣٣٠
 بنو جعدة ٤٣٢-٤٣٤
 بنو جميل ٣٨٦
 جمع ٩٦ ١١٠ ١١١ ١٧٧
 ١٨٦
 جمرات العرب ٤١٢ ٤٣٨
 الجمعيات الدينية ٤٥٤

ذؤبان العرب ١٥١
 بنو ذبيان ٣١٥
 الراشدون (الخلفاء) ١٩٤ ٣٩٥
 ٤٢١ ٤١٩ ٤٠٧
 الرباب ٤٤٦
 ربيعة ٧٤ ٧٥ ٢٣٩ ٢٤٢
 ٣٣٧ ٣٧٥ ٤٤١ ٤٤٥ ٤٤٧
 ٤٤٨
 الرجاز ٤٠٨ ٤١٩
 الرواة ٤١٢ ٤٤٠ ٤٤٣
 الروم (وانظر: الرومان) ١٨
 ٢١ ٢٣ ٢٥ ٤١ ٤٢ ٤٤
 ١١٣ ١٢٩ ١٥٣ ١٦٠ ١٨٢
 ٣٧١ ٣٧٣ ٣٧٨ ٤٥٠
 الرومان ٢٠ ٤٣ ٤٤ ٨٧ ١١٥
 ٢١٢ ٣٦٤ ٣٦٦ ٣٧٠
 بنو ربيعة ١٧٦
 زبيد ١٨٣
 الزراع ٥
 الزط ٤٤٧
 زهرة ٩٦ ١٨٣
 بنو زهير (من عكل) ٤٤٢

المورايبون ١٩٦
 حمير (الحميريون) ٢٠ ٣٧ ٤١
 ٤٢ ١١٤ ٢٦٨ ٢٧٠ ٢٧١
 ٢٧٤ ٣٧٧
 حنظلة ٤٤٦
 حنيفة ٢٤٣ ٣٥٣ ٣٥٨
 الحياء بن سعد بن عمرو ١٧٢
 بنو حية ٣٨٤ ٣٨٥
 خنعم ٨١ ١٥١ ٣٢٣
 الحراسانية ٤٤٤
 خزاعة ٤١ ٧٥ ٧٩ ٢٩١
 الحزر ٤٥٠
 الحزرج ٢٤ ١٠٥
 خنعم ٣٠٦
 الخلفاء ٣١
 خلفاء الأمويين ٤٠٨
 خمارو الحيرة ٣٨١ ٣٨٦
 خندف ١٧٤
 الحوارج الإباضية ٢٥٦
 » الحرورية ٣٤٣
 بنو دهمان ٣٠٠
 » الديان ١٣٠ ٢٩٣

الشعوبيون ٤١٣ ٤٣٩
 بنو شيبان ٣٠٥
 شيعة علي ٤٣٢

بنو الصادر ٣٦٧
 الصعابة ٣٣ ٧١ ٩٨ ١٣٥ -
 ١٣٧ ١٤٦ ١٥٩ ١٨٨ ٢٢٣
 ٢٤٨ ٣٥٧ ٤١٣

صعاليك العرب ١٥١
 الصناع ٣٢
 الصين (الصينيون) ٢٥ ٢٠٢
 ٢١٣ ٤٥٠

الضاظنة (جالو الميرة) ٢٣٣
 ضبة ٤٤٦

طسم ٤١ ٢٤٠
 طيه ٢٢ ٤١ ٧٤ ٨١ ١٥١
 ٢٢٣ ٢٢٦ ٢٣٩ ٢٩٣ ٣٦٧
 ٣٧٧ ٣٧٩ ٣٨٢ ٣٨٣

بنو ظفر ٣٥١
 عاد ١٩٤ ٤٥١

الزرار ٢٠٧
 بنو زيد (من آل أبي طالب)
 ٤٣٩

آل سامة ٤٢٩
 سبأ ١٧-١٩ ٣٧
 الصبايجة ٤٤٧
 سفينة = قريش
 سدوس ٢٤٠

بنو سعد ٢٤٢ ٢٤٣ ٣٠٩
 ٣١٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٤٣٢-٤٣٤
 ٤٤٦

السكون ٢٣٨
 بنو سليم ١٧٦ ٣٢١ ٣٥١ ٣٥٣
 ٤٣٢

اللماسرة ٢٩
 آل السبيدع ٤١
 السند ٤١

سهم ٩٦ ١٠٥ ١١٠ ١١١
 ١٧٦

السودان ٤٥٠

الشراة ٤٦١
 الشعراء ٣١٥ ٣٦١ ٣٦٩ ٣٧٢
 ٤٠٨ ٤١٩ ٤٢٢ ٤٥١

عتيك بن عامر بن لؤي ٢٥٣، ٩٦

عجل ٤٤٠

العجلان ٤٢٧

العجم = الفرس

بنو العدل ١٢٥

عدي ١١١، ١١٠، ٩٦

عذرة ٣٥٣، ٢٢٣

العرب ٩-١١، ١٥-٢٥، ٢٩، ٣١

٣٣، ٣٥، ٣٨، ٤٠-٤٦، ٥٣، ٥٨

٦٠، ٦٣، ٧٠، ٧١-٨٢، ٨٦، ٨٧

٩٣-٩٥، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٨

١١٢-١٢٧، ١٣٠، ١٣٧، ١٣٨

١٤٢، ١٤٣، ١٤٥-١٤٨، ١٥٠-

١٥٦، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٩

١٧١، ١٨٢، ١٨٥، ١٩٤، ١٩٥

١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢-٢٠٥، ٢٠٨-

٢١٥، ٢٢٥، ٢٣٦-٢٤٠، ٢٤٦

٢٥٠-٢٥٦، ٢٦٢-٢٦٤، ٢٦٩

٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٨، ٢٨٠-٢٨٥

٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٥، ٢٩٧-

٢٩٩، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣١٥، ٣١٦

٣١٩، ٣٢٥، ٣٢٩، ٣٣٥، ٣٣٨

٣٤٥، ٣٥٢، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٠

٣٦٣، ٣٦٤، ٣٨٨، ٣٩٣، ٣٩٥

بنو عامر ٧٥، ١٧٠، ١٩٦، ٣٤٣، ٤٣٣

٤٣٤

عامر بن صعصعة ٨١، ١٠١، ٣٠١، ٣١٢

٣٢٨-٣٣٠، ٣٥٣، ٣٥٩

بنو العباس = العباسيون ٤٠١

٤٠٣، ٤٠٩، ٤٢٤، ٤٤٤

العباد (في الحيرة) ٣٧٧

العباهلة (ملوك اليمن) ١٤٩

عبد الدار ٩٥، ٩٦، ٩٩، ١٠٠

١١٠

عبد شمس ١٩٠

عبد العزى ٩٦

عبد القيس ٣٦، ٢٤٠، ٢٤٣، ٣٢٢

٤٤٧، ٤٤٦

بنو عبد الله بن دارم ٢٥١

د د د د د زيد ٢١٧، ٢٤٤

د د د د د غطفان ٢٨٣

د عبد المطلب ٣٢٨، ٣٣٠

د د مناف ٩٥، ٩٩، ١٠٠

١٠٥، ١٥٢، ١٥٢، ١٥٧، ١٥٨

١٧٢، ٣٢٨

العبلات ٣٣١

العبيد ٤٣٩

بنو عبيد ٣٥٨

غفار ١١٣
 غني ٣٠٢، ٢٥٩، ١٦٧
 فارس (وانظر : فرس) ٢١
 ٢٤٢، ٢١٣، ١٨٢، ١٥٣، ١٢٨
 ٤٤٩، ٣٧٨
 الفراعنة ٤١، ١٩
 الفرسان ٣٨، ٣٧، ٢٥، ١٨، ١٦
 ١٢٩، ١١٣، ٩١، ٨٧، ٤٣-٤١
 ٢٥٥، ٢٥٤، ٢١٢، ٢٠٢، ١٩٤
 ٢٩٥، ٣٧٨، ٣٧٠، ٢٧٠، ٢٦٦
 ٤٤٩، ٤٢٢، ٤١٠، ٤٠٢، ٢٩٨
 الفرسان ٣٠٥
 فرسان العرب ٢٣٦
 الفرنجة = إفرنج
 فزارة ٤٤٦، ٤٤٥، ٣٥٣، ٣٢٥
 بنو فقيم ٤٥١
 فهر ٤٣٢، ١٨٣، ٩٤، ٩٣، ٩١
 قبائل العرب ١٥١، ١٢٤، ١١٢
 ٢٠٥، ٢٠٢، ٢٠٠، ١٩٥، ١٥٣
 ٣٤٢، ٣٣٨، ٢٤٣، ٢٣٦، ٢٠٨
 ٣٦٦، ٣٥٣، ٣٥٠

٤٤٩، ٤٢٢، ٤١٠، ٤٠٧، ٤٠٢
 ٤٥٣، ٤٥٢، ٤٥٠
 عرب الحيرة ١٩٥
 العشرة المبشرون ٣٦٧
 عضل ٢٩١
 عكل ٤٤٢
 العلويون (وانظر : شيعة علي)
 ٤٤٤
 بنو علي = العلويون
 بنو العم ٤٢٩
 الهماقي ٤١
 بنو عمرو بن تميم ٨١
 « « الثاني ٦٦، ٦١
 « « بن مرثد ٢٣٩، ٧٤
 العنابس ٢٨٤، ١٧٥
 العنبر بن عمرو بن تميم ٣٠٦
 بنو العنقاء ٣١٦
 عوف بن كعب ٤٣٤
 آل غالب ٢٩٩
 الغرب (المحتل) ٢٨٨
 غسان ٢٣٧، ٢١٨، ٢٠٧، ٤١
 ٣٧١، ٣٦٨، ٣٦٦، ٣٥٣، ٢٥٣
 غطفان ٢٩١، ١٦٧، ١٦٦

بنو القين بن جسر ٣٣١

» قينقاع ٢٥٨، ٢٤

كتاب الوحي ١١٥

بنو كعب ٤٣٨، ٤٣٧

» » بن ربيعة ٧٥ ، ٣٢٨

٣٥٣

» » » لؤي ٩٧

كلاب ٤٣٨، ٤٣٧، ١٦٧، ٧٥

كلب ٢٣٢، ٢٢٢، ٢٢٠، ٢١٨، ٧٤

٣٣٣، ٣٣٢، ٢٣٩-٢٣٦، ٢٣٣

٣٨٣، ٣٧٧

كليب ٤٤٨، ٤٣٦، ٤٣٥، ٤٣٠

كنانة ١٧٥-١٧١، ١٦٦، ٨٥، ٧٥

٣١١، ٣٠٠، ٢٣٣، ٢٠٥، ١٧٨

٤٣٢، ٣٤٥، ٣١٢

كندة ٣٥٣، ٣٢٥، ٢٧٦، ٢١٨

الكوفيون ٤٢٣

بنو لام ٣٨٥، ٣٨٣، ٣٨٢

» لجأ ٤٣١

لحم ٣٧٧

لصوص العرب ٢٧٩

اللغويون ٤٢٢

قريش (القرشيون) ٢٩، ٢١، ١١

٨٠-٧٨، ٧٥-٧٠، ٦٢، ٤٢

١٨١، ١٧٨-٨٩، ٨٧-٨٤

٢٠٢، ٢٠٠، ١٩٠، ١٨٥-١٨٣

٢٤٤، ٢٣٩، ٢١٥، ٢٠٧-٢٠٥

٢٨٣، ٢٨٠، ٢٧٨، ٢٧٦، ٢٥٨

٣٠٣، ٢٩٧، ٢٩٠، ٢٨٨، ٢٨٤

٣٣٨، ٣٣٠، ٣٢٨، ٣١٢-٣١٠

٣٦٣، ٣٥٧، ٣٥٤، ٣٤٩، ٣٤٦

٤١٧، ٣٧٨، ٣٧٧، ٣٧٤، ٣٦٦

٤٢٩

بنو قريظة ٢٤

» قشير ٤١٨

» قصي ١٧٩، ١٢٦، ١٠٢

قضاة ٣٧٥، ١٥١، ٨١

قفقاسيون ٢٠٢

القوافل العربية ١٩، ١٧، ١٦

٣٦٦، ١٥٨، ١٣٩، ٥٨، ٣٨

٣٧٩

قيس (قيس بن عيلان) ١٢١، ٨٤

١٧٥، ١٧٠، ١٦٩، ١٦٧، ١٦٢

٣٣٧، ٣٢٣، ٢٩٠، ٢٨٨، ٢٠٥

٤٣٢

قيس بن ثعلبة ٢٣٩، ٧٤

آل مسروق بن وائل الحضرمي

٢٧٦

المسلمون ٤٢٠٢٨٠٢٦٠٢٤٠٩

١٣٨-١٣٤٠٧٢٠٧١٠٦٤٠٥٨

٣١٣٠٢٠٩٠١٨٧٠١٥٩٠١٤٥

٣٩٨٠٣٧٥٠٣٦٩٠٣٦٨٠٣٥٧

٤٤٨٠٤٤٣٠٤٢٩

المشركون ١٤٥٠٣٠٠٣٨٠٢٤

٢٢٣٠٣١٣٠٢٠١٠١٧٥٠١٥٩

٢٦٤٠٢٦٢٠٢٣٦٠٢٣٥

مشركو مكة ١٩٨٠٤٢

بنو المصطلق ٢٩١٠١٧٢

المطيبيون (أحلاف بني عبد

مناف) ٩٩

معد ٤٤٨٠٤٣٤٠٣٣٣٠٨٦

معن بن طيء ٣٣١

المعنيون ١٨٠١٧

مقاربة ٢٠٢

بنو المغيرة ٣٥٠٠١٧٦٠٦٦٠٦١

المفسرون ٦١٠٥٩٠٣٠-٢٨

٢٥٤٠١٦١٠١٥٢

المقلسون ٣٧٣

المكيون = أهل مكة

مازن ٤١٧٠٣٠٦

بنو مالك ٤٤٦٠٢٥٣٠٢٤٩٠٢٥

» مجاشع ٤٢٩

المجبورون = بنو عبد مناف

بنو محارب بن خصفة ٢٦٧٠٩٦

٣٥٣٠٣٢٧

المحدثون ٢٦٠

آل محرق ٤٤٧

بنو مخزوم ١١١٠١١٠٠٠١٠٥٠٩٦

١٧٥٠١٥٠

مدرسة البصرة ٤٢٣

» الكوفة ٤٢٣

بنو مدركة بن خندف ٣٠٠

مذحج ٣٠٩-٣٠٧٠٢٩٤٠٢٩٣

٣٧٧

المرابون ٦٠

بنو مرة بن عوف بن ذبيان ٣٠٧

٣٥٣

مزاحم ٤٣٣

المزون ٣٢٣

مزينه ٤٣٨

المستشرقون ١١٠٣

بنو المستكبر ٢٤٥٠٢٤٤

المهاجرون ٤٢٦
 المهجم ٣٠٦
 هذيل ٣٤٧
 بنو هصيص بن عامر ٩٦
 همدان ٤٣٢
 الهند ٢١٣، ٢٠٢، ١٩٤، ٤١٤، ١٨
 ٤٥٠، ٣٩٥، ٢٦٦
 هنود أمريكة ٢٠٨
 هوازن ١٦٦، ١٦٢، ٨٤، ٧٠
 ١٧٨، ١٧٦-١٧٢، ١٧٠، ١٦٩
 ٣٠٠، ٢٩٤، ٢٩٠، ٢٨٩، ٢٨٨
 ٣١١، ٣٠٧، ٣٠٤، ٣٠٣، ٣٠١
 ٣١٢
 الهون بن خزيمه ١٧٢
 هيئة الأمم المتحدة ٢٨٢
 الليثيون = أهل يثرب
 محمد ٢٥٣
 بنو يربوع ٤٢٩
 يشكر ٣٤٨
 اليمينيون ٢٤٠، ١٠٨، ٢١، ٢٠
 ٤٤٧، ٢٤١
 يوثان ٤٥١، ٣٩٥، ٤١٤، ٢٠، ١٠
 اليهود ٦٤-٦٠، ٤٢، ٤١، ٢٤-٢٢
 ٤٥٣، ٣٦٦، ٣٥٧، ٣٥٦، ١٢٩، ١٢٨

ملوك الحيرة (ملوك العراق) ٣٧٥
 ٣٧٧
 د فارس ٣٧٧
 المناذرة ٣٨٢، ٣٧٧
 بنو منقر ٤٢٤
 المهاجرون ٤١٣، ١٤٥
 ميرة ٢٦٧، ٢٦٦، ٢١٨
 موه ٣٢٣، ٣٢٢، ٣٦
 الموالي ٤٣٩، ٤٢٢، ١٦٧
 بنو ناجية ٤٢٩
 النبط = الأنباط
 النعاعة ٤٢٣، ٤٢٠، ٤١٢
 نزار ٣٤١
 النصارى ٢٨٠
 نصارى نجران ٦٢
 بنو نصر ٢٨٩، ٢٨٨، ١٧٥، ٤١
 ٣٧٧، ٣١٢، ٣٠٠
 بنو هضر (في الحيرة) ٣٧٤، ٢٤٤
 » النصير ٣٥٧، ٢٤
 غير ٤٣٨، ٤٣٧
 بنو نيشل ٤٥١
 د نوفل ١٩٠، ١٨٩، ١١٠
 بنو هاشم ١٥٧، ١٤٥، ١١٢، ١١٠
 ١٨٦، ١٨٣

٥ - سرد الأماكن

أندون ٥٨ ١٩٦
الأندلس ٢٧٢ ٤٠٠
أنقرة ١٥٤
أنهار البصرة ٣٩٨
الأهواز ٤٠٤ ٤٢٩
أواة ١٦٦
أوروبة ١٧ ١٨ ٢٠ ٤٣ ٣٥٤
٣٧٦ ٣٧٥ ٣٦٥
إيطالية ٤٠١
أيلة (العقبة) ١٦ ٢٠ ٢٤ ٢١٢
باب البريد (بدمشق) ٥
بابل ١٦
باب المندب ١٩ ٢٦٨
البادية ١٥
بارق ٢٤٨
باشان ٣٦٥
بترا ١٩
البحر الأحمر ٩١ ٢٦٨
بحر الصين ٢٦١
عدن ١٦

آسية ٢٠ ٢٦٨ ٣٥٤
الأبطح ١٣٠
الأبطحان ٢٩٩
الأبلة ٢٠٧ ٣٩٥ ٣٩٩
أبين ٢٦٨
الأيدياء ٢٨٨ ٢٨٦
أحد ٢١٣
الأحفاف ٢٥٣ ٢٥٧
أخشيما مكة (جبلان) ٩٦ ٢٨٣
أدم ٢٢٠ ٢٢٢ ٢٢٥ ٢٢٦
أديار الخبرة ٣٨٠
أذرعاً ٢٤ ٤٣ ٥٨ ١٩٦
١٢ ٢٢١ ٢٢٦ ٣٦٢ ٣٦٣
٣٧٢-٣٧٣-٤٧٥
(جبل مكة) ٣٤٤
٢٢١ ٢٢٥ ٢٢٦
٢٠ ١٠٧
٣٧
٣٥٤
الأنار ٤٠ ٢٠٧ ٣٧٧

٣٧٣ ٣٧١-٣٦٤ ٢٦٣ ٣٦٢
٣٧٥
البطحاء (بمكة ، الأباطح ، البطاح)
٤٢٧ ٩٧

بطن مر ١٧١
بغداد ٦ ٢١٥ ٣٩٣ ٤٠١
البيقع ٢٩ ٣٠
بكة ٨٦
بلاد العرب = جزيرة العرب
البلقاء ٣٧٢
البنديقية ١٠٩
البيته ٢٨٦

البيت ، بيت الله (وانظر :
المسجد الحرام ، الكعبة)
٨٥ ٨٤ ٨٢ ٨١ ٧٦ - ٧٤
١٠٧ ١٠٤ ١٠٣ ٩٩ ٨٧
١٤٧ ١٢٣ ١٢٢ ١١٢ ١٠٩
١٧٦ ١٦١ ١٦٠ ١٥١ ١٤٩
٣٨٣ ٣٢٣ ٣٢٢ ٢٠٤ ١٨٤
٣٨٧

بيت المقدس ١٢٨
بيروت ٥٤

تؤام ٢٦١

بحر عمان ٢٥٦

د فارس ٢٦١

البحر المتوسط ١٨ ١٩

د الهندي ١٥ ٢٦١ ٢٦٦

٢٦٨

بحر اليمن (وانظر : بحر عدن)

٢٥٤ ٢٥٢

البحرين ١٥ ٢١ ٢٨ ٤١ ١٧٧

٢٤٥ ٢٤٠ ٢١٤ ٢١٢ ٢١١

٣٧٥ ٣٥٨ ٢٩١ ٢٥٣ ٢٥١

٤٥١ ٤٠٣ ٣٨٠

بدر ١٤٠ ١٣٩ ١٣٦ ١٣٥

٢٢٥ ٢١٩ ٢١٦ ٢١٣ ٢١١

٢٩٧ ٢٢٦

براديس ١٤٠

بردى ٨

البصرة ٣٥٨ ٢٥٢ ٢٣٢ ٢٠٩

-٣٩٥ ٣٩٤ ٣٩٣ ٢٦١ ٢٦٠

-٤٠٦ -٤٢١ ٤١٩ ٤١٠

٤٤٧ ٤٢٩ ٤٢٦ ٤٢٥ ٤٢٣

٤٥٢

بصرى ١٩٦ ١١٣ ٤٣ ٢٤

٣٤٥ ٢٧٨ ٢٢٦ ٢٢١ ٢١٢

٢٥٧ ٣٦٦ ٣٧٤ ٣٩٣ ٤١٠
جلاجل ٤٣٥
جمع = مزدلفة
الجند ١٢٤ ١٩٤ ٢١١ ٢١٩
٢٢٥ ٢٢٦
جنوة ٤٠١
الجوف ٢٣٢

حانات الحيرة ٣٨٠
الحاوية (قرب الطائف) ٢٨٨
حباشة ٧٠ ١٣٢ ٢٠٩ ٢٢٤
٢٢٦ ٢٥٨-٢٦٠ ٢٦٢
الحبشة ١٥ ١٦ ١٨ ٢٨ ٤٤
٧١ ٨٧ ٩١ ١٠٣ ١١٣ ١٣٤
١٣٧ ١٤٦-١٤٩ ١٥١ ١٥٦
١٥٩ ١٦١ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٦٨
٣٦٤

حبشي (جبل بمكة) ١٧٢
الحجاز ١٦ ٢٠-٢٤ ٢٦ ٢٩
٦٠ ١١٣ ١٥٥ ٢٠٣ ٢٠٨
٢٤٥ ٢٥٣ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٦٦
٢٦٨ ٣٦٤ ٣٨٠
الحجر (في المسجد الحرام) ١٨٣
٣٣٣

النبت ٢٥٧
نبوك ٢٣ ١٤٠
ندمر ١٦-١٨
نمشار ٢٩٦
نهامه ١٦٦ ٢٥٧ ٢٥٨
نيرى (نهر) ٤٢٩
نپاء ٢٠

نير ٣٢٠
النغور الرومانية ١٦
نهلان ١٤٥

الجامعة السورية (بدمشق) ٦ ٨
د المصرية ٣٧
جامعة ميونيخ ٣٧
جبلاطيء ٤١ ٢٣٣
جدة ٩١
جريب ١٩٤

الجزيرة، جزيرة العرب ١٥-٢٥
٢٨ ٣٧ ٦٠ ٧٤ ٩١ ١٣٨
١٤٧ ١٥٨ ١٩١ ١٩٤ ١٩٦
٢٠٧ ٢٣٨ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٦٢
٢٦٥ ٢٦٦ ٢٧١ ٢٧٧ ٢٩١
٣١٤ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٨ ٣٥٦

حصن ناعم ٣٥٧
 » نطاة »
 » الوطيج »
 حفر موت ١٩ ٧٠ ١٩٤ ٢١٧
 ٢١٨ ٢٢٠-٢٢٦ ٢٧٥ ٢٧٦
 الحنير ٢٦٦
 حليون ٣٧٠
 حمص ١٢٨ ٢٧٢
 حوران ٣٦٢-٣٦٥ ٣٦٨
 حوزة ٢٩٥ ٢٩٧
 حيدر آباد ٥٠ ٢١١ ٢٢٥
 الحيرة ٢١ ٣٧ ٤١ ٤٢ ٤٤
 ٥٨ ١١٤-١١٨ ١٦٥ ١٩٥
 ٢٠٧ ٢١٢ ٢١٥ ٢٢٥ ٢٣٢
 ٢٤٤ ٢٧٩ ٣١٤-٣٨٩
 خبت ٢٩٦
 خزانة العرب = البصرة
 الخط ٢١٤ ٢٤١ ٢٥١
 خليج العجم = الخليج الفارسي

الحجر (الأسود) ١٨٣
 حجر البامة ١٩٣ ١٩٥ ٢١١
 ٢١٧ ٢١٩ ٢٢١ ٢٢٣ ٢٢٦
 ٢٤٧ ٣٥٧ ٣٥٨-٣٦١
 الحجر ١٥٦ ١٨٠
 الحديدية ٣٣ ١٢٨ ١٣٧ ١٥٩
 حراء ٣٢٠
 الحرفان ٢٩٩
 الحرم ٧٣ ٧٦ ٧٨ ٧٩ ٨٣-
 ٨٦ ٩١ ٩٧ ٩٩ ١١٢ ١٥١
 ١٦٠ ١٦١ ١٧٠ ١٧١ ١٨٢
 ٢٠٢ ٢٠٧ ٢٨٩ ٣٦٧
 الحريرة ١٧٧ ١٧٨ ٢٨٨
 حصن السلام ٣٥٧
 » الشق »
 » الصعب بن معاذ »
 » القموص »
 » الكتيبة »
 » مارذ ٢٢٣
 » المشقر ٢٣٦

٣٨٩، ٣٨٦، ٣٧٩، ٣٧٢، ٢١٦

٤٢٩

دار الندوة ٩٨، ١٠٤، ١٢٩، ١٣٠

١٣٩

» نيروز ٤٤٩

دارين ٢١٤

الدباغين (في البصرة) ٤١٦

دي ٢١٣، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠

٢٦٧، ٢٦٥-٢٦٤، ٢٢٦، ٢٢١

دجلة ٢١٥، ٢١٠، ٢٠٥

درعا = أذرعات

الدكن ٢٢٥

الدمه ٢٨٦

دمشق ٣-٦، ٨-١٠، ٣٧، ٢٢٢

٢٧١-٢٧٣، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٩

٤٥٤، ٤٥٣

دومة الجندل ٤٦٥، ٤٨، ٧٤

١١٤، ١٩٥، ٢١٦، ٢٢٤، ٢٢٦

٢٣٢-٢٣٩، ٢٤٤، ٢٥٠، ٢٥١

٢٦٣، ٢٦٧، ٢٧٠

الحليج الفارسي ١٨، ١٩، ٢٣٢

٢٤٥، ٢٥٢، ٢٥٤، ٤١٠

الحنافس (سوق في العراق)

٣٧٥

الحندق ٤٤٥

خوام (نزل بدمشق) ٨

الخورنق ٣٧٧

خير ٥٢، ٦٠، ١١٠، ١٦٧، ١٦٨

٢١٧، ٢٢١، ٢٢٣، ٣٥٦، ٣٥٧

٢٧٩، ٤٠٤

خيوان ٢٧٣

دار الآثار (بدمشق) ٨

» جعفر بن سليمان ٤٠٩

» عبد الله بن جدعان ١٨٣

١٨٤

» العظم (بدمشق) ٣٦٢

» الكتب الظاهرية ٥٤، ٢٨١

» » المصرية ٢٦، ٨٦، ١٢٥

١٢٨، ١٢٩، ١٥٥، ١٨٩، ٢٠٠

زبيد ٢٦١
 زعزم ١٠٧/١٠٤
 السدير ٣٧٧
 سلع ٢٠
 السلفية = المطبعة السلفية
 سلمان ١٥٧/١٠٧/١٠٦/١٠٠
 صمرقند ١٠٧
 السند ٢٦٩/٢٦٥
 السواد (العراق) ٣٧٥
 سورية ١٩/١٨/١٦/٦/٥
 السوس الأقصى ٤٠٢
 سرق النبط ١٠٥/٢٣
 السيل الصغير (قرب الطائف)
 ٢٨٧/٢٨٦
 الكبير (قرب الطائف)
 ٢٨٧/٢٨٦
 السلياحون ٣٧٨
 الشام ٢٤-٢٣/١٨-١٥/٨/٦-٤
 ٨٧/٨٦/٤٤/٤١/٢٩/٢٧/٢٦
 ١٠٧-١٠٤ / ١٠٢-١٠٠ / ٩٨
 ١٢٧/١١٨/١١٧/١١٥/١١٣
 ١٤٣ / ١٤١ / ١٣٧-١٢٩

دومة الجيزة ٢٣٣/٢٣٢
 دير أيوب ٣٦٣-٣٦٢/٢٢٦/٢٢١
 ٣٧٠
 ذات الأثل ٢٩٧/٢٩٥
 ذو الحجاز ٢٠٢/١٤٩/٨٠/٧٥/٧٠
 ٢٢٦/٢٢٤-٢١٧/٢١١/٢٠٣
 ٣٥٥-٣٤٧/٣٤٦/٣٤٥/٢٨٩
 ٢٦٣/٣٥٧
 ذو الحجاز (في العراق) ٣٤٧
 ذو المروة ١٨٧
 الرابية (بحضرموت) ٢٢٦/٢٢٥
 ٢٧٦
 الربذة ١٤٠
 الروم ١٧٧/١٧٦
 ردمان ١٥٦/١٠٧/١٠٦/١٠١
 ردينة ٢١٤
 الرصافة ٣٦٣
 روضة الأجداد ٢١١
 » دعي ٢١٢/٢١١
 رومة ١٨
 الروم ١٤٩/١٤٦/١٠٢/١٥
 ٣٩٣/٢٦٩/١٥٥

شظية ١٧١-١٧٣ ٢٨٨
 شيخ سعد ٣٦٢
 صغار (البحرين) ٢٦٢
 » (اليمن) ٢١٧، ٢١٣، ٧٠
 ٢٢٤، ٢٢٣، ٢٢١، ٢٢٠، ٢١٨
 ٢٧٠، ٢٦٤ ٢٦٣-٢٦١ ٢٢٦
 الصحراء الكبرى ٤٠٢
 صرخد ٣٧٠
 الصواب ٤٥١
 الصفا (حصن بالبحرين) ٢٤٠
 ٢٤١
 صفين ٤٤٥
 صنعاء (دمشق) ٢٧٢
 » (اليمن) ١٩٤، ١٠٩، ٥٥
 ٢٦١ - ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٦١
 ٢٧٥ ٢٧٤-٢٧١
 صيدا ٢٥
 صيدون = صيدا

١٦١، ١٥٩-١٥٤، ١٥١-١٤٧
 ٢٣٣، ٢٣٢، ٢٠٣، ١٩٦، ١٧٦
 ٢٤١، ٢٧٨، ٢٥٧، ٢٥٣، ٢٣٨
 ٣٦٠، ٣٥٧، ٣٥٦، ٣٤٥، ٣٤٣
 ٣٧٥، ٣٧٣-٣٧٠، ٢٦٨-٣٦٣
 ٤٥٣، ٣٩٣، ٣٨٠، ٣٧٩
 شامة ٣٤٤
 شبام ٤٣٢
 شبت ١٩
 الشجر (شجر مهرة) ٢١٧، ١٩٣
 ٢٦٤، ٢٢٦، ٢٢٤-٢٢٠، ٢١٨
 ٢٧٥، ٢٧٣، ٢٦٩ ٢٦٧-٢٦٦
 ٢٩١
 شرب ١٧٦-١٧٤ ٢٨٨، ٢٨٤
 الشرق ١٧، ٨
 شرقي الأردن ١٦
 الشعب ٩٦
 شعب جبلة ٤٤٥
 شماری ٣٨٢

٢٣٨ ، ٢١٦ ، ٢١٥ ، ٢٠٣ ، ١٩٦

٢٨٦ ، ٢٧٨ ، ٢٦٢ ، ٢٥٣ ، ٢٣٩

٣٤٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٣١٨ ، ٢٩١

٣٦٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٠ ، ٣٥٨ ، ٣٤٧

٣٩٨ ، ٣٩٥ ، ٣٩٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٤

٤١٠ - ٤٠٧ ، ٤٠٣ ، ٤٠١ ، ٣٩٩

٤٣٧ ، ٤١٨

عرقة (عرفات) ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩

٢٨٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ ، ١٤٥ ، ١٠٤

٣٤٧

عسقان ٣٤٥

العشيرة (قرب الطائف) ٢٨٨

العقبة (الميناء الشامية) ١٦

» (بمكة) ٢٣٢ ، ٧٨

عكاظ ٧٥ ، ٧٠ ، ٥٤ ، ٣٦ ، ٢٥ ، ١٠

١٦٢ ، ١٤٩ ، ١٣٢ ، ٨٤ ، ٨٠

١٨٠ ، ١٧٧ ، ١٧٦ - ١٦٩ ، ١٦٣

٢٠٣ ، ٢٠٢ ، ١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٩٣

٢١٥ ، ٢١٣ ، ٢١١ ، ٢٠٩ - ٢٠٦

٢١٧ - ٢٢٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٧٧

٣٤٣ ، ٣٤٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢

٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٧٨ ، ٤٠٧ -

٤١٣ ، ٤١٨ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤

الصين ٢٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٠٢

الضلع (واد بصنماء) ٢٧٢

الطائف ٢١ ، ٢٨ ، ٦٠ - ٦٢ ، ٧١

٧٩ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١٣١ ، ١٢٦

١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٦٥ ، ٢١٥ ، ٢٨٦

٢٨٧ ، ٣٧٤ ، ٤٢٥ ، ٤٣٢

طفيل ٣٤٤

الظهر (واد بصنماء) ٢٧٢

الظواهر (بمكة) ٩٧

عبادان ٣٩٨

عبدس ٣٩٨

العلاء ١٧٣ - ١٧٤ ، ٢٨٨

العجم (وانظر: فارس) ١٢٨

عدن ١٦ ، ١٩٤ ، ٢١١ ، ٢١٣

٢١٧ - ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٦٦

٢٦٨ - ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧

المراق ١٥ ، ١٦ - ١٨ ، ٢٤ ، ٤٤

٥٦ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ ، ١٠٠

١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٦

١٢٧ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٨٠

٣٧٧، ٣٧٥، ٣٧٤، ٢٧٩، ٢٧٠

٤٢٩، ٣٩٣، ٣٨٠، ٣٧٨

فخ ٣٤٤

فدك ١٦٦

الفرات ٣٧٧

فرغانة ٤٠٢

فرنسة ٤٠١

فالج ٤٣٩، ٤٣٣

فلسطين ٤٥٤، ٤٥٣، ١٨

الفانس ٢٨٦

قبة الإسلام = البصرة

قبر الأعشى ١٩٨

د غالب (أبي الفزدق) ٤٢٤

٤٢٥

أبو قيس (جبل بكة) ٩٦

١٨٣

القدس ٢٠٧

قرح (من أسواق العرب) ١٩٤

قرطاجة ١٠٩

قرطبة ٦

حات ١٢٦، ٤١، ٢١، ١٩، ١٥

٢٢٤، ٢٢٠، ٢١٢، ١٩٥، ١٩٤

٢٤٥، ٢٤٤، ٢٤٢، ٢٤٠، ٢٢٦

٢٦٦، ٢٦٤، ٢٦١، ٢٥٧-٢٥٢

٤٠٣، ٣٨٠، ٣٧٩، ٢٩١، ٢٧٥

همواس ١٠٧

العين (نهر في البحرين) ٢٤٠

الغار (نحبا النبي وصاحبه) ١٣٤

غدير الحقل ٢٧٣

غزة ١٠٠، ٥٨، ٣١، ٢٤، ١٩

١٢٩، ١٢٧، ١١٣، ١٠٦، ١٠٥

٢٧٨، ٢١٢، ١٩٦، ١٥٦، ١٣١

٣٧١، ٣٤٥

غمدان ٢٧٢

واتيالا ٢٠٨

فارس ١٢٧، ١١٩، ١٠٣، ٢٥، ١٥

٢٤٥، ٢٤٤، ٢٤٢، ١٦١، ١٢٨

٢٦٩، ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٥٤، ٢٥٠

ليفربول ٤٠١
 مأرب ٣٦٦/١٩
 مارد ٢٣٣
 مياض ٣٠٦
 المتحف البريطاني ٢١١
 المجمع العلمي (بدمشق) ٦٠٥
 ١٠٠٨
 مجنة ٢٠٢/١٩٦٨٠/٧٥٧٠
 ٢٢٦/٢٢٤/٢٢١/٢١٩/٢٠٣
 ٣٥٢ ٣٤٦-٣٤٤ ٢٩٠ ٢٨٩
 ٣٦٣
 المدائن (مدائن كسرى) ٣٧
 ٣٧٥/٢٤٢
 مدرسة التجهيز (بدمشق) ٨
 المدرسة العادية ٥
 المدينة (وانظر : يثرب) ٢٢/٢٠
 ٧٩/٧٢/٦٤/٦٢/٢٩/٢٦/٢٤
 ١٤٠/١٣٦/١٣٤/١٠٧/١٠٦
 ١٩٨/١٨٧/١٨٢/١٤٣/١٤١

القليب (بئر في بدر) ١٣٩
 قسرين ٣٧٠
 قنونا ٢٥٨
 القباوي ٢٨٦
 القيروان ٣٩٣
 ككب (جبل في عرفات)
 ٣٤٧
 الكرخ ٢١٥
 كرمات ٤٠٣
 الكعبة ١٠٧/١٠٣/٩٩/٩٨/٨٥
 ٣٣٣/١٢٥-١٢٣/١١٥/١٠٨
 ٤٣٧
 كناسة (سوق الكوفة) ٤٠٧
 ٤٢٣
 الكوفة ٣٨١/٣٧٦/٣٥٨/٢١٥
 ٤٠٧/٤٠٤/٤٠٠/٣٩٣/٣٨٨
 ٤٤٧/٤٢٣
 ليدن ١٠١/٥٨/٥٧/٥٣/٢٨
 ٤٠٢/٣٣٧/٢٠١/١٣١/١٢٧
 ٤١٨

الميل الصغير (قرب الطائف)

٢٨٨،٢٨٧

د الكبير (قرب الطائف)

٢٨٨،٢٨٧

المشارف (الشامية) ٤٣،٢٨،٢٤

٣٧١

المشاعر (في الحرم) ٣٣٢

المشقر ٢١٨،٢١٧،١٩٥،٥٠

٢٢٦،٢٢٤، ٢٢٣،٢٢١،٢٢٠

٢٥٤،٢٥٣ ٢٤٤-٢٤٠ ٢٣٦

٢٦٣

مصر ٢٦، ٢٥،١٩،١٨،١٥،٦

١٩٧، ١٤٦، ١٢٧، ١٢٢، ٤٤

٤٠٢، ٣٩٣، ٣٤١، ٢٦٨، ٢٠٣

٤٠٧، ٤٠٣

المطبعة البقية ١٩٧

مطبعة التقديم العلمية ١٢٢

» الجامعة السورية ٤١١

» الجوائب ٤٤

المطبعة الحسنية ٢١٥

٢٣٤-٢٣٢، ٢٢٥، ٢١٣، ٢٠٩

٤٠٣، ٣٤٤، ٣٢٠، ٢٥١، ٢٤٥

٤١٥

مدينة محمد بن القبر ٢٤٠

مر الظهرات ٣٤٤

الريد ٣٤٣، ٢٢٥، ٢١٠، ٢٠٩

٤٥٢-٤٠٤ ٣٩٥، ٣٩٤، ٣٦١

المربدان ٤١٨

مرسيلية ٤٠١

مرو الشاهجان ٢٦٠

المزة ٢٧٢

المزدلفة ٢٠٣، ١٠٤

مسجد الجنيد ١٩٤

المسجد الحرام (وانظر: الحرم)

٣٣٣، ١٣٠، ١١٢، ٧٢، ٣٠

مسجد خاتون (قرب دمشق)

٢٧٢

» صحار ٢٦٢

» المدينة ١٨٧، ٥٨، ٢٩

» المشقر ٢٤٠

١٧٠، ١٦٩، ١٦١-١٥٥، ١٥٣

١٨٥، ١٨٣-١٨١، ١٧٧، ١٧٢

٢١١، ٢٠٢، ١٩٨، ١٩٦، ١٨٦

٢٥٥، ٢٣٩، ٢٢٦، ٢٢٥، ٢١٩

٢٨٩، ٢٨٦، ٢٧٨، ٢٥٩، ٢٥٨

٣٤٠، ٣٣٦، ٣٢٩، ٣٢٠، ٢٩١

٤٢٧، ٣٥٢، ٣٤٨، ٣٤٤، ٣٤٣

٤٣٢

ملحان ٢٩٧، ٢٩٥

المملكة الأردنية = شرقي الأردن

بملكة حمير ٤٢

منعج ٣٠٢

مفي ٢٠٤، ٢٠٢، ١٠٤، ٩٩، ٨٥

٢٢٦، ٢٢٥، ٢١٩، ٢١٦، ٢١١

٣٤٧، ٢٨٣

ميونخ ٣٧

نجد ٣١٨، ١٦٦، ٩١، ٢٢، ٢١

٤٣٣، ٣٧٢، ٣٦٨

نجران ٢١١، ١٣١، ١٣٠، ٦٢

٢٤٠، ٢٢٦، ٢٢٥، ٢١٩، ٢١٦

٣١٠-٣٠٨

نخلة ١٧١-١٦٩ ١٣٥، ٧٢، ٧١

نقم (جبل) ٢٧٣

مطبعة حيدر آباد ٢١١

المطبعة الرحمانية ١٥٠، ١٣٢

السلفية ٩٣، ٩٢، ٦٢

١٤٢، ١٣١

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

٤١٧، ١١٠

معارف ٢٧٤، ٢٦٩

معرض دمشق وسوقها ٤٥٣

٤٥٤

المغرب ٤٠٠

المقبرة (بالبصرة) ٤٢٦

مقبرة بني حصن ٤٣٠

د د مازن ٤١٧

المكتبة الظاهرية = دار الكتب

الظاهرية

مكربة = مكة

مكة ٣٧، ٣٠، ٢٨-٢٥، ٢١-١٩

٧٤، ٧١، ٦٧، ٦٣-٦٠، ٤٢، ٤١

٩٣، ٩١، ٨٧، ٨٦، ٨٢، ٧٨، ٧٥

-١٠٦، ١٠٤، ١٠٢-٩٧، ٩٤

١١٧، ١١٥، ١١٤، ١١٢، ١٠٩

١٣١، ١٣٠، ١٢٦، ١٢٥، ١٢٢

١٥١، ١٤٩، ١٤٣، ١٣٩-١٣٥

وادي القرى ٦٠ ١٤٠ ١٩٤
 د القصر ٤٠٤
 د لية ٢٨٦
 الوحيدة ٣١٩ ٣٢٠
 وقبة (ماء) ٣٦٨
 يبرين ٤٤٨
 يثرب (وانظر : المدينة) ٢٤
 ٦٠ ٦١ ٦٤ ٣١٩ ٣٤٩ ٣٧٢
 اليزموك ٣٦٩
 اليكسوم ١٤٩
 اليامة ١٩٣ ١٩٨ ٢١١ ٢١٧
 ٢١٩ ٢٤٣ ٢٩١ ٣٥٨ ٤٠٣
 الين ١٥ ١٦ ١٩ ٢١ ٢٥ ٢٦
 ٣٧ ٤١ ٤٤ ٦١ ٨٥-٨٧
 ٩١ ٩٥ ٩٨ ١٠٠ ١٠٦
 ١٠٨ ١٠٩ ١١٣ ١٢٤ ١٣٥
 ١٢٧-١٢٩ ١٣٦ ١٤٣ ١٤٨-
 ١٥١ ١٥٤ ١٥٦ ١٦١ ١٩٢
 ١٩٤ ٢٠٧ ٢١٥ ٢٤٢ ٢٤٣
 ٢٤٥ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٦-٢٥٨
 ٢٦٢ ٢٦٩-٢٧٢ ٢٧٤ ٢٧٥
 ٢٧٨ ٢٨١ ٢٨٦ ٢٩١ ٣٢١
 ٣٤١ ٣٥٦ ٣٦٤ ٣٧٥ ٣٨٠

نظاة خبير ٢١٧ ٢٢١ ٢٢٣
 ٢٢٦ ٣٥٧-٣٥٦
 نطاق ٢٤٣
 نعمان (واد بالين) ٤٢٥
 النفرات ٣٠١
 نقييل السود ٢٧٢
 نقرة ٧٨
 نهر الأبة ٣٩٩
 د البصرة ٤٠٥ ٤٠٦
 د معقل ٣٩٩
 نينوى ١٦
 هجر (البحرين) ٢١ ٢٨ ٥٨
 ١٩٣-١٩٥ ٢١١ ٢١٢ ٢٢٦
 ٢٤٠-٢٤٣ ٢٤٥-٢٥١ ٢٥٤
 ٢٥٦ ٢٧٨
 هجر (المدينة) ٢٤٥
 الهند ١٥-١٩ ١١٣ ١٤٧ ٢٤٥
 ٢٥٠ ٢٥٤ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٦٨
 ٢٦٩ ٣٦٤ ٣٧٥ ٣٧٩ ٣٨٠
 ٤٠٣
 وادي جدر ٣٧٢
 د عليب ٢٧٣

٦ - مصدر الاستعارة (*)

صدر البيت	القافية	ص
واذكروا حلف ذي الحجاز وما حيي البخيلة إذ نأت	الكفلاء	٣٤٨
وتوقد ناركم شرراً ويرفع	عدوانها	١٨٦
ألا أيذا الذي لم يجب	لواء	٢٨٣
إن تبغضونا فإن الروم أصلكم	• •	٣٠٧
إني من نفر المحمر أعينهم	للعرب	٢٧٨
أأأخذني في بطن مكة ظالماً	واللوب	١٧٨
بها برص بجانب إسكتيها	صحي	٢٨٦
تريك القذى من دونها وهي دونه	شأبا	٤٣٨
نغيبت عن يومي عكاظ كليهما	قطوب	٣٨٧
جنان شماری ليس مثلك منظر	أنغيب	٣١١
رأيت الجعش جعش بني كليب	طبيب	٣٨٢
صالني الشرطي أن نسقيه	هابا	٤٣٥
ففض الطرف إنك من غير	القصب	٣٨٧
	كلابا	٤٣٨، ٤٣٧

(*) مربة على أحرف الروي ثم على أوائل الأبيات . وقد استغنينا عن القافية في الأبيات
المصرعة كما فعلنا في الرجز .

صدر البيت	القافية	ص
فأما دخلناه أضفنا ظهورنا	مشطب	٣٧٦
لا تفضن على امرئ في ماله	فاغضب	٤٤٣
ليالي سعد في عكاظ يشوقهم	ومقرب	٢٩١
ما للفرزدق من عز يلوذ به	الحشب	٤٢٩
أربعة كلهم سيد	لسادات	١٠٧
فأقرت قرارها بعمان	الحماة	٢٥٣
فلا والله لا ألقى وشرباً	حيث	١٩٩
فلا ولدت بعد الفرزدق حامل	نبت	٣٦١
وبالحيرة البيضاء شيخ مسلط	برت	٣٨٦
ولولا الحس لم يلبس رجال	يموتوا	٨٣
أمي يابن الأسكر بن مدليح	• •	٢٩٤
ومن بك مثلي ذا عيال ومقترأ	مطرح	٣٧
أبكي أبي عمرأ بعين غزيرة	هجوها	٢٩٩
أبكي حميد الأبطحين كلهما	يريدها	٢٩٩
أكلم أرضنا فجردتموها	حصيد	٢٠٣
ألم يبلغكم أنا جدعنا	بالقياد	١٧٤
إن الفساة قبلنا إباد	نكاد	٣٢٢
إني لقاض قضاء سوف يتبعه	أرد	٤٣٤

صدر البيت	القافية	ص
أيا رفقة من آل بصرى تحملت	رشدًا	٣٦٩
تعدون قتلاً في الحرام عظيمة	راشدُ	٧٢
زد وادي القصر نعم القصر والوادي	جودي	٤٠٤
سائل ذوي يمن ورهط محرق	مسعودًا	٤٤٧
سيكفيك عبس أخو كهس	بالمربد	٤٤٧
غدا أهل حضني ذي الحجاز بسحرة	يفدو	٣٥٠
الغدر أهلك عاداً في منازلها	الجندُ	١٩٤
فأبلغ إن عرضت بنتا هشاماً	الوليدًا	١٧٢
لعمر ك ما تبلى مرابيل عامر	جلودها	٤٣٣
لما رأت جعدة منا وردا	• •	٤٣٣
له داع بجكة مشعل	ينادي	١٣٠
مات الندي بالشام لما أن ثوى	لا يبعد	١٠٦
نبئت أن بني ربيعة أجمعوا	خالدا	٤٤٥
وغسان الذين هم استتبوا	البلاد	٢٥٣
ياخال ذرني ومالي ، ما فعلت به	مودي	٣٣٦
وهيجتني من أذرعات وما أرى	بعدا	٣٧٢
أبوكم قصي كان يدعى مجمعا	فهر	٩٤، ٩١
إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة	التجر	٥٨
ألكني إلى قومي ولو كنت نائياً	المشاعر	٣٣٢
ألم يبلغك ما فعلت قريش	أبيروا	١٧٤
ألمى قصياً عن المجد الأساطير	• •	١٢٦
إنا أنبتناك وقد طال السفر	• •	٤٤٣

صدر البيت	الفافية	ص
بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع	المنأخر	٣٦٨
بقبر ابن ليلى غلب عدت بعدما	قسر	٤٢٥
بل كيف تكفرني هو ازن بعدما	أحراوا	٣٠٤
تذكر القلب وجهلاً ما ذكره	• •	٤٤٢
حلفت لنعقدن حلفاً عليهم	دار	١٨٤
ذري للغي أسعى فإني	الفقير	٣٧
سأكسب مالاً أو أموت ببلدة	قبري	٣٧
شيطانه أنشئ وشيطاني ذكر	• •	٤٤٢
شهدت على الزبيدي أن نساءه	تحرر	٤٣٩
فأبجوا قد أعاد الله نعمتهم	بشر	١٤٣
فعللت معتلج البطا . . ح	بالظواهر	٩٧
فسر في بلاد الله والتمس الغنى	فتعذرا	٣٧
هلم اجتمعنا بالعلالي بيننا	تاجر	٢١٤
فلو شهدني من قریش عصابة	الظواهر	٩٦
فما إن رحيق سببها النجا . ر	جدر	٣٧٢
في الذاهبين الأواب . . ن	بصائر	٣١٤
قد جبر الدين الإله فجبر	• •	٤٤٢
لا تجحدوا نعماء بشر عليكم	أزهر	١١٤
لئن هجرت بني صخب لقد تركوا	آثارا	٣٦١
لقد كذبت وشر القول أكذبه	مضر	٤٣١

صدر البيت	القافية	ص
لنا الجففات الفر يلعبن بالضحى	دما	٣١٦
منا الذي ترك العوام مجندلا	أحجار	١٧٤
نبثت زرعة والسفاهة كاسمها	الأشعار	٢٩٦
فحن كئنا الملوك في آل نجد	الذمار	١٧٩
وأزد لها البحرات والسيف كله	المشقر	٢٥٣
وأعصفن بالدومي من رأس حصنه	المشقر	٢٣٦
وإن صخرأ لتأتم الهداة به	نار	٢١٥
وربت غارة أوضعت فيها	تمر	٢٤٥
ولا مرتع للعين أو متقنص	تحقر	١٢٦
ولو كنت عطراً كنت من عنبر الشجر	• •	٢٦٧
ومرة لبسوا نافعيك ولن ترى	الفزر	٣٣٥
ومن ير صنعاء الجنود وأهلها	حميرا	٢٧١
ومنا رئيس القوم ليقة أذلجوا	النحر	٢٤٣
يا آل فهر لمظلوم بضاعته	والنفر	١٨٣
يا تيم تيم عدي لا أبا لكم	عمر	٤٣١
يا من رأى كصفقة ابن بيده	• •	٣٢٢
بسانني الباعة أين ناراها	• •	٢٨٠
• • • ما نجارها	• •	•
با صاحبي دنا المسير فسيروا	جريرا	٤٣٥

صدر البيت	القافية	ص
يا قيس أرسل أسيراً من بني جشم	جازي	٣٠٩
لم تدور بصري بما آليت من قسم وقربش هي التي تسكن الـ	الكراديس قربشا	٣٦٩ ٩٢
تحمل هاشم ما ضاق عنه	ابن بيض	١٠١
تركت الفارس البذاخ منهم	عبيطا	١٧٨
أتاني عن أمية زور قول	حفاظ	٣٤٠
ألا من مبلغ حسان عني سانثر ما حيت لهم كلاماً	عكاظ	٣٣٩
فإنك ضحكك إلى كل صاحب	عكاظ	٤٣٠
	عكاظها	٣٣٩
إذا طلعتنا نقيط السود لاح لنا	مرنبع	٢٧٢
تنح عن البطحاء ان قديمها	الفوارع	٩٦
حتى كأني للحراثة مروة	تقرع	٢٤١
سائل بنا في قومنا	سماعة	١٨١
كأن الإيئد الحاري منها	الدموع	٣٧٦
وداهية يبال الناس منها	خلوعي	١٦٧
إذا بني القباب على عكاظ	الألوف	٣٣٩
جاءت هوازن أرسلالاً وإخوتها	وانصرفوا	١٧٦

صدر البيت القافية ص

٢٤٦	• •	حبسن بين رملة وقف
١٥٣	إلاف	زعمتم أن إخوتكم قريش
١٠١	عجاف	عمرو العلا هشم الثريد لقومه
١٩٧	• •	غضبت علي لأن شربت بصوف
١٩٧	بجروف	ما إن عتبت لأن شربت بصوفة
٣٠٠	• •	نحن بنو دهمان ذي التفطرف
٣٠٠	• •	نحن بنو مدركة بن خندف
١٥٠	كالسافي	والخالطون غنيم بفقيهم
١٩٧	بأرض الريف	ولقد شربت الحمر في حانوتها
١٥٢	مناف	يا أيها الرجل المحول رحله
٣١٧	• •	أرقت وما هذا السهاد المورق
٢٥٢	أعرق	فلئن تهمروا أنجد خلافاً عليكم
٤٤٥	القلق	مهلاً بني عمنا ظلاءتنا
١٢٠	طبق	ولورآني أبو غيلان إذ حسرت
٤٣٤	حاول	أأنت الذي تستنطق الدار واقفاً
٤٢٧	فواضله	أحارث خذ ما شئت منا ومنهم
٤٢٧	غوائله	أحارث داري مرتين هدهتها
٣٨٥	الأثقل	أضحى لتغلب من تميم شاعر
١٨٦	تهليلا	أنني والذي يحج له

صدر البيت	القافية	ص
بكيت على زيد ولم أدر ما فعل	الأجلُ	٣٣٢
ألا ليت شعري هل أبين ليلة	جليلُ	٣٤٤
الحمد لله الوهب المجزل	• •	٤٤٠
تنورتها من أذرع وأهلها	عالي	٣٧٢
دعيني أطوف في البلاد لعاني	محملُ	٣٧
سأله للفتى ما ليس في يده	والمالِ	١٩٩
سلافة راح ضمنها لإداوة	الرحل ٣٤٥، ٣٧٠	
شربت براحتي محجن	قاتلي	٣٣٠
فإن تمنعوا منا المشقر والصفاء	نخيلها	٢٤١
فما فضلة من أذرع هوت بها	الضعل	٣٧٢
قد كانت الفعلة مني ضلة	• •	١٦٧
قومي اللذو بعكاظ طيروا شرراً	بالمصاقيل	١٧٦
لعرك إن الحمر ما دمت شارباً	عقلي	١٩٩
لقد وعدنا قريشاً وهي كارهة	رعابيل	١٧٠
نظرت وطرف العين يتبع الهوى	المنطاول	٣٦٩
هل إلى سكرة بتاحية الحيرة	سبيلُ	٣٨١
هلك الفرزدق بعدما جدهته	قليلا	٣٦٠
وإن كليباً إذ أنثني بعبداه	باطلة	٤٣٠
وإني لقاض بين جعدة عامر	فيصلا	٤٣٤
وراح بها من ذي الجواز عشية	الحبل	٣٤٧

صدر البيت	القافية	ص
ولا من في جنازتها تجاد	التعال	١٢٧
أنت الذي شئت عنراً بقفرة	سالم	٤٣٤
أباهل لو أنت الأنام تنافروا	الأم	٤٢٧
أني كل أسواق العراق إفاة	درهم	٥٦
ألا بشرا من كان لا يملك است	نيام	٤٢٨
ألا كيف البقاء لباهلي	والجعيم	٤٢٧
ألا لله قوم و . . لدت	سهم	١٧٦
ألا أيها الذاهي فزارة بعدما	حالم	٤٤٥
ألسنا الناسئين على معد	حراما	٨٦
ألمت خناس وللمامها	أستقامها	٤٤٦
أو كلما وردت عكاظ قبيلة	يتوسم	٣٠٥
أيا ظبية الوعساء بين جلاجل	ضالم	٤٣٥
تركت الشعر واستبدلت منه	قاما	١٩٩
تلكم قريش لم تكن أبأؤها	تنقسم	١٤٣
دعوت سناناً وابن عوف وحارثاً	وهاشم	٣٠٧
رأيت الحجر صالحة وفيها	الكريما	١٩٩
عشية سال المريدان كلامها	الصوارم	٤١٨
عليين فتیان كساها محرق	رأنما	٣٧١
فلئن بنيت لي المشقر في	العصم	٢٤٠

صدر البيت	اللفظة	ص
فما الام التي ولدت قريشاً	عقيم	٩٤
لعمرك ما مزينة رهط معن	سنام	١٣٨
لعمرك ما نعيم أهل فلج	كرام	١٣٩
للغانيات بذوي الجواز وصوم	.	٢٤٨
لنا الجففات الغر يلمعن بالفضى	دما	٢١٦
منى أكلت لحومكم كلابي	نهام	١٣٣
مشرين ترعون التجيل وقد غدت	مزامح	١٣٣
من حسن لي الاخوين كالـ .	واما	٢٩٨
نحن آل الله في ذمته	قدم	١٠٩
وإن قصياً أهل عز ونجدة	قديمها	١٧٩
ولاني وإن ضربت جبال قيس	قيم	٢٢٢
وجدت آل سامة في قريش	تيم	٤٢٩
وددت وبيت الله لو أن أنفه	المعظم	٢٨٢
ولقد شربت من المدامه بعدما	المعلم	١٩٧
ولو أعطيت من ببلاد بصرى	وعنجم	٢٧٠
وما أنت إن قرما نيم تساميا	في النعم	٤٣٢
وما قصرت من حاضن دون سترها	ظالم	٣٠٤
ومنا الذي أعطى يديه رهينة	المجامع	٤٤٨
بأشدة ما أشدنا غير كاذبة	والحرم	١٧١
أحب عمان من حبي سليبي	عمان	٢٥٢

صدر البيت	القافية	ص
إذا اصطبحت أربعا عرفتني		٤٤٠
ألا سائل هو ازن يوم لا قوا	معلمينا	١٧٥
ألا هي بصحنك فاصبعينا	.	٣٤٠
لاني رأيت القائلين وفعلهم	الديان	١٣٠
جعلت لعراف اليامة حكمه	شفياني	٣٥٨
فعررت به القطا ونصبت عنه	اللعين	٣٢٤
سأعمل نص العيس حتى يكفني	الحدان	٣٧
قالت وكنت رجلا فطينا		٣٨٧
لولا أبو مالك المرجو ناله	وطنا	٤٠١
لولا دفاعي كنتم أعبدا	فالسيلحمون	٣٧٨
لو يسمعون بأكلة أو شربة	بعمان	٢٥٤
مئة أتت من بعدها مئتان لي	سنينا	٣٣٨
وأعلم ان ستدركني المنايا	تتبعني	٤٤٣
وغزا تباع في حمير حتى	عدن	٣٧٧
وقائلة علم إلى النصابي	تعليمنا	١٩٩
إذا ما المرء صم فلم يتناجى	ندايا	٣٣٨
ألا أيها الركب اليانون عرجوا	يمانيا	٤٢٥
فلا توعديني بالقبحار فلانة	الحجازيا	١٨٠

٧ - مسرد الكتب ^(١)

الاسلام والحضارة العربية	اجتماع الجيوش الاسلامية ٢٨٤
(لكره على) ١٥٨	أحسن التقاسيم ٤٠١، ٤٦
الاسلام والمرأة (للمؤلف) ٢٨٤	الاخبار الطوال (للدينوري)
أسواق العرب (هذا) ٢٨٧	أخبار مكة (للأزرقي) ٨٠ ،
أسواق العرب (لابن الكلبي) ٢١٦	١٢٤ ، ٢٠٤ ، ٢٥٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦
الاصابة ٣٣٦	أخبار النساء (لابن القيم) ١٢٢
الاصنام (لابن الكلبي) ٢١٦، ٨٥	الادب المفرد (للبغاري) ١٣١
الاعلاق النفيسة (لابن رسته) ٢٨٧	الازمنة والامكنة (للمروزي)
الاغاني (للاصفهاني) ١١٦، ٢٦	٢٢١ ، ٢١٠ ، ١٢١ ، ٨٢ ، ٨١ ، ٤٨
١٣٠ - ١٢٨ ، ١٢٥ ، ١٢١ ، ١١٩	٢٦٩ ، ٢٦٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤١ ، ٢٢٧
١٧٠ ، ١٦٥ ، ١٦٣ ، ١٣٤ ، ١٣٨	٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٦٣
٢٠٠ ، ١٩٨ ، ١٨٩ ، ١٨٦ ، ١٨٤	٣٧٣
٢٤٩ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٢ ، ٢٠٦	اساس البلاغة (للزحشمري) ٥٤

(١) تشير الأرقام الى مواطن الاستشهاد بالمصدر او ذكره في هذا الكتاب ، وننبه هنا الى ان بعض المصادر كالعقد الفريد وطبقات الشراء مثلا صدرت لها طبقات جديدة ونقلنا عنها اضافات كما كنا نقلنا عن طبقاتها القديمة ، ومع اننا اشرنا غالبا الى الطبقات في الحواشي فالتنا الإشارة إليها أحيانا كما سهرنا عن المزو في بعض المواضع . فعلى المراجع ان لم يجد الرقم في نسخة ان يبحث عنه في طبعة أخرى .

بلوغ الارب (للالوسي) ٤٦ ، ٤٧

١١٣ ، ١٥٠ ، ١٦٣ ، ١٧٩ ، ٢١٠

٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢

٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣٤٢

٣٤٣

البيان والتبيين ٣١٥ ، ٤١٢ ، ٤٢٠

تاج العروس ٣١ ، ٣٤ ، ٤٧ ،

٥٤ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٦٨

٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٣٤٤ ، ٤٠٣

تاريخ الاسلام (للذهبي) ١٤١

تاريخ التمدن الاسلامي (لزيدان)

تاريخ دول العرب والاسلام

(لحرب) ٣٣٤

تاريخ الطبري ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٢١٥

٢٣٦ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٤١٢

٤١٤

تاريخ العرب الادبي (لتكلسون)

١٩ ، ١٠٧

تاريخ العرب قبل الاسلام (لزيدان)

١٦٧

٢٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٢ ، ٣٥١

٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٥

٣٨٩ ، ٤١٢ ، ٤٢١ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣

٤٣٥ ، ٤٣٨ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥

الاكليل (للهداني) ٢٧ ، ١٦٣

١٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٩٠

الامالي (للوالي) ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٠

١٠٠ ، ١٣٠ ، ١٥٥ ، ١٩٦

١٤ ، ٢٤٨ ، ٢٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧

٤١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥

الامناع والموانسة (للتوحيد)

١١ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦

أمثال الضبي وامرار الحكماء

وحيد ٤٤ ، ٣٢٤ ، ٣٣٥

أنساب الاشراف (للبلاذري)

انسان الميون ١٠٨

البخلاء (للجاحظ) ٤٠٢

بلاغات النساء ٣٣٩

البلدان للمهداني (٢٨ ، ٤٠٢

٤١

٣٦٧
تهذيب التهذيب ١٤١، ١٤٢
٢٧٩
التوراة ١٧، ١٨
تيسير الوصول (لابن الديبع)
١١٣ ٧٦ ٦٩ ٥١ ٤٩
ثمار القلوب (للثعالبي) ٢٦، ١٤٦
١٤٨، ١٤٩، ٢٦٧، ٣٢٣، ٤٠٩
الجامع الصحيح - صحيح البخاري
الجمهرة (لابن دريد) ٥٤
جمهرة أشعار العرب

حاشية الدسوقي على المغني ١٩٧
الحسن من قریش (لأبي عبيدة) ٧٥
حوادث الكشاف ٩٢ ٢٦٨

حياة محمد (لهيكل) ١٣٩
خريطة الادويسي ٢٨٧
خزائن الادب ٦٢ ٩٢ ٩٣
١٧٣ ٢١٠ ٢٢٣ ٢٢٧
خطط الشام ٣٦٤

دائرة معارف وجدي ٣٤٢
دلائل النبوة ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٣٠

تاريخ الفئات السامية (لامرائيل
ولفنسون) ١٨
تاريخ ملوك الحيرة (للاعظمي)
٣٨٠، ٤٤١
تاريخ التفاض ٣٤٠
تاريخ البعقولي ٢١٠، ٢١٨، ٢٢٦
٢٧٤
تاريخ اليهود في بلاد العرب
(لامرائيل ولفنسون) ٢٣
النصر في التجارة (للجاحظ)
التطور النعوي (لبراجسترامر)
٣٧
تفسير ابي الحسن البكري ٢٧٥
تفسير الحازن ٢٨، ٦٣، ٦٦
٢٠٤
تفسير الطبري ٦٥، ٦٦، ١٤٣
تفسير النيسابوري ٨٦
التقرير الخامس بأعمال المجمع العلمي
بدمشق ٦
التنبية والاشراف
تهذيب تاريخ ابن عساكر (لبدوان)
٣٦١، ٣٥٣، ٣٥٢، ١٤٦، ٢٦

الشعر والشعراء (لابن قتيبة) ٣٣٨

الصاحبي (لابن فارس) ١١٣

صبح الاعشى (القلقشندي)

٢١٠ ٢٢٢ ٢٢٧

الصالح ٥٤ ٢٣٢ ٣٤٤

صحيح البخاري ٥٣ ١٣١ ٢٠٠

٢٠١ ٢٠٤

صحيح مسلم ٤٩ ٥٧

الصحيحان (صحيح البخاري

وصحيح مسلم) ٥٣

صفة جزيرة العرب ١٩٤ ٢١١

٢١٩ ٢٢٠ ٢٢٦ ٢٥٢ ٢٦٢

٢٦٦ ٢٧٢

ضحى الاسلام ٢٤١

طبقات الشعراء (لابن سلام)

١٧١، ١٧٣، ٤٤٣

الطبقات الكبرى (لابن سعد)

٢٢، ٢٥، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦،

١٣٤، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٤،

١٥٨، ١٨٤، ٢٢٣، ٢٨٠، ٣٦٩

ديوان حان ٣٤٠

د. المهديين ٣٧٢

رحلة ابن بطرطة ٤٠١

رسائل الجاحظ ٨٣ ٩٥ ١٤٦

١٥٠ ١٦٣ ١٨٣ ١٨٦

رياض الصالحين ٢٥١

زهر الآداب ٣٩٧

الزواجر (لابن حجر) ٦٨

سبائك الذهب

سيرة ابن هشام ٢٦ ٦٣ ٧١ ٨٥

٩٣ ٩٤ ٩٨ ٩٩ ١٠٦ ١٥٢

١٨٣ ١٨٧ ٢٠١ ٢٣٣

شرح شواهد المعني ٩٦ ١٩٧

٢٠٠ ٢٤٥

شرح مسلم ٤٦-٥٣

شرح مقصورة ابن دريد ٤٠٧

شرح المواهب الزرقاني ٢٢ ٢٣

٨٦ ١٣٣ ٢٣٥ ٣٤٩ ٣٥٣

شرح نهج البلاغة ٣٣ ١٠٤ ١٥٣

١٥٩ ١٨٨

في أصول النحو (المؤلف) ٤١١
٤٢٣

في منزل الوحي (لميكل) ٢٨٦
٣٤٣، ٢٨٧

القاموس المحيط ٥٤، ٥١، ٤٨، ٢٦
١٦١، ١٥٧، ١٤٨، ٨٣، ٧٦، ٧٠، ٥٦
٢٨٤، ٢٥٧، ٢٠٥، ١٨٥، ١٧٢، ١٦٤
٤٢٦، ٣٩٩، ٣٧٣، ٣٢١

قبائل العرب (للقلشندي) ٢٢٣
القرآن الكريم (وانظر فهرس
الآيات) ٦٧، ٦٤، ٤٠، ٣٩، ٣٣، ٣٠
٤٢٠، ٣٢٨، ٢٠٨، ٢٠٧، ١٩٩، ١٤٨
الكامل (لابن الاثير)
د. د. (للبرد) ٣٢٧، ٤١٢

٤٤٨، ٤١٨

الكشاف ١٥٢، ٩٢

لباب النقول (للسيوطي) ٧٧، ٢٨
لسان العرب (لابن منظور) ٣٤
٤٧، ٥٤، ٩٧، ١٧٤، ١٩٤
٣٥٨، ٢٤٥

الطبوغرافية الاثوية لسورية
وفلسطين (لدوسو) ٣٦٢

عائشة والسياسة (للمؤلف) ٤١٧
عجائب المخلوقات ٢٧٥
العقد الثمين ٢٨٣

العقد الفريد ١١٠، ١٠٨، ٩٤، ٧٣
٢٥١، ١٦٤، ١٦٣، ١٤٤، ١٣٢، ١٢٨
٤٠٠، ٣١١، ٣٠٦، ٢٧٨

العمدة (لابن رشيقي) ١٦، ٧٥
١٧٢

العواصم من القواصم ١٤٢
عيون الاخبار (لابن قتيبة)

الفاثق للرمخشري ٥٤، ٢٩

فتح الباري (لابن حجر)

فتوح البلدان (للبلاذري) ٦١

٣٩٦، ٦٢

فجر الاسلام ٢٥

فضل الاندلس (لابن حزم) ٤٠٠

الفهرست (لابن النديم) ٧٥

المختبر ٤٧، ٥٣، ٥٥، ٧٥، ٧٧
 ٩٦، ١٢١، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢
 ١٥٨، ٢١١، ٢١٧، ٢٢٥، ٢٢٦
 ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٤، ٢٦٣، ٢٦٥
 ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٩٢
 محيط المحيط ٥٤
 مختلف تأويل الحديث ٣٣٨
 المختص (لابن سيده) ٥٦، ٢١٦
 مدينة العرب في الجاهلية والاسلام
 ١٢٩، ٢٩٠
 مرآة الاطلاع ٢٥٦، ٢٦٤
 ٢٨٧، ٢٨٩
 خروج الذهب (المسعودي) ٨٦
 ٩٥، ٩٦، ١٠٣، ١١٥، ١٤٨
 الزمر (للسيوطي) ١١٣، ١٨٠
 ١٨٤
 مسالك الابصار (للعري)
 ٢٥٠، ٣٦٧، ٣٨٠
 المسالك والممالك (للاصطخري)
 ٢٥٢، ٢٦١، ٢٦٦، ٤٩٨

ما رأيت وما سمعت (الزركلي) ٢٨٦
 ما يعول عليه في المضاف اليه ١٢٥
 المتاهي (في اللغة) ٣٨٧
 منير العزم الساكن (لابن
 الجوزي) ٢٨١
 مجلة الرسالة ١٩، ٤٣، ١٠٧، ٣٤٣
 « السياسة الاسبوعية ٢٨٧
 « الجمع العلمي العراقي ١٧
 « « « العربي ١٤٧، ١٩٦
 ٢٨٧، ٤٠١
 مجلة مجمع اللغة العربية ٣٨
 « المختار ٢٠٨
 « المشرق ٢٥، ٢٨، ١٠٩، ٢٨٠
 « المقتطف ٣٨٠
 مجمع الامثال (البدياني) ٣٦، ٢٩٣
 المجلد (لابن فارس) ٥٤
 مجموعة الوثائق السياسية (لخميد
 الله) ٢٣٥
 المحاسن والاضداد للجاحظ

المنتخب من ذيل المذيل (الطبري)

٣٣٣

المنتقى من اخبار الاصمعي (الضياء
المقدس) ٥٤

نفع الطيب (المقري) ٤٠٠

النقائض ٤٣١، ٤٢٦، ٤٣٠

النوادر (لقالي) ٣٥، ١٠٧،

٤١١، ٣٧٩

النهاية (لابن الاثير) ٥٤، ٥٢،

٢٣٢

نهاية الأرب (لنويري)

الوسط (للاسكندري وعناني)

٣٤٢

المسالك والممالك (لابن حوقل)

١٣١

المنجد من فـلـات الأجـراء

(لتنوخمي) ٤٢٦

المصباح المنير (لفيوممي) ٩٣، ٥٤

المعارف (لابن قتيبة) ١٣٢

معجم البلدان (لياقوت) ١٧١

١٧٤، ١٩٤، ٢٤٥، ٢٦٠، ٢٧٥

٢٨٧، ٤٠٧، ٤٠٩

معجم الشعراء (للموزباني) ٢٣٨

معجم الطبراني ٢٠٤

معجم ما استعجم (للبكري) ٢٨٧

المغرب في ترتيب المعرب

(المطرزي) ٥٤

٨- فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٣
بين يدي الكتاب: معارض الشام- سبب تأليف الكتاب	٥

الباب الأول

شؤون العرب التجارية : بين الجاهلية والاسلام

تمهيد في تجارة العرب	١٥
بيوع الجاهلية	٤٦
الرمي بالحصاة - ٤٨ : المناقضة - ٤٩ الملامسة - ٥٠ : المعاومة - المزابنة - ٥١ المحفلة - المخابرة - ٥٢ : جبل الحبلية - ٥٣ : التصرية السرار - ٥٥ الساحز - الجس - موقف الاسلام من هذه البيوع - دبا الجاهلية	٦١
الحلون والمحرمون والحس	٧٠

الباب الثاني

الصفحة	الموضوع
٨٩	أحداث قريش التجارية :
٩١	١ - قريش التجار . اسم قريش - عادة قريش - الوظائف الرسمية لقريش - ١١٢ : عامة قريش .
١٤٦	ب إبلان قريش
١٦٢	ج - حرب الفجار
١٦٤	سنتها - ١٦٥ : سبها - ١٦٩ : يوم نخلة - ١٧١ : يوم شمطة - ١٧٣ : يوم العبلاء - ١٧٤ : يوم شرب ١٧٧ : يوم الحرية
١٨١	د - حلف الفضول

الباب الثالث

اسواق العرب أ - في الجاهلية ب - في الاسلام	
٢٣١	اسواق العرب : أ - في الجاهلية
٢٣٢	سوق دومة الجندل
٢٤٠	سوق المشقر
٢٤٥	سوق هجر

الصفحة	الموضوع
٢٥٢	سوق عمان
٢٥٨	سوق حباشة
٢٦١	سوق صحار
٢٦٤	سوق دبي
٢٦٦	سوق الشعر
٢٦٨	سوق عدن أبين
٢٧١	سوق صنعاء
٢٧٥	سوق حضرموت
٢٧٧	سوق عكاظ

٢٩٣ : منافرة - ٢٩٥ : في سبيل بقيّة - ٢٩٦ : خطّة غـدر
 ٢٩٧ : معاطبة في المصائب - ٣٠٠ : الفجار الاول - ٣٠١ : إثارة - ٣٠٢ : ظفر
 بشار - ٣٠٤ : سيف بشار لصاحبه - ٣٠٥ : شريف غير مقنع - ٣٠٦ : تأديب
 سفيه - ٣٠٧ : إغاثة - ٣١٠ : حروب الفجار - ٣١٣ : واعظ - ٣١٥ : تنافس
 شعراء - ٣١٦ : ترويع بنات - ٣١٩ : منحة محررة - ٣٢٢ : صفقة خامسة -
 ٣٢٣ : فتنة جمال - ٣٢٤ : راية غدر - ٣٢٥ : داعية الإسلام - ٣٣٠ : خمـر -
 ٣٣١ : تلقيب - تصاريث القدر - ٣٣٤ : نداء - منوب المعزى - ٣٣٦ : منوب
 الرزق - فرسان العرب - ٣٣٧ : مارأيت شيئاً أكذب - ٣٣٨ : خاتمة -

٣٤٤ سوق مجنة

٣٤٧ سوق ذي الحجاز

الصفحة	الموضوع
٣٥٦	نظافة خير
٣٥٨	سوق حجر
٣٥٩ : منافرة - ٣٦٠ : جرير يبكي الفرزدق - ٣٦١ : شاعر بطاف به مجلدا	
٣٦٢	سوق دير ايوب
٣٦٤	سوق بصرى
٣٧٢	سوق أذرعات
٣٧٤	سوق الحيرة
٣٨٣ : منافرة حامية - ٣٨٥ : حرمة شاعر في ولده - ٣٨٦ : حلق لله - نخارة وشرطي - ٣٨٧ مسخ - ٣٨٨ : وطنية صادقة .	
٣٩١	أسواق العرب : ب - في الإسلام
٣٩٣	الأسواق في الاسلام
٣٩٥	البصرة - المربد
٤٠٧	سوق المربد
٤٢٤ : هرة بقر - ٤٢٥ : مجنون في حب - لثاب مال - ٤٢٦ : غلام يخجل الفرزدق - نديم دور المجانين - ٤٢٧ : هجاء ابليس - ٤٢٩ : جرير يجر قبيصة - والفرزدق لعبة - ٤٣١ : ضحية بين فحلين - ٤٣٢ : الحـكـر في تفاخر شاعرين - ٤٣٤ : نقد مخف - ٤٣٥ : إعدام قبيصة - ٤٣٨ : رد عدوان ٤٣٩ : سلاطة - ٤٤٠ : معركة الرجاز - ٤٤٢ : مصابي بكتاب نبوي -	

الموضوع	الصفحة
من محن السياسة - ٤٤٦ : حل سلمي - ٤٤٩ : استعراض الامم - إعلان مجلجل	٤٤٣ :
استدراك	٤٥٣
مسارد الكتاب	٤٥٥
مسرد الآيات	٤٥٧
مسرد الأحاديث	٤٥٩
مسرد الأعلام	٤٦١
الجماعات	٤٨٠
الأماكن	٤٩١
الأشعار	٥٠٤
الكتب	٥١٥
الموضوعات	٥٢٢

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com